جامعة الجزائر 02 - أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ





سُلطة شيوخ القبائل العربيّة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط

إعداد الطالب:

أمين كرطالي

تحت إشراف:

أ.د: مختار حساني

لجنة المناقشة

الأعضاء	الجامعة	الصفة
أ.د بشار قويدر	جامعة الجزائر 02	رئيسا
أ.د مختار حساني	جامعة الجزائر 02	مقررا
أ.د الحاج العيفة	جامعة الجزائر 02	عضوا
أ.د عبد الصمد مزاري	جامعة المديّــــة	عضوا
د. عبد الحميد خالدي	جامعة الجزائر 02	عضوا
د. محمد شريف سيدي موسى	جامعة البليـــــدة	عضوا

السّنة الجامعية: 2018/2017م

أهدي هذا البحث إلى حرائر المسجد الأقصى اللواتي يذدن عن شرف الأمّة و يرابطن بباحات أولى القبلتين

دون أن أنسى:

روح الوالد الذي تركني يتيما

ووالدتي التي ضحت بشبابها وربيع عمرها وغايتها أن تشْهدني عظيما

وزوجتي التي قاسمتني كلّ عناء وكانت لي سندا قويما

و مهاد وسناء وهند و مريم رياحيني, كان الله بمدى حبي لهنّ عليما

و أستاذي الذي أشرف على هذا العمل وكم كان معي كريما

و كلّ من أعان من قريب أو بعيد ولو بدعوة أنارت ليلا بهيما

قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)﴾ الحجرات

صدق الله العظيم

المقدمة

إنّ التّاريخ الإسلامي حافل بشخصيات وفئات اجتماعيّة عدّة مارست السّلطة, بل وربّما شكّلت دولة موازيّة أو سلطة متحكّمة في الدّولة الصوريّة, ومن تلك الفئات نجد شيوخ القبائل العربيّة الهلالية في بلاد المغرب الأوسط, والذين شكّلوا مع قبائلهم عنصرا مهمّا من عناصر مجتمع المغرب الأوسط.

و ممارسة السّلطة عموما هي سلوكٌ إنساني, يتجلّى بصورة واضحة في الدّولة, وذلك لامتلاكها شرعية السيادة ووسائل الإكراه و القوة. ورغم تمثيل الدّولة لأعلى مظهر من مظاهر السّلطة في المغرب الأوسط, فإنّ شيوخ القبائل العربيّة أيضا قد مارسوا أدوارا سلطويّة لا يمكن تجاهلها, وهو ما يدفع بالباحث إلى السّعي لمعرفة طبقة شيوخ القبائل العربيّة, بل وإلى الإلمام بالقبيلة العربيّة بحدّ ذاتها, ودراسة تركيبتها البشر.

لقد اهتمّت الدّراسات الحديثة بالقبيلة ككيان مؤثّر ووعاء اجتماعي مهمّ, إذ مثّلت دراسة القبيلة مجالا خصبا في الدّراسات السيسيولوجيا والأنثروبولوجيا إبّان الحقبة الاستعمارية، وقد ظهرت في هذا الصّدد عدّة مدارس؛ كالمدرسة الكولونياليّة بنزعتها الإثنولوجية في تفسير تاريخ المغرب الإسلامي, والمدرسة الانقسامية بتعمّقها في الدّراسة الميدانيّة خصوصا على بعض القبائل البربريّة, إضافة إلى المدرسة الماركسيّة بنظريّتها حول ماديّة التاريخ وحصره في الصّراع الطّبقي. ولا مناص من الاعتراف بأنّ هذه الدّراسات قد خلّفت لنا مكتبة ضخمة, و تراثا و مجهودا معرفيا ثريا, أشبع الكثير من ميادين البحث العلمي, لاسيما الدّراسات الإنسانيّة.

لكن في نفس الوقت يُلاحظ أنّ جلّ هذه الأعمال والدّراسات تكادُ تُهمل دور شيخ القبيلة, حيث لم يحظ بتسليط ضوء يُمكّننا من معرفة مهامه وتأثيراته داخل وخارج القبيلة.

ومن أجل كشف اللّثام عن طبقة شيوخ القبائل العربيّة, وإبراز أدوارهم السّلطويّة, ستُعالج هذه الدّراسة قضيّةَ "**سلطة شيوخ القبائل العربيّة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني**", محاولةً الإجابة على الإشكاليّة الرّئيسة التي تتمثّل في إبراز الدّور السّلطوي الذي

مارسه شيوخ القبائل العربيّة في المغرب الأوسط ونوع هذه السّلطة, والكشف عن المقوّمات والدّعائم التي ساهمت في ظهور وفاعلية هذه السّلطة, مع إبراز أهمّ مظاهر هذه السّلطة؟

وسنحاول أيضا الإجابة على بعض الإشكالات الفرعية والمتمثلة فيما يلي: ما هي أهم الفئات التي مُورست عليها هذه السّلطة؟ وهل انحصرت في المجالات البدويّة أم تعدّت إلى المجالات الحضرية؟ وكيف انعكس وجود هذه السّلطة على الدّولة والمجتمع؟

وتُعتبر قراءتي للأحكام الاستشراقية حول ما تمّ تسميّته ب: **الكارثة الهلاليّة**, مع تعاملي مع الرّواية التاريخيّة الإسلامية أحد أهمّ الدّوافع الموضوعيّة التي دفعتني إلى اختيار الموضوع, فأثناء تحضيري لرسالة الماجستير, تطرّقت لموضوع توبة شيوخ القبائل العربيّة, وبنظرة سريعة أدركت أنّ كثيرا من الأحكام التي أطلقها هؤلاء المستشرقون, تحتاج إلى بحث متأنّ ودراسة موضوعيّة, , وحينها اكتفيت بالاستفادة من النّقد الموجّه لهذه الأحكام, دون أن أكلّف نفسي عناء الحكم بين المستشرق والمتأثر به والنّاقد والمتعصّب له.

وبعد إنهاء رسالة الماجستير, تفرّغت و بنوع من التعمّق لدراسة موضوع القبائل العربيّة الهلاليّة, وحينها بدأتُ أنتبه إلى كون مجمل الكتابات التاريخيّة التي تناولت موضوع القبائل العربية الهلالية قد تعاملت بنوع من التّهميش لدور شيخ القبيلة العربيّة وفاعليّته, لتُعطيَه بذلك مكانة رمزيّة لا غير, دون فاعلية أو تأثير داخل وخارج القبيلة.

وعند تأمّلي في هذه الكتابات وبحثي عن سبب إهمالها لدور شيخ القبيلة, وجدت أنّ غالبيّة هذه الكتابات قد انحصرت واهتمّت بشكل كبير بقضّية أو دعوى " الكارثة الهلاليّة" بين ناقل لما كتبه روّاد المدرسة الكولونياليّة أو ناقد لهذه الكتابة, بينما ظلّ التعرّض لكيان القبيلة في الغالب من اهتمامات علماء الاجتماع, الذين أنتجوا الكثير من الدّراسات التي ظهرت خلال الفترة الاستعماريّة, لكنّها دراسات ميدانيّة بحتة, رغم مساعيها لتوظيف النصّ التاريخي أحيانا, وفي الغالب كانت انتقائيّة, تركّز على بعض القبائل البربرية كالقبائل البربرية في مزاب والأوراس وقبائل زواوة, وجلّها كان الهدف منها توظيف نتائج هذه الدّراسات لخدمة مشروع فرنسا لتثبيت أقدامها في المغرب الإسلامي.

ومعلوم أنّ القبيلة البربريّة كان فيها دور الشّيخ في الغالب هامشيّا, حيث عرفت القبيلة البربرية ما أُطلق عليه بالنّظام الدّيمقراطي, ورغم ما في هذا المصطلح من المجاملة والمغازلة, فإنّه

يعكس مدى تحلّي القبيلة البربريّة بنظام الشّورى. لكنّ إسقاط مثل هذا الحكم على القبائل العربيّة فيه مجازفة, خصوصا إذا تعلّق الأمر بإصدار أحكام تاريخيّة, بالاعتماد على دراسات إجتماعيّة انتقائيّة.

لذلك قد وُجّه نقدٌ كبير لمثل هذه الدّراسات من طرف علماء الاجتماع, إذ أنّها اعتمدت كثيرا على التفسيرات البنيويّة المحضة التي تفسّر الماضي بالحاضر, مع سلوك منهج المقاربات واقتباس نماذج من بيئات وأزمنة مختلفة. إضافة إلى إهمال الرّواية التاريخيّة بملابساتها الحقيقيّة, وفي أُطرها الصّحيحة, وبأدوات المؤرّخ المفكّكة لشيفرة النص التاريخي, والمحلّلة لرموزه, والمدركة لظرفيّته ودلالته وخلفيّته. كلّ هذه الأمور جعلتني أختار الموضوع مركّزا على سلطة شيخ القبيلة العربيّة, وموضّحا خصوصيّة القبيلة العربيّة, ومعتمدا على المصادر التّاريخيّة بشتّى أنواعها, مع الاستفادة من مناهج التفسير الأنثروبولوجيا والسيسيولوجيا وغيرها, ساعيا نحو تقديم دراسة متكاملة وأكثر موضوعيّة.

عولج هذا البحث بإتّباع عدّة مناهج علميّة بحتة بحسب نوعية المباحث المدروسة. كالمنهج **الوصفي**, و**التّحليلي والتركيبي**؛ فالمنهج الوصفي تمّ الاعتماد عليه في سرد الأحداث التاريخية وذكر أخبار القبائل العربية, أمّا المنهج التحليلي فتمّ عند دراسة النصوص التاريخية وتحليلها, و تمّ إعمال المنهج التركيبي قصد استخراج رؤية و أحكام عامة وقواعد مضطردة. بينما كان الاعتماد منهج المقارنة والمقاربة لفهم وتفسير الكثير من المسائل العويصة عند غياب النص التاريخي الصريح والمباشر.

واجهتْ الباحثَ عدّةُ **مُشكلات**؛ منها صعوبة دراسة أخبار القبائل العربية وتمييز أنسابها وأهمّ فروعها, مع صعوبة تتبّع مجالاتها و هجراتها, إضافة إلى اتّساع الرقعة الجغرافية للدّراسة, وخضوع إقليمي هذه الرقعة – الشّرقي منه والغربي–, لسُلطتين مختلفتين وأحيانا لثلاثة سلطات مختلفة هي الزيانية والحفصية والمرينية. ومن المشكلات أيضا مطاطيّة مجالات القبيلة وعدم اعترافها بالحدود السياسية. ومن المشْكلات ترابط التاريخ المغاربي الوسيط, وتشابه القبائل العربية في المغرب الأوسط مع نظيراتها في المغرب الأقصى والأدنى, بل تشابه نمط عيش هذه القبائل حتى مع نمط عيش القبائل الهلالية في العصر الجاهلي, الأمر الذي وسّع من قائمة المصادر. كما أنّ تشابه المادّة العلمية رغم كمّها الوفير, واشتراكها أحيانافي

الاقتباس من نفس المشكاة, كلّها أسبابٌ جعلت الباحثَ يبذلُ أكبر جهد لاستنطاق النصوص المتاحة ومقارنتها وتحليلها قصد بناء تصوّرٍ متكامل.

تمّ تقسيم هذا البحث إلى مقدّمة و مدخل وخمسة فصول وخاتمة. ففي **المدخل** سعيْتُ لضبط أهمّ المصطلحات الواردة في عنوان الرّسالة, كمفهوم السلطة ومفهوم مصطلح القبيلة و مصطلح القبائل العربية ومصطلح المغرب الأوسط.

وفي **الفصل الأول** تطرقت لهجرة قبائل بني هلال من نجد إلى مصر, ثمّ غزو القبائل العربية لأفريقية وبدايات انتشارها في أرجاء المغرب الأوسط, مع التعرض لأنساب هذه القبائل وطريقة حياتها.

أمّا **الفصل الثاني** فخصّصته للحديث عن شيوخ القبائل العربية, محاولا الكشف عن ملامح شخصيتهم, وعلاقاتهم والمهام المنوطة بهم, وكيفية انتقال السلطة إليهم وتحولها إلى غيرهم, وعلاقتهم بالسلاطين وبرعايا القبيلة, و ممارستهم لأدوارهم داخل وخارج القبيلة.

وفي **الفصل الثالث** تكلّمت عن أهمّ المقوّمات التي ساعدت على ظهور وتنامي سلطة شيوخ القبائل العربية, وهي مقومات ذاتية وخارجية.

فيما تعرّضتُ في **الفصل الرابع** إلى مظاهر سلطة شيوخ القبائل العربية, فأشرتُ إلى عجز السلاطين عن إخضاعهم وتنامي إقطاعاتهم, إضافة إلى جبايتهم للضرائب و استقلالهم بإدارة الأقاليم الواقعة تحت نفوذهم.

بينما أشرتُ في **الفصل الخامس** إلى ظاهرة استقلال الشيوخ بإدارة الأقاليم, فتكلّمت عن أهمّ الشيوخ المستقلّين وهم أمراء بني مزني وأولاد عريف وشيوخ بني عامر وأمراء المعقل.

وأرى أنّه من المهم التطرّق إلى الدّراسات السّابقة التي بفضل قراءتي تولّد لديّ تصوّر للموضوع المدروس, وهي دراسات رغم وفرتها فإنها لم تتكلّم عن شيخ القبيلة أوكيانها وأدوار القبيلة السّلطوية بقدر ما تناولت الهجرة الهلالية ونتائجها على بلاد المغرب الإسلامي.

هذه الدّراسات بدأت منذ الفترة الاستعماريّة, وفي الغالب لم تتناول القبائل العربية في دراسات مستقلة, بل تعرضت لها ضمنا, كما فعل الجنرال دوبايلي (De Beyli) في كتابه "تاريخ قلعة بني حماد", وهو ما يُشبه ما قام به شارل أندري جوليان (Charles-André Julien) في تاريخ إفريقيا الشمالية, ونفس الشيء نُلاحظه عند الهادي روجي إدريس وروبار برنشفيك,

وهي دراسات كانت لا تخفي أهدافها الكولونيالية, فقد كان مجمل تركيزها على القبيلة البربرية, وأبرز مساعيها هو الحطّ من العنصر العربي, وتحميله مسؤولية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي, وفي هذا السياق تندرج دراسة أرنست مرسيي(Ernest Mercier) حول استقرار العرب بإفريقيا السّاحلية الصادرة سنة 1875هـ, وكتابات جورج مارسي (**George Mercier**) و إيميل غوتي (**Émile- Gautier**).

وإذا ألقينا إطلالة سريعة حول الدراسات السيسيولوجيا الكولونيالية فسنجد أنّها رغم المجهود الكبير الذي بذلته, ومساهماتها في إشباع البحث التاريخي وإثراء كثيرٍ من جوانبه, لم تقم بدراسات ميدانية عن القبائل العربية, بل كان جلّ تركيزها حول النَّموذج البربري ولأغراض استعمارية بحتة, أي أنّها كانت مُغرقةً في الدّراسة الميدانية الانتقائية, وفي هذا الاطار تندرج دراسات هانوتو (**Gabriel Hanotaux**) ولوتورنو (**RogerLetourneau**) وماسكراي(Émile **Masqueray**) حول القبائل الموجودة بالأوراس والمزاب في الاقليم الجزائري.

يُشار إلى أنّ هذه الأعمال الكولونيالية قد تعرضت لنقد كبير من طرف علماء الاجتماع والتاريخ من المستشرقين, مثل جاك بيرك (Jacques- Berque) وبعض الكتّاب الألمان, إضافة إلى أنصار المدرسة الماركسية. ونلاحظ ذلك مثلا في كتابات جون بونسي (Jean Poncet) والتي حاولت الدفاع عن الهلاليين في مقاله المعنون بـ: " أسطورة الكارثة الهلالية" و مقاله الآخر بعنوان "مجددا حول الهلاليين: توضيح الهادي روجي إدريس".

وبعد استقلال الدّول المغاربية بادرت النّخبة المغاربية المفرنسة إلى الكتابة حول تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط وتنازلت القبائل الهلالية, لكنّها كانت متأثرة بالمدرسة الفرنسية في الأسلوب والنتائج. وشيئا فشيئا بدأت تظهر بعض الدّراسات التاريخية, التي سلّطت الضوء على جوانب مهمّة من تاريخ وحياة القبائل العربية الهلاليّة, مثل دراسة صباح إبراهيم الشيخلي: الهلاليون في المغرب ضوء جديد حول أثر هجرتهم, ومقال ممدوح حسين تحت عنوان: العرب الهلالية في إفريقية ودورهم في الحروب الصليبية, ومقالات راضي دغفوس حول أصل بني هلال وبني سليم, ومقال آخر تحدث فيه عن ظروف هجرة القبائل العربية بني هلال

وبني سليم إلى افريقية, ودراسة محمد حسن: المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي, ورسالة مصطفى أبو ضيف حول:القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين والمرينيين,

إضافة إلى كتاب عبد الحميد خالدي المسمّى الوجود الهلالي السليمي في الجزائر, وبعض أعمال علاوة عمارة التي جمعها في دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الاسلامي, مثل مقاله المعنون ب: الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتمعاعية لبلاد الزاب, ومقالته الأخرى المعنونة ب: (لهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الاسلامي).

ودراسة جرمون عياش في كتاب: دراسات في تاريخ المغرب, و مقال الطاهر بونابي حول: ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفية بالمغرب الأوسط خلال القرن 8هـ/14م, و دراسة فريدة بورنان حول: دور القبائل العربية في الجيش الموحدي بالأندلس, وهي عبارة عن رسالة ماجستير. كما ظهرت بعض الأعمال الأدبية التي تعرضت للهجرة الهلالية وكشفت عن الكثير من الجوانب المجهولة عن القبيلة العربية كدراسة بوخالفة عزي, المسماة ب:(تغريبة بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الجزائرية), ومذكرة عبد الحيمد بوسماحة, المعنونة ب:(المسير في تغريبة بني هلال بين الواقع والخيال).

أمّا الكتابات السيسيولوجيا العربية فهناك إنتاج له أهميّة بالغة من الناحيتين التاريخية والاجتماعيّة, إذ قامت بالتنبيه على العديد من النّقاط الجديرة بالبحث, وبعثت روحا جديدة ساعدت على تفسير بعض الجوانب من الرواية التاريخية وتحليلها, كمقالة:(القبيلة والدورة- قراءة في التحليل الخلدوني للمجتمع القروي المغاربي) لمختار الهراس, ودراسته الأخرى المهمّة كثيرا حول القبيلة والسّلطة. وبعض الأبحاث التي تندرج ضمن علم الاجتماع التاريخي ككتاب سوسيولوجية القبيلة لمحمد نجيب بوطالب, ودراسة محمّد بن حسن القبائل والأرياف في العصر الوسيط.

ولإنجاز هذا البحث تمّ الاعتماد على مجموعة من المصادر نقف عند أهمها:

كتاب **العبر في ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر** لعبد الرّحمن بن خلدون؛ وهو من أهمّ كتب المصادر التي رسمت لي ملامح هذه الاطروحة, وتمّ الاعتماد فيه على كلٍّ من الجزء الأوّل والسّادس والسّابع, ويُشكّل هذا الكتاب أحد أبرز مصادر تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط, أسهب صاحبه في سرد

معلومات قيّمة عن القبائل العربية وشيوخها, ومميزاتها وطريقة عيشها ...الخ, وهو ما نجده في المقدمة. كما أفادني كثيرا في تتبُّع أنساب القبائل العربية وتتبع مراحل تغريبتها وتوسّعها داخل بلاد إفريقية والمغرب الأوسط, وأهمّ مواطن فروعها, والأدوار السياسيّة والعسكرية التي مارستها هذه القبائل ضدّ السُّلطة المركزية أو معها, إضافة إلى تركيز ابن خلدون على شخص شيخ القبيلة وتتبعه لظاهرة انتقال المشيخة, وطرائق هذا الانتقال, وتناوله لبعض الصراعات على المشيخة, وعلاقات شيوخ القبائل العربية بالسلاطين, وأهم مميزات هذا الصّراع, مع حديثه عن أخبار القبائل وبطونها وأهم ما عرض لها من العز والسلطان, وما آلت إليه من التفكك والأفول.

أمّا **الفارسيّة في مبادئ الدّولة الحفصيّة** لابن قنفذ القسنطيني؛ فتعرض فيه ابن قنفذ إلى تاريخ الدولة الحفصية, لا سيما أيام أبي فارس عزوز, وأشار فيه إلى ما كانت تقوم به القبائل العربية في أواخر القرن التاسع الهجري من حراك عسكري. فيما يعدّ حديثه عن نهاية حكم بني مزني ببسكرة من أهمّ المعلومات القيمة التي أفادنا بها هذا الكتاب.

وفي نفس السياق يأتي اعتمادي على كتاب تاريخ الدّولتين الموحديّة والحفصيّة لأبي عبد الله محمّد الزّركشي؛ وهو أحدُ مصادر الدّولة الحفصيّة, وقد استفدت منه في موضوع دور القبائل العربية أثناء الصراع بين الزيانيين والحفصيّين في القرن التّاسع الهجري, وتدخّلِ الحفصيّين في شؤون تلمسان؛ في عهد أبي فارس عزّوز وأبي عمر عثمان.

واعتمد الباحث أيضا على بعض كتب الجغرافيا **مثل كتاب وصف إفريقيا** لحسن الوزان, و**كتاب إفريقيا** لمارمول كربخال, واللذين تعرضا لوصف القبيلة العربية وطبيعة حياتها, ونمط عيشها, وطريقة قتالها, مع التركيز على شيوخ القبائل العربية, وعلاقتهم مع السلاطين والعمال والقبائل والسكان, ونظام حكمهم, وكيفية اتخاذهم القرارات وتسييرهم لشؤون القبيلة, مع محاولتهم إعطاء مسح دقيق لبطون القبائل العربية وأعداد مقاتليها, وأهم مواطنها في أواخر العهد الزياني وبدايات الحكم العثماني.

ومن بين الكتب التي استعنت بها أيضا كتب الرحلات **مثل رحلة التيجاني** التي تناولت حالة بعض القبائل العربية في بدايات العهد الحفصي, وقد قدّم التيجاني معلومات مهمّة حول الهجرة الهلالية والتي استقى مجملها من كتاب الذخيرة لابن بسام.

فيما يأتي كتاب **تاج المفرق لتحلية علماء المشرق للبلوي** في طليعة كتب الرحلات التي كشفت اللثام عن ظاهرة الحرابة التي مارستها القبائل العربية ضد قوافل التجار والحجيج, والعناء الذي كان يلقاه المسافر من هذه القبائل.

ومن بين كتب المصادر التي اعتمدتُ عليها كتاب فيض **العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب لابن الحاج النميري** الذي ترجم لحركة أبي عنان من المغرب صوب المشرق لتأديب القبائل العربية المتمردة وإخضاعها, وتأمين الطرق, وهي العملية التي نتج عنها خضوع كثير من القبائل العربية وإذعانها, فيما فرّت قبائل أخرى نحو بلاد القفر. وكشف هذا الكتاب عن جوانب هامة من مجالس السلطان أبي عنان مع شيوخ القبائل العربية, وأعطانا معلومات قيمة عن سلوكيات شيوخ القبائل مع السلاطين.

وتمّ الاعتماد أيضا على كُتب التراجم المفردة, مثل كتاب **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن,** لمحمد بن مرزوق التلمساني, والذي يمثّلُ واحدا من أهمّ مصادر الدّولة المرينيّة, فقد حوى في طيّاته معلومات نفيسة عن حركة أبي الحسن صوب بلاد المغرب الأوسط وتونس, وقضائه على الدولتين الزيانية والحفصية, وإخضاعه لشيوخ القبائل العربية, كما كشف عن علاقة أبي الحسن مع أولاد عريف.

واستفدت من كتب التراجم العامّة, ككتاب **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان** لابن مريم الملّيتي التّلمساني؛ والذي ترجم فيه لصلحاء تلمسان ومتصوّفتها, وتحدث فيه عن كراماتهم ومناقبهم, وتوجد في ثناياه إشارات كثيرة عن ظاهرة خضوع شيخ القبيلة لشيخ الطريقة, وبدايات اندماج شيوخ القبائل في المنظومة الصوفية.

ومن الكتب التي غطّت كثيرا من الجوانب الهامّة في هذا البحث, كتب النوازل, ككتاب **الدّرر المكنونة في نوازل مازونة** ليحي المازوني؛ والذي يحوي مادّة لا يمكن الاستغناء عنها لإثراء

هذا الموضوع, خصوصا عندما سرَد أهمَّ النّوازل التي بيّنت ما كان يقوم به شيوخ القبائل من أعمال الحرابة, وما كانت تعرفه القبائل العربية من الجهل المطبق والاعتداء على أحكام الشّريعة, مع إشارته إلى ظاهرة توبة شيوخ القبائل العربية. ونجد في ثنايا وأعماق هذه النّوازل صورة ترتسم فيها أهمّ الانطباعات التي تركتها ظاهرة سلطة القبائل العربية لدى العامة وطلبة العلم والفقهاء. ونفس الشيء يمكن قوله عن كتابي **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب** لأحمد بن يحي الونشريسي, و **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام** لأبي القاسم البرزلي.

ويبقى هدفي الأوحد في هذا البحث هو الكشف عن وجود سلطة موازية لسلطة السّلاطين أثّرت في تاريخ المغرب الأوسط خلال الفترة الزيانية, وهي سلطة شيوخ القبائل العربية, ما سيسمح لنا ببناء تصوّر شمولي متكامل عن هذه الحقبة, والإجابة عن بعض التساؤلات, وتفسير أهمّ التحركات العسكرية والظواهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكيات الدينية التي شهدتها الدولة الزيانية في هذه الفترة. مع محاولة إثارة بعض المواضيع التي تحتاج إلى مزيد من الدّراسة.

مدخل:

ضبط أهم المصطلحات الواردة في عنوان الرسالة

المبحث الأوّل: مفهوم السّــــلطة

تمثّل السُّلطة ظاهرةً أساسيّة في السّلوك الانساني وهي أقدم في أصلها من ظاهرة الدولة، فالسيطرة والخضوع هي مبدأ طبيعي[1]. وتعني لغة القدرة على السّيطرة، وهي قوة طبيعية أو حق شرعي في التصرف أو اصدار الأوامر. فلفظها له دلالة على الغلبة والقهر, إذ أنّها مشتقة من السَلاطَةُ ومعناها القهرُ[2]. وَالِاسْمُ سُلْطة، بِالضَّمِّ[3].

ووردت السلطة في القرآن الكريم بمعنى الغلبة والقهر, عند قوله تعالى: (**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ**[4]), وعند قوله تعالى: (**وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)**)[5].

أمّا في اصطلاح علماء السياسة, فيرى جان مينو أنّ السلطة هي ممارسة نشاط ما على سلوك الناس, أي القدرة على التأثير في ذلك السّلوك وتوجيهه[6], أمّا ميشال فوكو(**Michel-Foucault**), فيرى أنّها تعني القدرة والقوّة والسلطان الذي يكون للإنسان على غيره, ويتمّ تحصيل هذه السّلطة عبر عدّة وسائل[7].

وفي بحثنا هذا نقصد بالسّلطة غلبة القبائل العربية لغيرها على المجال وقهر المغلوبين, وفرض مشايخها السيادة عليهم. وقد أطلق عبد الرحمن بن خلدون صفتي القهر والغلبة على شيوخ

---

[1]- نادية بن أحمد, تنظيم السّلطة السياسية في الجزائر منذ 1989, رسالة ماجستير, تلمسان: جامعة أبو بكر بلقايد, قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية, السنة :2012-2013, ص11؛ علي سعد الله, نظرية الدولة في الفكر الخلدوني, ط1, عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع, 2003, ص52.

[2]- أبو نصر إسماعيل الفارابي, الصحاح تاج اللغة, تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار, ط4, بيروت: دار العلم للملايين, 1407هـ-1987م, 1133/3, مادّة سلط.

[3]- أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور, لسان العرب, تحقيق: اليازجي وآخرون, ط3, بيروت: دار صادر, 1414هـ, 320/7.

[4]- الآية 90, سورة النّساء.

[5]- الآية 6, سورة الحشر.

[6]- جان مينو, مدخل إلى علم التربية, ترجمة: جورج يونس, ط3, بيروت: منشورات عويدات, 1982, ص88.

[7]- ميشال فوكو(**Michel- Foucault**), المعرفة والسلطة, ترجمة: عبد العزيز العيادي, ط1, بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع, 1994, صص 43-44.

القبائل, مثل قول ابن خلدون:((ولم يزل هذا دأب العرب وزناتة حتى غلبوا صنهاجة وزناتة على ضواحي أفريقية و الزاب[1])), وقوله:((وغلبوا عليها صنهاجة, وقهروا من بها من البربر[2], وأصاروهم عبيدا وخدما[3])). كما نعت مارمول جماعات البربر بالخضوع لمشايخ العرب حيث قال:((خضوع البربر بشمال إفريقيا للعرب الذين يسمون ظرفاء مليانة, هم أولاد عبد الله وأولاد موسى وأولاد هسيكس وأولاد سليمان وأولاد عمرو[4])).

إنّ السلطة بالمعنى الذي عنيته في بحثي هذا يشبه كثيرا تفسير السّلطة من خلال نظرية القوّة والعدالة, والتي عرّفها أصحابها بأنّها نظام اجتماعي أفرز سلطة فرضتها جماعة أو فرد على الآخرين بالقوة والعنف لإلزام البقية بالخضوع والطّاعة.

فالسّلطة ليست دائما تعني مفهوما سياسيا, وإنّما هي مفهوم يتعلّق ببروز ظاهرة انقياد الجماعات البشريّة, ولزومها طاعة فرد أو مجموعة متغلبة[5]. وهذا النوع من السّلطة ليس

---

[1]- قال حسن الوزان :أنّ إقليم الزاب يقع في وسط مفازات نوميديا, ويبتدئ غربا من تخوم مسيلة, ويحده شمالا جبال مملكة بجاية, ويمتد شرقا إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس, وجنوبا إلى القفار التي تقطعها الطريق المؤدية من تقرت إلى وركلة, وهذه المنطقة شديدة الحرارة رملية. لا يوجد بها يسير من الماء وقليل من الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب, لكن عدد حدائق النخل بها لا يحصى. يشمل الاقليم خمس مدن وعددا كثيرا من القرى, وهي بسكرة- البرج- نفطة- دوسن-طولقة. ينظر: وصف إفريقيا, ترجمة محمّد حجي ومحمّد الأخضر, ط2, منشورات الجمعيّة المغربييّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر , بيروت: دار الغرب الاسلامي, 1983م, 138/2-141.

[2]- اختلف المؤخون وعلماء الأنساب العرب حول أصل البربر, يقول يحيى بن خلدون مبيّنا ذلك:((البربر أمة أعجمية, اختلف النسابة في أصلهم فقال السهيلي والمسعودي والقضاعي هم ولد بربر بن كنعان بن حام, وقال الطبري مثله, وقال الصولي هم ولد بربر بن السلاجم بن بربر بن مصرائم بن حام, وزعم بعض المؤرخين أنهم من ولد سام بن نوح, وقال ملك بن المرحل أنهم قبائل شتى من حمير ومضر والقبط والعماليق وكنعان وقريش, ذكر أن موطنهم الأول هو الشام, وخروا إلى المغرب إما للغزو مع إفريقش بن قيس بن صيفي كما ذكره الطبري والسهيلي والمسعودي, أما البكري فقال أن بني إسرائيل هم الذين أخرجوهم, عند قتل داوود لجالوت)). بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد, تحقيق: عبد الحميد حاجيات, الجزائر: المكتبة الوطنيّة, 1980م, 180/1.

[3]- عبد الرّحمن بن خلدون, العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر, تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار, ط2, بيروت:دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع, 2001م, 230/6.

[4]- مارمول كربخال, إفريقيا, ترجمة محمّد حجي وآخرون , منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر المغرب, الرّباط: مكتبة المعارف, 1984م, 291/2.

[5]- لطرش حنان, السّلطة والمجتمع في الجزائر أواخر العهد العثماني, رسالة ماجستير, قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر, 2005-2006, صص11-12.

مقتصرا على الوافد الهلالي, وإنما يُعزى إلى قوة المجتمع الريفي الحربية التي لا يمكن ربطها بأي مركب اجتماعي بعينه[1]. وذلك أنّ القبائل البدوية كانت تعتمد أساسا على الزراعة أو الرعي, فحين يقلُّ النبات والكلأ, تضطرّ إلى التنقل باحثةً عن مجالاتٍ خصبة, مما يجعلها تصطدم بتجمعات مالكة للأرض.

ولأن هؤلاء البدو كانوا يعيشون بمنأى عن السّلطة المركزية, فإنّهم لم يكونوا يدفعون الضّرائب ولا يخضعون لأيّ مُراقبة, وإنما تكتفي منهم الدولة بمجرد الولاء والتبعية الاسمية, فإذا كانت الدولة المركزية قوية بقيت هذه القبائل في منتجعاتها بالقفر تطارد العشب في تنقلاتها, أو تقوم بدور المرشد والحامي للقوافل التجارية, أو تغزو بعضها بعضا. بينما في حالة ضعف السلطة السياسيّة, وعجزها عن فرض نفوذها على الأطراف, فإن هذه القبائل سرعان ما تتجه إلى المناطق الخصبة, وتتوغل في أراضي الدولة, مزاحمة أهلها, بل مستأثرة بخيرات الأرض, فتسلب أموال السكان وتنهب زروعهم وماشيتهم, والنتيجة هي الحرب الدائمة التي قد تنتهي بفناء هذه القبائل وفرارها إلى الصحراء, أو انتصارها واضطلاعها بأدوار سيادية في إدارة الجهاز السياسي والمالي نيابة عن السّلاطين أو استقلالا عنهم.

[1]– علاوة عمارة, (الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الاسلامي), مطبوع ضمن: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي, الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية, 2008, ص20.

المبحث الثاني: مصطلح قبيلة

أشارت كتب المعاجم و اللغة إلى **المعنى اللغوي** لكلمة القبيلة, و المأخوذ من التّقابل, وهي إما من قَبائل الرّأس, والمقصود بها القِطع المشعوب بعضها إِلى بعضٍ[1]. أو تقابل العمائر واستوائها في العدد, فهي بمنزلة الصّدر من الجسد[2].

ووردت القبيلة في القرآن الكريم بصيغة الجمع, في قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[3])). و قد عطف القرآن بين لفظتي الشّعوب والقبائل, وهو ما قد يدل حسب المفسرين على تغايرهما في المعنى, لذلك بيّن القرطبي أنّ الشِّعْبَ هو الْقَبِيلَةُ العظيمة، وهو أبو القبائلِ الَّذي يُنسبون إليه، أي يجمعهم ويضمّهم[4].

أمّا **المعنى الاصطلاحي** للقبيلة في بلاد المغرب الإسلامي فيدلّ على أنّها تركيبة بشرية اجتماعية, مُكوَّنةٌ من عدة وَحداتٍ صُغْرى, يجمعها الدم الواحد أو المصْلحة المشتركة, وتتقاسم مجالا واحدا, ويخضع أفرادها إلى عُرْف وعادات متفق عليها, ويدينون بديانة واحدة, ولها شيخٌ يسهر على تطبيق العرف واحترام العادات, ينتمي إلى أقوى أُسَرِ القبيلة, وأشرفها حسبا, ويعيش أعضاء القبيلة في حدود نظام اجتماعي, تتسلسل فيه الوحدات في شكل هرمي[5].

ويرى ابن خلدون أنّ الدّم الواحد لا يعدو أن يكون مُعطًى وهميّا لا يصمد أمام وقائع الاختلاط وعلاقات الجوار والتّعايش المكاني, لذلك هناك فرق بين النّسب البيولوجي

---

[1]- ابن منظور, المصدر السّابق, 541/11.

[2]-أحمد بن عبد الوهاب النويري, نهاية الأرب في فنون الأدب, ط1, القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية, 284/2.

[3]- سورة الحجرات, آية 13.

[4]-أبو عبد الله محمّد القرطبي (671هـ), الجامع لأحكام القرآن, تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش, ط2, القاهرة: دار الكتب المصرية, 1384هـ-1964م, 340/16.

[5]- بوزياني الدراجي, ملامح تاريخية للمجتمعات المغاربية, الجزائر: دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع, 2010م, ص164.

والانتساب الواسع والبعيد وما يماثله من أشكال التحالف والولاء, فالأوّل له دلالة رمزيّة, فيما يمثّل الثاني الإطار الحقيقي للقبيلة[1].

وقد مثّلت القبيلة الرّحم الذي تتشكّل فيه الدولة وتتولّد منه خلال العصر الوسيط, و دفعها بناؤها الاجتماعي إلى الاستقلال بجمع الضرائب, أو الاستقلال عن الدّولة, حين يكبر حجمها, فالدولة بحَدِّ ذاتها لم تكن تُمثِّل سوى قبيلةً تغلّبت على غيرها من القبائل وبسطت نفوذها [2].

وتنقسم القبيلة في بلاد المغرب الاسلامي حسب عدّة اعتبارات, فحسب المؤشر العرقي نميّز بين (القبائل البربرية والقبائل العربية), وتنقسم بناءا على الاستقرار والحركة إلى (قبائل مستقرة تقطن السواحل والسهول والهضاب, وقبائل مترحلة بين السهول الصحاري).

فيما تنقسم تبعا لطبيعة النشاط الاجتماعي إلى (قبائل فلاحية, وقبائل رعوية, وقبيلة دينية تسهر على القيام بالشعائر الدينية, وقبائل تجارية تمارس التجارة أو تتلقى أموالا مقابل حماية القوافل, والقبيلة المقاتلة كبني عامر وهي التي تعسكر من الجيوش السلطانية وتقوم بمهام عسكرية, ورزقها يكون محصورا في ظلال رماحها[3]), أما تقسيم القبيلة بحسب مؤشر العلاقة بالدولة فتنقسم إلى:(القبائل المخزنية والقبائل الريعية الغارمة وقبائل السيبة أو المستقلة)[4] .

ويحسُنُ التّنبيه إلى أنّني لم أُراعِ في بحثي هذا تلك المصطلحات الدّالّة على نوعيّة التجمع القبلي وكمّه, كالشّعب والجمهور والفصيل و العميرة وغيرها, مثل ما حاول مبارك بن محمّد الميلي أن يتقيّد به فجعل مثلا هلالا في مرتبة شعب, و الأثبج ورياح وزغبة وقرة بمثابة قبيلة, وفروع الأثبج وهي دريد وكرفة وعياض والضحاك ولطيف والعمور والعاصم والمقدم, كل واحدة من هذه الوحدات في مرتبة عمارة, وفروع رياح بمثابة عمائر أيضا, وكذلك فروع

---

[1]. نقلا عن المختار الهرّاس, القبيلة والسّلطة, تطوّر البنيات الاجتماعيّة في شمال المغرب, مطبعة الرّسالة, الرّباط, ص95.

[2]- محمّد عابد الجابري, فكر ابن خلدون **العصبيّة والدّولة**, ط6, بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية, 1994م, صص24-25.

[3]. نلاحظ أنّ هذه الأصناف تظهر في المجتمع البدوي, حيث تتميّز القبائل عن بعضها البعض بحسب الأساليب التي يعتمدها كلّ منها في تحصيل معاشه. المختار الهرّاس, المرجع السّابق, ص18.

[4]- محمّد نجيب بوطالب, سوسيولوجية القبيلة في المغرب العربي, ط1, بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية, 2002م, صص109-116.

زغبة, وفعل هذا مع بقيّة القبائل[1]. وإنّما قصدتُ بكلمة قبيلة ذلك الاستعمال الدارج على لسان المؤرخين وأصحاب السِّيَر, والذي يخلط بين القبيلة و ما تفرعت منه وما تولد عنها, فيُطلَق على الشِّعب لفظ قبيلة, وعلى البطن والعميرة لفظ قبيلة أيضا, أي أنه يعتبر أي تجمع سببه الدم والحلف هو قبيلة, معرضا عن كمّ هذا التّجمع ومراتبه[2].

إنّ مثل هذا الاستعمال نجده عند ابن خلدون الذي يعتبر تلك المصطلحات كقبيلة بطن وعشيرة مترادفات تؤدي إلى معنى واحد وهو القبيلة[3]. ونفس الشيء فعله صاحب "الذخيرة السنية في تاريخ الدّولة المرينيّة"[4], ويحيى بن خلدون في تاريخه[5] وغيرهم من المؤرّخين.

---

[1]- تاريخ الجزائر في القديم والحديث, الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب, 1406هـ-1986م, 580/2؛ بوزياني الدراجي, ملامح تاريخية للمجتمعات المغربية, صص177-178.

[2]- محمد بن حسن, القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط, ط1, تونس: دار الرياح الأربع للنشر, 1986م, ص11.

[3]- بوزياني الدراجي, المرجع السابق, ص176.

[4]- علي بن أبي زرع الفاسي, الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.

[5]- بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد, تحقيق: عبد الحميد حاجيات, الجزائر: المكتبة الوطنيّة, 1980م.

المبحث الثالث: مصطلح "القبائـل العربيــــــة

تدلّ كلمة "القبائل العربية" على جنس العرب وهو اسم يطلق على سكان الجزيرة العربية من بدو وحضر, و يقال رجل عربيّ إذا كان نسبه في العرَب ثابتا وإن لم يكن فصيحاً. وَجمعُه العَرَب, وَرجل أعرابِيّ بِالألف إِذا كانَ بدويّاً صَاحب نُجْعة وانزواء وارتياد للكلأ وتتبّع لمساقط الْغَيْث، وسواءٌ كَانَ من الْعَرَب أَو من مواليهم[1]. والعرب هم عبارة عن تجمع أفراد من الناس يجمع بينهم دم ولسان عربيان, ويوحدهم مصير ومجال مشترك.

أما القبائل العربية في تاريخ المغرب الأوسط فنقصد بها في بحثنا هذا القبائل الهلالية, تلك القبائل التي دخلت بلاد أفريقية وزحفت إلى قرى وأمصار المغرب الأوسط والأقصى, و أثّرت في تاريخ شمال إفريقيا من كل النّواحي, لا سيما الناحيتين السّياسية والاجتماعية.

وتمكنت هذه القبائل العربية من فرض نفسها, في مجتمع المغرب الأوسط طيلة العصر الوسيط. لتُصبح إحدى الثوابت الأساسيّة, وأهمّ عنصرٍ مُساهمٍ في تشكيل البُنية الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة والثّقافيّة في هذا النطاق الجغرافي الواسع[2].

وخرج بذلك عرب الفتح لأنهم لم يكونوا إلّا رجالات استوطنوا شمال المغرب الإسلامي وبقوا كأقلية ذابت في المجتمع البربري, ومنهم من عاد أدراجه إلى بلاد المشرق لا سيما بعد تنكيل الفاطميين بهم[3].

و عدلنا عن مصطلح القبائل الهلالية إلى مصطلح القبائل العربية بسبب قصور الأوّل عن الحقيقة التاريخيّة, فليست كلّ القبائل التي دخلت بلاد أفريقية والمغرب ترجع إلى هلال بن عامر بن صعصعة, وسبب غلبة اسم هلال عليهم يرجع إلى ما حظي به أبناء هلال من

[1]- محمّد بن أحمد الأزهري, تهذيب اللغة, تحقيق: محمّد عوض مرعب, ط1, بيروت: دار إحياء التراث العربي, 2001م, 218/2.

[2]- محمّد بن حسن, المرجع السابق, ص12.

[3]- جاء العرب أولا إلى المغرب فاتحين منظمين معمرين (بالمعنى اللغوي لا السياسي المستعمل اليوم) مقتصرين على سكنى المدن غير مزاحمين للبربر في أراضيهم، وتمرن البربر على عهدهم في شؤون الدولة حتى تبوؤوا المناصب العالية أيام العبيديين فلحق كثير من العرب بالمشرق, ومن بقي منهم بقي خاملا.

الوجاهة والكثرة دون باقي البطون[1]. ويُؤكّد ابن خلدون هذا الكلام بقوله:((وكان فيهم من غير هلال كثير من فزارة وأشجع من بطون غطفان, وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن, وسلول بن مرة ابن صعصعة بن معاوية، والمعقل من بطون اليمنية، وعمرة بن أسد بن ربيعة بن نزار، وبني ثور بن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصعة، وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان. وطرود بطن من فهم بن قيس، إلا أنهم كلهم مندرجون في هلال وفي الأثبج منهم خصوصا، لأن الرئاسة كانت عند دخولهم للأثبج وهلال فأدخلوا فيهم وصاروا مندرجين في جملتهم[2])).

ويشير عبد الوهاب منصور إلى هذه الحقيقة عند قوله:((وقد غلب إطلاق اسم بني هلال على جميع العرب الذين دخلوا المغرب في منتصف القرن الحادي عشر؛ حتى ليظنّ الظان أنه لم يدخل شعب من العرب سواهم, والحقيقة أن شعوبا عربية أخرى دخلت مع بني هلال وبعدهم[3])).

ويحسُن التّنبيه إلى أنّ القبائل العربية الهلالية رغم أنّها كانت تمثّل قبائل البدو الأعراب[4], فإنّها عُرِفت في تاريخ المغرب الإسلامي بالقبائل العربية دون القبائل الأعرابية, وذلك راجعٌ في نظري إلى سببين؛ **أولهما**: هو أنهم عرب في الأصل, وإنما كلمة أعراب جاءت للتمييز بين عرب المدن وعرب البادية, وفي شمال إفريقيا كان يقابلها القبائلُ البربرية, فكان استعمال كلمة "قبائل عربية" أدلّ على الجنس, بخلاف كلمة أعراب التي تدل على النوع.

وثانيا: هو أن قبائل البادية كانت تنفر أشد النُّفور من كلمة أعْراب التي تدلُّ على الجفاء والقسوة, والتي وردت منبوذة في القرآن والسنة, حتى ذُكر أن الأعرابيّ كان إذا قيل له يا عربيّ

---

[1]-أحمد بن سعيد بن حزم, جمهرة أنساب العرب, تحقيق: مجموعة من العلماء, ط1, بيروت: دار الكتب العلميّة, 1403هـ- 1983م, صص258-275؛ عبد الحميد يونس, الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي, موقع www. Kotobarabia.com , صص 15-16.

[2]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 22/6-25.

[3]- عبد الوهاب منصور, قبائل المغرب, الرباط: المطبعة الملكيّة, 1968م, 1/ 412.

[4]- جاء في تهذيب اللغة: ((فمن نزل البادِيَة أَو جاور البادين وظعنَ بظعنهم وانتوى بانتوائهم فهم أعراب، وَمن نزل بِلاد الرِّيف واستوطن المدن والقرَى العربيَّة وَغيرها مِمَّا ينتمي إلى العرَب فهم عرب وإن لم يَكونوا فصحاء)). محمّد الأزهري, 218/2.

فرِح بِذلكَ وهَشّ لَهُ. والعربيّ إِذا قيل لَهُ: يَا أعرابيّ غضِب لَهُ[1] فلذلك كان الأعراب الوافدون إلى بلاد شمال إفريقيا يتسمّون باسم العرب الذي يقتضي مدحًا بخلاف لفظة " أعراب".

[1]- محمّد الأزهري, المصدر السابق, 218/2.

المبحث الرابع: المغرب الأوســـــط

اختلف الجغرافيون في تحديد المجال الجغرافي الدال على بلاد المغرب الأوسط, وذلك بسبب التغيرات السياسيّة والاجتماعية التي طرأت على هذا الإقليم. وسبب هذا الاختلاف هو الخلط بين حدود المغرب الأوسط الطبيعية الثابتة, و الحدود القبلية التي تعبر عن أقصى مجال يبلغه نفوذ تجمع سكاني ما, والحدود السياسيّة المتغيّرة بحسب السّلطة السياسيّة الحاكمة, فالأول يدل على مفهوم ثابت لمجال جغرافي معين, لكن في بلاد المغرب الأوسط لا وجود له حقيقة بسبب غياب الفواصل الطبيعية, أمّا المفهومين الثاني والثالث فيرجعان إلى طبيعة القبيلة أو السلطة الحاكمة ومدى قدراتها على التوسع.

ولو أردنا من البكري أن يعطينا حدودا لهذا الإقليم فسيعتبر تلمسان قاعدةً لهذا الاقليم[1], مع تأكيده أنّها تمثّل دار مملكة زناتة[2].

بينما أعطى أبو عبد الله محمّد بن محمّد الإدريسي(ت 560هـ/1164م) وصفا دقيقا لهذا الاقليم, جاعلا من بجاية قاعدة للمغرب الأوسط مراعيا في ذلك الواقع السياسي, باعتبار بجاية عاصمة الدّولة الحماديّة, وإخراج تلمسان منه لكونها كانت تابعة للدولة المرابطية, فيقول :((مدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد))[3]. مُدْرِجا المدن من بجاية إلى تنس ضمن هذا الإقليم, وهي المدن التي ذكرها بقوله:((مدن المغرب الأوسط تنس وبرشك وجزائر بني مزغنا وتدلس وبجاية وجيجل ومليانة والقلعة والمسيلة

1- المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب, تحقيق: حما الله ولد سالم, ط1, بيروت: دار الكتب العلمية, 2013م, ص164؛ الطاهر بونابي, التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7 الهجريين /12-13 الميلاديين, عين مليلة: دار الهدى, الجزائر, 2004م, صص29-33؛ مزدور سمية, المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط, 588-927هـ/1192-1520م , ماجستير, جامعة منتوري, قسنطينة, 2008-2009 م, صص 25-32.

2- البكري, المصدر السّابق, ص164.

3- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق, تحقيق: مجموعة محققين, بور سعيد: مكتبة الثّقافة الدينيّة(د.ت),260/1.

والغدير ومقرة ونقاوس وطبنة[1] والقسنطينة وتنجس وباغاي وتيفاش ودار مرين وبلزمة ودار ملول وميلة[2]))؛ مُنوّها أنّ هذا المجال هو ديار قبائل البربر من أبناء زناتة.

أمّا عبد الواحد المراكشي(ت647هـ/1249م), فيرى أنّ حدود المغرب الأوسط في العهد الحمادي هي من بونة إلى سيرات[3]. ويوافقه في جعل بونة أول بلاد أفريقية ابن سعيد المغربي, والذي قال: ((وأول سلطنة أفريقية على البحر مدينة بونة[4])).

فيما وصف عبد الرّحمن بن خلدون إقليم المغرب الأوسط بوصف دقيق, فقال أنّ المغرب الأوسط هو تلك المساحة التي تمتدّ من تلمسان غربا إلى بونة شرقا, و تنحدر جنوبا من أشير والمسيلة والزّاب وقاعدته بسكرة, وجبل أوراس وتبسة[5].

ويُلاحظ أنّ عبد الرحمن بن خلدون قد اعتمد في ذلك على التّوزيع القبلي, بفضل إلمامه بقبائل المغرب الأوسط, ومضاربها ومجالات تنقّلاتها, وبذلك استطاع أن يُعطينا معنىً أكثرَ وضوحًا عن هذا الإقليم؛ يقول ابن خلدون: ((وأمّا المغرب الأوسط فهو في الأغلب ديار زناتة...ثمّ صار لبني عبد الواد[6] وتوجين من بني مادين وقاعدته تلمسان, ويجاوره من الشّرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومتيجة والمدية وما يليها إلى بجاية, وقبائله كلّهم لهذا العهد مغلوبون للعرب من زغبة ... وأمّا بجاية وقسنطينة فهي دار زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة , وهي اليوم

---

[1]-مدينة الزاب العظمى, اختطها عمر بن حفص سنة 151هـ, وأنزل بها ورفجومة, كان ينزلها الولاة في عهد الأغالبة, قال أحمد بن اسحاق اليعقوبي أنه يسكنها أخلاط من قريش والعرب والجند والعجم والأفارقة والروم والبربر. البلدان, ط1, بيروت: دار الكتب العلميّة, 1422هـ, ص140؛ عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 151/6.

[2]- الإدريسي, المصدر السابق, 222/1.

[3]-عبد الواحد المرّاكشي, المعجب في تلخيص أخبار المغرب, تحقيق محمّد سعيد العريان, الجمهوريّة العربيّة المتّحدة: المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة, صص272-273.

[4]- ابن سعيد المغربي, بسط الأرض في الطول والعرض, تحقيق: خوان قرنيط خينيس, تطوان: معهد مولاي الحسن, 1958م, ص76.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 76/1.

[6]- قال يحيى بن خلدون أن عبد الواد هو لقب يطلق على بني ياتكتن وبنو وللو ومصوجة وبنو تومرت وبنو ورسطف وأصل هذا الاسم عابد الواد, أطلق على جدهم لرهبانية عرف بها, وهم إخوة لبني مرين في جدهم سجيح بن واسين, وقد ادعى بعض المؤرخين أنهم علويون, وأنّهم من ذرية القاسم بن إدريس بن إدريس. ينظر: يحيى بن خلدون, المصدر السابق, 186/1-190.

ديار للعرب إلاّ ممتنع الجبال, وفيها بقاياهم))[1]. وقال في موضع آخر:((وكان المغرب الأوسط من تلمسان وأعمالها إلى بجاية[2])) وهو ما يؤكد اعتباره لمدينة بجاية ضمن مدن هذا الاقليم.

ولم يبتعد مارمول كربخال(ق16م/10هـ) كثيرا عن التحديد الخلدوني, عندما أشار أنّ المغرب الأوسط هو القسم الممتدّ من تلمسان إلى حدود مملكة بجاية – مدينة القل–, و جعل مدينة القل هي بداية إقليم قسنطينة التّابع جغرافيا لمملكة بجاية[3]. و تعرّض مارمول إلى اختلاف الجغرافيّين حول إقليم بجاية, ثمّ بيّن أنّ إدراجه ضمن أقاليم مملكة تلمسان هو قول خيرة الكُتّاب[4].

وينقسم إقليم المغرب الأوسط من حيث التضاريس إلى ساحل شمالي ضيّق[5], استوطنته عدّة تجمعات سكانيّة امتهنت الرعي والفلاحة وربما شاركت في الحياة التجارية. وفي جنوب هذه المنطقة السهليّة, تمتدّ منطقة التلّ[6], والتي تشكّل الوجه الجبلي المقابل للمغرب الأوسط والمحاذي له, وتعدّ الواجهة الشماليّة لمنطقة التل من أخصب أراضي المغرب الأوسط, وأغناها من حيث نوعيّة التّربة وجودة ووفرة المراعي وزراعة الحبوب, وعليها أُنشئت أشهر المدن مثل تاهرت, وتلمسان[7]. أمّا الواجهة الجنوبية فتنفتح على الصّحراء, وتعرف جغرافيا ببلاد الهضاب والنجود, وتقع بين سلسلتي الأطلس التلي والصّحراوي[8].

وفي جنوب سلسلة الأطلس الصحراوي, توجد الصحراء الكبرى, والتي تكاد تنعدم فيها الحياة, وتعتبر موطنا قفرا, وتتوزع فيها بعض المسالك البرية إلى السّودان الغربي[9].

[1]– عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 134/6.

[2]–عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 420/6.

[3]–مارمول, المصدر السابق, 375/2؛ 5/3.

[4]– المصدر نفسه, 275/2.

[5]– أحمد توفيق المدني, هذه هي الجزائر, القاهرة: مكتبة النهضة المصرية, 2001, صص 12-18.

[6]– الميلي, المرجع السابق, 50/1.

[7]– أحمد توفيق المدني, جغرافية القطر الجزائري, الجزائر: المطبعة العربية, 1948, صص 7-31.

[8]– المصدر نفسه, صص 31-40.

[9]– أحمد توفيق المدني, جغرافية القطر الجزائري, صص40-47؛ هاشم العلوي القاسمي, مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي, المغرب: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية, 1415هـ-1995م, 72/2-73.

وواضح أنّ هذا التنوّع الجغرافي قد ساعد في تحويل أراضي المغرب الأوسط إلى أراض رعويّة, ودفْعِ سُكّانه إلى الارتباط بحياة التّرحال والانتقال بحثا عن مواطن القطر ومنابت الزرع, مع محاولاتِ الجماعات السكانية القوية التحكم في المسالك التجارية, ونقط عبور القوافل.

الفصل الأول:

القبائل العربية في بلاد المغرب الأوسط

(دخولها, أنسابها وحياتها)

المبحث الأول: الهلاليون من بلاد نجد إلى صعيد مصر

شهدت الجزيرة العربية العديد من الهجرات السامية منذ القدم, بسبب الجفاف الذي ألحق ضررا فادحا بالنبات[1], والنّزاع على السّلطة الذي أدّى بدوره إلى تهديم السّدود وخزانات المياه[2]. وإلى هذا النوع من الهجرات يمكن تصنيف هجرة القبائل العربية من بلاد نجد وصولا إلى صعيد مصر[3], والتي عرفت بتغريبة بني هلال, وحظيت باهتمام المؤرخين, كما تناقل أخبارها وغرائبها القصاص والإخباريون, يتفكّهون بحكايتها في أسمارهم ومجالسهم.

- أنساب القبائل العربيّة التي قامت بالغريبة:

تنحدر جلّ القبائل العربية التي قامت بالتغريبة من نسل منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان, فهي بذلك من القبائل القيسية المضرية التي استقرت بشمال الجزيرة العربية, لذلك سموا عرب الشمال, ويقابلهم عرب الجنوب من القحطانية, وكان التنافس شديدا بين عرب الشمال وعرب الجنوب, وهو ما تولّد عنه الكثير من المعارك الطاحنة[4], ومن أهم فروع هذه القبائل:

أ- **قبائل بني سليم:** ترجع إلى منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر، وكان سليم أحد أبناء منصور بن عكرمة, يقال إنه كان في أوائل القرن الثالث للميلاد[5], يقول ابن حزم:((وتعدّ سليم من أقوى عناصر الهلالية, وإن كان إطلاق الهلالية عليهم توسعا ومجازا, لأن سليم أعرق من هلال, كما أنهم كانوا من أغنى القبائل العربية مالا وأخصبهم

---

[1]- عبد الحيمد بوسماحة, المسير في تغريبة بني هلال بين الواقع والخيال, أطروحة دكتوراه, جامعة الجزائر: كلية الآداب واللغات, 2004-2005م, ص18.

[2]- عبد الحميد بوسماحة, رحلة بني هلال وخصائصها التاريخيّة والاجتماعيّة, الجزائر: دار السيل للنشر والتوزيع, 2008م, 63/1.

[3]- الصعيد: لغة ما صعد في الأرض, وأطلق العرب اسم الصعيد على جنوب مصر, الممتد على ضفاف النيل جنوب القاهرة, إلى آخر حدود مصر الجنوبية المتمثلة في أسوان, وينقسم إلى الصعيد الاسفل, ويشمل الجيزة والفيوم وبني سويف والصيد الأوسط ويشمل محافظات المنيا وأسيوط, والصعيد الأعلى يشمل قنا وأسوان. انظر: محمود عبد الرحمن الريطي, دور القبائل العربية في صعيد مصر منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية, ط1, القاهرة: مكتبة مدبولي, ص9.

[4]- محمّد رضا مروة, الصعاليك في العصر الجاهلي-أخبارهم وأشعارهم,ط1, بيروت:دار الكتب العلمية, 1990م, ص12.

[5]- الميلي, المرجع السابق, 178/2.

أرضا, وأوفرهم عددا, ومن قبائل سليم بنو حزم وبنو خفاف وسماك ورؤل وذكوان ومطرود وبهذ وقنفذ ورفاعة وعصية وطفر وبجلة وحبيب وابن مالك وبنو الشريد وبنو قتيبة))[1].

وكانت مواطن بني سليم الأولى بنجد, و رئاستهم في بني الشريد بن عصية بن خفاف بن بهثة بن سليم, ولما أدركهم الاسلام كان منهم عناد, ومن بطونهم المشهورة قبائل عصية ورعل وذكوان , وحين ظهر القرامطة تحالفوا معهم, وحالفوا أبا الطاهر وبنيه أمراء البحرين, مع بني عقيل بن كعب, ثم تغلبوا على البحرين إلى أن طردهم بنو الأصفر بن تغلب في أيام بني بويه, فلحق جلهم بصعيد مصر[2].

ب- **قبائل بني هلال** : ترجع قبائل بني هلال إلى هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن سعد بن منصور، ويقال أن هلالا كان في أوائل القرن الخامس للميلاد, وقد غلب اسمه على أبناء منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بنم مضر[3], لاستحكام الرئاسة فيهم, وكثرة رجالاتهم.

ويقول ابن حزم معدّدا أبناء هوازن:((ومن أبناء هوازن بكر الذي أعقب سعدا وزيدا ومعاوية, ومن أشهر أولاد معاوية؛ عامر بن صعصعة وأخص أولاد عامر هلال الذي عرفت باسمه سائر القبائل[4])). وكانت مواطنهم في الجاهلية جنوب شرق مكة. وبعد أن توسع المسلمون بالفتوح استوطنوا بادية الشام, وقد كانوا يقطعون الطريق, فردّد العباسيون عليهم البعوث[5]. وكانت أهمّ بطونهم هي الأثبج ورياح وزغبة.

ت- **المعقل:** ينسبون أنفسهم إلى جعفر بن أبي طالب, ويخالفهم نسابة بني هلال فيعتبرونهم أحد بطونهم. بينما رجح ابن خلدون كونهم يمنيين, فقال :((والأنسب ان يكونوا يمنيين من المعقل واسمه ربيعة إحدى بطون مذحج[6])).

---

[1]- ابن حزم, المصدر السابق, صص258-275؛ عبد الحميد يونس, المرجع السابق, صص 15-16.

[2]- عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, 416/1.

[3]- عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, ص412.

[4]- ابن حزم, المصدر السابق, صص258-275.

[5]- عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, ص413.

[6]- . الميلي, المرجع السابق, 2/ 178.

ث- و كان المعقل يسكنون قرب البحرين مع القرامطة قبل دخولهم المغرب, ولما دخلوه لم يكن عددهم يتجاوز المئتين, فاعترضتهم بنو سليم فتحيزوا إلى الهلاليين, ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي وادي ملوية[1] ورمال تافيلالت, وجاوروا زناتة في القفار, فعفوا وكثروا, وانتشروا في صحراء المغرب الأقصى فعمروا أطرافها وتغلبوا على فيافيها, وتحالفوا مع زناتة, وحين تملك الزناتيون التل, انفردت المعقل بالصحراء, ونموا بمن انضم إليهم من القبائل الحليفة كالعمور[2], وأشجع والشظة والمهايا والشعراء والصباح وبني سليم, فملكوا القصور التي اختطتها زناتة, وفرضوا الضرائب على بقية السكان وعلى القوافل[3].

ج- **قبائل عربيّة أخرى:** إضافة إلى قبائل سليم وهلال القيسيّة, وقبيلة المعقل اليمنيّة, كانت هناك فروع من قبائل أخرى اندرجت مع بني منصور بن عكرمة, فذكر ابن خلدون بنو المنتفق من بني عامر بن عقيل بن كعب، الذين كانوا شيعة للقرامطة بالبحرين, ودخلوا مع بني سليم أرض أفريقية[4].

ومن القبائل التي أشار إليها ابن خلدون بعض بطون فزارة وأشجع من غطفان, و قبيلة جشم التي يعود نسبها إلى معاوية بن بكر بن هوازن وسلول بن مرة ابن صعصعة بن معاوية، وقبيلة عمرة والتي تنتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار، إضافة إلى قبيلة بني ثور بن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصعة، وقبيلة عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان. وقبيلة طرود والتي هي أحد بطون فهم بن قيس.

---

[1]-يقع وادي ملوية شرق المغرب الأقصى, ويصب في البحر المتوسط, وكان يعتبر الحد الفاصل بين مملكة بني زيانن ومملكة بني مرين, ويعدّ من الأنهار الكبرى ينحدر من قسم الجبال بين الأطلسين الكبير والمتوسط وينصب في البحر المتوسط بين وجدة ومليلية يبلغ طوله نحو 500كلم تحيط به عدة قصور صحراوية وقرى ومراكز فلاحية مهمة. ينظر: محمّد بن عبد الله التنسي, تاريخ بني زيان ملوك تلمسان" نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان", تحقيق: محمود بوعياد, الجزائر: المؤسسة الوطنيّة للكتاب والمكتبة الوطنيّة الجزائريّة ,1985م, ص287 ,- وهو من كلام المحقّق- ؛ عبد الرحيم بن سلامة, المملكة المغربية (تعريف بالمدن والقرى والقبائل والأسير والجهات), الرباط: منشورات دار الإيمان, 2011م, ص79.

[2]- يُرجّح عبد الرحمن بن خلدون أنّ العمور من ولد عمرو بن عبد مناف بن هلال إخوة قرة بن عبد مناف, وهم بطنان: قرة وعبد الله، وكانوا قلة ومتفرقين وفيهم الفرسان وأكثرهم رجالة, أمّا موطنهم ففي جنوب المنطقة الواقعة بين جبل أوراس شرقا إلى جبل راشد, بمحاذاة الحضنة. وقد صار جبل راشد يعرف باسمهم. المصدر السابق, 35/6.

[3]- عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, ص415.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 40/6.

وكلّ قبيلة من هذه القبائل قد دخلت في حلف بطن من بطون هلال, واندرجت في عدادهم, بسبب قلّة رجالاتها, وضعفها عن الرّياسة[1].

الرّحلة من نجد إلى الحجاز:

مثّلت بلادُ نجدٍ موطنا لكثير من بطون القبائل المضرية, ومن جملتهم أولاد منصور بن عكرمة[2], وبسبب الجدب الذي عرفته هذه الأرض, قامت كثيرٌ من القبائل بالنزوح عنها منذ أزمنة بعيدة, فيما تأخر نزوح قبائل منصور بن عكرمة, والتي سعت إلى التكيف مع الطبيعة, وهو ما يقرّره عبد الرّحمن بن خلدون بقوله أنّ: ((نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن حملتهم عليها الضّرورة الّتي عيّنت لهم تلك القسمة؛ وهي لما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها والإبل تدعوهم إلى التّوحّش في القفر لرعيها من شجره, ونتاجها في رماله كما تقدّم, والقفر مكان الشّظف والسّغب, فصار لهم إلْفا وعادة, وربيت فيه أجيالهم حتّى تمكّنت خُلُقًا وجبلّة[3])) وهذا النصّ يتجلّى فيه نوعيّة الظّروف التي كان العربي يعيش فيها, ومدى قدرته على الصبر وتحمّل شظف العيش والأحوال.

ولأنّ بلاد نجد كانت بعيدة عن مراكز الحضارات الإنسانية القديمة, فقد بقيت على بداوتها. تلك البداوة التي أصبحت عنصرا ضروريا من عناصر بقاء هذه القبائل على قوتها واجتماعها, بل وإلى شريعة يتوجب الحفاظ على تعاليمها, وعدم المساس بأبجدياتها. وكان من أهم عناصر هذه الحياة البدوية, الرحلة وإبعاد النجعة, بحثا على منابت الكلأ, ومواقع المطر. و في بداية القرن السادس للميلاد أصابت بلاد نجد قاطبة مجاعة قاتلة, لم تتمكن القبائل العربية من مقاومتها, فنفدت المحاصيل, وفنيت الأنعام.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 22/6 -25.

[2]- كان بنو هلال يملكون عدّة بقاع بنجد مثل: عبل, بريق, دومي, الكريخة, غروش, مران, سريحة, ذريحة وعكاظ وعدّة أوديّة مثل وادي شربة ووادي جيدان ووادي غنية, ومجموعة من الجبال مثل جبل بيشة والكفا, وعدّة قرى كقرية بيشة, أمّا بنو سليم فكانوا يسكنون الحِرار كحَرّة بني سليم وحَرّة النّار, وتقع معظمها في الحجاز. يُنظر: راضي دغفوس, دراسات عن بني هلال والهجرة الهلاليّة, منوبة: مركز النشر الجامعي, 2015, ص8؛ عبد الحميد خالدي, الوجود الهلالي السليمي في الجزائر, الجزائر: دار هومة, 2012, ص7.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 162/1.

هذه المجاعة التي أصابت بلاد نجد قد بقيت حاضرة في أذهان أبنائهم الهلاليين, وورد شيء عن هذه المجاعة في التغريبة كقول صاحب التغريبة:((ومازالت – أي بلاد نجد – على رونقها الأول حتى تغير رونق قطرها, وامحل وانقطع عنها الحشيش والنبات, وعمّ البَلاءُ من جميع الجهات, ولم يعد فيها شيء من المأكولات حتى صارت أهلها تأكل الحيوانات[1])).

وتواصل التغريبة سرد تفاصيل المجاعة التي اجتاحت بلاد نجد، وكيف أن أهلها من مشايخ وشبان قد قصدوا أحد أمرائهم وهو الحسن بن سرحان[2], واتفقوا على الرّحلة, وهي الرحلة التي جعلتهم يتسللون إلى أرض الحجاز[3], بجوار بعض القرى العربية التي كانت أقل منهم بداوة وأقرب إلى التمدن[4].

وهكذا بدأت الكثير من هذه القبائل تتدفّق من بلاد نجد إلى بادية الحجاز، لتتوزع عبر ربوعه. فكانت البادية المحاذية للمدينة النبوية إلى خيبر وتيماء موطنا لقبائل سليم. بينما شكّل جبل غزوان ببلاد الطّائف و شرقي مكة مجالا لبني هلال وجشم، فيما كانوا يطوفون في رحلة الصيف والشتاء حول أطراف العراق والشام[5]. بينما سكن بنو المنتفق بأرض تيماء من نجد. واستقرت قبائل المعقل[6] ببلاد البحرين[7].

[1]– مجهول, تغريبة بني هلال الكبرى الشاميّة الأصليّة ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة وما جرى لهم من الحوادث والأهوال, نشر: حسين عاصي, بيروت: مكتبة الأندلس ومطبعتها, ص3.

[2]–الحسن بن سرحان: هو أحد رجالات الهلاليين الذين دخلوا أرض افريقية, وتغلب على أرض قسطيلة. وأمّا ورود اسمه في الهجرة من نجد صوْب الحجاز, فهو من أغاليط القصّاصين. ينظر: تغريبة بني هلال, ص3؛ عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, 394/1.

[3]– الحجاز هو ما بين نجد وتهامة, وهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام, ويسمى حجازا لحجزه بين نجد وتهامة. انظر: محمود شكري الألوسي, تاريخ نجد, تحقيق: محمد بهجة الأثري, ط3, 1415هـ, ص7.

[4]– أحمد بن علي المقريزي, اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمّة الفاطميين الخلفاء, تحقيق: جمال الدين الشيّال ج1 ومحمّد حلمي محمّد أحمد ج 2 و 3, ط1, القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي, 2/ 215-216.

[5]–عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 18/6.

[6]– المقريزي, المصدر السابق, 215/2-216.

[7]–البحرين: قال عنها ابراهيم بن محمّد الاصطخري: ((وأما البحرين فإنها من ناحية نجد، ومدينتها هجر وهى أكثر تمورا، إلا أنها ليست من الحجاز، وهى على شط بحر فارس، وهى ديار القرامطة، بها قرى كثيرة وقبائل من مضر ذوو عدد قد احتقّوها)). ينظر: المسالك والممالك, ط1, القاهرة: الهيئة العامّة لقصور القاهرة, ص23.

ورغم مجاورة هذه القبائل لقبائل عربية أخرى أكثر تحضّرا، فإنّها لم ترغب في تغيير طريقة عيشها, وظلّت تتخوف من الأخذ بمذاهب الحضر في الحياة, والركون إلى طريقتهم في العيش, خوفا على كيانها القبلي من التفكّك.

ومن جهتهم كان الحضر من سكان الحجاز، ينظرون إلى الهلاليين نظرة ازدراء, فهم من وجهة نظرهم بدو متخلفون, وعتاة متوحشون. وأمام هذه النفرة بين الفريقين، تحولت أطراف المدن العربية إلى أهداف لهذه القبائل الهلالية, كما أنّ قوافل التجار باتت غرضا لفرسان بني هلال, لتصل غاراتهم إلى أطراف بلاد الشام والعراق.

- القبائل الهلالية في صدر الإسلام:

مع منتصف القرن السادس للميلاد كانت الجزيرة العربية على موعد مع حدث هام, حوّلها من مجرّد أرض صحراوية قاحلة, إلى مركز ديني وسياسي لا نظير له في العالم, هذا الحدث هو؛ بزوغ رسالة الاسلام[1], وإشراق نوره في الكون. فمع بعثة النبي صلى الله عليه وسلم, بدأ عهد جديد للجزيرة العربية, لتتضح معالم هذا العهد عقب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة, وتأسيسه لأول دولة ترعى هذا الدين الحنيف.

- القبائل العربية الهلالية ودعوة الإسلام:

كانت كثير من بطون القبائل العربية الهلالية, تجاور المدينة, وتتوزع على أطرافها, وتتحكم في أهم طرق التجارة, وحين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة, وسعى إلى تأسيس دولة قوية, أرسل إلى بطون هذه القبائل يدعوهم إلى الإسلام, لكنّهم أظهروا منذ البداية عدم تحمّسهم لتعاليمه, فتأخَّر إسلامهم, وظهر من بعض بطونهم العداوة لهذا الدين, وهو ما كان سببا لقتال المسلمين لهم.

وبدأت قبائل بني هلال تتربص بأطراف المدينة, لذلك كرّر النبي صلى الله عليه وسلّم تَجْهيزَ السرايا والبعوث لغزوهم[2], ومن الغزوات التي حفظتها لنا كتب السيرة, غزوة الكدر في سنة

---

[1]- العصر الجاهلي هو العصر الذي سبق ظهور الاسلام, ونعني بالجاهلية ما عرف به هذا العصر من السفه العقائدي والخلقي, من شرك وسرعة غضب وعدم الاحتكام لشريعة سماوية, محمّد رضا مروة, المرجع السابق, ص12.

[2]- ألفرد بل, الفرق الإسلاميّة في الشّمال الإفريقي من الفتح العربي حتّى اليوم, ترجمة: عبد الرّحمن بدوي. ط3, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1987, ص211.

اثنين للهجرة, والتي كانت ضدّ أحياء بني سليم, ولم تمض سنة حتى عاود النبي صلى الله عليه وسلم غزوهم ببحران[1]. ولعلّ غزوة بئر معونة هي أشهر صدام كان له وقع كبير على النبي صلى الله عليه وسلّم, وذلك أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم بعث إلى أهل نجد يدعوهم إلى الإسلام, وأرسل إليهم سبعين رجلا من أصحابه, فقامت بعض بطون سليم, وهي عُصَيّة ورِعْلا وذَكْوان بقتالهم, ولم يُفْلِت منهم إلّا كعب بن زيد الأنصاري, ولهول هذه الموقعة, بقي النبي صلى الله عليه وسلم يَقْنُتُ شهرا, يدعوا على عصية ورعلا وذكوان السلمية, بل و نزلت في أهل بئر معونة آيات من القرآن الكريم ثمّ نُسِخت[2].

- إسلام القبائل العربية الهلالية:

لم يدم كفر هذه القبائل بالإسلام طويلا, فسرعان ما دفعهم الطّمع في الغنائم, والخوف من قوات المسلمين إلى الإذعان للنبي صلى الله عليه وسلم, لتُسلم مشيختهم, وتُسلم بعد ذلك سائر بطونهم. ومن المؤكّد أنّ بداية إسلامهم لم تكن عن إيمان راسخ, بل هو مجرّد تقليد لشيخ القبيلة, أي أنه إسلام صوري, تحركه الرغبة فيما عند المسلمين, والخوف من شدّة بطشهم. لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم, يسعى إلى تهذيب طباعهم, وتأليف قلوبهم, فاستعان ببعض بطونهم في غزواته, وأغدق عليهم من العطايا, وأعطاهم من الصدقات, ما جعل بعض بطون سليم تشترك مع رسول الله عند فتح مكة[3].

- بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم:

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلّم, ظهر ما عرف بحركة الردّة, وارتدّت كثير من القبائل العربية, وامتنعت عن دفع الزكاة, وكانت بعض بطون هذه القبائل من جملة ارتدّ[4], وكان سبب ردّتها, هو الرغبة في التخلص من دفع أموال الزكاة للخليفة أبي بكر الصديق[5], فكانوا يعتبرون ذلك هضيمة وذلة, وهو ما يكشفه قول قرَّةَ بن هبيرة شيخ بني عامر, حين نزل

---

[1]-عز الدين بن الأثير, الكامل في التّاريخ, ابن الأثير, تحقيق: عمر عبد السّلام تدمري, ط1, بيروت: دار الكتاب العربي, 1417هـ/1997م, 31/2, 34.

[2]-ابن الأثير, المصدر السابق, 60/2.

[3]- المصدر نفسه 119/2.

[4]- المصدر نفسه, 207/2.

[5]- ألفرد بل, المرجع السابق, ص211؛ عبد الحميد بوسماحة, رحلة بني هلال, 67/1.

عليهم عمرو بن العاص, عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم, وتولي أبي بكر للخلافة, حيث قال له: ((يا هذا، إنّ العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة، فإن أعفيتموها من أخذ أموالِها فستسمعُ لكم وَتطيعُ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكمْ))[1].

بادر الجيش الإسلامي إلى غزو هذه القبائل, وإرغامها على دفع الزّكاة, فلزمت الطاعة خوفا من السيف, فيما كانت تضعف طاعتها عند أي اضطراب يُلمّ بالجزيرة العربية, مستغلّة ذلك لتُعاود الرجوع إلى طريقتها, كلّما سنحت لها الفرصة, وتعيث فسادا في البلاد.

- أثناء العهدين الأموي والعباسي:

بعد أن استتب الأمر لبني أمية, وآلت إليهم الخلافة, حوّل خلفاؤهم الدَّولة الإسلامية من النظام الشوري إلى النظام الملكي الذي يعتمد في تدعيم أركانه على طبقة معينة من الأنصار والأتباع, الذين منهم تتكون الإدارة ورجال السلطة, وبسبب بداوة قبائل بني هلال وبني سليم تمّ إقصاءهم وعدم إشراكهم, خوفا من عدم القدرة على التّحكم فيهم, وبسبب إفراطهم في البداوة. وإبّان العهد العباسي بدأت الدولة تنسلخ من المكون العربي, وآلت الدّولة للأعاجم, وكلّ هذه المتغيرات جعلت هذه القبائل العربية تتعرّض للتهميش, لتعيش في أطراف الدولة, بعيدة عن مركز الخلافة, وحواضر الملك حيثُ المدنية الإسلامية[2]. وسعيا منهم للتّنفيس عن غضبهم من هذا الإقصاء, كانوا يغيرون على القوافل التجاريّة, وحتّى قوافل الحجّ أيام الموسم عند زيارتهم للمدينة[3]. و اشتدّت وطأتهم في المائة الثالثة من الهجرة, ومن ذلك قيامهم سنة مائتين وثلاثين, بالإيقاع بأهالي الحجاز, من بني كنانة وباهلة, ودخولهم أسواق الحجاز, واستباحتهم القرى والمناهل[4], ونفس الشيء حصل في سنة 363هـ, والتي ذكر ابن الأثير من حوادثها, خروج بني هلال على الحجيج, وقتلهم منهم خلقا كثيرا[5].

---

[1]-ابن الأثير, المصدر السّابق, 209/2.

[2]- عبد الكريم غلاب, قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي, دار الغرب الإسلامي, 1996, ط1, بيروت, 181/1.

[3]- عبد الحميد بوسماحة, رحلة بني هلال, 67/1.

[4]-محمّد بن جرير الطّبري, تاريخ الرّسل والملوك, الطبري, ط2, بيروت: دار التراث, 1387هـ, 129/9.

[5]-ابن الأثير, المصدر السابق, 325/7.

- تحالف القبائل الهلالية مع القرامطة:

استمرّ عيش هذه القبائل العربيّة بمدن وقرى الشام والعراق والحجاز, وزادت وثيرته أيّام الحج, وتمركزت حول الطرق التي كان يسلكها الحجاج والتجار[1]. وبدءوا في التقدم نحو قرى الشام والعراق, وكلّما تعطّل طريق وسلكت القوافل طريقا آخر, قامت القبائل العربية بالتقدّم والسّيطرة على هذا الطّريق أيضا, حتّى فسدت الطّرق البريّة, و تعطّل الحجّ لسنوات عدّة[2]. كما توقفت حركة القوافل, وتقدّمت هذه القبائل نحو الحواضر الكبرى, كدمشق مثلا, والتي طمع فيها العرب, حتى كانت مواشيهم تدخل الغوطة[3].

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري ظهرت فرقة القرامطة[4], وقاموا بانتهاك حرمة مكّة, وقتل الحجيج في الحرم, وأخذ أستار الكعبة, وسرقة الحجر الأسود, تلك الأعمال التي سارت بأحاديثها الركبان, ما جعل سكان الأقطار الإسلامية يقصرون عن الرحلة إلى الحجاز, لتتدهور الحركة بين الشام والعراق ومصر ومكة والمدينة.

وقام القرامطة باغتنام فرصة همجية القبائل العربية, فدفعتهم المصلحة المشتركة إلى الاستعانة بهم[5], ومن أهم البطون الهلالية التي تحيزت للقرامطة, وصارت جندا لهم قبائل المعقل

---

[1]- ابن الأثير, المصدر السابق, 325/7.

[2]-الطبري, المصدر السّابق, 71/10.

[3]- المقريزي, المصدر السّابق, 254/1.

[4]-القرامطة: أتباع حمدان قرمط، وحركتهم دينية سياسية اجتماعية، استولوا على كثير من البلاد، واستولوا على مكة المكرمة، وأخذوا الحجر الأسود، وقتلوا كثيرا من المسلمين في المسجد الحرام، وكانوا بقيادة أبي طاهر سليمان بن أبي ربيعة الحسن القرمطي وكان ذلك في سنة 317 هـ, وأعيد الحجر الأسود إلى مكانه من الكعبة في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة 339 هـ بتوجيه من الخليفة الفاطمي المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن عبد الله المهدى. ينظر: ابن الأثير في حوادث سنة 317هـ وما بعدها؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، 4/ 91.

[5]- تمّت عدّة عوامل ساعدت على هذا التحالف, منها بعض أوجه التشابه بين الفريقين, فكلاهما منبوذ من طرف السُلطة, كما أنّ سمعة القرامطة وكذا الهلاليين كانت سيئة للغاية, فالمجتمع والنخبة يعتبرهم خارجون على الإسلام, خوارج على السلطان. وأيضا كانت حاجة القرامطة لتكثير أعدادهم, ورغبة الهلاليين في تمويل جماعاتهم إحدى أسباب هذا التّحالف, إضافة إلى ضعف الوازع الديني, وامتهان الحرابة وقطع الطريق. ينظر: إدريس عماد الدّين الدّاعي(ت872هـ/1488م), تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب–القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار–, تحقيق: محمّد اليعلاوي, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1985م, ص713.

بالبحرين, فالمقريزي قد ذكر أنّ البحرين كان ديارا لقبيلة المعقل[1], و هم الذين عناهم الإصطخري عند حديثه عن البحرين فقال: ((هي ديار القرامطة، ولها قرى كثيرة وقبائل من مضر ذوو عدد قد احتفّوها[2])).

- نقل القبائل العربية إلى صعيد مصر:

تعتبر سنة 358هـ/ 969م من السّنوات الفاصلة في التاريخ الإسلامي الوسيط, حيث بسط فيها العبيديون نفوذهم على مصر[3], بقيادة أبي الحسن جوهر القائد[4], مستغلين ضعف حكم الإخشيديين, بعد وفاة كافور الاخشيدي[5].

وفور تمكّن جوهر من مصر قام يخاطب أهلها, ويأمرهم بطاعة بني عبيد, ويَعِدُهم بالقضاء على هجمات القرامطة والقبائل العربيّة العابثة بأمن الطّرقات, و طمأن سكان مصر قائلا أنه سيسعى إلى:((إقامة الحج الّذي تعطل, وتسكين خوف السكان, واصلاح الطرقات, وَنفي الْفساد مِنْهَا وَقطع عَبث العابثين فِيهَا لينصرف النَّاس آمِنين وينبسطوا مُطْمَئِنين, وليتخلفوا إِلى مدينة مصر بالأطعمة والأقوات[6])).

و حتى يحقق جوهر وعده, قام بمحاربة القرامطة, ساعيا إلى تحويل الحجاز والشام من الخلافة العباسية إلى الخلافة الفاطمية, ثمّ بادر إلى نقل القبائل الهلالية إلى صعيد مصر, ولا شكّ أنّ هذا العمل تمّ على مراحل, وأنّ أوائل الهلاليين قد وصلوا مصر, فور فراغ جوهر من بناء القاهرة, لأنّ ابن حوقل الذي كان في مصر سنة 359هـ, قد حكى أنّه يوجد بواحات مصر, من بنى هلال عدّة غزيرة وأمّة كثيرة[7].

---

[1]- المقريزي, المصدر السّابق, 215/2.

[2]- الاصطخري, المصدر السّابق, ص23.

[3]- الدّاعي إدريس, المصدر السّابق, ص683.

[4]- يوسف بن تغري(ت874هـ), النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة, ط1, مصر: دار الكتاب, 28/4.

[5]- الداعي إدريس, المصدر السّابق, صص663-683.

[6]- المقريزي, المصدر السّابق, 86/1.

[7]-محمّد بن حوقل (ت بعد367هـ), صورة الأرض, بيروت: دار صادر, 1938م, 155/1.

وقد تخلّف عن هذه الهجرة, أو التّهجير القسري إن صحّ التعبير بعض القبائل العربية الهلالية, والذين استوطنوا الشام, وبقوا فيها, واستمرّوا في ممارسة الحرابة, والتعرّض لقوافل الحجيج[1], ومن ذلك تعرضهم سنة 399هـ, لحجّاج البصرة، وَأَخذهم مِنهُمْ نحوا من ألف ألف دينار[2].

وحين قام الفاطميون بنقل هذه القبائل العربية إلى صعيد مصر والعدوة الشرقية لنهر النيل, كثر فسادهم, واكتظت الصحراء بهم[3], ولم يبق لهم عدد بالحجاز أو الشام أو البحرين, ولبثوا في مصر زمنا وانضمت إليهم جماعات أخرى من الأعراب[4].

وكان الفاطميون يتخوفون من الهلاليين :((فكان لا يسمح لها بالرحيل ولا بإجازة النيل))[5]. وصارت هذه القبائل ثلمة في خصر دولتهم, وكابوسا يؤرق خلفاءهم[6]. و ساهمت في تردي الأوضاع المعيشية والاقتصادية بمصر, أيام المستنصر[7], ثمّ أصابت مصر مجاعة شديدة في عهد المستنصر, والتي وصفها المقريزي بقوله:((ثم وقع الغلاء في خلافة المستنصر, ووزارة الوزير

---

[1]- استمرّ الاعتداء على الحجاج عند القبائل الهلالية حتى بعد انتقالها إلى افريقية والمغرب, وأمام تزايد الاعتداء على الحجاج, رأى السلاطين ضرورة تأمين قوافل الحج, وهو ما تولد عنه الركب المغربي, والذي تحول إلى مؤسسة إسلامية, تبث مراكزها على طول الطريق من الغرب الأقصى إلى مكة, والذي قام بتمويله السكان والسلاطين وكل فئات المجتمع, بل كثيرا ما رافق ركب الحاج عددٌ من شيوخ العرب, مثل مرافقة مشايخ العرب للركب المغربي سنة 740هـ, والذي كانت فيه والدة أبي الحسن, تصحبها خيرة الأميرات والحظايا ووجوه الدولة من أعيان بني مرين. أحمد زرّوق, كنّاشة زرّوق " فوائد من كنّاش العارف بالله الشّيخ أحمد زرّوق ", تحقيق: محمّد إدريس طيّب, ط1, بيروت:دار الكتب العلميّة, 2011م,صص93-94؛ محمّد المنوني, من حديث الركب المغربي, تطوان: مطبعة المخزن, 1953م, ص13.

[2]-أبو الفداء إسماعيل بن كثير(ت774هـ), البداية والنهاية, تحقيق: علي شيري, ط1, مصر: دار إحياء التراث العربي, 1408هـ-1988م, 392/11.

[3]- أضرّ الوجود الهلالي بالصّعيد كثيرا أيّام دولة بني عبيد, وهو ما يعبر عنه عبد الرحمن بن خلدون بقوله: ((وقد عمّ ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم)). ينظر: المصدر السابق, 18/6.

[4]- عبد الحميد بوسماحة, رحلة بني هلال, 69/1.

[5]- علي بن بسام الشنتريني, الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, تحقيق: إحسان عبّاس, ط1, ليبيا-تونس: الدار العربية للكتاب, 1979م, 614/8.

[6]- ممّا يؤكّد مدى العنت الذي لقيته الدّولة العُبيديّة من هذه القبائل الهلالية, نشيرُ إلى أن الدولة العبيدية لم تتمكن من فض نزاع بين زغبة ورياح إلا بإرسال مكين الدولة أبي علي العقيلي, والذي لم يقدر يتمكّن من تنفيذ المهمّة إلا بتحمّل للديّات. ينظر: المقريزي, المصدر السّابق, 215/2.

[7]- علاوة عمارة, المرجع السّابق, ص21.

الناصر لدين الله أبي محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري, وسببه قصر النيل...فاشتدت المسغبة[1])). وكانت هذه القبائل العربية تساهم في تفاقم الأزمة, بشن الغارة وترويع السابلة وممارسة الحرابة[2].

---

[1]- أحمد بن علي تقي الدين المقريزي , إغاثة الأمّة بكشف الغمّة, تحقيق: كرم حلمي فرحات, ط1, مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية, 1427هـ-2007م, ص93.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 18/6.

المبحث الثاني: غزو القبائل العربية لأفريقية

بعد أن ترك العبيديون[1] أرض أفريقيا أسندوا قيادتها للزيريين فحكموها باسم العبيديين, وقاتلوا خصومهم. واستمرّ الأمر إلى أيّام المعز بن باديس, فبدأت العلاقة تفتر بينه وبين العبيديين[2], إلى أن قام بخلع طاعتهم, وبادر إلى بيعة خصومهم من بني العباس سنة 440هـ[3], وهو ما

---

[1]- ينسبون إلى عبيد الله المهدي المختلف في نسبه, فكثير من أهل السنة ينسبونه إلى ميمون القداح الديصاني, فيقولون هو سعيد بن الحسين بن عبد الله القداحي, فيما اضطربت أقوال أنصار الخلافة الفاطمية من الشيعة الإسماعيلية وغيرهم, و اختلفوا في نسب عبيد الله المهدي, وتبعا لذلك فكثير من أهل السنة يفضّلون تسمية دولتهم بالدولة العبيديّة لا الخلافة الفاطمية. ينظر حول هذا الاختلاف: محمّد سهيل طقّوش, تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام, ط2, بيروت: دار النفائس, 2007, صص54-58.

[2]- عزى بعض المؤرخين ومنهم المقريزي وابن خلدون, سبب خلع المعز بن باديس للعبيديين, إلى توتر علاقته بمحمّد اليازوري. فيما أضاف ابن بسام الشنتريني والتيجاني وكذا ابن الأثير سببا آخرا, وهو انحراف المعز بن باديس عن مذاهب الشيعة, وميله إلى مذهب أهل السنة. وقد استدلّ ابن الأثير على ذلك بحادثة قتل الرافضة بالقيروان سنة 407هـ. أمّا مبارك الميلي فذكر سببا آخر, وهو أنّ المعزّ قد ساءته سياسة حكام مصر, والذين لم يكفّوا عن تدبير الثورات بالمغرب كي لا يفقدوا نفوذهم. وأرى أنّه هناك سببٌ آخر وجيه يُضاف إلى هذه الأسباب, دفع بالمعز بن باديس إلى خلع العبيديين, وهو رغبته في التقرب من سكان إفريقية, وكسب قلوب فقهاء القيروان. خصوصا حين استقل حماد عن 1باديس, و حاول أن يضفي الشرعية ويتألف قلوب رعيته بخلع العبيديين المنبوذين آنذاك من السكان والفقهاء, وبايع العباسيين. فبعد أن قام بفتح مدينة باجة, حرض سكان تونس على قتل الشيعة, وساعده الشيخ محرز بن خلف, وذلك في سنة 406هـ/1015م, فحاول باديس, أن لا يثير حفيظة العبيديين, لذلك سارع إلى معاقبة التونسيين, وهو ما جعل أهل السنة يميلون إلى حماد, وينفرون من باديس. لذلك ما إن استتبّ الأمر لابنه المعزّ حتى حذى حذو حمّاد, ويؤكّده ما أشار إليه ابن عذارى من أنّ الجمعة تعطّلت بالقيروان فرارا من دعوة العبيديين. ينظر:

ابن الاثير, المصدر السابق,7/ 640؛ المقريزي, اتّعاض الحنفاء, 2/ص190؛ ص 212؛ عبد الله بن محمّد التيجاني, رحلة التيجاني, تقديم: حسن حسني عبد الوهاب, ليبيا-تونس: الدار العربية للكتاب, 1981م, ص:16, 22؛ ابن عذارى المراكشي, البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب, تحقيق: ج.س.كولان وليفي بروفنسال, بيروت:دار الثّقافة, 1983م, 277/1؛ الميلي, المرجع السابق, 179/2؛ رشيد بورويبة, الدّولة الحمادية تاريخها وحضارتها, الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية, 1977م, ص22.

[3]- اختلف حول السّنة التي تم فيها الانفصال, والمرجح أنها سنة440هـ, ولعلّ سبب الاختلاف هو الخلط بين السنة التي توترت فيها علاقة المعز بن باديس مع العبيديين والتي كانت بداية من 435هـ, وبين السنة التي تمّ فيها خلع المعز ابن باديس لطاعة العبيديين, وهي سنة 440هـ. فابن الأثير في الكامل أورد تاريخين هما 435هـ, و440هـ, أمّا عبد الرّحمن بن خلدون فذكر سنتي 437هـ, و 440هـ, و كذلك فعل المقريزي, غير أنّهم توافقوا على سنة 440هـ, وهو ما

اعتبره العبيديون تهديدا لمصالحهم في الشّمال الإفريقي, فثارت ثائرتهم, وبادر المستنصر العبيدي إلى استشارة وزيره أبي محمّد الحسن اليازوري[1]. والذي كان من تدبيره أن أشار على المستنصر العبيدي باصطناع بني هلال وبني سليم, وتوليتهم أعمال أفريقيّة, فيكون بذلك قد أصاب عصفورين بحجر, وهو أنّه سيتخلص من شرهم, وفي نفس الوقت سيرمي المعز بهم و يعكّر عليه صفوه[2].

وافق المستنصر العبيدي على هذه الخطّة, وأعطى الأمر لوزيره باصطناع العرب, لذلك بادر اليازوري إلى إثارة أحيائهم[3], وأباح لهم إجازة النّيل, وجهّز كلّ واحد منهم بدينار, وقال لهم:((قد أعطيتكم المغرب, وملك المعزّ بن بلكين الصّنهاجي العبد الآبق[4])), وكتب اليازوري إلى المغرب: ((أمّا بعد فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا, وأرسلنا عليها رجالا كهولا, ليقضي الله أمرا كان مفعولا[5])).

كانت القبائل العربية الهلاليّة من زغبة و الأثابج وسليم وكثير من أحلافهم من جشم والخلط ...إلخ, تتحيّن فرصة إجازة النّيل, خصوصا بعد أن تعرّض الصّعيد لمجاعة قاتلة, فبادرت

يؤكده ابن عذارى عند تطرّقه لاستبدال المعز بن باديس للسكّة, وإصدار سكّة باسمه في سنة 441هـ, كما أن قرب سنة 440هـ من تاريخ إجازة القبائل العربية سنة 442هـ يقوّي هذا الترجيح. ينظر:

ابن الأثير, المصدر السابق, 8/ 41, 74؛ عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 79/4؛ 18/6؛ المقريزي, اتعاظ الحنفاء, 216/2؛ ابن عذارى المرّاكشي, المصدر السابق, 278/1؛ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر, القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين, الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية, 1982, ص60؛ صالح بن قربة, المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد, أطروحة دكتوراه, جامعة الجزائر, السنة الجامعية: 1982-1983م, صص481- 486.

[1]-أحمد بن محمد بن خلكان, وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان النويري, تحقيق: إحسان عباس, بيروت: دار صادر, 1900م, 367/3؛ النويري, المصدر السابق, 210/24؛ لسان الدّين بن الخطيب, تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمّد ابراهيم الكتاني, الدار البيضاء: دار الكتاب, 1964, ص74.

[2]- أبو عبد الله محمّد ابن الشمّاع, الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدّولة الحفصيّة, تحقيق:الطّاهر بن محمّد المعموري, تونس:الدّار العربيّة للكتاب, 1984, ص136.

[3]- المقريزي, المصدر السّابق, 215/2.

[4]- عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 18/6؛ سعد زغلول عبد الحميد, تاريخ المغرب العربي, الاسكندرية: دار المعارف, 1990, 420/3.

[5]- المصدر نفسه, 22/6.

قبائل هلال وأحلافها إلى تلبيّة النّداء بداية من سنة 442هـ, وساروا تحت قيادة شيخ رياح موسى بن يحي الصنبري, وأجازوا النّيل[1], ثمّ لحقتهم قبائل سليم[2], ووصلوا قريبا من القيروان سنة 443هـ[3].

و قد اضطربت كتب المصادر التي تطرقت إلى غزو القبائل العربية لأرض أفريقية, حول الوزير الذي قام بإجازة هذه القبائل. فعلي بن بسام الشنتريني ومحمّد بن علي بن حماد[4], قاما بنسبة ذلك للجرجائي[5]. فيما اضطرب المقريزي والتيجاني فمرة نسباها للجرجائي[6], ومرّة أخرى نسباها لليازوري[7].

والباحث يميل إلى كون اليازوري هو الوزير الذي قام بهذه الفعلة, فعبد الرحمن بن خلدون بيّن خطأ نسبة الفعل إلى أبي القاسم الجرجائي فقال: ((وقيل إن الّذي أشار بذلك وفعله وأدخل العرب إلى أفريقية إنما هو أبو القاسم الجرجاني، وليس ذلك بصحيح))[8]. ويبدو أنّ سبب هذا الاضطراب هو الخلط بين توتر علاقة المعز بن باديس والذي بدأ منذ أيام

---

[1]– لم تترك كلّ القبائل الهلاليّة الصّعيد, فقد بقي بعضهم ربّما بسبب العجز عن الرّحلة, ولا تزال بقايا بعض الهلاليين إضافة إلى آثارهم حاضرة في مصر إلى اليوم, ففي محافظات الصّعيد نجد قرية بني هلال بالقوصة في أسيوط, وقرية المساعيد العربية, وبنو هلال بدمنهور, وبنو هلال بسوهاج, كما تمثل المنوفية ومحافظة البحيرة والشرقية موطنا بقايا القبائل الهلالية بمصر.

2– عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 30/6.

[3]– المصدر نفسه, 22/6.

[4]– أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم, تحقيق: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس, القاهرة: دار الصّحوة, ص103؛ الذخيرة, 614/8.

[5]– أبو القاسم أحمد بن علي الجرجائي, قلّده الحاكم العبيدي الوزارة, استعظمه, وتبعه في ذلك ابنه الظاهر وابنه المستنصر نحو ثماني سنين, وكانت سيرته محمودة وآثاره مأثورة, وبحسب بعض الوثائق الفاطميّة, فقد وجد رسم تقليد بالوزارة في عهد الظاهر العبيدي إلى أبي القاسم علي بن أحمد الجرجائي, والمؤرّخ في 12 ذي الحجّة سنة418هـ, من إنشاء الكاتب ولي الدّولة أبو علي بن خبران. المصدر السّابق, ص103؛ جمال الدّين الشيّال, مجموعة الوثائق الفاطميّة –وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة, ط1, القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية, 2001م, ص286.

[6]– سعد زغلول, المرجع السابق, 420/3

[7]– المقريزي, المصدر السابق, 190/2, 212؛ النويري, المصدر السابق, 210/24؛ التيجاني, المصدر السابق,ص16, 22.

[8]– ابن خلدون, المصدر السابق, 18/6.

الجرجائي, وخلع طاعة العبيديين الذي تمّ بعد وزارة اليازوري[1]. خصوصا إذا علمنا أنّ ابن عذارى المراكشي قد ذكر في حوادث سنة 436هـ, وفاة الجرجائي[2].

- مراحل دخول القبائل العربية أرض أفريقية:

بعد أن قام المعز بن باديس بخلع طاعة العبيديين, وأشار اليازوري على الخليفة العبيدي المستنصر بضرب المعز بن باديس بالقبائل العربية. كلّف المستنصر وزيره باستنفار الهلاليين وأحلافهم بالصّعيد, وذلك في سنة 442هـ[3], وقام بإجزال العطاء لأمراء بني هلال, ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل. وقال لهم:((قد أعطيتكم المغرب، وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون)), ثمّ كتب الياروزي إلى المعز بن باديس: ((أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا، وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا[4])).

أ- وصولهم إلى برقة[5]:

بعد أن عبرت القبائل العربية نهر النيل, وانتقلت إلى العدوة الغربية, تقدّمت صوب برقة, وما إن وصلت طلائعهم إلى برقة، حتى نزلوا بها وافتتحوا أمصارها واستباحوها[6]، ولم يصطدموا بأي مقاومة تذكر[7], وسبب ذلك ما أشار إليه النويري من قيام الزيريين بطرد قبائل زناتة التي كانت لها اليد الطولى على تلك البلاد, وهو ما عبر عنه بقوله:((ودخلت العرب فوجدوا

1- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر نفسه, 79/4.

2- البيان المغرب, 276/1.

3-ابن الأثير, المصدر السابق, 87/8؛ عبد الحليم عويس, دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري, القاهرة: شركة سوزار, 2002, ص177.

4- المقريزي, لمصدر السابق, 217/2.

5- برقة: أُطلق اسم برقة على الجزء الشرقي من ليبيا, وهو مأخوذة من الاسم اللاتيني Barca , وأطلق عليها الرومان بنتابوليس, ومعناها المدن الخمسة. يقول عنها البكري: ((وهي دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها السائمة وتنمى على مراعيها)). يُنظر: البكري، المصدر السابق, صص12-16.

6- ابن عذارى, المصدر السابق, 288/1.

7- يجدر التنبيه إلى أنّه كان ببرقة فرقة من هؤلاء الهلاليين لم يكونوا من الذين أجازوا في عهد المستنصر العبيدي. وإنما كانوا من قبل ذلك ببرقة ، ولهم فيها أخبار مع الصنهاجيين والشيعة ببرقة ومصر خطوب. يُنظر: عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 6/ 22-25.

بلادا خالية طيبة كثيرة المرعى، كانت عمارتها زناتة فأبادهم المعز, فأقاموا بها واستوطنوها وعاثوا في أطراف البلاد[1])).

وما ان استتبّ الأمر لطلائع القبائل العربية, حتى بادروا إلى الكتابة لإخوانهم شرقيّ النيل يرغبونهم في الجواز, ويخبرونهم بطيب أرض أفريقية[2]. فرغب من تخلف عن الجواز في اللحاق بإخوانه, ومشاركتهم تقاسم خيرات إفريقية, لكنّ العبيديين هذه المرّة لم يسمحوا لهم بالجواز إلا بشرط؛ وهو أن يدفعوا لكل رأس دينارين, وتقول الرواية أنّ العبيديين قد أخذوا منهم أضعاف ما أعطوه لإخوانهم[3].

وإن صحّت هذه الرواية فيكون عدد الذين أجازوا الجواز الثاني, قريب من العدد الأوّل على أقل تقدير. والظّاهر من كتابات ابن خلدون أنّ قبيلة سليم هي التي لحقت بقبائل بني هلال وأحلافهم, لذلك قال ابن خلدون:((فأجازوا إليهم –أي سليم- بعد أن أعطوا لكل رأس دينارين فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه، وتقارعوا على البلاد فحصل لسليم الشرق، ولهلال الغرب[4])). ولا يُستبعد أن يكون العبيديّون هم من قاموا بتدبير هذه المراسلة, حتى يتخلّصوا من بني سليم, و يمنعوا بني هلال من المكث ببرقة, ويدفعوهم نحو الغرب.

ونشيرُ إلى أنّ الهلاليين الزاحفين قد صادفوا ببرقة قبيلة من بني جلدتهم, وهي قبيلة بني قرّة[5], والتي تغلبت على هذا الإقليم, وكانوا يُكنّون عداءً للصنهاجيين, و سبق أن اعترضوا هديّة باديس إلى الحاكم العبيدي, ويبدوا أنّهم تحالفوا مع بني عمومتهم الهلاليين ضدّ قبائل بني

[1]- النويري, المصدر السابق, 211/24.

[2]- المقريزي, المصدر السابق, 217/2؛ الهادي روجي إدريس, الدّولة الصنهاجية –تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م, ترجمة: حمّادي الساحلي, ط1, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1992م, 249/1.

[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 20/6.

[4]- المصدر نفسه, 20/6.

[5]- هم بنو قرة بن هلال بن عامر, أرسلهم الحاكم العبيدي مع يحي بن علي الأندلسي لصريخ فلفول بن سعيد بن خزرون بطرابلس, ورجعوا إلى برقة, ورفضوا أن يعودوا إلى مصر, فقام الحاكم العبيدي بقتل وفد منهم أرسلوه إلى الاسكندرية سنة 394هـ, , فقاموا بتنصيب الوليد بن هشام من نسل بني أمية للخلافة سنة 395هـ, وهزموا جيوش الحاكم العبيدي, وبعد أن قتل الوليد بن هشام, عفى الحاكم عن بني قرة, فعادوا إلى الطاعة, إلى أن كانت سنة 402هـ, قاموا باعتراض هدية باديس الصنهاجي إلى صاحب مصر, فأخذوها, وزحفوا إلى برقة وغلبوا العامل عليها, ثمّ رافقوا إخوانهم من بني هلال نحو إفريقية. ينظر: ابن حزم, المصدر السابق, ص257؛ عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 25/6.

سليم, وبادروا إلى مرافقة بني هلال من زغبة ورياح والأثبج واتباعهم إلى إفريقية، رفقة شيخهم ماضي بن مقرّب[1]. وأخمّن أنّهم ساهموا بشكل كبير في نجاح الحملة, لخبرتهم في قتال صنهاجة, ومعرفتهم بمسالك إفريقية, لذلك أخذت قبائل بني هلال الطريق الشمالي صوب طرابلس, التي سبق لهم وأن قاتلوا فيها فلفول بن سعيد بن خزرون المتغلب عليها أيام الحاكم العبيدي.

ب- وصولهم إلى طرابلس:

استقرت بعض بطون سليم ببرقة كلهب وأحلافها رواحة وناصرة وغمرة[2], فيما تقدّمت بقية القبائل صوب الغرب, وانحرفت شمالا صوب أجدابيا, ومنها إلى طرابلس التي تمثّل أوّل بلاد أفريقيا[3] سنة 442هـ[4], فتوقفوا عن الحركة, رغبة في سكناها, واقتتلوا فيما بينهم على قراها[5], واستعرت الحرب بين زغبة ورياح، وقد نتج عن هذا الصراع خراب المدينة الحمراء[6] وأجدابية[7]

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 25/6.

[2]- الإدريسي, المصدر السابق, 2 /313؛ عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 20/6.

[3]- طرابلس: مدينة ساحلية أنشأها الفينيقيون, وأصل تسميتها إغريقية ومعناها ثلاثة مدن, بناها القيصر أشسفاروش, و فتحها المسلمون سنة 645هـ في خلافة عمر بن الخطاب. ينظر: البكري, المصدر السابق: صص21-54 .

[4]- ذكر المقريزي أنّ ذلك تمّ سنة 443هـ, ولكنّ ابن الأثير أشار إلى أن ذلك كان سنة 442هـ, ولعلّ السنة التي ذكرها المقريزي, هي التي وصلت فيها طلائعهم إلى إفريقيا. ينظر: ابن الأثير, المصدر السابق, 86/8؛ المقريزي, المصدر السابق, 217/2.

[5]- تفيد رواية عبد الرّحمن بن خلدون أن العرب تقارعوا على بلاد إفريقية فحصل لقبائل سليم الشرق ولهلال الغرب, أما المقريزي, فوردت عنه الرواية بلفظ تصارعوا على البلاد, وهي اللفظة التي يجنح إليها الباحث, لأن أمور إقتسام البلاد لم تكن تتم بالمقارعة, وإنما بالمصارعة, فقد يكون ما ورد في رواية ابن خلدون سببه تصحيف أو خطأ من المحقّق. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 18/6؛ المقريزي, المصدر السابق, 217/2.

[6]- المدينة الحمراء كائنة في صحراء برقة, وهي مدينة حمراء التربة و المباني فتحمر لذلك ثياب سكانها والمتصرفين فيها, وعلى ستة أميال منها الجبل الأخضر. وهي دائمة الرّخاء كثيرة الخير, تصلح بها السائمة وتنمو على مرعاها. أحمد بك, المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب, ليبيا: مكتبة الفرجاني, ص108.

[7]- أجدابية بالفتح وهي مدينة في الصحراء قريبة إلى برقة, وبينها وبين طرابلس نحو خمس عشرة مرحلة. وفيها آثار الأبنية العظيمة والقصور الجسيمة. المرجع نفسه, ص104.

وأسمرا وسرت[1], لذلك بادر اليازوري إلى إرسال مكين الدولة أبي علي الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي[2] نحو طرابلس, للإصلاح بين زغبة ورياح, وأتحفهم بخلع سنية وأنعام كثيرة، وتحمل ما بينهم من ديات، ثم أمرهم بالمسير إلى المعز بن باديس، وأباحهم دياره، وتشدد في هذا الأمر[3].

فواصلت قبائل دياب وعوف وزغبة وجميع بطون هلال المسير نحو القيروان في جموع كثيرة كالجراد المنتشر[4]، وصحب ذلك تحرّشهم بالمدن والقرى التي صادفتهم, فجعلوا لا يمرّون

---

[1]- سرت: مدينة ليبية, تُكتبُ بضم السين وكسرها. كائنة بداخل السرت الكبير في نصف الطريق التي بين مسراتة وبنغازي. المرجع نفسه, ص107.

[2]- وجد الأستاذ عبد المنعم ماجد في مخطوط إسماعيلي اكتشف في الهند أن الخليفة الفاطمي عين الأمير أمين الدولة ومكينها حسن ابن علي بن ملهم على رأس قبيلتين هلاليتين وهما: قبيلة رياح وقبيلة زغبة. ينظر: عبد المنعم ماجد, سجلات مستنصرية, عدد5, صص 42-45, نقلا عن, رشيد بورويبة, المرجع السابق, ص48.

[3]-المقريزي, المصدر السابق, 215/2.

[4]- اختلف في أعداد هذه القبائل, فكتب المصادر لم تحدد ذلك بعدد معيّن, إلا ما ورد في ذكر عدد مقاتلي قبيلة صنبر من بني مرداس الرياحيين, يوم معركة حيدران, حيث بلغ بحسب رواية ابن شرف التي أوردها ابن عذارى الثلاثة آلاف فارس ومن الرّجالة ما يتناسب مع هذا العدد. ولكنّ الرواية الإسلامية قد ذكرت أوصافا أَشعرت بكثرة جموعهم. فنجد ابن بسام الشنتريني, قد وصف كثرتهم بسيل العرم, أمّا عبد الرحمن بن خلدون فقد وصف هذه الكثرة بقوله:((وسارت قبائل دياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه)). ومثل هذا الوصف جاء في رواية التغريبة, وورد فيها رقم لجموع القبائل العربية, وهو 360 ألف مقاتل وذلك بقوله:

فتجمع رجالك يا هلالي سلامة   مثل الجراد الممنتشر في السباسب

أربع تسعينات أُلوف عدادهم   يا أبو مخيبر يا قليـــــد العرايب

وأمام الشحّ المعلوماتي, اجتهد المتأخّرون في التخمين, وفق منهج المقاربات والاستعانة بالقرائن, بيد أنّه حصل اختلاف كبير, بين الأرقام التي جادت بها مفكرة هؤلاء المؤرّخين , فعبد الله العروي, و Ernest Leroux يريان أنّ أعدادهم لا تتجاوز المائتي ألف, أمّا عبد الرحمن الجيلالي, فيرجح أن يكون عددهم أربعمائة ألف, غير أنّ جورج مارسي, بين استحالة حصر أعدادهم, ومع ذلك قال أنّ عددهم لا يمكن أن يتجاوز المليون, وأما **ألفرد بل**, فذكر أن أعدادهم قاربت أربعين إلى خمسين ألف محارب, أمّا مُبارك الميلي فقال أن عددهم بلغ عتبة المليون نسمة. ولعلّ الأوصاف التي نعتت بها جموع الهلاليين الزاحفين إلى إفريقيا, أضف إلى ذلك تمكّن هذه الجموع من بسط نفوذها على قرى افريقية, وتغلبها على البربر, يدلّ على أنّ أعداد الهلاليين, قد فاقت النصف مليون نسمة. ينظر:

بشيء إلا أتوا عليه، فمرّوا بمدينة سرت ولبدة, وتقدّموا في الطّريق السّاحلي إلى أن بلغوا قابس[1].

ت- وصولهم إلى مشارف مدينة القيروان:

صارت القبائل العربيّة على مشارف مدينة القيروان عاصمة الزيريين, وبدأ شيوخها يبسطون نفوذهم متربّصين بالقرى التي صادفتهم, وكان أوّل الواصلين هو مُؤْنِسُ بْنُ يَحْيَى الْمِرْدَاسِيُّ, ثمّ تتابع قدوم أمراء القبائل الأخرى. فوصل حسن بن سرحان وأخوه بدر وفضل بن ناهض من دريد بن الأثبج, وماضي بن مقرب ونيونة بن قرّة وسلامة بن رزق من بني كثير أحد بطون كرفة بن الأثبج، وشبانة بن الأحيمر وأخوه صليصل من بني عطية من كرفه، ودياب بن غانم من بني ثور، وزيد بن زيدان من الضحاك، ومليحان بن عباس من البطون الحميرية ، وزيد العجاج بن فاضل وفارس بن أبي الغيث وعائذ أخوه، والفضل بن أبي علي من بني مرداس. وكان زياد بن عامر هو رائدهم في دخول إفريقية, وكانوا يسمّونه أبا مخيبر[2].

وما إن شعر المعزّ باقترابهم حتى حاول أن يستميلهم, ورأى أنه يمكنه تسخيرهم والاستعاضة بهم عن بني عمومته من بني حماد, فأرسل إلى أميرهم مؤنس الرياحي, واستدعاه واستخلصه لنفسه وأصهر إليه. وفاوضه في استدعاء العرب ببرقة وغيرها للاستغلاظ على نواحي بني عمه. بيد أنّ مؤنس الرياحي حذره من ذلك, وأخبره بمغبة هذا الفعل[3].

لكنّ المعز بن باديس أصرّ على طلبه, و ظنّ أن مؤنس يقول له هذا الكلام لينفرد بالعز, فأمام هذا الإصرار, ارتحل مؤنس إلى بقية الهلاليين, واستنفر القرى وأتى عليهم فاستدعاهم,

---

ابن بسام, المصدر السّابق, 614/8؛ ابن عذارى, المصدر السابق, 290/1؛ عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 22/6؛ تغريبة بني هلال, ص38؛ عبد الرّحمن بن محمّد الجيلالي, تاريخ الجزائر العام, ط2, بيروت: دار مكتبة الحياة, 1965م, 342/1؛ ألفرد بل, المرجع السابق, ص 212؛ عبد الحميد بوسماحة, رحلة بني هلال, 108/1؛

Ernest Leroux , le kalaa des beni –hammad:une capitale berbére de l'afrique du nord au XI siecle, paris, ernestr leroux, 1909, pp7-12.

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 20/6.

[2]- المصدر نفسه, 23/6.

[3]- ابن عذارى, المصدر السابق, 1/ 288؛ عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, ص391.

وأخبرهم بكرم المعز[1], وحين قدم أمرَاء العرب إِلى الْمعزّ بادر إلى إكرامهم وَبَذل لهم الكثير، فلمّا خرجوا مِن عِنْدِهِ زاد شرّهم، و شنّوا الْغارَاتِ، وَقطعوا الطّرِيقَ، وأَفْسدوا الزّروع، وَقطعُوا الثّمارَ، و حاصرُوا الْمدن، فضاقَ بالنّاس الْأمر, وفسدت المسالك, وتعطّلت التّجارة[2].

غضب المعزّ بن باديس, وظنّ أنّ مؤنّسا هو من حرّضهم ليظهر صدق قوله, فأمر بثقاف أولاده وأهله[3], وختم على داره, كما تقبّض على أخي موسى الرياحي.

وعبثا سعى المعزّ إلى تدارك الأمر بالسّياسة فأرسل طائفة من الفقهاء إلى العرب المفسدين, يوصونهم ويعظونهم, ويعرضون العهود والشروط, ويُعلمونهم أن السُّلطان سرَّح عيالاتهم ورفع الثّقاف عن أموالهم وأمتعتهم, فأظهروا الاستجابة وأخذ عليهم الفقهاء العهود والمواثيق, فأرسلوا شيوخا منهم إلى المعز تأكيدا لما اتفقوا عليه مع الفقهاء, ولكنهم ما لبثوا أن نكثوا العهود, وأمعنوا في الأرض عيثا وفسادا[4].

لم يجد المعزّ بن باديس بدّا من لقاء العرب وتأديبهم, فأرسل بالصريخ إلى ابن عمه صاحب القلعة القائد بن حامد بن بلكين، فسرّح إليه كتيبة من ألف فارس[5]. أمّا مؤنّس فغضب وألّب العرب, وجهّزهم للحرب, واستدعى أبناء عمومته.

بعد أن تجهّز المعزّ بن باديس وما إن اكتملت أعداد العرب الهلاليين, حتّى بدأوا يفكرون في طريقة اقتحام القيروان, فكان من رأي مؤنس بن يحيى المرداسي الصنبري[6] أن قال لهم: ((ليس المباردة عندي برأي. فقالوا: كيف تحبّ أن نصنع... ؟ فأخذ بساطا فبسطه، ثمّ قال لهم: مَنْ يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عَلَيْهِ؟ قَالُوا: لَا نقدر على ذَلِكَ! قال: فهكذا القيروان، خذوا شيئا فشيئا حتّى لا يبقى إلا القيروان، فخذوها حينئذ. فَقَالُوا: إنّك لشيخ واميرها، وَأَنْتَ الْمُقَدَّمُ عَلَيْنَا، ولسنا نقطع أمرا دونك[7])).

---

[1]- ابن عذارى, المصدر السّابق, 288/1؛ الهادي روجي إدريس, 253/1؛ عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, ص392.

[2]-ابن الأثير, المصدر السّابق, 87/8.

[3]- ابن عذارى, المصدر السابق, 289/1.

[4]- المصدر نفسه, 289/1؛ عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, ص392.

[5]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 20/6.

[6]-المصدر نفسه, 20/6.

[7]-ابن الأثير, المصدر السّابق, 87/8.

ومهما يكن من أمر هذه الرواية فإنّها تلخّص أسلوب العرب في انتزاع قرى إفريقية من الزيريين, وذلك أنّ هذه القبائل انتشرت وبدأت تتوسع في أطراف القيروان, ثمّ أحكمت حصارها على القيروان, وأخيرا تمكّنت من دخولها.

- قتال المعز بن باديس للقبائل العربية:

بعد أن فشلت محاولات المعز ابن باديس في استمالة العرب, وتلافي شرهم[1], قام بأسر أخ موسى بن يحى الصنبري[2], وحين تفاقم إفسادهم وعيثهم في قرى أفريقيّة, وخصوصا بعد إظهارهم البيعة للمستنصر العبيدي, وبهذا دخل معهم المعزّ في صراع[3], فعسكر بالقيروان, مستعينا بمدد صاحب القلعة[4], وجموع زناتة المجاورين له, بقيادة المستنصر بن حروز المغراوي في ألف فارس من قومه, و انضمّ إليه الكثير من بقايا عرب الفتح[5]. قام المعز بن باديس بإرسال بعض الطلائع لقتال العرب لكنّها فيما يبدو لم تحقّق شيئا, لذلك قام هو بقتالهم, وأشرف على العمليات الحربية ضدّهم, بداية من يوم 10 ذي الحجة 443هـ/1052م,

---

[1]- سعد زغلول, المرجع السابق, 3/426-427.

[2]- و النسبة إلى الصنبري هي الصحيحة, بخلاف ما ورد في اتعاظ الحنفاء من أنّ اسمه مؤنس بن يحيى العنزي, لأنّ النسبة هي إلى قبيلة صنبر. ينظر: المقريزي. المصدر السابق, 2/217؛ ابن خلدون, المصدر السابق, 6/ص22؛ ص 44.

[3]-المقريزي, المصدر السابق, 2/217.

[4]- قلعة بني حماد تقع بحوالي 36 كم شرقي المسيلة في جبل عجيسة, المعروف بجبل المعاضيد بناها حماد, ونقل إليها أهل المسيلة وحمزة. رشيد بورويبة, المرجع السابق, ص20.

[5]- عرب الفتح: يُقصد بهم من توافد إلى الشمال الافريقي منذ القرن الأول الهجري, بداية مع الفتوحات الإسلامية, خصوصا مع دخول عقبة بن نافع بـ: 10000من المقاتلة سنة 50هـ/670م, وانتهاء بمجيء يزيد بن حاتم أميرا على إفريقيا والمغرب سنة 155هـ/772م, ومعه 60000 من جند الشام والعراق وخراسان, وقد كان للعرب مراكز استقرار بالقيروان ثم انتقل كثير منهم إلى تونس حين أنشأها حسان بن النعمان سنة 82هـ/701م, كما أنشأ العرب مدنا أخرى كرقادة ومدينة القصر القديم. و أشار اليعقوبي إلى عدّة بطون عربية استوطنت الجانب الشرقي لبلاد المغرب الإسلامي, فذكر قبائل بلي وجهينة وبني مدلج وأخلاط من العرب, وذكر أن ببرقة جبلان أحدهما يقال له الشرقي فيه قوم من العرب من الأزد ولخم وجذام وصدف وغيرهم من أهل اليمن, والآخر يقال لهم الغربي فيه قوم من غسان وقوم من جذام والأزد وتجيب وغيرهم من بطون العرب. ثمّ تطرق إلى مدينة القيروان فذكر أنّ أهلها أخلاط من الناس من قريش ومن سائر بطون العرب من مصر وربيعة وقحطان. اليعقوبي, المصدر السابق, ص131, صص 132-137؛ عبد العزيز الدوري, أوراق في التاريخ والحضارة–أوراق في التاريخ العربي الاسلامي, مركز دراسات الوحدة العربية, ط2, بيروت: دار الغرب الاسلامي, 2009, ص248؛ سعد زغلول, المرجع السّابق, 3/429.

وتقول الرواية أنّ جيشه هجم على العرب وهم في صلاة العيد, ومع ذلك فإنّ الصّنهاجيين تكبّدوا هزيمة ساحقة, وفي الغد 11 ذو الحجة 443هـ التقى بالعرب فهزموه وتفرّق جيشه والتجأ إلى جبل حيدران[1] والذي عرفت الموقعة باسمه[2], وفرّ المعزّ إلى القيروان[3], وانتهبت العرب جميع مخلّفه[4], وقد فرحت القبائل العربية بهذا النصر, وردّدت لتخليده أشعارا, منها قول علي بن رزق الرياحي[5]:

وإنّ ابن باديس لأفضل ما لك   ولكن لعـمرى ما لديه رجال

ثلاثون ألفا منهم غلبتــــــهم   ثلاثـة آلاف إنّ ذا لمحـــــال

وحاول العرب أن يقتربوا من القيروان, منذ سنة 444هـ/1053م, ففرّ أهالي القيروان إلى تونس[6] سنة 445هـ, وأمر المعز بانتقال عامة أهل صبرة[7] وسوقتها من القيروان[1]. وبدأت القبائل العربية توطّد أقدامها بالبلاد, وتمثّل ذلك فيما يلي:

---

[1]- اختلف المؤرخون حول موقع حيدران, فالتيجاني قال أنّه جبل معروف بمقربة من القيروان, وقال ابن الأثير أنه على ثلاثة مراحل من القيروان, ويرى حسن حسني عبد الوهاب أنها قرية وردان الحالية. التيجاني, المصدر السابق, ص20؛ رشيد بورويبة, المرجع السّابق, ص54.

[2]- ابن عذارى, المصدر السابق, 1/292-293؛ الهادي روجي إدريس, المرجع السابق, 1/256-262..

[3]- النويري, المصدر السابق,215/24.

[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 22/6.

[5]- نسب هذه الأبيات لعلي بن رزق الرياحي التيجاني صاحب الرّحلة, وقال أنه أحد الأعراب الذين شاركوا في الموقعة. التيجاني, المصدر السابق, ص20.

[6]- تونس اسم فينيقي الأصل THNES , أُطلق على قرية كانت موجودة في عصر القرطاجنيين ثم في عصر الرومانيين والبيزنطيين, إلا أنها لم يكن لها نصيب كبير من تاريخ البلاد إلى أن جاء القائد حسان بن نعمان عام 69هـ, لحصار قرطاجنة, فاتخذ تونس قاعدة لمعسكره, فعمّرها وبنى فيها جامع الزيتونة, وحفر خليجا متسعا يصل بحيرتها بالبحر من جهتي رادس وحلق الوادي. حسن الوزان, المصدر السابق, 71/2.

[7]-صبرة: مدينة قريبة من القيروان, بناها إسماعيل العبيدي, وسماها المنصورية سنة 337هـ, وبنى بها العبيديون قصر ملكهم, ولجأ إليها المعز بن باديس بعد أن غلبه العرب على القيروان, ثمّ تركها بسبب قلّة تحصينها. لتتحول إلى خراب حتى قال فيها ابن رشيق:

أصاب القيروان وساكنيها   ودار الملك صبرة كل باس

فلا الدنيا التي بقيت بدنيا   ولا الناس الذين بقوا بناس

ينظر: التيجاني, المصدر السابق, صص328-329. محمّد بن عبد المنعم الحميري, الرّوض المعطار في خبر الأقطار, تحقيق: إحسان عبّاس, ط2, لبنان: مكتبة لبنان, 1984, ص354.

أ- حصار العرب للقيروان ثم تخريبها:

أيقن العرب أن المعز بن باديس غير قادر على ردّ عدوانهم, فقاموا سنة 446هـ بمحاصرة الْقَيْروانَ[2]، وأمام إحكامهم القبضة, وتضييقهم الخناق عليها. بدأ السكّان يرحلون منها, ويُغادرونها, بعد أن أمرهم المعزّ بن باديس بالانتقال إلى الْمَهْدِيَّةِ سنة 449هـ, لليلتين بقيتا من شعبان, وفي أوّل أيام رمضان انتهبت العرب مدينة القيروان وخرّبتها[3].

وقد مثّلت نكبة القيروان حدثا هاما في ذاكرة السّكان, والذين بكوا القيروان, ورثوها في أشعارهم كابن شرف وابن رشيق[4], وتفرق سكان القيروان وفقهاؤها في البلدان[5]. وأصبح العرب هم المتصرّف في أمورها كما يُبيّن ذلك الإدريسي بقوله:(سلط الله سبحانه عليها العرب وتوالت الجوائح عليها حتى لم يبق منها إلا أطلال دارسة وآثار طامسة وهي الآن في وقتنا هذا على جزء منها سور تراب وولاة أمورها العرب وهم يقبضون ما يتوفر من جباياتها[6]).

ب- إقتسام أفريقية: كانت بداية اقتسام أفريقية قبل استيلاء العرب على القيروان, ويرجع ذلك بداية من سنة 443هـ/1051م حين قامت القبائل العربية ببسط نفوذها, فأصبح كلّ

---

[1]-النويري, المصدر السابق, 24/215-216؛ سعد زغلول, المرجع السابق, 3/430-438.

[2]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 6/22.

[3]-ابن الأثير, المصدر السابق, 8/89؛ ابن عذارى, المصدر السابق, 1/294.

[4]- ممّا قاله ابن شرف عن القيروان:

آه للقيروان إنّه شجـــــوٍ من فؤاد بحماحم الحزن يصلى

حين عادت بها الدّيار قبورا بل أقول الديار منهنّ أخــلى

أمّا ابن رشيق فله قصيدة طويلة جاء فيها:

أترى الليالي بعد ما صنعت بنا تقضي لنا بتواصل وتدان

وتُعيد أرض القيروان كعهدها فيما مضى من سالف الأزمان

ينظر: حيزية حيتامة, رثاء القيروان بين ابن رشيق وابن شرف-دراسة موازنة, ماستر, جامعة بسكرة: كلية الآداب واللغات, 2014-2015م, ص98؛ ص101.

[5]- ذهبت طائفة من أعيان وسكان القيروان إلى قلعة بني حماد, فيما انتقل آخرون إلى فاس والأندلس, وهو ما قاله محمد بن أبي بكر الزهري. في كتاب الجغرافيا: (أهل القيروان تفرقوا في البلدان, ووصلت طائفة منهم بالأندلس و طائفة بفاس), تحقيق: محمّد حاج صادق, بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية, ص112.

[6]- الإدريسي, المصدر السابق, 1/284.

شيخ قبيلة يسبق إلى قرية يسمّي نفسه لسكان تلك القرية, ويؤمّنهم, ويعطيهم قلنسوته أو رقعة يكتبها لهم, ليُعلم غيره أنّه سبقه[1].

وفي سنة 446هـ/1054م شرع شيوخ القبائل العربية في اقتسام أفريقيا, فصارت قابس[2] لزغبة ورياح, بينما انفردت زغبة بطرابلس, وأخذ مؤنس بن يحيى باجة[3] وما يليها, وملك أبو مسعود من شيوخهم سوسة[4], و واستوطنت دباب مدينة توزر[5]. ثمّ واصلت جموع أخرى منهم التوسع مستغلين الصّراع بين بلكين بن محمد ومحسن بن القائد بن حماد سنة 447هـ/1055م, فتقدموا إلى قسنطينة[6] و هدموا الحصون والقصور, وقطعوا الثمار وخرّبوا الأنهار[7], و استغلوا نفرة تميم بن المعز[8] من عبيد أبيه فقاموا بنجدته سنة 449هـ/1057م وساروا نحو المهدية, فنزلوا بها وضيقوا عليها وبذلك صار بنو زيري لا حول لهم ولا قوة أما طيش القبائل العربية[9].

- إصطدام القبائل العربيّة بقبائل زناتة:

---

[1]- ابن عذارى, المصدر السابق, 290/1-291.

[2]- قابس: مدينة تونسية تقع بالساحل الشرقي لتونس, تبعد عن العاصمة تونس بحوالي 405كم جنوبا, ذكر حسن الوزان أنّها قديمة بناها الرومان, في كبيرة جدا بناها الرومان, على ساحل البحر المتوسط في داخل الخليج تحيط بها أسوار عالية قديمة, يجري جدول ماء صغير قرب المدينة, . وقال أنّ سكان قابس يستغلهم كثيرا الأعراب وملك تونس.المصدر السابق, 91/2.

[3]- سوسة: مدينة تونسية تقع غرب مدينة تونس, وهي عتيقة بناها الرومان على بعد نحو خمسة وعشرين ميلا من البحر المتوسط, وثمانين ميلا أو أكثر بقليل من تونس, وأشار حسن الوزان أنّ بادية باجة شاسعة الأطراف واسعة الانتاج, إلا أن عدد الناس فيها لا يكفي لزرع الحقول, فيعمدون إلى الأعراب لزرع جزء كبير منها. المصدر نفسه, 66/2.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 22/6.

[5]- دباب: هم دباب بن ربيعة بن زغب. التيجاني, المصدر السابق, ص134.

[6]- قسنطينة: مدينة تقع بالشرق الجزائري, وهي قديمة بناها الرومان, وتحوّلت إلى الحاضرة الثانية للدولة الحفصية, وهي مشهورة بأسوارها العتيقة العالية السميكة المبنية بالحجر المنحوت المسوّد, وهي واقعة على جبل شاهق ومحاطة من جهة الجنوب بصخور عالية. حسن الوزان, المصدر السابق, 55/2.

[7]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 22/6.

[8]- تميم بن المعزّ: أحد ملوك الدّولة الزيريّة, ولي أمور الدّولة الزيريّة بعد وفاة المعز بن باديس سنة 454هـ, وتوفي سنة 501هـ. ابن الخطيب, المصدر السابق, ص79.

[9]- سعد زغلول, المرجع السابق, 430/3-438.

بعد أن غلب العرب صنهاجة اجتهدت زناتة في مدافعتهم, ورغم الجهد الذي بذلوه فإنّهم فشلوا وتغلّب العرب على ضواحي أفريقية وقرى الزّاب وشرق بلاد المغرب الأوسط[1]. واستعانت قبائل زناتة بصاحب تلمسان[2] من أمراء بني يعلى, و جرت بينهم حروب كثيرة أسفرت عن قتل القائد الزناتي, وهي الحادثة التي بالغت التغريبة في تعظيمها, و جعلتها في مستهل سردها لتفاصيل تغريبة بني هلال, كقول راوي التغريبة في معرض التشويق لمسيرة بني هلال: ((رحيلهم من بلاد نجد إلى تونس الغرب, واستخلاصهم تلك الممالك بالحرب, وقتالهم الزناتي خليفة بعد حروب طويلة مخيفة[3])). ومما أسهم في هزيمة زناتة, تحالف بني حماد وبني زيري مع العرب لقمع ثوراتهم, والتي بلغت إلى حد استعانة بلكين بن محمد بالعرب من الإثبج وعدي سنة 450هـ, لحرب زناتة. فكسرهم وقتل منهم عددا كثيرا[4].

ورغم هزيمة قبيلة زناتة أمام القبائل العربية, فإنّها استطاعت أن تؤخّر تقدّمهم نحو بلاد المغرب الأوسط, فصار الملتحم بين زناتة والعرب, في الضواحي بجبل راشد[5], ومصاب[6] من بلاد

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 22/6.

[2]- تلمسان: مدينة تقع بالغرب الجزائري على الحدود مع المغرب الأقصى, كانت مدينة كبيرة, وعاصمة للزيانيين, وأصل مدينة تلمسان قرية إدغادير, وقد أسس هذه القرية على أنقاض معسكر روماني المولى إدريس الأكبر, وعندما ضعف شأن الدّولة الإدريسية المغربية وهرمت أقامت قبائل بني يعلى وبني خضر إمارات بربرية بها خاضعة إسميا لخلفاء بني أمية بالأندلس, وفي أواخر القرن الحادي عشر ميلادي أسّس يوسف بن تاشفين قرية تاقرارت, ثم انضمّت القريتان فأصبحتا تلمسان, وقد توسعت أيام بني عبد الواد حتى أصبح فيها ستة عشر ألف كانون على عهد الملك أبي تاشفين. حسن الوزان, المصدر السابق, 17/2؛ أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, الجزائر: المطبعة العربية, ص202.

[3]- تغريبة بني هلال, ص3.

[4]- ابن الأثير, المصدر السابق, 8/ 89؛ النويري, المصدر السابق, 217/24؛ الهادي روجي إدريس, المرجع السابق, 246/1.

[5]- جبل راشد: هو نفسه جبل العمور, ويقع جبل العمور بين جبال أولاد نايل شرقا, وجبال قصور غربا, وهو جزء من الأطلس الصحراوي, قمّته طولها 100كلم, وعرضها 60كلم, ويضمّ مدينة آفلو, وتضم جبل الطويلة وجبل سيدي عقبة وجبل بوبركة وهو أعلى قمّة. عبد القادر المشرفي, بهجة النّاظر في أخبار الدّاخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر, تحقيق: محمّد بن عبد الكريم, ص25؛ أحمد توفيق المدني, جغرافية القطر الجزائري, ص39.

[6]- مصاب: هي أرض مزاب بجنوب وسط الجزائر, على بعد نحو ثلاثمائة ميل شرق تيكورارين,.كانت رأسا تجاريا يلتقي فيه تجار الجزائر وبجاية بتجار أرض السودان, وهي تضم بني يزقن وغرداية ومليكة وبنورة والعطف وبيريان والقرارة,

المغرب الأوسط[1], كما أنّها كانت سببا في تغلّب قبائل زناتة على الجانب الغربي من بلاد المغرب الأوسط, ثمّ المغرب الأقصى, لتظهر فيما بعد إمارة بني توجين ومغراوة ودولتي بني زيان وبني مرين.

- ضعف الزيريين وتزايد نفوذ الحماديّين:

تنسب الدولة الحمادية لحماد بن بلكين بن زيري[2], والذي تحول إلى الذراع الأيمن لأخيه المنصور بن بلكين[3] حين تصدى لثورات زناتة, إضافة إلى قضائه على ثورة عمه أبي البهار, لذلك قام المنصور بمكافأته وتوليته على أشير[4], وجعلها قاعدة لعملياته ضدّ القبائل المعارضة لحكم الزيريين[5].

وبعد وفاة المنصور تولّى ابنه باديس سنة 386هـ/996م, فثار عليه عمومة أبيه ماكسن وزواي وجلال, ومعتز وعزم, كما بدأت زناتة تغزو بلاد المغرب الأوسط بشراسة وعنف, بقيادة زيري بن عطية الملقب بالقرطاس[6], وفلفل بن سعيد[7] الذي تولى باديس حربه بنفسه,

---

تلاحقت بها الإباضية بعد سقوط تيهرت ودولة بني مدرار وضيق وركلة وريغ, وأشار حسن الوزان أنّ أهلها كانوا يؤدون الإتاوة إلى الأعراب ويخضعون لهم. المصدر السابق, 135/2؛ أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص226.

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 27/6.

[2]-رشيد بورويبة, المرجع السابق, ص6.

[3]- المنصور بن بلكين: ولي سنة 274هـ, وتوفي سنة 286هـ. ابن عذارى, المصدر السابق, 239/1.

[4]- أشير: بلدة أو حصن بينها وبين المسيلة مرحلة, من بلاد الزاب, بناها زيري بن مناد الصنهاجي, وتعرف بأشير زيري, وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة. الحميري, المصدر السابق, ص60.

[5]- عبد الحليم عويس, المرجع السابق, صص55- 56.

[6]- زيري بن عطية: أمير مغراوة والمستبد بفاس, عقد له المنصور بن أبي عامر على أعمال المغرب, وقاتل آل زيري, اختط مدينة وجدة, وطرد بني يفرن عن فاس إلى نواحي سلا, سنة 384هـ, إلى أن فسد ما بينه وبين المنصور بن أبي عامر, فطردته جيوش ابن أبي عامر إلى الصحراء, فأجلب منها على المغرب الأوسط, وهزم حمادا قرب تيهرت بوادي ميناس, وفتح مدينة تيهرت وتلمسان وشلف وتنس والمسيلة, وأقام فيها الدعوة للمؤيد هشام, ولحاجبه المنصور من بعده, ثمّ اتّبع آثار صنهاجة إلى أشير, وهلك سنة 391هـ, واجتمع آل خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه المعزّ بن زيري فبايعوه. يُنظر: عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 39/7-46.

[7]- فلفل بن سعيد: أحد أمراء مغراوة, يرجع إلى بني خزرون ملوك سجلماسة, تولى هو وابن عمه وانودين بن خزرون أمر سجلماسة, ثم استقل وانودين بسجلماسة سنة 390هـ, وسار فلفول بن سعيد إلى بلاد زيري, وله وقائع مع الزيريين. المصدر نفسه, 50/7- 52.

لذلك حظي حماد بثقة باديس, فصار هو الرجل الثاني في دولته, ومقابل ذلك قام باديس باقطاع أشير لحماد, فيما بقي يطوفت واليا على تيهرت [1] .

وفي سنة 395هـ, كثرت الثورات ضدّ باديس, فلمس من نفسه العجز عن صدّها, ورأى أن يقطع عمّه حمادا ما تغلب عليه من البلاد الغربية من ديار زناتة, مقابل أن يبقى حماد على ولائه لباديس, فبادر حماد إلى اغتنام الفرصة, وقبل بعد أن اشترط شروطا بالغ فيها كثيرا على حدّ تعبير ابن الخطيب[2].

وهكذا استقلّ حمّاد عن ابن أخيه باديس, لكنّ باديس سرعان ما أراد أن يُخضع حمّادا, ويقضي على أطماعه, ما عجّل بحدوث صدام بينهما, وتحصّن حمّاد بالقلعة, محتميا من الجيش الزيري, والذي رجع خائبا بعد وفاة باديس أثناء حصار القلعة, وحين تولّى المعزّ ابن باديس, رأى ضرورة إنهاء الخصومة مع حمّاد, رغم أنّ العلاقة ظلّت متوتّرة.

ولم يكن للدولة الحمادية حدود واضحة المعالم, إلاّ أن المتفق عليه هو أنّ هذه الدولة, كانت تتضمن الكثير من مدن غرب أفريقيا والمغرب الأوسط, حيث نجد أنّ الحماديين في عهد الناصر بن علناس[3], قد وفدت عليهم مشيخة تونس وأدّوا لهم البيعة من سنة 454/ 1062م إلى غاية 481هـ/1088م, ثمّ قام عبد الحق بن خراسان بالاستقلال عنهم, وصارت تبعيته لهم شكلية[4].

وبعد أن استقل الحماديّون, وصاروا يشرفون على البلاد الممتدة من قسنطينة إلى مشارف مدينة تلمسان, واستحكمت النفرة بينهم وبني الزيريين, مع ما كان يتخلل تلك النفرة من محاولات لإخفائها, لداعي المصلحة المشتركة, وهو ما تمّ فعلا أثناء مقاتلة المعزّ بن باديس للقبائل العربية, حين استعان بالحماديين, ومع أنّهم قاموا بتلبية طلبه, إلا أنّهم سرعان ما خذلوه في أرض المعركة, وانسحبوا منهزمين, رفقة زناتة وعرب الفتح.

---

[1]-عبد الحليم عويس, المرجع السابق, صص56-57.

[2]-عبد الحليم عويس, المرجع السّابق,, صص60-61.

[3]-الناصر بن علناس: أحد ملوك بني حماد, قام بقتل بلقين بن محمد وخلفه سنة 454هـ/1062م, وقد كان سفاكا للدماء غيورا, وأسس بجاية, وامتد حكمه سبع وعشرين سنة. ينظر: ابن الخطيب, المصدر السابق, صص94-95؛ رشيد بوروية, المرجع السابق, ص58.

[4]- عبد الحليم عويس, المرجع السابق, ص94.

لقد دخلت الدولة الزيرية في مرحلة ضعف وتقهقر, أمام عيث الأعراب, وكثرة الثورات, وانحصر نفوذهم, ازدادت شوكة الحماديين, والذين تحالفوا مع بعض بطون بني هلال, ورأوا أنّ التحالف معهم, سيكفّ أيديهم, ويمنعهم من التقدّم نحو المغرب الأوسط, وفي نفس الوقت سيساعد على إضعاف الزيريين. أمّا الهلاليّون فأرادوا أن يتقووا بالحماديين ضدّ عرب رياح, الذين طردوهم عن افريقية.

وأدّى تخريب العرب لقرى ومدن افريقية إلى فرار الكثير من سكّان المدن والقرى بقلعة بني حماد, في ظل غياب سلطة مركزية قادرة على حمايتهم[1], ونجم عن ذلك اتّساع عمارة القلعة, فكثُر قاصدوها, ولعل ابن الأثير يلخّص لنا ذلك, فيقول:((فَلمّا رحلَ المعِزّ من القيروانِ وَصبرَة إلى المهدِيّةِ تَمكنت العربُ، وَنهبتِ النَّاسَ، وخربت البلاد، فانتقل كثير من أهلها إِلَى بلاد بني حماد لكونها جبالا وعِرة الِامْتِنَاعُ بِهَا مِنَ الْعَرَبِ، فعُمّرت بلادهم ، وكثرت أَمْوَالُهُمْ[2]))، وهو الأمر الذي استمرّ إلى أيام الناصر بن علناس, وهي أزهى حقبة للدولة الحمادية.

ونستنتج في ختام هذا المبحث أنّ القطيعة التي حدثت بين المعزّ بن باديس والعبيديّين لم تكن محمودة العواقب, وذلك أنّها سُرعان ما عجّلت بإضعاف دولة الزيريين, ومكّنت للقبائل العربية بالتقدّم صوب برقة لصبح على مشارف القيروان. وكانت للمعزّ بن باديس, وقائع كثيرة مع هذه القبائل, انتهت بتخريبهم للقيروان وصبرا, الأمر الذي حصر نفوذ آل زيري, فانتقلوا إلى المهدية. وقويت قبضة شيوخ القبائل العربية على بوادي إفريقية, لتبدأ أعينهم تتجه صوب بلاد المغرب الأوسط.

[1] - يقول البكري عن القلعة في عهد بني حمّاد : ((وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة, فلمّا كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل افريقية, وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب, مستقر مملكة صنهاجة)). المصدر السابق, ص134.

[2] - ابن الأثير, المصدر السابق, 200/8.

المبحث الثالث: دخول القبائل العربية بلاد المغرب الأوسط

بعد أن تمكّن الهلاليّون من تقويض سلطان الزيريين, وبسطوا نفوذهم على كثير من قرى وبوادي إفريقية, بدأت أعداد منهم تواصل زحفها غربا. ليقوموا بدخول المغرب الأوسط, وذلك عبر فترات متكررة, استمرت من عهد الحماديين إلى العهد الزياني.

1- خلال العهد الحمادي:

بعد أن فقد الزيريون حق الإشراف على بوادي أفريقيا[1], وتقلّصت مداخيلهم, وخربت مدنهم, وركدت حركة التجارة ببلادهم. تزايد نفود بني حماد, لا سيما في عهد الناصر بن علناس, والذي وطّد صلته بشيوخ القبائل العربية. الأمر الذي أثار حفيظة تميم بن المعز الزيري, فبدأ يتخوف من طموح الحماديين, ويستعظم قوة النّاصر بن علناس الحمادي ويسعى إلى كبحها, خصوصا بعد أن تبادر إلى أسماعه مساعي النّاصر للزّحف صوب المهدية[2].

- موقعة سبيبة (457هـ/1065م)[3]:

عقد النّاصر تحالفا مع بعض بطون زغبة, واستغلّ عداوة هذه البطون لقبائل رياح, وهو ما دفع تميم بن المعزّ إلى طلب النّصرة من الرياحيّين[1], وأرسل إلى أمرائهم, فخوفهم من خطر

---

[1]- يقول الهادي روجي إدريس:((لماّ انتشرت جحافل بني هلال في بوادي إفريقية, سقطت كثير من المدن والقرى في قبضة بعض الأمراء العرب, فكان أوّل من يصل إلى بلدة يضع أهلها تحت حمايته, ويسلّم إليهم قلنسوّة أو تذكرة يرسم عليها علامة لإقصاء المنافسين المحتملين)). ينظر: المرجع السابق, 131/2-132.

[2]- المهديّة: مدينة بناها المهدي الشيعي, مؤسس الدّولة العبيدية سنة 300هـ/913م, على ساحل البحر المتوسط, فوق كتلة صخرية داخل البحر, وأحاطها بأسوار عالية متينة, وأبراج ضخمة وأبواب مصفحة بالحديد, كما حصن الميناء بأسوار جيدة. وبينها وبين القيروان ستون ميلا, والبحر محيط بها من جهاتها الثلاث, وربضها يعرف بزويلة. الحميري, المصدر السابق, صص561-562؛ حسن الوزان, المصدر السابق, 85/2.

[3]- سبيبة و ليس سبتة كما ذكره ابن الأثير, قال عنها صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار :((مدينة أزلية ذات أنهار, ومياه سائحة تطحن عليها أرحية, ...وفيها اليوم بعض سكنى لقبائل من البربر والعرب, ..ولم يكن بإفريقية أخصب أرضا منها, ولا أكثر بساتين وثمارا وعيونا جارية)). مجهول (ت ق 6هـ), الاستبصار في عجائب الأمصار, بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986م, ص161؛ الإدريسي, المصدر السابق, 294/2.

الناصر بن علناس, فما كان منهم إلّا أن أيقنوا الخطر الداهم فحالفوا تميم بن المعز[2], بل وأرسلوا إلى بني عمومتهم من العرب الهلاليين الذين تحالفوا مع الناصر, و طلبوا منهم الغدر به, فلم يسعهم إلا قبول نصيحتهم, وتعهّدوا لهم بأن يخذلوا الناصر, على أن يكون لهم نصيب من الغنائم[3].

سار الناصر بصنهاجة وزناتة وبنى هلال ونزلوا بالأريس. فالتقى سنة 457هـ/1065م برياح في موضع يسمى سبيبة. وخذل بنو هلال الناصر, وانهزم بنو حماد، ونجى الناصر من موت محقق[4]. و تكبّد الحماديون والزناتيون خسائر فادحة, قدّرت بأربعة وعشرين ألفا. وغنم العرب غنائم كبيرة, تلك الغنائم التي مكّنتهم من المضيّ قدما نحو قرى الزاب[5], فقاموا بالتوسع والانتشار في أريافه[6].

ومكنت هذه الهزيمة القبائل العربية من توسيع نفوذهم, واستطالتهم على بني حماد وبني زيري وزناتة على حد سواء, وفتحت أمامهم مجالات المغرب الأوسط, وأدرك الناصر بن علناس وتميم خطورة ذلك, وندما على فعلتهما, وأدركا أنهما فوتا على نفسيها فرصة طرد العرب من بلاد إفريقية والمغرب[7].

- تخريب قلعة بني حماد وبناء مدينة بجاية:

---

[1]- اختلف حول أسباب الموقعة, فابن خلدون, يرى أنّ حمادا أراد أن يساعد الأثبج ضد رياح, فيما ذكر ابن الأثير أن تميما بن المعتز تخوف من الناصر بعد أن تملك صفاقس وقسنطينة وتونس في سنة 457هـ/1065م. رشيد بورويبة, المرجع السابق, صص62-63.

[2]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 230/6-232

[3]-ابن الأثير, المصدر السابق, 201/8.

[4]-النويري, المصدر السابق, 222/24-223.

[5]- يرى علاوة عمارة أن الزاب مأخوذ من المدينة القديمة, zabi justiniana, الواقعة إلى الغرب من طبنة. المرجع السابق, ص 13.

[6]-المصدر السابق, 24/ 222-223.

[7]-المصدر نفسه, 223/24.

بعد موقعة سبيبة, فرّ الناصر بعد أن فقد أخاه القاسم, فدخل قسنطينة, وتتبعته قبائل رياح, إلى أن لحق بالقلعة, فحاصرته العرب, وخرّبوا جنباتها, وعاثوا في ضواحيها, وقطعوا الطرق الموصلة إليها, كما خربوا منطقتي طبنة والمسيلة[1].

اضطرّ الناصر أمام هذا الطوفان الجارف إلى البحث عن مدينة أخرى يصيُّرها عاصمة له, لا تصلها أيدي الأعراب, ووقع اختياره على مدينة بجاية[2]. و ما إن تمّ بناؤها حتى هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة وانتقل إلى بجاية[3], ونقل إليها ذخيرته, وكانت بجاية مدينة منيعة بجبالها وتوعر مسالكها على رواحل العرب, واستقروا بها. ومنذ ذلك الحين اقتصر ملك بني حماد على أبعاد المدينة أما البوادي وأطراف المدن فصارت مواطن عيث ونفوذ الأعراب[4].

- الانتشار في قرى ومدن المغرب الأوسط:

بعد موقعة سبيبة, سعى الحماديون إلى مصانعة العرب الذين تملكوا البوادي والأرياف, بعد لاح لهم ضعف القبائل البربرية, وعجزت صنهاجة وزناتة عن منعهم من التقدّم[5], لذلك بادرت القبائل العربية إلى مواصلة المسير غربا, لتصبح طرق المغرب الأوسط مفتوحة أمامهم, وأشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله:((وتغلب العرب على الضواحي في كل وجه وعجزت

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 27/6-68؛ سعد زغلول, المرجع السابق, 451/3-456.

[2]- بجاية: قال عنها صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار:((بينها وبين قلعة بني حمّاد مسيرة أربعة أيّام. وهي مدينة عظيمة, ما بين جبال شامخة قد أحاطت بها, والبحر منها في ثلاثة جهات: في الشرق والغرب والجنوب, ولها طريق إلى جهة المغرب, يسمى بالمضيق على ضفّة النّهر المسمّى بالوادي الكبير, وطريق القبلة إلى قلعة بني حمّاد على عقاب وأوعار, وكذلك طريقها إلى الشّرق, وليس لها طريق سهلة إلا من جهة الغرب, فلم يكن للعرب إليها سبيل, ولا كان يدخله من العرب إلا من يُبعث إليه الملك لمصانعه على بلاد القلعة وغيرها, فيدخلها أفراد وفرسان دون عسكر)). المصدر السّابق, صص 129-130

[3]- النويري, المصدر السّابق, 225/24.

[4]- علاوة عمارة, المرجع السّابق, ص108.

[5] -Ernest Mercier, Les Arabes D'afrique Jugés Par Les Auteurs Musulmans, R.A , V17, 1873, PP43-56, P45.

زناتة عن مدافعتهم بإفريقية والزاب, وأصبح الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد ومصاب[1])). ودخلوا البلاد من ثلاثة جهات وهي:

1- جهة السواحل:

كانت سواحل شرق المغرب الأوسط, موطنا لبقايا قبائل كتامة[2], وكان نفوذ الحماديين فيها ضعيفا, أو يكاد ينعدم. لذلك توغلت فيها القبائل الهلالية من نواحي باجة لا سيما الرياحيين. فانتشروا على ضواحي القالة وعنابة وقسنطينة إلى القل[3] و جبال البابور[4]. ولم تظهر كتامة أي مقاومة, بل حتى العرب لم يعاملوا كتامة كما عاملوا غيرهم, كما يدل عليه كلام الإدريسي عن مدن هذه الجهة كالقالة التي كانت حالتها التجارية حسنة والعرب يمونونها بحبوبهم. وقسنطينة التي كان بين أهلها وبين العرب معاملات ومشاركة في الحرث والادخار, ويرى الميلي أن قبائل كتامة قد رحبت بالهلاليين, باعتبارهم أنصار بني عبيد[5].

2- جهة الهضاب:

تقع جهة الهضاب ما بين الأطلسين التلي[6] والصحراوي[1], حيث توجد دولة بني حماد, لذلك تقدمت نحوها القبائل العربية, من نواحي الأريس مرورا بوادي الساحل وجبال البيبان.

---

[1]-الميلي, المرجع السّابق, 183/2.

[2]- كتامة: هم من ذرية كتام أو كتم ابن برنس بن مازيغ بن كنعان بن حام, ولهم فرعين بحسب النسابة, غرسن ويسوده, وهم من جملة البربر البرانس, وهم من القبائل البربرية الأصيلة. موسى لقبال, دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري, الجزائر: الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع, 1979م, ص92.

[3]- القل: مدينة في الشرق الجزائري, قال عنها حسن الوزان:((كبيرة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط عند قدم جبل شاهق, وليست مسوّرة لأن القوط هدموا أسوارها, ثمّ إن المسلمين لما حكموها تركوها على حالها, ...ويعيش السكان متحررين لأنهم لم يفتؤوا يدافعون عن أنفسهم ضدّ ملك تونس وأمير قسنطينة, إذ تفصل بين القل وقسنطينة جبال شاهقة ومسافة مائة وعشرين ميلا)). المصدر السّابق, 54/2.

[4]-محمّد الطمّار, المغرب الأوسط في ظل صنهاجة, الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة, 2010, صص116-119.

[5]- الميلي, المرجع السّابق, 183/2.

[6]- الأطلس التلي: سلسلة جبلية تمتد وتتضخم, وتنفسح أحيانا عن السهول الشاسعة, كسهل المدية وسيدي بلعباس, وترتفع أحيانا إلى 2308 متر(قمة لالة خديجو ببلاد جرجرة), وهذه الجبال التلية غنية, فيها المزارع, وتكتنفها الغابات الكثيفة, ويسكنها الجبليون وتشتمل هذه السلسلة على عدة جبال متلاحقة, أهمها من الشرق للغرب: جبال سوق أهراس, وجبال بابور, وجبال جرجرة, وتدعى بلاد القبائل الكبرى, وجبال الونشريس ذات الغابات البديعة, وجبال تلمسان, وفي هذه المنطقة تقع أكبر وأهم المدن الجزائرية الساحلية, مثل سوق أهراس وقالمة وقسنطينة وسطيف

وقد دافعتهم صنهاجة عن هذه الجهة. فغلبوها على الضواحي، فيما عجزوا عن دخول المدن الحصينة والقلاع المنيعة لذلك بادروا إلى حصارها، وقد ذكر الإدريسي ما تشهده مدن هذه الجهة من حصار للعرب وتخريب لحصونها وقلاعها، كحصن ماوس ودار ملول شرقي طبنة على مرحلة منها[2] .

3- جهة الصحراء :

تدفقت جموع من الهلاليين من جهة الصحراء, أين تكثر خيام زناتة الخاضعة لبني حماد. ودخل العرب من طريق سبيبة وانتشروا بنواحي تبسة وجنوب الأوراس[3]. وقرى الزاب, ودخل الأثبج من قفصة[4] إلى بسكرة[5] وطبنة والمسيلة ووصلوا إلى نواحي القلعة[6], وانتهوا أيام

والبليدة ومليانة, والمدية وسيدي بلعباس وتلمسان ...إلخ, وتمتاز بجو معتدل, وطقس جميل, وأمطار منتظمة. أحمد توفيق المدني, المرجع السّابق, ص15.

[1]- الأطلس الصحراوي: جبال شاهقة فاصلة بين النجود والصحراء, وهي من الشرق إلى الغرب: جبال النمامشة وأوراس وأولاد نايل, وجبال الجلفة وجبال العمور وجبال القصور, ومن هذه الجبال ما هو مأهول كجبال الأوراس, ومنها ما هو خلو تقريبا كجبال القصور, وأعلى قمة بالأطلس الصحراوي في الجزائر, قمة شلية 2327متر. المرجع نفسه, ص18.

[2]- الميلي, المرجع السّابق, 183/2.

[3]- جبل أوراس هو سلسلة جبلية عالية تقع شمال باتنة وخنشلة وأم البواقي وتبسة شمال شرق الجزائر, وأعلى قمّة به هي قمّة شيليا في يابوس بولاية خنشلة, وهي تمثّل الجزء الشّرقي من سلسلة الأطلس الصّحراوي, قال عنه مارمول: ((أوراس جبل وعر على مسافة ثلاثين فرسخا من بجاية, وعلى مسافة خمسة وعشرين فرسخا من قسنطينة في عُمق البلاد, ...وفي جنوبه صحراء نوميديا, وفي شماله إمارات مُختلفة, ...والقوم الذين يسكنون هذا الجبل غيورون على حريّتهم)). المصدر السّابق, 390/2.

[4]- قفصة: مدينة تونسيّة تقع جنوب غرب سيدي بوزيد, قال عنها الإدريسي:((ومدينة قفصة مركز والبلاد بها دائرة, فمن قفصة إلى مدينة القيروان شمالا مع شرق أربع مراحل, وعلى جهة المغرب مع الجنوب مدينة بيلقان على خمس مراحل, وهي الآن خراب, أفسدتها العرب واستولت على منافعها وعلى جميع أرضها ومياهها كثيرة)). المصدر السّابق, 278/2.

[5]- بسكرة: مدينة من مدن الشرق الجزائري, تقع جنوب غرب باتنة, كانت قرية بربرية عتيقة عرفت أيام الحكم الروماني, تحت اسم فيسيكرا, وعلى مقربة منها استشهد عقبة قال عنها حسن الوزان:((مدينة عريقة في القدم, أسست أيام كان الرومان يحكمون بلاد البربر, وخربت بعد ذلك, ثم أعيد بناؤها لما دخلت الجيوش الاسلامية إلى افريقيا, وهي الآن عامرة كما ينبغي, وسورها من الآجر النيء)). المصدر السابق, 138/2؛ أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص198.

[6]-محمّد الطمّار, المرجع السّابق, صص116-119.

الموحدين إلى مزاب وجبل راشد. وحاولت زناتة مدافعتهم عن هذه الجهة. فكانت بين الفريقين مواقف صعبة أكثر الهلاليون من ذكرها في أشعارهم. وقتل في بعضها أبو سعدى خليفة اليفرني بالزاب[1]. وتفرقت بطون زغبة و المعقل في الجنوب, وتفرقوا عند وصولهم ما بين سدراته[2] والأغواط, وعرجت زغبة إلى الشمال إلى أن وصلوا متيجة فأثبتوا في أنحائها, أما المعقل فواصلوا طريقهم غربا إلى أن قصد بعضهم مقاطعتي تلمسان ووهران[3].

- تصالح الحماديين مع الهلاليين:

تحوّلت القبائل العربيّة في عهد بني حماد إلى قوة لا يستهان بها, وبسطوا نفوذهم في بلاد المغرب الأوسط, وباتوا يهدّدون دولة بني حمّاد, ويعينون القوى الخارجية, كتحالفهم مع أبي يكنى بن محصن بن العابد وتميم بن المعز بالمهدية ضد المنصور الحمادي[4]. لذلك بادر الحماديون إلى الاستعانة ببعض بطونهم, فبعد هزيمة سبيبة, وبسبب اقتحام الزيريين تونس, بادر الناصر إلى الهجوم على إفريقية, وذلك سنة 460/1066-1067, فحاصر مدينة الأريس, وكان معه الأثبج من العرب وبقي عليها حتى افتتحها, وأمّن أهلها, ثم دخل القيروان[5] وأخضع أهلها[6].

ولم يمنع هذا التحالف من حدوث مناوشات بين الفينة والأخرى, كقتال المنصور بن الناصر الحمادي لزناتة وحلفائهم من الأثبج, وقتاله لبني توجين وحلفائهم الهلاليين من بني عدي[7].

وحتى أيام المرابطين حين تحرش والي تلمسان ببني حماد, مستعينا بقبائل بني يلومي وومانو, استنجد ملوك بني حماد بالعرب فحين تولى يوسف بن تاشفين ولاية تلمسان ونهض إلى أشير

---

[1]- رشيد بورويبة, المرجع السّابق, ص55.

[2]- سدراتة: تقع جنوب شرق سوق أهراس, وكانت قديما تابعة لمدينة باغاي.

[3]-محمّد الطمّار, المرجع السّابق, ص119.

[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 6 /232-233.

[5]- القيروان: مدينة أصيلة, هي أولى المدن التي تمّ تأسيسها ببلاد المغرب الإسلامي, أسسها عقبة بن نافع سنة 50هـ/670م, واتّخذها قاعدة عسكرية وعاصمة له, و بناها على بعد ستة وثلاثين ميلا من البحر المتوسط, ونحو مائة ميل من تونس. حسن الوزان, المصدر السّابق, 2/88-88.

[6]- رشيد بورويبة, المرجع السّابق, ص69.

[7]-المرجع نفسه, ص72.

وافتتحها قام المنصور في ركائبه ومعه كافة صنهاجة, ومن العرب أحياء الأثبج وزغبة وربيعة, ونهض إلى غزو تلمسان سنة 476هـ[1].

2- عصر الموحّدين:

بدأ عهد الدّولة الموحدية على إثر قضاء عبد المومن بن علي على آخر أمراء المرابطين, و سعت هذه الدّولة إلى التوسُّع صوب بلاد إفريقية واضعة ضمن أهدافها توحيد الشّمال الإفريقي. وكان شيوخ القبائل العربيّة يُدركون خطر وجود سلطة مركزية قوية, فذلك من شأنه أن يحدّ من أطاعهم؛ لذلك انتقض الهلاليّون وانتفضوا, فقاتلهم الموحدون إلى أن أخضعوهم. ويمكن أن نحدّد أهمّ ثلاثة مراحل للموحّدين مع القبائل العربية وهي:

أ- عهد عبد المومن :

يرجع أوّل احتكاك للموحّدين مع شيوخ القبائل العربيّة إلى أيّام عبد المومن بن علي, حين قدم إلى أرض أفريقية راغبا في القضاء على ما تبقّى للزيريين. وما إن تسامع بقدومه الأثابجُ حتّى احتفوا بمقدمه, ووفد عليه منهم شيخان من مشايخ العرب, وهما أبو هلال بن كسلان أمير الإثبج بجزائر بني مزغنة, وأمير جشم حباس بن مشيفر, فبايعاه وعينهما رئيسين على قبيلتيهما[2].

وفي سنة 548هـ/1154م[3], وبعد أن قضى عبد المؤمن على دولة بني حماد, اجتمع شيوخ بني هلال والأثبج وعدى ورياح ورغيف وغيرهم وقالوا: «إن جاورنا عبد المؤمن أجلانا من بلاد المغرب. وليس الرأي إلا اللقاء معه، وأخذه بالجد، وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكن»[4] ويُوضّح هذا النصّ مدى تخوّف القبائل العربيّة من تزايد نفوذ الموحدين, وكانت لعبد المومن مع القبائل العربية موقعتين مشهورتين هما موقعة سطيف وموقع القرن.

- موقعة سطيف:

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 233/6-234.

[2]- فريدة بورنان, دور القبائل العربية في الجيش الموحدي بالأندلس(555هـ/1160م-580هـ/1184م), رسالة ماجستير, جامعة الجزائر: قسم التاريخ, ص22.

[3]- محمّد حسن, المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي, ط1 ,تونس:جامعة تونس, 1999, 40/1.

[4]- النويري, المصدر السّابق, 305/24-307؛ شرقي نوارة, الحياة الاجتماعية في الغرب الاسلامي في عهد الموحدين, رسالة ماجستير, جامعة الجزائر: قسم التّاريخ, 2007-2008, ص44.

ما إن بلغ عبد المومن خبر القبائل العربية وانتقاضها حتى سارع إلى تجهيز جيش من الموحدين زهاء ثلاثين ألف فارس، ومقدمهم أبو سعيد يخلف، وعبد العزيز وعيسى أولاد أبي مغار . وكان العرب أضعافهم، فاستدرجهم الموحدون. وتبعهم العرب إلى أن وصلوا أرض سطيف بمكان يعرف بوادي الأقواس, حيث كانت أعدد العرب كثيرة .

وقد وردت الإشارة إلى هذه المعركة في رسالة عبد المومن بن علي إلى أشياخ وطلبة الموحدين بمراكش[1], والتي ورد فيها قوله: (إلى أن انتهوا ما لا ينتهيه العد خيلا ورجلا, وعمروا أنجاد تلك الأرض وأغوارها وعرا وسهلا, فما استطاعتهم حملا...[2]).

وقد باغت الموحدون العرب على غير أهبة. والتقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال. فانجلت المعركة عن هزيمة العرب[3], فتركوا أموالهم وأهاليهم وأولادهم ونعمهم. فأخذ الموحدون جميع ذلك وعادوا به إلى عبد المؤمن. و قام عبد المومن بتقسيم الأموال في عسكره[4] وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط. ونقلهم معه إلى مراكش فأنزلهم في المساكن الفسيحة وأجرى عليهم النفقات الواسعة.

بعد أن حقّق عبد المومن بن علي هذا النّصر السّاحق كتب إلى رجالات العرب يُعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الاحتياط والحفظ والصيانة. وأمرهم أن يحضروا ليسلمهم إليهم. فلما وصل كتابه إليهم سارعوا إلى المسير إلى مراكش. فأعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم، وأحسن إليهم، ووصلهم بالأموال الجزيلة فاسترقّ قلوبهم بذلك وأقاموا عنده[5].

---

[1]-مراكش: مدينة مغربية هي من كبريات عواصم العالم وأشرف مدن إفريقيا, تقع في سهل فسيح بعيدة عن الأطلس بنحو أربعة عشر ميلا, بناها يوسف بن تاشفين أمير لمتونة سنة 454هـ/1062م. حسن الوزان, المصدر السّابق, 1 /128-129.

[2]- مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتّاب الدّولة المؤمنيّة, نشر وتحقيق: ليفي بروفنسال, الرباط: المطلعة الاقتصادية, 1941, صص30-31.

[3]-النويري, المصدر السّابق, 24/305-307؛ شرقي نوارة, المرجع السابق, ص44.

[4]- ورد في رسالة عبد المومن, من كتابة أبي جعفر بن عطية: ((يضمون من سبي الكافرين وغنائمهم وما أوبقته الحرب من خيلهم وسلاحهم ما لا يستطيع الضم, ولا يتناوله الكثير الجم)). ولا ندري عن مقصوده من كلمة "الكافرين" هل هو تجوّز في العبارة وقصد المعنى اللغوي للكلمة أي أنّهم كفروا كفر نعمة أم قصد معناها الشّرعي...؟ وأظنّ أنّ تصريحه بعبارة "سبي الكافرين" يدلّ على المعنى الثاني. كتبت في مستهل ربيع الآخر سنة 548هـ, رسائل موحدية, ص34.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 6/30.

وتعتبر معركة سطيف من المعارك الفاصلة التي بفضلها تمكن الموحدون, من التحكم في الانتشار البدوي, وتسييره وفق إرادتهم, وضبط تحركات القبائل وفق مصلحة الدولة[1].

- موقعة القرن: في سنة(556هـ/1161م) طلب عبد المومن بن علي من بني رياح المسير معه لنجدة الأندلس, فأظهروا السّمع والطّاعة, ثمّ تخلّفوا, فتظاهر عبد المومن بن علي بمغادرة إفريقية إلى المغرب, وانتظر عودة الرياحيّين. وظنّ الريّاحيّون أنّ الموحدين قد ساروا صوب الأندلس, لذلك نزلوا بالقرن[2], في زهاء ثمانين ألف بيت, وعشرة آلاف فارس, فباغتهم عبد المومن, وطوّق القرن جنوبا وشمالا, وأسْفر الهجوم عن فرار أبي سرحان مسعود بن سلطان بن زمام البلط. وجبارة بن كامل, فيما قُتل محرز بن زياد من أمرائهم, وتكبدوا هزيمة نكراء[3].

وبفضل انتصار عبد المومن على القبائل العربية في موقعتي سطيف والقرن, وإحسانه إلى أسْراهم, وحسن تعامله معهم, توطّدت علاقتهم به وخافوه وخضعوا له, وانتظموا في جيوشه, فبادر عبد المومن إلى تسخيرهم لأجل الجهاد بالأندلس[4], ووصل الأمر به إلى الاستعانة بهم في تثبيت العرش لبنيه[5], بعد أن أوعز إلى العرب بأن تولّي ابنه محمد بن عبد المومن, وتظاهر هو بالرفض وبعد إلحاح منهم وافق هو على ذلك[6]. واستمرّ خضوع القبائل

---

[1]- محمّد حسن, المرجع السّابق, ص40.

[2]- ذكر عبد الرحمن بن خلدون سببا آخر, وهو أنه لما افتتح عبد المومن المهدية صلحا سنة 555هـ, واستنقذ جميع البلاد الساحلية مثل صفاقس وطرابلس من أيدي النورمانديين. بعث ابنه عبد الله إلى قابس فاستخلصها من يد بني كامل بعض بطون رياح. ومدينة الأريس من العرب, وأثناء رجوعه إلى المغرب سنة 556هـ, بلغه أنّ الأعراب بإفريقية انتقضوا عليه، بقيادة كبيرهم محرز بن زياد الفارغي من بني عليّ. المصدر السابق, 318/6.

[3]- النويري, المصدر السابق, 315/24؛ محمّد حسن, المرجع السابق, ص105.

[4]- شاركت بعض فروع بني هلال في الجهاد بالأندلس أيّام المرابطين. ينظر: عبد الحمدي الخالدي, الوجود الهلالي السليمي بالجزائر, ص182.

[5]- النويري, المصدر السابق, 305/24-307؛ عزّ الدين عمر أحمد موسى, دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي, ط1, بيروت: دار الشروق, 1983م, ص83.

[6]- شرقي نوارة, المرجع السابق, ص50.

العربية في عهد يوسف بن عبد المومن, والذي أشركها في الجهاد بأرض الأندلس[1], وأبلت بلاءً حسنا[2].

ب- في عهد المنصور[3]:

لم تكن استكانة العرب أيام عبد المومن وابنه يوسف إلا إقرارا بالأمر الواقع, وإذعانا لمنطق القوة, وما إن أحسّوا بالقدرة على الخروج على سلطان الموحدين حتى نكثوا يد طاعتهم, ونلاحظ ذلك عندما خرج بنو غانية بقيادة علي بن غانية[4] سنة 581هـ/ 1185م, فساندتهم القبائل العربية[5] لا سيما قبائل جشم ورياح وجمهور الأثبج[6], إلا قبيلة زغبة فحالفت

---

[1]- ابن القطّان المراكشي, نظم الجمان لترتيب ما سلف من الزمان, تحقيق: محمود علي مكي, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1990م, ص116.

[2]- عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, 402/1.

[3]- المنصور الموحدي: هو المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن علي, كان ذا رأي وحزم ودين, ولي سنة 580هـ, استتب الأمن في أيامه حتى أمنت السبل, غزا عرب إفريقية فهزمهم, واستباح أموالهم ونقلهم إلى المغرب, خرج عليه علي ابن اسحاق ابن غانية, فطرده إلى الصحراء, وجاز إلى الاندلس سنة 591هـ, فانتصر على الروم في موقعة الأرك, وتوفي سنة 595هـ. ابن أبي دينار, المؤنس في أخبار إفريقية وتونس, ط1, تونس: مطبعة الدّولة التّونسيّة, 1286 هـ, صص114-116.

[4]-علي بن غانية: من ذرية يحيى المسوفي, أنكحه يوسف بن تاشفين امرأة تسمى غانية من بيت, فولدت محمّدا ويحيى, تربيا في ظل يوسف بن تاشفين وكفالته, وولّاهما علي بن يوسف, فعقد ليحيى على غرب الأندلس, بقرطبة وعقد لمحمد على الجزائر الشرقية و ميورقة ومنورقة ويابسة سنة 520هـ, وحين قضى عبد المومن على دولة المرابطين, أذعن علي بن يحيى لطاعة الموحدين, واستمر أولاده ولاة للموحدين, إلى أن حدث خلاف بين أبناء اسحاق بن محمد بن علي, وهم محمد وعلي ويحيى وعبد الله والغازي وسير والمنصور وجبارة, فتقبضوا على أخيهم محمّدا, واستبدوا بميوقرة, ودخلوا بجاية, 587هـ, وقد تزامنت ثورتهم مع دخول قراقوش الأرمني, فاجتمع لعلي بن غانية من بني سليم الملثّمين والعرب والعجم, ووصلهم تقليد الخليفة من بغداد, ونهض إليهم المنصور الموحّدي يجرّ أمم المغرب من زناتة والمصامدة وزغبة من الهلاليّين وجمهور الأثبج, فهزمهم, واستمرّت مضايقتهم للموحدين إلى أن استقل أبو زكريا الحفصي بتونس, فطرد آخر أمراء بني غانية إلى الصحراء فبدأ يناوش الموحدين بالمغرب الأقصى إلى أن توفي سنة 631هـ, فانقرض بوفاته أمر الملثمين. عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 28/6-29, 6/ 252-262.

[5] – E. MERCIER, Op, Cid, P46.

[6]- يرى محمد حسن أنّ بني غانية أرادوا السيطرة على محور عمودي يمتد من ميورقة –بجاية –قسنطينة–الزاب–واحات المزاب والجريد, والذي يشبه المحور الذي أسسه المرابطون, والممتد من غانة –أودغست– سجلماسة– مراكش– فاس – قرطبة, فكليهما يربطان المجال الصحراوي بالمجال المتوسطي, ويقول في هذا الصّدد أنّ حركة ابن غانية ومثلها حركة قراقوش الأرمني, لم تكن لتُحدثا تأثيرا وتكتسبا فاعلية, لولا مشاركة القبائل العربية. المرجع السابق, 45/1.

الموحّدين وظاهرتهم[1]. وقد سار إليهم المنصور سنة 583هـ[2] من مراكش كما يقول بن خلدون:((يجرّ أمم المغرب من زناتة والمصامدة وزغبة من الهلاليين وجمهور الأثبج[3]))، فهزمهم في مواقع متعددة، و شرّدهم إلى صحاري برقة، وانتزع بلاد قسنطينة وقابس وقفصة من أيديهم، وراجعت قبائل جشم ورياح من الهلاليّين طاعته فنفاهم إلى المغرب الأقصى. وأنزل جشم ببلاد تامسنا[4] ، ورياحا ببلاد الهبط[5]، وأزغار. أما زغبة التي بقيت على عهدها مع الموحدين فنزلت مع بني يادين، وصاروا جميعا قبلة المغرب الأوسط من مصاب إلى جبل راشد[6].

ت- أواخر أيام الموحدين:

في أواخر عهد الدولة الموحديّة, بدأت القبائل العربية تفرض نفسها [7], فأصبحت من أهل الحل والعقد ببلاد المغرب الأقصى, يولّون و يعزلون من شاءوا من الخلفاء, فقبيلة الخلط

---

[1]-عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 28/6-29.

[2]- ابن قنفذ القسنطيني, الفارسية في مبادئ الدّولة الحفصيّة, تحقيق: محمّد الشّاذلي النّيفر وعبد المجيد التّركي, تونس: الدّار التونسيّة للنّشر, 1968, ص103.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 30/6.

[4]- تامسنا: إقليم يقع بأرض المغرب الأقصى, كان تابعا لما عرف في العصر الوسيط بمملكة فاس, يبتدئ غربا عند أم الربيع, وينتهي إلى أبي الرقراق, والأطلس جنوبا, وشواطئ البحر المحيط شمالا, كان فيه نحو أربعين مدينة وثلاثمائة قصر يسكنها عدد من قبائل البربر, وهو مسقط رأس حاميم بن من الله, الذي ادّعى النبوءة, ولم تتطهر تامسنا من الزندقة إلا في أيام يوسف بن تاشفين, ثمّ صارت خالية من السكان, حتى قام المنصور الموحدي بتوطين الأعراب بها. حسن الوزان, المصدر السّابق, 195/1-196.

[5]-الهبط: تبتدئ هذه الناحية جنوبا عند نهر ورغة, لتنتهي شمالا على المحيط, وتتاخم غربا مستنقعات أزغار, وشرقا الجبال المشرفة على أعمدة هرقل, ويبلغ عرضها نحو ثمانين ميلا, وطولها نحو مائة ميل. المصدر نفسه, 306/1.

[6]- تنتهي ناحية أزغار عند المحيط شمالا, ونهر أبي الرقراق غربا, وبعض جبال غمارة شرقا, وبعضها عند جبل زرهون وسفح جبل زلاغ, وتنتهي جنوبا بجوار نهر بونصر, وجميع سكانه من أعراب الخلط المنتمين إلى المنتفق, خاضعون لملك فاس ويؤدون خراجا مرتفعا, لكنهم أغنياء مجهزون أحسن تجهيز, يكونون زهرة جيش الملك, وهو لا يستخدمهم إلا في الغارات الجدية البالغة الأهمية. المصدر نفسه, 1 /301.

[7]- رسائل موحديه, ص259. رسالة من الأمير محمد الناصر, والكاتب أبي عبد الله بن عياش.

العربية ساند زعماءها يحيى بن محمد الناصر المعروف بالمأمون[1]وبايعوه بالخلافة, انتقاما من الرشيد[2] الذي قتل كبيرهم مسعود بن حميدان[3] مع جماعة من أتباعه, وقد استولت جموعهم على مراكش التي خرج منها الرشيد فارا منها وبقي كذلك إلى أن مات شريدا سنة 641هـ/1244م[4], وقد تكرر ذلك منهم, عندما ارتبطت ولاءاتهم بالمصلحة الماديّة[5].لذلك تأسف المنصور بن عبد المومن على استقدام العرب, وتمنى لو لم يفعل ذلك حين رأى سطوتهم, و عدم خضوعهم للطاعة[6].

3- في عهد بنـــي زيـان:

ضعفت دولة الموحدين وظهرت ثلاثة دويلات تسعى كل واحدة منها إلى بسط نفوذها وأخذ حصتها من تركتهم, وهي الدّولة الزيانيّة والحفصيّة والمرينيّة[7]. وتمكّن الزيّانيون من الإستقلال بالقسم الغربي من بلاد المغرب الأوسط, مع محاولاتهم التوسّع شرقا وغربا ليبلغ

---

[1]-المأمون الموحّدي: هو يحيى بن محمد الناصر بن المنصور يعقوب, بويع سنة 624هـ, وامتنع من مبايعته كثير من الناس, واضطربت البلاد في عهده, وكانت بينه وبين المأمون حروب انهزم فيها يحيى, فبقي شريدا إلى أن مات سنة 626هـ. ابن أبي دينار, المصدر السّابق, ص120.

[2]-الرّشيد الموحّدي: هو عبد الواحد بن إدريس بن يعقوب, بويع سنة 630هـ, فقتل جملة من أشياخ الخلط, فقاموا عليه وحاربوه, فانتصر عليهم بعد ما نهبوا مراكش, وهرب ورجع إلى حضرته, ولم يزل في شتات إلى توفي توفي سنة 640هع. المصدر نفسه, ص126.

[3]- مسعود بن حميدان: شيخ الخلط الذي قتله الرشيد سنة في سنة 631هـ, بعد أن أظهر الخلاف بإغراء من عمر ابن وقاريط, وكان لمسعود قرابة اثني عشر ألفا من الفرسان سوى الرجل والأتباع والحشود, وبعد مقتله قد الخلط يحيى ابن هلال بن حمدان, وبايعوا يحيى الموحدي, واستقدموه من مكانه بقاصة الصحراء. عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السابق, 343/6.

[4]- نوارة شرقي, المرجع السّابق, ص50.

[5]- عزّ الدين عمر أحمد موسى , المرجع السابق, ص105.

[6]- علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي, الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس, الرباط: صور للطباعة والوراقة, 1972, ص230؛ عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, ص409.

[7]- الدّولة المرينية تُنسب إلى بني مرين, وهم فخذ من زناتة, وهم ولد مرين بن ورتاجن, كانوا بجنوب القيروان, ينتجعون, ويصلون إلى بلاد السودان, إلى أن وقعت فتنة بينهم وبين بني عبد الواد وبني واسين, سنة 601هـ/1204م, فقصدوا نحو المغرب, ونزلوا الجبل المطل على ملوية, وبعد سنة 610هـ/1213م, عقب هزيمة العقاب, قاموا بالدخول إلى بلاد المغرب, وتوسعوا في أريافه, و تمكن أبو بكر بن عبد الحق المريني عقب مقتل السعيد الموحدي من دخول فاس, وبويع له بالخلافة, ليبدأ عهد الدولة المرينية. ابن أبي زرع, الذخيرة السنية, صص14-72.

أقصى اتّساع لدولتهم إلى بجاية لكن لفترات وجيزة, أمّا الإقليم الممتد من بجاية إلى بونة فكان خاضعا للحفصيّين [1].

كان التنافس بين الزيانيين والمرينيّين والحفصيّين على أشدّه, لذلك تمّ إقحام القبائل العربية في هذا الصّراع, واستغلت القبائل العربية ذلك, فبدأوا يتسلّلون إلى شمال المغرب الأوسط. خصوصا بنو هلال وأهمّ فروعهم من الأثبج وزغبة, وعجز الزيّانيّون عن كبح تقدّمهم إمّا رهبة من سيوفهم أو رغبة فيها. وقد أقطعهم السلاطين الكثير من الإقطاعات وأجزلوا لأمرائهم الصّلات.

ففي عهد يغمراسن بن زيان[2], بلغت حروبه مع العرب اثنين وسبعين غزوة[3], وفي عهد ابنه أبي سعيد عثمان, قام بقتال القبائل العربية, وتشريدهم إلى الصحراء[4]. أمّا أبو حمو موسى الأول وابنه أبو تاشفين فقد سخّرا قبيلة سويد للعسكرة معهم رفقة بطون زناتة.

وفي أيام أبي تاشفين قاتلوا في صفوفه خصومه من بني توجين في موقعة ربوة توكال بجبل الونشريس سنة 719هـ/1319م[5] , ووطّد أبو تاشفين صلاته بعرب إفريقية ليوسّع من حدود دولته, ففي سنة 723هـ/1323م قدم إليه حمزة بن عمر بن أبي الليل السليمي شيخ عرب افريقية, رفقة عبد الواحد بن محمد اللحياني الحفصي, مستنجدين به, فأرسل معهما

---

[1]-الحفصّيون إليهم تُنسب الدّولة الحفصيّة, و أول ملوكهم أبو محمد عبد الواحد, ابن الشيخ أبي حفص الهنتاتي من قبائل المصامدة بجبال درن, وقد بايع أبو حفص للمهدي بن تومرت وكان من العشرة, وأبناؤه كانوا يعرفون بالأسياد, وينتسبون إلى عمر بن الخطاب, أسند الموحدون لأبي محمد هذا ولاية افريقية, فاشترط عليهم شروطا ووفوا له بها, فقام بطرد ابن غانية, وتوفي سنة 618هـ/1221م, ثم وصل أبو زكريا ابنه من المغرب , فاستبد بافريقية, وصيرها دار ملكه, سنة 634هـ/1269م. ابن الشمّاع, المصدر السابق, صص56-58.

[2]- يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمّد العبد الوادي, أوّل من استقلّ بتلمسان من سلاطين بني عبد الواد, وأول من خلط زي البدواة بأبهة الملك, بويع سنة 633هـ/1236م, وتوفي في طريقه إلى تلمسان عائدا من تونس سنة 681هـ/1282م. ينظر: يحي بن خلدون, المصدر السابق, 204/1؛ ابن خلدون, المصدر السابق, 105/7-122؛ خير الدّين الزّركلي, الأعلام, بيروت:دار العلم للملايين, ط15, ماي 2002, 206/8-207 .

[3]- محمّد بن عبد الله التنسي, تاريخ بني زيان ملوك تلمسان" نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان", تحقيق: محمود بوعياد, الجزائر: المؤسسة الوطنيّة للكتاب, 1985م, ص128.

[4]- المصدر نفسه, ص130.

[5]- التنسي, المصدر السّابق, ص216.

القائد موسى بن علي, وهو ما نتج عنه هزيمة نكراء في صفوف الزيانيّين[1], وبعدها بسنتين عاود حمزة بن عمر بن أبي الليل ومحمد بن طالب بن مهلهل من أشياخ العرب الاستنجاد بأبي تاشفين, فأنجد صريخهما, وتمكن الزيانيون من مضايقة الحفصيين[2].

أمّا عرب سويد فإنّ خصومتهم مع الزيّانيين قد أسفرت عن نهاية مأساوية لحكم بني زيان, سنة 737هـ/1336م[3], وشارك شيخهم ونزمار بن عريف في قتال أبي سعيد وأبي ثابت الزيانيين, بعد هزيمة أبي الحسن المريني في القيروان, وبعد أن استتب الأمر لأبي عنان المريني ناصرته سويد لتعينه على إنهاء حكم بني زيان للمرّة الثانية سنة 753هـ/1352م, وبعد وفاة أبي عنان تمكن أبو حمو موسى الثاني من إحياء الدولة, وبجهود حلفائه من بني عامر و المعقل, وذلك بعد أن خاض حروبا ضروسا ضدّ المرينيين وحلفائهم من سويد.

كما قامت سويد باستفزازه والتشغيب عليه عن طريق تأييد الأمراء المطالبين بالملك كأبي زيان سنة 767هـ, ولم يتمكن أبو حمو من ضبط الأمور إلا بعد أن أغدق على شيوخ العرب من سويد وبني عامر والمعقل بكثير من الإقطاعات[4].

وكان لشيوخ العرب دور في الصّراع بين أبي حمو موسى الثاني وابنه أبي تاشفين سنة 791هـ/1363م[5]. واستقرّ الأمر لأبي تاشفين الثاني سنة 791هـ, فقام بمقاتلة من خرج عن طاعته من شيوخ العرب, واستمر على ذلك إلى سنة 795هـ[6]. وهكذا هبت ريح العرب كما يعبّر عن ذلك عبد الرّحمن بن خلدون, وتمكّنوا من التغلب على قبائل زناتة, وجعلوهم لهم تبعا, ودخلوا تلول المغرب الأوسط، وتملّكت من يومها قبائل زغبة سائر البلاد بالأقطاع من السلطان[7].

---

[1]- التنسي, المصدر السابق, صص216-217.

[2]-المصدر نفسه,ص 217.

[3]- المصدر نفسه, ص147.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 64/6.

[5]- التنسي, المصدر السّابق, ص180.

[6]- المصدر نفسه, صص184-205.

[7]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 64/6.

وتفاقم الأمر في عهد أبي العباس أحمد العاقل[1] , حيث استبد شيوخ القبائل العربيّة في الأوطان التي تغلبّوا عليها[2]. وكان لهم دور في تمكن أبي عبد الله المستعين الزياني من دخول تلمسان, إذ بايعه أولاد أبي ليل[3], وجمهور الثعالبة, وبعض بطون حصين, سنة 842هـ/1438م, ثمّ ثاروا عليه بعد أن اشتدت عليهم وطأته, وقتلوه سنة 843هـ/1439م[4].

وقد استعصت أقاليم أخرى على العرب, بفضل منعتها, ووعورة مسالكها, كمنطقة القبائل الكبرى, والقسم الشرقي من منطقة القبائل الصغرى, ومجموع منطقة أوراس[5], خصوصا إذا علمنا أن العرب كانو لا يقوون على إخضاع القبائل المعتصمة بالجبال, وإنما غاية تغلبهم هو على البسائط, وأطراف الحواضر[6]. ومع ذلك فقد طوقوا هذه المناطق, ومنعوا سكانها من الخروج إلا بخفارة يدفعونها, وتحكموا في أغلب الطرق التجارية, وشددوا الخناق على الكثير من المدن.

- تحكم شيوخ القبائل العربية في الطرق البرية:

بعد أن تمكنت القبائل العربية من بسط نفوذها على كثير من الأرياف وأطراف المدن, أصبحوا يشرفون على كثير من الطرق البرية, والتي تحكموا فيها, وأبح سالكوها عرضة لغاراتهم, ويكفي أن تعرف أنّ الطريق من فاس إلى تلمسان كان يستقر به الأعراب قلما ينجوا التجار من شرهم, لا سيما في فصل الشتاء, لأن السلاطين الزيانيين كانوا يقومون

---

[1]- أبو العبّاس أحمد بن أبي حمو: تولّى أمور الدّولة الزيانيّة سنة834هـ/1430م إلى أن ثار عليه محمّد المتوكّل سنة 866هـ/1462م. ينظر: التنسّي, المصدر السّابق, ص255.

[2]- المصدر نفسه, 248.

[3]- قال محمود بوعياد: ((من البديهي أن المؤلف لا يقصد أولاد أبي الليل من الأعراب القاطنين بجنوب افريقية, ومن المرجح بأنه يعني فخذا من أفخاذ بني يزيد, سموا باسم شيخهم أبي الليل بن موسى)). ويؤكد كلام محمود بوعياد, قول صاحب زهر البستان عن أبي زيان: ((فركن إلى أبي الليل بن موسى شيخ بني يزيد)). مجهول, زهرة البستان في دولة بني زيان, ط1, الجزائر: عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع, 2011 ,ص250؛ التنسي, المصدر السابق, ص250.

[4]- التنسي, المصدر السابق, ص251.

[5]- روبار برنشفيك, تاريخ إفريقية في العهد الحفصي, ترجمة: حمّادي السّاحلي, ط1, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1988م, 395/1.

[6]- ابن خلدون, المصدر السابق, 186/1.

بتأجير بعض العرب لتأمين الطرق, غير أن انتقال هؤلاء المؤجرين إلى مشاتيهم, كان يفسح المجال أمام اللصوص من أعراب آخرين, فيغيرون على قوافل التجار[1], أما قبيلة ذوي عبيد الله, فقد فرض مشيختها ضريبة على بلد هنين بالساحل, فلا يمكن للتجار أن يجيز منها إلى تلمسان إلا إلا بإجازتهم، وعلى ضريبة يؤديها إليهم[2].

وقد ترك لنا كتّاب أدب الرحلات معلومات قيّمة عن ظاهرة قطع الطريق, التي مارسها شيوخ القبائل, كرحلة خالد بن قيس البلوي الذي تعرّض له قطاع الطريق[3]، وقد استطاع العرب أن يجردوا قافلة خالد بن عيسى من كلّ ما تملكه[4]. ولذلك قام بالعمل أهل الدراية فلم يسلك المسالك والفجاج الخطيرة, كما أنّه استفاد من إشارة أبي عبد الله الزبيدي الذي طلب منه أن يبيع دابته, وثقل متاعه في بجاية, حتى يصحبهم خفيفا, وذلك خوفا من معرة العرب في الطّريق[5].

ولقد دفعت أعمال الحرابة التي مارسها شيوخ العرب كثيرا من الفقهاء إلى المطالبة بالاقتصاص منهم ومحاربتهم والاجهاز على جريحهم[6], وهو ما تقرّره فتوى ويشبه جواب ابن

---

[1]–حسن الوزان, المصدر السابق, 11/2

[2]– بسبب فساد المسالك البرية, أصبح الأندلسيون يفضلون الطرق البحرية, ومن يتأمل رحلة ابن رشيد السبتي, وأبو بكر ابن العربي والقلصادي, إضافة إلى بعض المعلومات التي وفرتها وثائق الجنيزة, يُلاحظ أن النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي, قد نشطت فيه الحركة البحرية, و بات الأندلسيون يستأجرون السفن الايطالية, لأداء شعيرة الحج. ينظر: أبو بكر بن العربي, مختصر ترتيب الرحلة للترغيب في الملّة, نشر وتحقيق: سعيد أعراب, ط1, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1987م, ص196؛ عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 81/6؛ علي القلصادي, رحلة القلصادي, تحقيق : أبو الأجفان, تونس: الشركة التونسية للتوزيع, 1978م, ص95؛ محمّد بن عمر بن رشيد السبتي, ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين وطيبة, تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة, تونس: الدار التونسية للنشر, 1982هـ, ص32.

[3]– خالد بن عيسى البلوي, التاج المفرق في تحلية علماء المشرق, تحقيق: الحسن السائح, المغرب –الإمارات: اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي, 1/ ص150.

[4]– المصدر نفسه, 150/1-160.

[5]– محمّد بن عبد الله بن بطوطة, تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "رحلة ابن بطوطة", الرباط: أكاديميّة المملكة المغربيّة, 1418هـ, 161/1.

[6]– بلهواري فاطمة, الجناية في مجتمع الغرب الاسلامي من خلال كتب النوازل, مجلة الحضارة الاسلامية, عدد15, صص151-231, ص 164.

عرفة جواب أبي سعيد بن لب حين سئل عن خطيب قرية اشترك مع أهلها في قتل محارب, فأجاب:((بأنّه لا حيف على الفقيه الذي شارك في قتله, ولا بأس بصلاة من ائتمّ به, وقد كان ما فعله من ذلك من جملة دينه وفقهه))[1].

وفي أواخر القرن التّاسع الهجري ضعف الحفصيّون والزيّانيون عن مجابهة شيوخ القبائل, وصاروا يستعينون بقبائل أخرى حليفة[2]. وبدأت القبائل البدوية تطرق التّلول تاركة الصّحاري والقفار, فتمكنت هذه القبائل من الانتشار في أرجاء التلّ مستقلة بكثير من البلاد[3].

وشيئا فشيئا بدأت بعض القبائل العربية تهدد حواضر الملك[4]. وتحوّلت بذلك إلى كابوس أرق السلاطين, وفتّ من عضد دويلاتهم المتهالكة[5]. واشتطّ العرب في مطالبهم مقابل كفّهم عن شنّ الغارة, وترويع السّابلة, ويذكر ابن خلدون أن :((العرب كانوا يزرعون الأراضي في بلادهم بالتلول ولا يحتسبون بمغارمها فيضيق الدخل، ويمنعهم السلطان العطاء من أجل ذلك, فتفسد طاعتهم, وتنطلق بالعيث والنهب أيديهم))[6].

---

[1]- المصدر نفسه, 198/1.

[2]-رشيد بورويبة وآخرون, المرجع السابق, صص467-471.

[3]- شارل أندري جوليان, تاريخ إفريقيا الشّمالية, تعريب: محمّد مزّالي والبشير بن سلامة, ط2, تونس: الدّار التّونسيّة للنّشر, 1983م, ص207؛ محمّد حسن, المرجع السابق, 1 /103.

[4]- من ذلك ما فعله خالد بن عامر وبنو يعقوب والمعقل, حين قاربوا تلمسان, و عاثوا فسادا في ساحاتها, ونفس الشيء بالنّسبة لحاضرة تونس حيث نزل الأعراب بها, وضيّقوا على سلطانها. وقريب منه ما حصل في أيام أبي اسحاق الحفصي, حيث استولت العرب في أيامه بتونس على القرى والمنازل ونهبوا الأموال والحريم, واضطر إلى أن يكتب الظهائر للعرب, وهو أول من فعلها من بني حفص .ينظر: يحي بن خلدون, المصدر السابق, 506/2؛ أبو القاسم البرزلي, نوازل البرزلي"جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام", تحقيق: محمّد الحبيب هيلة, ط1, بيروت: دار الغرب الاسلامي, 2002م, 179/6-180؛ ابن قنفذ, الفارسية, ص139.

[5]- العبدري, المصدر السابق, ص25؛ محمّد الهادي الشّريف, ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس, تعريب:محمّد الشاوش-محمّد عجينة, ط3, تونس: دار سرّاس للنّشر, 1993م, صص 50-51, صص 57-58؛ مولاي بلحميسي, نهاية دولة بني زيان, الأصالة, عدد26, السنة الرّابعة, 1975, جويلية – أوت, عدد خاص عن تاريخ تلمسان وحاضرتها, ص33.

[6]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 577/6.

ومع نهاية الدّولة الزيانية, غدت الكثير من مجالات بلاد المغرب الأوسط تحت رحمة شيوخ القبائل العربيّة, وبدأ شيوخ العرب يستقلّون بإدارتها, وصارت كلمتهم نافذة[1], وفسدت المسالك, وكثر قطاع الطريق, والذين لم يسلم منهم حتى الموريسكيين, فحين استقبلت وهران قرابة 22000 ألف موريسكي, و لم تستطع أن تأوي هذا العدد الضخم, اضطر فريق منهم مكوّن من 500 إلى 600 موريسكي إلى التوجه إلى تلمسان, فنهبهم الأعراب , واتجهت جماعة أخرى مكوّنة من 40 موريسكيا إلى مستغانم لكن كان مصيرها هو مصير الجماعة الأولى[2], وقد وصف ذلك المقري فقال: ((فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات, ونهبوا أموالهم) و(وانتهى بهم الأمر إلى قتلهم وبقر بطونهم مما يظنون ابتلاع الجوهر)) [3], وعلى إثر ذلك أفتى الشيخ محمد أقدار التوجيني بوجود قتال قبيلة هبرة, فاستنهض الشيخ حميدة العبد وحثه على أن يغزو بعشائر سويد قبيلة هبرة لاعتدائها على الموريسكيين[4] بنواحي أرزيو[5].

- توزيع أهمّ القبائل العربية بالمغرب الأوسط أواخر العهد الزياني:

بإطلالة سريعة على مدن وأقاليم المغرب الأوسط مع نهاية العهد الزياني, نجد أنّ عنابة وما جاورها قد أشرفت عليها قبيلة حكيم وأولاد علي و الكعوب وطرود ورياح السلميين, وقبائل دريد الاثبجية, أما إقليم قسنطينة, فملكته قبائل بنو مرداس بين عنابة والقالة وعطية في

---

[1] -Ruff Paul, La Domination Espagnole A Oran Sous Le Gouvernement Du Compte d'alcaudete(1543-1558) , Leroux, Paris, 1900, pp13-16.

[2]- محمد زروق, الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17هـ, ط3, الدار البيضاء: أفريقيا الشرق, 1998م, , ص131

[3]- أحمد بن محمّد المقري, نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب, تحقيق إحسان عبّاس, بيروت: دار صادر,1408 - 1988م, 528/4.

[4]- حسب أبي راس الناصري في عجائب الأسفار فإن أحميده المذكور أتاه بجنود عظيمة يوم الجمعة ووافق ذلك ختمه صحيح البخاري, ثم ساروا ولقيتهم جموع هبرة, فانهزمت وركبت سويد أكتافهم فقتلتهم كيف شاءوا.محمد رزوق, المرجع السابق, ص132.

[5]- أرزيو: مدينة ساحلية تابعة لولاية وهران, تقع بين من مراسي خليج مستغانم, كانت دار صناعة الخليفة عبد المومن بن علي واحدى مراكز أسطوله الضخم. أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص195.

ناحية جيجل[1], ودريد بين تبسة ووادي الزناتي[2], وكرفة قرب العين البيضاء[3], وأولاد ماضي قرب برج بوعريريج وأولاد صولة في الزاب , وكان لهم تغلّب على تقرت, قبيل تولّي أسرة بني جلاب أمورها[4], ومشيخة الذواودة تحكّموا في المنطقية الواقعة بين الزاب والحضنة, وأولاد سعيد والمخادمة وأولاد جلال وفارس وعامر أشرفوا على منطقة الهضاب العليا والصحراء. فيما أشرف الثعالبة على سهل متيجة, وأولاد ماضي وبني منصور والخشنة وجواب ويزيد ومربع وسليمان على منطقة سور الغزلان, أمّا قبائل البراز والعطاف وجندل فتغلّب شيوخها على جنوب مليانة[5] وعلى سهول شلف, فيما تحكّمت قبائل نزكيوة وعمارة والعبيد في بلاد جرجرة الجبلية, و في الجهة المقابلة للصحراء تحكّم أولاد نايل[6] في الجبل المعروف باسمهم .

أمّا الغرب الجزائري فتملكت بنو عامر بين وهران وتلمسان, والحشم غربي مدينة معسكر ومجاهر قرب مستغانم وصهيب وفليته أرض البطحاء وقريب من الأصنام, والغسل ورياح وأولاد ميمون قرب تلمسان[7], وأولاد النهار خلفها, وفي أقصى جنوبها بني مطهر وأولاد

---

[1]-جيجل: مدينة جزائرية, تقع في الشريط الساحلي, بين مدينتي سكيكدة شرقا وبجناية غربا, أسسها القرطاجنيون, وكانت مركزا عظيما, تدعى ايجيلجيلي, واستمرت أهميتها البحرية عند الفتح العربي. أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص216.

[2]- وادي الزناتي: موقعه حاليا بلدية تابعة لمدينة قالمة تقع في الجنوب الغربي للمدينة, يوجد بها تمثال خطاف العرايس الأثري.

[3]-العين البيضاء: ترتفع ألف متر عن البحر, وهي مركز تجاري وفلاحي, وتقع في أرض القبيلة العتيدة قبيلة الحراكتة, وهي قبيلة بربرية مستعربة أتم الاستعراب, وقد أصبحت مقسمة الى ثلاث مناطق ممتزجة: أم البواقي, ومسكيانة وصدراتة, وتبعد ب41 كم عن مدينة باغاي القديمة, معقل البربر الدوناتيين. أحمد توفيق المدني, كتبا الجزائر, ص224.

[4]- محمّد الطاهر بن دومة , أخبار وأيام وادي ريغ, تحقيق: محمّد الحاكم بن عون, رسالة ماجستير, جامعة منتوري قسنطينة, قسم التاريخ والآثار, 2010-2011هـ, ص109.

[5]- مليانة: مدينة جزائرية تقع على بعد 130 كم غربي الجزائر العاصمة, ونحو 70 كم جنوب شرشال. قال حسن الوزان:((مدينة كبيرة جدا وقديمة, بناها الرومان وأطلقوا عليها اسم ماكنانة, لكنّ العرب حرّفوا هذا الاسم, تقع هذه المدينة في قمة جبل, على بعد نحو أربعين ميلا من البحر, أي عن شرشال, وهذا الجبل مليء بالعيون ومكسوّ بأشجار الجوز)). المصدر السّابق, 35/2.

[6]-أولاد نايل: فرقة من قبائل زغبة ينتشرون في جبال عمور, إلى الزيبان ومن الحضنة شمالا الى مقربة من ديار ميزاب, لا تزال فروعهم إلى الآن تحمل إسم أولاد نايل . أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص217.

[7]-أولاد ميمون: لا زالت تعرف باسمهم منطقة أولاد ميمون بتلمسان.

سيدي الشيخ, كما يسكن الخلافات وأولاد خالد والجعافرة وأولاد شريف ما بين الساحل وفرندة وسعيدة[1], وقريب من واد ملوية توجد المهايا وحميان والعمور والأحلاف والشجع و بني وكيل, ويحاذيهم سكان ناحية بشار ذوي منيع وأولاد جرير والنواصر والغنانمة و ذوي حسان بتوات[2].

إنّه لمن الصعب أن يلمّ الباحث على وجه الدّقّة بأنساب القبائل العربية المستقرة بالمغرب الأوسط, ويحدّد مواطنها, وذلك لعدّة أسباب يأتي في طليعتها, طبيعة الحياة العربية, و التي اتسمت بالهجرة والترحال, وأيضا بسبب ادعاء بعض القبائل العربية أنسابا مدبّجة, لغايات مختلفة, و ذوبان بعض البطون البربرية في القبائل واختلاطها بهم, كما أن الاعتماد على اللغة وحدها هو مخالف للمنهج الصحيح, بسبب تعرب الكثير من القبائل البربرية, ويبقى اعتماد الرواية التاريخية, مع اعتبار الفوارق اللغوية, والتسميات والرواية الشفوية, من أهم طرق معرفة مواطن القبائل العربية[3]. ومن حسن الحظّ أنّ الله قيّض عبد الرحمن ابن خلدون, والذي استغل قوته العلمية, وخبرته التي اكتسبها من خلال اضطلاعه بعدّة مناصب سياسية, منها السفارة والحجابة إلى التعرف عن كثب على أنساب هذه القبائل, مستفيدا من مشافهة نسّابة القبائل العربية[4] وكتب الأنساب التي وقعت بين يديه, وأظنّ أنه لولا كتاب العبر لابن خلدون, لغابت الكثير من أخبار القبائل العربية, و لذهبت أدراج الرّياح.

وبالاعتماد على كتاباته تمكنتُ من التعرف على أهم بطون القبائل العربية التي استقرت بالمغرب الأوسط, محددا نسبها ومواطنها وتنقلاتها إلى غاية أيام ابن خلدون. كما استأنست ببعض الإشارات والمعلومات المبثوثة هنا وهناك, والتي من شأنها أن تزيد البحث وضوحا.

---

[1]- سعيدة: مدينة جزائرية, وهي آخر مدن الأطلس التلي, كانت إحدى عواصم أمير عبد القادر. أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص219.

[2]- عبد الوهاب منصور, المرجع السّابق, 1/432-434.

[3]- عبد الوهاب منصور, المرجع السّابق, 1/ 432.

[4]- من أدلة استفادة ابن خلدون من الرواية الشفوية, ما كان ينقله بعبارة أخبرني وحدّثني, مثاله ما أسنده إلى يوسف بن علي ثم غانم, و أيضا طلحة بن مظفّر من شيوخ العماريّة, وأمير بسكرة محمد بن منصور بن مزني, الذي وصفه بصاحبنا, ينظر على التوالي: عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 61/6, 441, 493.

أ- قبائل بني هلال:

مثّلت قبائل بني هلال غالبية العرب المستقرّين بالمغرب الأوسط, وكان لهلال نهيك ومناف, وتفرّع عن نهيك زغبة ورياح والأثبج وعن مناف عمر وقرّة, وسنحاول التّعريف بكلّ فرع وما اندرج تحته من البطون.

1- قبائل الأثبج[1]:

هم أبناء الأثبج بن ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر, وأهمّ بطونهم الضحاك وعياض ومقدم والعاصم ولطيف ودريد وكرفة.

- العاصم ومقدّم:

يرجعون إلى مشرف بن الأثبج, وهم إخوة الضحاك وعياض, قام المنصور الموحدي بنقلهم مع قرة وجشم تامسنا بأرض المغرب[2].

- كرفة:

هم أبناء كرفة بن الأثبج, اصطنعهم الحفصيّون لضرب قبائل رياح, وصارت لهم جباية جبل الأوراس وكثير من بلاد الزّاب, إلى أن قويت شوكة رياح, وملكوا المجالات الواسعة, ومنعوا كثيرا من القبائل عن الظعن, توقفت كرفة عن الرحلة, واستقرت بطونها في شرقي جبل أوراس[3].

- دريد:

كانوا من أعز الأثبج وأعلاهم كعبا, وكان رئيسهم أيامم دخولهم إفريقية هو حسن بن سرحان بن وبرة إحدى بطونهم، وكانت مواطنهم ما بين ولد العناب إلى قسنطينة إلى طارف مصقلة. وكانت بينهم وبين كرفة فتنة قُتِل فيها حسن بن سرحان ، وكانوا بطونا كثيرة منهم

[1]- الأثبج: من أوفر الهلاليين عددا وأكثرهم بطونا , دخلوا إفريقية وغلبوا صنهاجة على الضواحي, إلى أن نقل الموحدون منهم العاص وقرّة ومقدّم وتوابعهم من الجشم إلى المغرب الأقصى بعد مظاهرتهم لبني غانية, فاعتزّت رياح على الأثبج. عبد الرحمن بن خلدون, 30/6-31.

[2]- المصدر نفسه, 31/6.

[3]- المصدر نفسه, 31/6.

أولاد عطية بن دريد, وأولاد سرور بن دريد وأولاد جار الله بن عبد الله بن دريد. وتوبة بن عبد الله بن دريد ولد عبد الله أيضا وهو توبة بن جبر بن عطاف بن عبد الله[1].

- عياض:

عياض بن مشرف بن الأثبج, نزلوا جبل قلعة بني حماد, وتغلّبوا على قبائله, ومواطنهم مابين ثنية غنية والقصاب إلى وطن بني يزيد بن زغبة, ومن بطونهم المهاية والمرتفع والخراج وأولاد صفر وأولاد رحمة, ومن المرتفع أولاد حناش[2].

- الضحاك:

وهم أولاد الضحاك بن مشرف بن الأثبج, كانت رئاستهم متفرقة بين أميرين منهم وهما عطية وكلب بن منيع, وغلب أبو عطية على الرئاسة[3].

- لطيف:

وهو لطيف بن سرح بن مشرف بن الأثبج, ومن أشهر بطونهم أولاد كسلان بن خليفة ويُلقّبون باليتامى, وذوي أبي خليل وذوي جلال بن معافى, وأولاد لقمان بن خليفة بن لطيف, ومنهم اللقامنة, وكانت لهم كثرة ونجعة. ثم عجزوا عن الطعن, وتغلّب عليهم الذواودة من رياح, وغلبوهم على الضواحي، بعد أن نقل الموحدون العاصم ومقدّم، فنزلوا بلاد الزاب، واتخذوا بها الآطام والمدن مثل الدوسن وغرييوا وتهدوه ونقموه وبادس. وفي أيام ابن خلدون, صاروا من الرعايا الغارمة لأمير الزاب. كما كانت بين فروعهم فتن متّصلة[4].

- ويلحق بالأثبج أحلافهم من العمور من ولد عمرو بن عبد مناف من هلال, وهم إخوة قرة بن عبد مناف, وكان العمور بطنان؛ هما قرّة وعبد الله, ومواطنهم ما بين أوراس شرقا إلى جبل راشد من ناحية الحضنة والصحراء[5].

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 32/6.

[2]- المصدر نفسه, 33/6.

[3]- المصدر نفسه, 33/6.

[4]- المصدر نفسه, 34/6.

[5]- المصدر نفسه, 35/6.

2- قبائل رياح[1]:

يرجعون إلى رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر .و أهم بطونهم: عمر بن رياح ومرداس بن رياح وسعيد بن رياح وعامر بن رياح.

- أولاد عمر بن رياح:

لم يشر ابن خلدون إلى أخبارهم, غير أنّه ذكر ما تناقلوه بينهم من كون أبيهم عمر بن رياح, قام بكفالة داود بن مرداس بن رياح, ونستفيد من كلام ابن خلدون أنّهم كانوا حلفاء للذواودة[2].

- أولاد مرداس بن رياح:

وهم صنبر وعقيل وداود, فأمّا أولاد عقيل فلم تكن لهم رئاسة, وإنّما حالفوا أولاد سباع من الذواودة[3]. وكانت الرئاسة حين دخلوا أرض افريقية لصنبر, وكان رئيسهم موسى بن يحى الصنبري, ثمّ آلت إلى الذواودة أبناء داود بن مرداس بن رياح. فتغلبوا على جبل أوراس والزاب، و نقاوس ومقرة[4] والمسيلة, وريغ وواركلا[5] و ضواحي بجاية وقسنطينة. يقول ابن

[1]- قبيلة رياح: كان فيهم العدد أيام دخولهم أرض إفريقية حتى أن ابن حزم نسب إليهم الإفساد, فقال: ((بنو رياح الذين أفسدوا إفريقية)). المصدر السابق, ص275.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, ص44.

[3]- المصدر نفسه, 47/6-48.

[4]-مقرة: حاليا هي إحدى بلديات ولاية المسيلة الجزائرية, قال عنها اليعقوبي : ((لها حصون كثيرة, والمدينة العظمى مقرّة أهلها قوم من بني ضبّة وبها قوم من العجم, وحولها قوم من البربر يقال لهم بنو زنداج)). المصدر السابق, ص141.

[5]-واركلا: أو مدينة ورقلة قال عنها حسن الوزان: ((مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميديا, لها سور من الآجر النيء ودور جميلة, وحولها نخل كثير, ويوجد في ضواحيها عدّة قصور وعدد لا يحصى من القرى, ...منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد, لا سيما من قسنطينة وتونس, يحملون إلى وركلة منتجات بلاد البربر, ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان...لوركلة أمير يشرفونه كالملك, ..ويؤدي إلى جيرانه الأعراب خراجا مرتفعا)). المصدر السابق, 136/2.

سعيد:((ومن حد قسنطينة إلى بجاية مجالات رياح[1])). ومع الأيام أصبح كلّ فروع رياح أحلافا لفرع من فروع الذواودة[2].

- أولاد سعيد:

كانوا حلفاء لأولاد محمّد من الذواودة ولم تكن لهم رئاسة, وربّما نابذوا أولاد محمّد العداء ثمّ يرجعون إلى طاعتهم[3].

- أولاد عامر:

عُرفوا بالأخضر, وكانوا حلفاء لأولاد سباع مع أولاد مسلم بن عقيل بن مرداس[4].

3- قبائل زغبة[5]:

يرجع نسبهم إلى زغبة ابن أبي ربيعة بن نهيك ابن هلال بن عامر, وقد قال ابن سعيد أنّ مجالاتهم :((كانت تمتدّ من غرب بجاية إلى تلمسان[6])). وكانت لهم عزة وكثرة عند دخولهم إفريقية وتغلبوا على نواحي طرابلس وقابس, وحالفوا الموحّدين، هم وبنو يادين من زناتة, ودفعوا ابن غانية عن بلاد المغرب الأوسط، فحباهم الموحّدون, واتّسعت مجالاتهم ما بين المسيلة وقبلة تلمسان في القفار، وملك بنو يادين وزناتة عليهم التلول. وحين قامت دولة بني زيان, ارتحلت زغبة عن القفر إلى التلول وتغلبوا فيها، ووضعوا الإتاوة على أهلها لمحالفتهم بني زيان، ولما قويت الدّولة الزيانيّة طردوا العرب عن التّلول إلى القفر, بسبب كثرة عيثهم وفسادهم فرجعوا إلى صحرائهم، فتلاشت أحوالهم وضربت عليهم البعوث، وأعطوا الإتاوة والصدقة, وحين دبّ الضّعف إلى دولة بني زيان وجدوا السبيل بالفتن ومناصرة المطالبين بالملك والخارجين على السّلاطين، فقويت شوكتهم، وأقطعتهم الدولة الكثير من نواحي

---

[1]- ابن سعيد المغربي, المصدر السابق, ص77.

[2]- ابن خلدون, المصدر السابق, 47/6-48.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 47/6-48.

[4]- المصدر نفسه, 48/6.

[5]-ابن خلدون, المصدر السّابق, 54/6.

[6]- ابن سعيد المغربي, المصدر السابق, ص77.

المغرب الأوسط وأهم بطونهم : يزيد وحصين ومالك وعامر وعروة. وأمّا مواطنهم فهي كالآتي:

- بنو يزيد:

استقرّ بنو يزيد في أرض حمزة[1] من أوطان بجاية لبني يزيد بن زغبة مما يلي بلاد رياح والأثابج.

- بنو عامر[2] :

موطنهم بجنوب تلمسان مما يلي المعقل, و لهم تغلّب على تاسالة[3] وميلانة إلى جبل هيدور إلى كيدزة الجبل المشرف على وهران. كانت قبائل بني عامر حليفة لبني يزيد, ضدّ رياح, وكان لهم على مظاهرتهم وضيعة من الزرع تسمى الغرارة وهي ألف غرارة من الزرع. وكانوا يتقلبون في قفارها في المشاتي، ويظهرون إلى التلول في المرابع والمصايف. وحين ملك يغمراسن بن زيان تلمسان ونواحيها، ودخلت زناتة إلى التلول والأرياف فكثر عيثُ المعقل وفسادهم فجاء يغمراسن ببني عامر من محلاتهم بصحراء بني يزيد، وأنزلهم في جواره بصحراء تلمسان. فزاحموا المعقل, وتبعتهم حميان من بطون بني يزيد فصاروا في عداد بني عامر.

- حصين بن زغبة:

كانت مواطنهم بتيطري وهو جبل أشير ملكوه وتحصنوا به[4].

- بنو مالك بن زغبة:

كانت لهم بلاد توجين, ما عدا جبل الونشريس[1] لتوعره, و نواحي مليانة[2].

---

[1]- أرض حمزة: من أوطان بجاية وهي البويرة حاليا. ابن خلدون, المصدر السابق, 55/6؛ رشيد بورويبة, المرجع السّابق, ص20.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 68/6-74.

[3]-تاسالة :تقع بين سيدي بلعباس ووهران, وهي تحيط ببحيرة وهران الرمادية اللون, وتبلغ قمة جبل تفروني فيها 1060 مترا. أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص17.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 30/6.

- عروة بن زغبة:

اشتهر منهم بطنان, واستقروا بجبل راشد[3].

ب- قبائل المعقل[4] :

تنتسب قبائل المعقل إلى عرب اليمن على ما رجّحه ابن خلدون[5]. وقد صاروا أيام الزيانيين من أوفر قبائل العرب, مع أنّهم لم يتجاوزا حين دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين المائتين. ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى مجاورون لبني عامر من زغبة في مواطنهم بقبلة تلمسان, ومن أولاد معقل؛ سحير ومحمد، فولد سحير عبيد الله وثعلب، فمن عبيد الله كان البطن الكبير منهم "ذوي عبيد الله" منهم والذين كانوا يجاورون بني عامر, وكانت مواطنهم بين تلمسان

---

[1]- الونشريس : سلسلة جبلية بشمال غرب الجزائر, قال عنها حسن الوزان: ((جبل شاهق تسكنه قبيلة نبيلة حاربت ملوك تلمسان عدة مرات ودامت هذه الحروب أكثر من ستين عاما بسبب مساندة ملوك فاس, هذا الجبل جيد التربة كثير العيون, وفي قمته الشدسيدة الوعورة كمية وافرة من معدن التوتيا(الزنك) ويبلغ عدد المقاتلين فيه نحو عشرين ألفا)). المصدر السّابق, 45/2.

[2]- قال عبد الرحمن بن خلدون: ((وأوشك بهم أن يستولوا على الأمصار)). المصدر السّابق, 65/6.

[3]- المصدر نفسه, 75/6.

[4]- لما تملك بنو زيان غلب المعقل على ديار زغبة بالقفار، وفرضوا عليهم ضريبة يأخذونها من بكرات إبلهم، فأخذت الحميّة قبائل زغبة, ودفعوا المعقل إلى الصّحراء, فملكوا قصور الصّحراء, مثل قصور السوس غربا، ثم توات ثم جودة ثم تامنطيت. ثم واركلان ثم تاسبيبت ثم تيكورارين شرقا, وفيهم من مسلم سعيد بن رياح والعمور من الأثبج، وأشار ابن خلدون إلى أنّ عددهم قليل. وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم من فزارة من أشجع ، و الشظة من كرفة والمهاية من عياض، والشعراء من حصين والصباح من الأخضر ومن بني سليم وغيرهم. المصدر نفسه, 23/6.

[5]- ذكر عبد الرحمن بن خلدون أنّ أنسابهم عند الجمهور خفية ومجهولة، وأنّ نسّابة بنو هلال كانوا يعدونهم من بطونهم, ثمّ بيّن ضعف هذا القول, وأشار إلى أنّ نسّابة المعقل كانوا يزعمون أن نسبهم من أهل البيت, ويرجعون أنفسهم إلى جعفر بن أبي طالب، و ردّ ابن خلدون هذا القول, بدليل بدواة المعقل بخلاف الطالبيين والهاشميين فلم يكونوا أهل بادية ونجعة. ليرجّح في الأخير كونهم من عرب اليمن، من نسل مذحج، واسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن غريب بن زير بن كهلان، وهو معقل واسمه ربيعة بن كعب بن كعب بن الحرث. مؤيّدا قوله هذا بما ذكره ابن سعيد المغربي عن بني مذحج وأنهم بجهات الجبال من اليمن، وذكر من بطونهم زبيد ومراد. ثم قال:((وبإفريقية منهم فرقة وبرية ترتحل وتنزل)). المصدر نفسه, 77/6-79.

وتاوريرت في التل وما يواجهها من جنوبا. ومن ثعلب الثعالبة الذين كانوا ببسيط متيجة من نواحي الجزائر[1].

ت- قبائل بني سليم:

بتتبع أخبار الغزوة الهلالية, نجد أنّ بلاد المغرب الأوسط, قد كان لها أكبر حظ من قبائل بني هلال وأحلافهم. أما سليم فإنما تقدمت منهم قبيلة عوف حوالي القرن الثامن من تونس إلى ناحية عنابة[2]. و يمكن أن نلاحظ أنّ من مساكن سليم بالجزائر؛ منطقة تبسة ومنطقة جنوب سطيف, و ولاية ميلة[3] حيث توجد بلدية الرمانة التي يتفرع منها كثير من أصول بني سليم, وهم من قبيلة الحوامد, ويوجد بطن من المحاميد بمنطقة سوف[4], كما توجد بلدية تحمل اسمهم ما زالت لحد الآن, وهي بلدية سليم بولاية المسيلة. و يتمركز أيضا أولاد سليم في ولاية سعيدة ببلدية أولاد خالد ويوجد جزء منهم بولاية النعامة, في بلدية جنين بورزق, ويتمركزون أيضا بولاية معسكر بالغرب الجزائري[5]. ومنهم بطن من دباب يسمّون النوايل, ومنهم القبيلة الشهيرة المستقرة قرب مدينة الجلفة[6], ومنهم أولاد سنان الذين اتخذوا من قالمة[7] مدينة لهم [8], وبنو عوف بن بهثة بن سليم, الذين اتصلت قبائلهم إلى عنابة[9].

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 77/6.

[2]- المصدر نفسه, 95/6.

[3]- ميلة: مدينة جزائرية, تقع شمال غرب مدينة قسنطينة, قال عنها حسن الوزّان:((مدينة عتيقة بناها الرومان على بعد نحو اثني عشر ميلا من قسنطينة, تحيط بها أسوار قديمة,...ومن عادة أمير قسنطينة أن يبعث إلى هذه المدينة واليا ليقضي بين الناس, ويجبي ما خصص له من ايرادات في آن واحد)). المصدر السّابق, 60/2.

[4]- إبراهيم محمّد الساسي العوامر, الصّروف في تاريخ الصّحراء وسوف, تعليق: الجيلاني بن ابراهيم العوامر, الجزائر: منشورات ثالة, 2007, ص220.

[5]- عبد الحميد خالدي, التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية ومليانة, الجزائر: دار هومة, 2003, ص75.

[6]-الجلفة: من أكبر المراكز الجنوبية, ترتفع 1153مترا عن سطح البحر, والمدينة ليست قديمة بل أسست حول مركز حربي سنة 1852م, في مفترق الطرق بين الأغواط وآفلوا وبوسعادة. أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص216.

[7]- قالمة: مدينة بربرية فينيقية كانت تدعى كالمة, وازدهرت أيام الاحتلال الروماني وكبرت, ولا يزال بها الكثير من آثار الرومان, وترتفع 1411كلم عن سطح البحر. المرجع نفسه, ص230.

[8]- عبد الوهاب منصور, المرجع السّابق, ص428.

[9]- المرجع نفسه, ص430.

المبحث الرابع: القبائل العربية في المغرب الأوسط(المميّزات والعقليّة)

تميّزت حياة القبائل العربية ببعض المميّزات التي جعلتها تختلف عن حياة القبائل البربرية, كما أنّ العقليّة العربية تمتاز بعدّة خصائص, ولا شكّ أنّ معرفة مميّزات حياة القبائل العربية, وطريقة عيشها, إضافة إلى عقلية أبنائها وشيوخها, ستساعد إلى حدّ كبير في تفسير تصرفات شيوخ القبائل العربية

- تقديس النسب:

يعدّ النسب أو الدم الواحد هو سرّ اجتماع القبيلة, فهو يمثل القرابة الحقيقية البيولوجية[1], إذ أنّ القبيلة ترجع إلى جد واحد, أي "دم واحد", ويعتبر النسب أحد أقوى وشائج القربى, وقد كانت القبائل العربية تعنى بالنسب أيما اعتناء, فكانت تحافظ على أنسابها, ولكل قبيلة نسّابوها الذين ينفون عنها الدخلاء[2].

وقد سعى علماء الانثروبولوجيا إلى وضع تفسيرات لظاهرة التفاخر بالأنساب عند القبائل العربية, فأرنست كلير عزى ذلك إلى عدم وجود علماء أو أمور يمكن للقبيلة أن تفتخر بها خصوصا مع عجز القبيلة عن احتواء العلماء[3]. فيما يرى الغير أنّ العربي كان يرى في النّسب ما نراه نحن الآن في الوطن, فكل قبيلة تؤمن بنسبها وتعتز به, وتفتخر بعودها إلى أصل واحد, فهي من دم واحد وأصل واحد, ومن أجل ذلك عبروا عن القرابة باللحمة, كما عبروا عن عشائرهم وفروعهم بالبطن والفخذ[4].

- مظاهر تعظيم النسب:

بلغ من حرص القبائل العربية على النسب أن أفرادها قلما يصاهرون من لايساويهم في النسب، والقبائل المشكوك في نسبها لا يصاهرها أحد من القبائل المعروفة[5].

---

[1] - بوزيان الدرّجي, ملامح تاريخيّة للمجتمعات المغربيّة, ص161.

[2] -جواد علي, المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام, ط4, بيروت: دار السّاقي, 1422-2001, 276/1.

[3] - بنسالم وآخرون, الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي, ترجمة عبد الأحمد السبتي وعبد اللطيف الفلق, ط2, الدار البيضاء: توبقال, 2007م, ص72.

[4] -أحمد شوقي ضيف, تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي, شوقي ضيف, ط1, القاهرة: دار المعارف, 1995م, ص57.

[5] -جواد علي, المرجع السابق, 276/1.

ويعدّ النسب أحد أهم أسباب توحد أفراد القبيلة ضد الخطر الخارجي, لأن أفراد القبيلة الواحدة يجعلهم النسب كأبناء أسرة واحد يشعرون بشدة التلاحم والتراحم بسبب القرابة[1], ذلك الشعور الوجداني الذي يولد التناصر والتعاون في حالة الظلم, لدفع الأضرار والمهالك[2]. ما دفع بشيوخ القبائل إلى تضخيم أنسابهم عند شعورهم بضرورة عقد حلف مع قبيلة ما, وفي حالة تعذر ذلك, فإنّهم يلجؤون إلى وسائل تضمن تناصرهم, وفق طرق وحيل مختلفة فلجأوا إلى الحلف والنسب المدّعى, كما استعملت طريقة الاستلحاق[3], إضافة إلى ادّعاء النسب.

وقد كانت القبائل الضعيفة تعرف قيمة النسب, فبمجرد مشاركتها لقبيلة غالبة في النسب, فإنها ستحصل على امتيازات تجعلها أفضل من كثير من القبائل القابعة في قاع الهرم الاجتماعي القبلي, هو ما دفع هذه القبائل إلى النزوع لقبائل قوية لفضيلة أو ذكر كيفما اتّفق[4], مستعملين طرقا وحيلا غريبة لتضخيم نسبهم, ويرى أرنست كلير أنّ عدم وجود علماء أو أمور يمكن للقبيلة أن تفتخر بها خصوصا مع عجز القبيلة عن احتواء العلماء جعلها تهتمّ بالنّسب [5]. فيما يرى ابن خلدون أنّ هؤلاء يتورّطون بذلك في الطّعن في أنسابهم, كأولاد ربّاب من بني عامر أحد شعوب زغبة حين ادّعوا أنّهم من بني سليم ثمّ من الشّريد[6].

- **الحلف:**

نقصد بالحلف انضمام قبيلة إلى قبيلة اخرى لا تشترك معها في النسب, لقصد تحصيل مصلحة مشتركة, تلك المصلحة التي يطلق عليها ابن خلدون عبارة " المشاركة والمساهمة "؛

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 1/159-160.

[2]- محمّد فاروق النبهان, الفكر الخلدوني من خلال المقدمة, ط1, بيروت: مؤسسة الرسالة, 1998م, ص161.

[3]- بوزيان الدراجي, الملامح التاريخية للمجتمعات المغاربية, ص167.

[4]- المختار الهرّاس, القبيلة والدّورة: قراءة في التحليل الخلدوني للمجتمع القروي المغاربي, ضمن الفكر الاجتماعي الخلدوني, ط1, بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية, 2004, ص144.

[5]-بنسالم وآخرون, المرجع السابق, ص45.

[6]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 1/ 165.

المشاركة في الثروات والمساهمة في السلطة[1]. فإذا كان النسب, هو قرابة حقيقية بيولوجية, فإن التحالف هو قرابة إرادية اجتماعية, و يعتبر الحلف من أهم عوامل تكتل أفراد القبيلة, فهو يأتي بعد النسب. وقد يكون الحليف فردا أو قبيلة.

وعرف الحلف في القبائل العربية منذ أيام الجاهلية, فكانت صيغة العقد بين الحليف والقبيلة هو عبارة: ((دمي دمكم وهدمي هدمكم)), ويمكن اعتبار الحلف أحد تجليات المجتمع الانقسامي, في تاريخ المغرب العربي الوسيط, حيث تنتقل التجمعات تدريجيا من أشكال التضامن الآلي, الذي يؤسّسه التشابه بين الأفراد, إلى أشكال التّضامن العضوي الذي يفرضه الاختلاف والتكامل[2]. وهكذا مكّن التّحالف القبائل العربية من تكثير سوادها, وزيادة قوتها, في حين أن القبائل الضعيفة كان عليها أن تختار من تتحالف معه حتى تحتمي بجواره[3]. وإذا تفرقت القبيلة, فإن القبائل الحليفة عليها أن تختار أحد الفروع الذي تتشبث بحلفه على حساب فرع آخر. ففي بلاد أنقاد كانت الغلبة لأولاد طلحة بن يعقوب, وكانت لهم اليد الضاربة في العباد[4] وغيرها من أراضي غرب تلمسان, وحين تفرق أولاد طلحة, وحدثت الحرب بين فروعهم, اشتعلت بلاد أنقاد, وافترق حلفاؤهم فكل يؤيد أحد فروع أولاد طلحة[5]. وقد مكّن الحلف بعض القبائل من تبوّء مكانة هامة, في السلّم الاجتماعي كقبائل المعقل بإفريقية حين اندرجت في جملة بني كعب بن سليم وداخلوهم فصاروا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان، واستئلاف العرب[6].

- حيـــاة البــداوة.

---

[1]- محمّد بن حسن, المرجع السابق, ص13.

[2]- بنسالم وآخرون, المرجع السابق, ص12.

[3]-محمّد بوطالب, المرجع السابق, صص117-118.

[4]- العبّاد: منطقة بتلمسان, معروفة بمسجدها ودفينها سيدي بومدين, قال عنها حسن الوزان: ((مدينة صغيرة شبه ربض, تقع في الجبل على بعد نحو ميل من جنوب تلمسان, وهي كثيرة الأزهار وافرة السكان والصناع, ومعظمهم من الصباغين, وبها قبر أبي مدين)). المصدر السابق, 24/2.

[5]- يوسف بن عابد المغربي, رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب إلى حضرموت, تحقيق: ابراهيم السامرائي وعبد الله محمّد الحبشي, ط1بيروت: دار الغرب الاسلامي, 1993م, صص30-31.

[6]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 77/6.

تعدّ البداوة من أهمّ خصائص حياة القبائل العربية, فإذا كانت البدواة قد تعني واقعا جغرافيا محضا, فإنّها عند القبائل العربية, كانت تعني نظاما اجتماعيا أصيلا[1], وإذا كانت البداوة ضرورة لدى بعض الفئات الاجتماعية لأسباب منطقية غير اختيارية في الغالب, فإنّ القبائل العربية قد جعلت البداوة دليلا على عراقتها, وسمة على قوتها[2]. ومن أهم مظاهر الحياة البدوية التي حرص العرب على الحفاظ عليها, الرحلة وسكنى الخيام.

أ- سكنى الخيام :

تعتبر الخيام مساكن عرب بادية نجد[3] والحجاز منذ أيام الجاهلية وفي صدر الإسلام, وحين دخلت القبائل الهلالية أرض إفريقية والمغرب, جلبوا معهم خيامهم المصنوعة من الوبر والصوف[4], والتي عُرفت بالقيطون, وهو الاسم الذي لا يزال يستعمل في لهجة الجزائريين إلى اليوم. ووصف مارمول وبدقة متناهية خيام العرب التي أدركها في عهده, فبيّن أنّها كانت تؤلف بمجموعها دواوير و قرى مؤلفة, والخيمة الواحدة تكون منصوبة على شكل دائرة يترك وسطها خاليا مستديرا تحبس فيه الماشية ليلا, وقد يبلغ عدد هذه الخيام مائتي خيمة, ثم وصف الخيمة بقوله :((مصنوعة من نسيج أسود من الصوف وشعر الماعز وغيرها, وكذلك من نسيج سعف النخل, ويكون كل ذلك مجموعا من النّسيج الخشن المتراص جدا بحيث يقاوم المطر وحرارة الشمس القويين في هذه المناطق, وتتراص الخيام بعضها مع بعض حتى كأنها حائط لا يخترقه سوى ممرين أحدهما لدخول قطعان الماشية والآخر لخروجها, ويغلق هذان الممران ليلا بالشوك لمنع دخول السباع[5])).

وهذا الوصف قريب من وصف حمدان خوجة في منتصف القرن التاسع عشر لخيام العرب, حيث قال:((أنها من الوبر, وهو قماش مضلّع بالأحمر أو بالألوان الأخرى, وتأخذ هذه

---

[1]- علاوة عمارة, المرجع السابق, ص100

[2]- عرفت بعض القبائل البربرية من البرانس حياة بدوية نقية, كبعض بطون صنهاجة الجنوب, واستمرّوا على بدواتهم حتى القرن الخامس للهجرة عندما أسّسوا دولة المرابطين. موسى لقبال, المرجع السابق, ص60.

[3]- لفظ نجد يعني ما ارتفع من الأرض, وما خالف الغور أي تهامة, فأعلى نجد تهامة واليمن, وأسفله العراق والشام, وأوله من جهة الحجاز ذالت عرق فهو بين تهامة واليمن والعراق والشام والحجاز. الألوسي, المرجع السابق, ص7.

[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 330/1.

[5]-مارمول, المصدر السابق, 100/1.

الخيام شكلها المكور أو المثبت بواسطة أوتاد من الخشب وتقاس ثروة المالك باتساع هذه الخيام وبعدد الأوتاد التي تشدها, تحاط الخيمة بحجارة توضع عليها الأواني والذخائر اليومية)[1]. وقد تحولت هذه الخيام إلى نموذج فريد اتخذه في العصر الحديث الأمير عبد القادر, حين تحولت هذه الخيام إلى عاصمة متنقلة. ولا تزال هذه الخيام إلى الآن موجودة في الصحراء الجزائرية وبعض مدن الهضاب العليا.

ب- الرحلة:

شكّلت الرحلة لدى القبائل العربية, أحد أهم علامات القوة والنفوذ, فكانت القبائل العربية تعتمد على الترحال, فينتجعون في فصل الشتاء في أرض النّجود, بحثا عن الكلأ, وعند قدوم فصل الربيع يعودون بمواشيهم وإبلهم إلى التل, وتعدّ الرحلة من علامات قوة القبيلة, فلا تقوم بها إلا القبائل الأكثر عددا والأشد مراسا, فهي علامة على التحرر من الحدود السياسية, ودليلٌ على اتساع مجال النفوذ. و كان لكل قبيلة محيطها الخاص الذي تعيش فيه إما بالتغلب أو بالإقطاع, ولا تكتفي القبيلة بهذا المجال إلا في حالة الضعف, أما في حالة القوة فإنها توسع مجالها بضم مجالات حيوية أخرى. ويكون هذا المجال بعيدا عن المدن وحواضر الملك, ويبقى هذا المجال بدويا ولا ينتقل إلى التمدن, رغم كثافته السكانية, لأنّه مجال تحكمه الروابط الدموية, بخلاف المدينة التي تستبدل الروابط الدموية بالرقابة الاجتماعية والسياسية[2]

ويلخص لنا حسن الوزان هذه الرحلة, بالحكاية عن العرب المجاورين لمملكتي تلمسان وتونس, فقال عنهم: ((ومن عاداتهم أن يذهبوا صيفا إلى ضواحي تونس ليتزودوا منها, وفي شهر أكتوبر يقتنون كل ما يحتاجون إليه من طعام ولباس وسلاح, ويرجعون إلى الصحراء ليقضوا فيها الشتاء, وفي الربيع يتسلون بالصيد بالكلاب والصقور, يصيدون جميع أنواع الحيوانات ذات الشعر أو الريش[3])).

---

[1]- حمدان خوجة, المرآة, ترجمة وتحقيق: محمّد العربي الزبيري, الجزائر: منشورات ANEP, 2005, صص33-34.

[2]- عبد الحميد بوسماحة, رحلة بني هلال, ص34.

[3]- حسن الوزان, المرجع السابق, 63/1.

وكان لكلّ قبيلة رجل عارف بالطرق والشعاب, مضطلع بمواقع النجوم ومنابت الكلأ, ويسمونه الرّائد, وكان رائد القبائل العربية عند بداية التغريبة, زياد بن عامر ويسمونه بذلك أبا مخيبر[1], كما كان لهم شعراء ومنشدين وقصاص يخففون عنهم من تعب الرحلة. ويخلدون انتصاراتهم, كعلي بن رزق شاعر بني رياح الذي خلد معركة حيدران[2].

و استمرت بعض القبائل العربية في حياة الترحال, إلى بدايات الاستعمار الفرنسي, وهو ما نراه جليا من خلال أبيات ابن قيطون في قصيدة حيزيى, حيث ذكر ارتحال قبيلة الذواودة بقوله:

في التل مصيفين جينا محدرين[3] للصحرا قاصدينا والطواي[4]

- **العجز عن الرحلة:**

لم تكن القبائل العربية تعدل عن الترحال إلا حين تضعف كأولاد توبة الذين ضعفت سلطتهم فاضطرّوا إلى العدول عن حياة الترحال والتخلّي عن تربيّة الإبل لفائدة تربيّة البقر والغنم[5].

وفي حال عجزت القبيلة عن الرحلة تركن إلى حياة الاستقرار والإقامة في الأرياف وأطراف المدن كقبائل الاثبج الذين فقدوا نفوذهم بعدما هزمهم الذواودة وتشتتوا في الواحات التي استقروا بها وأنعشوها جزئيا, أمثال بني الضحاك وبني لطيف التابعين لأمراء بني مزني[6].

ويلاحظُ أنّ القبيلة حين كانت تُغلب على مجالها, وتستكين لحياة الاستقرار, إما أن تنفرد بإدارة مجال وتستقل به, أو أن تنضوي تحت قبيلة أخرى غالبة, فبطون الإثبج كالضحاك

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 23/6.

[2]- عبد الوهاب المنصور, المرجع السابق, ص393.

[3]- محدرين باللهجة العامية الوهرانية معناها: ذاهبين, والحدورة هي المكان النازل من الأرض.

[4]- سوانيك, الدّيوان المعرب في أقوال عرب افريقية والمغرب, librairie Orientale Et Américaine: Paris , 1902, ص83.

[5]-روبار برونشفيك, المرجع السّابق, 1/ 325 -326.

[6]- المرجع نفسه, 327/1.

ولطيف والعمور الشرقيون حين تركوا الرحلة أقاموا تحت لواء رياح[1], بخلاف بني مزني الذين انفردوا بإدارة بلادهم.

ومن علامات استقرار القبيلة تربية المواشي والبقر والركون إلى الفلاحة والعمران[2], والعدول عن تربية الإبل وسكنى الخيام. فبعد انكسار القبائل الهلالية بسطيف سنة 548هـ/1153م, تحولت عدة قبائل هلالية, فور انهزامها وما ترتب عنه من تفكك عصبيتها الى الاستقرار حيث أسّس عرب سويد رباطا في الموضع الذي بنيت فيه قلعة تاوغزوت–بني سلامة–بعد ذلك, لتبدأ قبائل سويد والديالم وأولاد عطاف وأولاد عريف في ممارسة الزراعة, ومزاولة حياة الاستقرار[3]. ونفس الشيء فعلته رياح حين استقرت بمنطقتي الهضاب والصحراء من عمالة قسنطينة الى زاغز من عمالة الجزائر. عنوا بالفلاحة وتربية المواشي، فأثروا وكثروا واعتزوا على الدولة[4]. ورغم أنّ الزراعة التي مراسها شيوخ القبائل العربية ظلّت[5], فإنّنا نجد أنّ البعض منهم قد نجحوا في رفع المحصول, كبني مزني وقبائل حصين. وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الظاهرة عند قوله: ((وصار العرب يزدرعون الأراضي في بلادهم بالتلول[6])). وهو ما يفنّد ما حاول المستشرقون التّرويج له من أنّ القبائل العربية مسؤولة عن تقليص المجال الزراعي, وتحويل بلاد المغرب الإسلامي إلى مجالات رعوية[7].

- صفات العربي الحميدة:

---

[1]–الميلي, المرجع السابق, 357/2.

[2]– الميلي, المرجع السابق, 360/2.

[3]– الطاهر بونابي, ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفية, ص142.

[4]– المرجع نفسه, 357/2.

[5]– بوزياني الدراجي, نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية, الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية, 1993م, ص ص211-213

[6]– عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 577/6.

[7]– يعتبر روجي لوتورنو Roger Le Tourneau, من أوائل من ركّزوا على هذه النّقطة, ينظر:
Rouger Le Tourneau , north africa in historical Perspective » Dans current Problems In North Africa, Princeton University Conference, 1959,p4.

كانت صفات القبائل العربية التي انتشرت بربوع المغرب الأوسط, قريبة من صفات العرب في الجاهلية, بحلوها ومرها, وجيّدها ورديئها, وكان لهؤلاء العرب من الصفات المحمودة الشيء الكثير إضافة إلى كثير من الصفات السلبيّة الذميمة, ولاحظ عبد الله الغذامي أنّ ابن خلدون حين تطرّق لصفات البدو العرب جاء بالشّيء ونقيضه, ولعلّ عبد الله الغذامي أعطى تفسيرا لذلك, وهو أنّ ابن خلدون لم يُحل التصرّفات إلى مرجعيّتها الذّهنيّة الجزئيّة, وهو يرى أنّ العرب يستحقّون المدح في شأنهم الخاص في ديارهم ومعاشهم, فيما يستحقّون الذمّ في علاقتهم مع الآخر[1], نذكر منها:

أ- الجدّ والصرامة:

كان العربي متصفا بعدة صفات حميدة, منها الجد والصرامة, والتجافي عن الهزل و الدُعَابة، لأنها من مظاهر الخفة والحمق، خصوصا في المجالس العامة, أو مجلس سيد قبيلة، فإنه يراعي فيه الاحتشام، والابتعاد عن قول السخف، والاستهزاء بالآخرين، وإلقاء النكات والمضحكات، حرمة لآداب المجالس ومكانة الرجال[2].

ب- الاعتزاز بالحرية:

من الصّفات التي تميّزت بها العقلية العربية, الاعتزاز بالحرية والتفاني لأجل الحفاظ عليها, لذلك تجد العربي يكره القيود والحدود, ولو كانت حدودا طبيعية أو سياسية, فهو يلتحف السّماء, ولأجل ذلك لا يسكن بيوت المدر لأنها مظنة الاستقرار والعمران ويسكن الخيام التي تُذكِّره دائما بدُنوّ موعد الرحيل, و تعتبر الأطراف والهوامش-المناطق المتاخمة للمدن- المكان الوحيد المتاح للعرب للنزول ونصب الخيام[3].

كما يفضل العربي الإقامة بأرض لا أنهار فيها ولا ماء العيون , كي لا يطمع في أرضه العدو وأيضا هو لا يسكن الأرض المتاخمة لساحل البحر, خوفا من مباغتة العدو. والطبيعة هي التي تجبر البدو على المحافظة على هذه الحياة، فهو يكابد المشقة في اعتماد هذا النمط من

---

[1]. عبد الله الغذامي, القبيلة والقبائليّة أو الهويّات ما بعد الحداثة, الدّار البيضاء: المركز الثّقافي العربي, ط1, 2009, صص 154-155.

[2]- جواد علي, المرجع السّابق, 277/1.

[3]-عبد الحميد بوسماحة, رحلة بني هلال, 20/1.

الحياة, ولكنه يتمتع بأكبر قسط من الحرية يفضلها على أي حياة مدنية أخرى. هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء, أما إذا نما السكان وضاقت بهم الأرض أو لم تَجُد أراضيهم بالمرعى، فليس هناك سبيل إلا الزحف والقتال، أو الهجرة إن كان هناك سبيل إليها، وكذلك القبيلة التي غلبت على أمرها وحُرمت من مراعيها وأراضيها ليس أمامها سبيل آخر سوى الهجرة[1].

ت- الشجاعة:

كان العربي معروفا بالشّجاعة, فقد امتاز المقاتل بركوب الأهوال, فلا يتردد أحدهم في محاربة عشرين أو ثلاثين شخصا, وله القدرة على رد هجوماتهم, وهم معروفون بعزة النفس, ويُرَبّون أبناءهم على ذلك, ومن الفرسان من يمد يده إلى الأرض أثناء الركض, فيلتقط حجرا أو شيئا آخر, دون أن يغادر صهوة جواده[2], و كان هؤلاء الفرسان يأخذون معهم نساءهم في الحروب حتى تزداد شجاعتهم, وقد خلّد لنا الكفيف الزرهوني موقعتهم مع أبي الحسن المرينتي حين انهزموا, قال[3]:

وانهزموا وحرفوا الخيمات لورا يحاموا بالسيف عن تيسدنان [4]

ث- إكرام الضيف:

كان العربي كريما بطبعه, يقري الضيف, ويكرم مثواه, ويتفنن بذلك بحسب مقدرته[5], وقد أشاد حسن الوزان بأخلاقهم الحميدة, خصوصا صفة الكرم فقال أنهم:((ذوو كرم ورحمة وشجاعة وحلم ولطف وألفة[6])) .

ج- اللّسان العربي:

من أهمّ ما تميّزت به القبائل العربية عن القبائل البربرية, اللّسان العربي. وبالتحديد اللسان المضري. حافظوا عليه ببداوتهم في المفردات والتراكيب ووجوه البلاغة وأساليب الخطاب وإن

1-جواد علي, المرجع السابق, 274/1.

2- حمدان خوجة, المصدر السابق, ص36.

3- الزرهوني, ملعبة الكفيف الزرهوني, تحقيق: محمّد بن شريفة, الرباط: المطبعة الملكية, 1957, ص92.

4- تيسدانت = النساء باللسان الزناتي. ينظر كلام المحقق, المصدر نفسه, ص 92.

5- حسن الوزان, المصدر السابق, 87/1.

6- المصدر نفسه, 87/1.

كانوا قد يخلون بحركات الإعراب في أواخر الكلام. قال ابن خلدون:((وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم. والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك، ولم يفقدوا من أحوال اللسان المدون الا حركات الاعراب في أواخر الكلم فقط[1])).

وذكر العبدري في رحلته- وهو من أهل القرن السابع- عن عرب برقة أنهم بقوا يعربون أكثر أقوالهم. ويتحدثون بما يعد عند العلماء غرورا. وذكر ما سمعه من أقوالهم المعربة وألفاظهم الغريبة، وعلل ذلك بعدم اختلاطهم بالناس وقال هم افصح من عرب الحجاز وغيرهم[2].

وممّا ذكره العبدري حاكيا عن شيء من فصاحة القبائل العربية ببرقة قوله: وقد سألت بدويا وجدته يسقي إبله في الحصري عن ماء يقال له أبو شمال, هل نمرّ عليه, ونطقته بالواو في موضع الخفض على عادة أهل الغرب, فقال لي: نعم تطؤون أبا شمال, وأثبت النون في الفعل...وليس في الغرب عربي ولا حضري يفعل ذلك[3])).

و وأثّرت البداوة على نطقهم, فتجدهم يستعملون المخارج المنغلقة الحادّة, والألفاظ الوحشية, فمخرج القاف لديهم هو بين مخرجي الكاف والقاف الحضرية[4]، وبالضبط هي مثل حرف" G" في اللغة الفرنسية، وهي القاف التي تسربت إلى لسان غالب سكان الجزائر اليوم[5].

ومثّل اللسان العربي صفة إيجابية لدى القبائل العربية[6], الأمر الذي جعل القبائل البربرية تسعى جاهدة إلى التحدث بلسانها, فاللغة العربية هي بالنسبة للبربر مفتاح فهم الإسلام,

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 767/1.

[2]- محمّد بن محمّد العبدري, رحلة العبدري, تحقيق: علي إبراهيم كردي, ط2, دمشق: دار سعد الدّين , 2005م, ص206.

[3]-المصدر نفسه, ص207.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 768/1.

[5]- الميلي, المرجع السابق, 189/2.

[6]- يوجد كثير من الآثار الإيجابية للتواجد الهلالي في بلاد المغرب الإسلامي, ونلاحظ أنّ أحكام مؤرّخي الفترة الوسيطة, وكذا الفقهاء ركّزت فقط على الجوانب السلبيّة وهناك من يرى أنّ هؤلاء المؤرخين والفقهاء كانوا مرتبطين بدواوين الدّولة, وبقطاع التّجارة, وأصبح أي تصرّف لشيوخ القبائل يمسّ بالدّولة أو التجارة, فهو تصرّف يهدّد

ووسيلة تعلّم الدين. وبذلك تمكّنت الكثير من الكلمات العربية الهلالية أن تتسلل إلى اللسان البربري, ومع مرور السنين تشكلت اللهجة العروبية الغنية بالكلمات العربية الفصيحة, وصار غالبية سكان المغرب الإسلامي يتكلمون بها. وتعرّبت كثير من القبائل البربرية لما وجدوا في العربية ثروة لفظية وأدبا راقيا وإعانة على فهم الدين[1]. واستبدلوا حياتهم بحياة عربية. لتظهر فيما بعد القبائل الخليطة التي اختفت فيها الفوارق العرقية. و لا تزال إلى الآن بعض فروع هذه القبائل المختلطة كبني فوغال, وهم خليط من العرب والبربر, وعرش العوانة خليط من العرب والبربر[2].

و بات من النادر أن تجد قبيلة ظلّت محافظة على نسبها العربي الخالص أو البربري الخالص, فالغالبية العظمى من السّكان الأصليين في إفريقيا الشمالية هم مزيج من العرب والبربر, ذلك الامتزاج الوثيق الذي يُعدّ وليد عصور متعاقبة[3]. ومن بين القبائل المختلطة أولاد حسان بن علي بالمدية[4], والتي ضمت العرب والبربر, وصارت بسبب تعربها تدعي أنها قبيلة تنتمي إلى أصل واحد عربي, وكانت فروع هذه القبيلة أولاد ملال, وأولاد ابراهيم, وأولاد طريف, والغرابة وأولاد معيزة كلها خليط من العرب والبربر[5], كما تعربت قبائل الغرب الجزائري بسبب مجاورتهم لقبائل بني عامر ومجاهر وغيرها من قبائل العرب[6].

مصالحهم الخاصّة عبد الأحد السبتي –عبد الرحيم بنحادة, من إيناون إلى استانبول, الرباط: المطبعة الأمنية, ط1, 2012, ص27, ص36.

[1]-محمّد الصالح رمضان, من فصيح العربية في العامية الجزائرية, مجلة الأصالة, عدد 23, صص114-119, ص117.

[2]- علي خنوف, تاريخ منطقة جيجل قديما وحديثا, ط1, الجزائر: منشورات الأنيس, 2007م, صص15-16.

[3]- ألفرد بل, المرجع السابق, ص214.

[4]- يرى عبد الوهاب منصور أن القبائل العربية كانت يطلق عليها اسم الاضافة (أولاد), أما القبائل البربرية, فكان يطلق عليها اسم الاضافة(بني), وهذا الاطلاق ليس على عمومه, فأولاد حسان مثلا هم قبائل مختلطة, وقد تمّ اضافتهم إلى اسم الاضافة(أولاد), إلا أن يكون المقصود أن اسم الاضافة (أولاد) يطلق على القبائل العربية, أو التي غالبيتها من العرب. ينظر عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, ص409.

[5] - FLOREAN PHARAON , Notice sur Les tribus de la subdivision de médéa, R.A, V2 ; 1857, PP:47-54. P47.

[6]- عبد الوهاب منصور, المرجع السابق, صص432-434.

و يرى ألفرد بل أن انتشار اللغة العربية مكّن البربر من فهم الإسلام الصحيح, بخلاف أيام جهلهم للغة العربية حين تشربو بتعاليم صالح بن طريف وحاميم في قبيلتي برغواطة وغمارة[1]. وبهذا تعلم البربر دينهم, فتحمسوا له, وبادروا إلى دعوة الهلاليين إلى الإسلام الصحيح, وربما ذلك ظهر بصورة واضحة في المناطق التي يغلب فيها العنصر البربري, كما حصل لسحين الذي كان شيخا لبطن صغير من رياح, والذي درس على يد شيخ بربري من شمالي تازة وصار من رجال التصوف[2].

صفات العربي الذميمة:

أشارت المصادر التاريخية إلى الكثير من الصفات الذميمة التي اتّصفت بها القبائل العربية, ونذكر منها:

أ- ضعف الوازع الديني عند أبناء القبيلة العربية:

اتّصف أبناء القبائل العربية بكثير من الصّفات الذّميمة منذ الجاهليّة, وحتّى أيّام التّشريع الإسلامي, و جاءت كثيرُ من النّصوص الشّرعيّة ذامّة للأعراب[3], محذّرة من أعمالهم, كقوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[4]}. وسبب ذلك أن

---

[1]-ألفرد بل, المرجع السابق, ص215.

[2]- ألفرد بل, المرجع السابق, ص216.

[3]- لأجل هذه الصفات جاء الإسلام محذرا من "التبدّي" أي "التعرب" بعد الهجرة وكان الصحابة يذمون من سكن البادية, فلما خرج "أبو ذر" إلى الربذة قال له عثمان بن عفان: "تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابيًّا". فكان "يختلف من الربذة إلى المدينة مخافة الأعرابية". بل إن الفقهاء رتبوا أحكاما خاصة بالأعراب, فكُرهت شهادة البدوي على الحضري, وورد في الحديث "لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية". لأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها ولما في البدوي من جفاء وجهالة بأحكام الشرع. بل عقد البخاري في صحيحه بابا سماه, بَابُ ذَبِيحَةِ الأَعْرَابِ وَنَحْوِهِمْعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ قَوْمًا قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَا بِاللَّحْمِ, لاَ نَدْرِي: أَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ لاَ؟ فَقَالَ: «سَمُّوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ وَكُلُوهُ» قَالَتْ: وَكَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالكُفْرِ. ينظر: محمّد بن إسماعيل البخاري, صحيح البخاري, تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر, ط1, دار طوق النجاة, 1422هـ, 92/7, باب ذبيحة الأعراب ونحوهم, رقم: 5507؛ جواد علي, المرجع السابق, 281/1.

[4]- سورة الحجرات, الآية :14.

إسلامهم لم يكن في الغالب عن فهم وقناعة بل هو نابع من طاعة سيد القبيلة[1]. وبسبب هذا الإسلام الصوري ضلّ دور القضاة الذين يحاكمون إلى الشريعة هامشيا وغير ملزما, وهو ما تشير إليه كثير من النّوازل, كنازلةٍ سُئل عنها أبو عبد الله محمّد بن ناصر الدّرعي, أنّ قوما من أهل البادية أعرضوا عن الأحكام الشرعيّة, وتركوها إلى أحكام وعادات وعقوبات بالمال جعلوها بينهم[2], وهو ما يُؤكّد غلبة الأعراف والعوائد على أحكام الشّريعة.

ويرى أرنست كلنير:((أن المجتمع القبلي يحاول الحفاظ على قيمه وخصوصياته, مع علمه بأنها تتصادم مع النصوص, وهم بهذه الأساليب والقيم يعتبرون آثمين أو مارقين, وهم يعلمون ذلك[3])).

وتكشف كثير من النوازل هذا الأمر, كالنازلة التي سئل عنها أبو الفضل العقباني حيث جاء فيها: ((أن القاضي اذا حكم في مسألة بالتحريم قولا يُعْتدُّ بحكمه, ويمضي الحانث لصاحبه من الأُمراء العرب, ويشكي له لأن القاضي حكم بتريُّم زوجته, فيأخذه صاحبه المذكور برجوع زوجته, وعدم الانقياد لحُكم القاضي...))[4]. وتتعرض نازلة أخرى إلى ظاهرة استعانة القضاة ببعض الشيوخ النّافذين لتنفيذ أحكامهم, و قال فيها السّائل: ((لكونه (أي القاضي) لا يتوصّل لذلك (تنفيذ حكمه) بأعوانه مع غلبة الفساد بالوطن وبعده أن تناله أحكام السلطان[5])).

ومن مظاهر ضعف ديانتهم أيضا كثرة اعتدائهم على الأنفس والأموال[6], وكلّها أمور جعلت البعض يقول بكفرهم ويأمر بقتالهم[1]. وكان الفرد العربي شغوف بما عند الغير, بحيث ينتهب

---

[1]- ألفرد بل, المرجع السابق, ص211.

[2]- أبو عبد الله محّد بن ناصر الدّرعي(ت 1085هـ), الأجوبة النّاصريّة في بعض مسائل البادية, تحقيق: أبو الفضل الدمياطي أحمد بن علي, الدّار البيضاء: دار ابن حزم, ط1, 1433-2012م, ص137

[3]- بنسالم وآخرون, المرجع السابق, ص46.

[4]- يحيى بن موسى المازوني, الدّرر المكنونة في نوازل مازونة, تحقيق: حساني مختار, جامعة الجزائر: مخبر المخطوطات, 2004, 392/1.

[5]- المصدر نفسه, 419/2.

[6]- يكشفه جواب قاضي تازا, أبو علي الحسن الترجالي. ينظر: أحمد بن يحيى الونشريسي, المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب, طبع بإشراف محمّد حجي, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1981م, 82/7.

ماله ويلحق به الأذى, مُعتبرا ذلك ضرورة من ضروريات بقائه. و لا يَعُدّ ذلك ظلما, لأنّ الظلم في نظره لا يكون مذموما إلا حين يقع على ابن قبيلته[2]. كما كان أهل البوادي من العرب في الغالب لا يحجبون نساءهم, ولا يتحرون الغيبة, ولا يميّزون بين الحلال والحرام[3].

وبسبب رقة ديانتهم[4], كانوا يتحايلون للوصول إلى الحرام, فأحمد بن محمد الراشدي ذكر عن أحد شيوخ القبائل كان له أولاد مردة يفتكون بأي قبيلة تمرّ بجوارهم, فيما كان هو يجنح إلى العبادة والتنسك, وفي يوم مرت قافلة, وكان أولاده نيام, فخشي أن تفوتهم القافلة, فجعل يدعو بأعلى صوته: ((يا رب احفظ هؤلاء القوم من أولئك)), وقَصْدُه إيقاظ أبنائه, وبسبب صوته العالي استيقظ أولادُه, فرأوا القافلة فقاموا بالتعرض لها وانتهاب أموالها[5].

وهذه السلوكيات هي التي دفعت الكفيف الزرهوني إلى الإقذاع في ذمهم, وممّا قال فيهم:

ناس جاهلا لا قرار ولا إيثـــار	لم ترع عهدها ولا دينـــــا[6]
والعربي كالندى على الـــغرس	يوم تقطع عنو العطا يخـذل
أو كالعوسج ترى شجر خضرا	غدا يلقاك بالشوك كالظربان[7]

ومع ذلك نلاحظ أنّ العرب لم يكونوا متجردين من كل مظاهر التدين, فنجدهم يُحيون

---

1 - التّسولي, أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد, تحقيق: عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح, ط1, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1996م, ص108.

2 -جواد علي, المرجع السابق, 275/1.

3 - الونشريسي, المصدر السابق, 49/12؛ كمال السيّد أبو مصطفى, جوانب من الحياة الإجتماعية والاقتصاديّة والدينيّة والعلميّة في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرّب للونشريسي, الاسكندريّة: مركز الاسكندريّة للكتاب, 1992م, ص102.

4 - ألفرد بل, المرجع السابق, ص215.

5 - أحمد بن محمّد بن سحنون الرّاشدي, الثغر الجمان في ابتسام الثغر الوهراني, تحقيق: المهدي بوعبدلي, قسنطينة: منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية, سنة 1973م, ص137.

6 - الكفيف, المصدر السابق, ص75.

7 - المصدر نفسه, ص77.

شعيرة عيد الأضحى, كما ورد في معركة يوم النّحر, حيث هجم عليهم المعزّ وهم يصلّون صلاة العيد[1], وصار بعض شيوخهم يؤدون شعيرة الحج, مثل يعقوب بن علي وعريف بن يحيى[2], وفي أواخر العهد الموحدي بدأوا يسألون عن دينهم, فقد سئل البرزلي عن العرب إذا سافروا بأهليهم وولدهم السّفر المعزوم عليه, هل يقصرون[3], وأيضا كان بعضهم يكره الاستعانة بالكافر في قتال المؤمن, لذلك رفضوا التّعاون مع صاحب صقلية، عندما أرسل إلى أمرائهم وهم محرز بن زياد، وجبارة بن كامل، وحسن بن ثعلب، وعيسى بن حسن وغيرهم، يحثهم على قتال عبد المومن، ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس يقاتلون معه. فشكروه وقالوا: «لا حاجة بنا إلى نجدته، ولا نستعين على المسلمين بغيرهم»[4].

وأشار الونشريسي إلى قيام البعض منهم بتحجيب نسائهم, وترك الغيبة, وقضاء الفوائت وردّ التّبِعات, وأعطوا الكفارات, واتّبعوا الحقّ في أقوالهم وأفعالهم, ولم يكترثوا لمن ادّعى الفقه من أهل البادية, وأنكر عليهم توبتهم, ورماهم بالبدعة[5].

ب- التعصب للقبيلة على حساب الوطن والأمة:

من الأوصاف التي اتصفت بها القبائل العربية, ذلك التعصب المبالغ فيه للقبيلة, وعدم تصوّرهم أو وُثوقهم بأيّ وِعاء اجتماعي آخر, كالأمّة والوطن, فابن القبيلة لا يرى أكثر من قبيلته, فهو محدود الفكر, ليس له همٌّ إلا بما يصلح قبيلته, ويحميها من النكبات, والعربي أزمته الوحيدة هي انحباس المطر وقلّة المرعى, لا يبالي بما يصيب العالم في الخارج ما دامت أرضه مخضرة، وبعيره سمينا وغنمه قد اكتنزت لحمًا وقد طبقت شحمًا, فالشرّ عند العربي هو ما أصاب قبيلته لا ما أصاب غيرها[6].

---

[1]- ابن الأثير, المصدر السّابق, 88/8.

[2]- قال عبد الرحمن بن خلدون: ((وكان وصل في جملة الحاج من المغرب كبير العرب من هلال, وهو يعقوب بن علي بن أحمد أمير رياح الموطنين بضواحي قسنطينة وبجاية و الزاب في وفد من بنيه وأقربائه, ووصل في جملتهم أيضا عون بن يحيى بن طالب بن مهلهل من الكعوب أحد شعوب سليم)). المصدر السابق, 545/5.

[3]- يحيى بن موسى المازوني, الدّرر المكنونة في نوازل مازونة, دراسة وتحقيق : قندوز ماحي, الجزائر: منشورات وزارية الشؤون الدينيّة, 660/2.

[4]- النويري, المصدر السّابق, 306/24.

[5]- الونشريسي, المصدر السابق, 49/12.

[6]- جواد علي, المرجع السّابق, 274/1.

و كان العرب في الجاهلية تدفعهم العصبية إلى نصرة الظالم, ومنعه, وشعارهم في ذلك انصر أخاك ظالما أو مظلوما[1]. ولذلك جاء الإسلام ليهذّب هذه العصبيّة, ويضبطها, فوردت أحاديث في ذلك, ومنها قوله صلى الله عليه وسلم:((عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصَبِيَّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ))[2], وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلّم أنّ العصبيّة المذمومة هي الإعانة على الظلم, فقد وَرُوِيَ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْعَصَبِيَّةُ؟ قَالَ: «أَنْ تُعِينَ قَوْمَكَ عَلَى الظُّلْمِ»[3].

ويظهر أنّ نصوص الكتاب والسنّة لم يكن لها تأثير بالغ في تغيير سلوك أبناء القبائل العربية لا سيما البدوية منها كقبائل بني هلال, فظلّت العصبية بالمفهوم الجاهلي هي السّائدة و المتحكّمة في عقليات شيوخ القبائل العربية, وذلك لعدّة أسباب نذمر منها؛ ضعف الوازع الدّيني بسبب بعد مجالاتهم عن مهبط الوحي, وحواضر العلم, و أيضا بسبب إثارة السلاطين لهذه العصبية, واستغلالها في كسب التحالفات, والتفريق بين العصبيات, ويظهر ذلك جليا أيام الأمويين, لا سيما فيما عرف بالصراع بين القيسية واليمنية[4].

وليست العصبية خاصّة بالقبائل العربية, بل إنّ لكلّ تجمّع عرقي رابطة عصبيّة, ساهمت في كثير من المناسبات في تشكيل كتل سياسية وعسكرية قوية, كان لها دور في صناعة التاريخ الإسلامي.

[1]- زيد بن عبد الله الهاشمي (المتوفى: بعد 400هـ), الأمثال, ط1, دمشق: دار سعد الدين, 1423 هـ, ص39.

[2]- مسلم بن الحجّاج, صحيح مسلم, تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي, بيروت: دار إحياء التراث, 1874/3, باب : الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن, رقم: 1850.

[3]-الحسين بن محمّد البغوي, شرح السنة, تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير شاويش, ط2, دمشق-بيروت: المكتب الإسلامي, 1983, 123/13, باب العصبية, رقم:3544.

[4]- كان الأمويون يحركون العصبيات, ويفاضلون بينها بحسب أهوائهم, وكان ولاتهم من العرب يتحزبون لعصبيتهم, ويتربصون لها ضدّ غيرها, وهو ما أشعل كثيرا من الحروب بيين القيسة واليمنية, ومن ذلك الحرب بينهم سنة 106هـ. ويمكن تلخيص هذا الصراع في بيت قيل بعد أن تمكن قتيبة من فتح سمرقند وخوارزم:

كَانَتْ سَمَرْقَنْدُ أَحْقَابًا يمَانِيَةً ... فَالْيَوْمَ تَنْسُبُهَا قَيْسِيَّةً مُضَرُ

ينظر: الطبري, المصدر السابق, 29/7؛ ابن الأثير, المصدر السابق, 49/4.

ت- عدم اهتمامهم بالعلوم والصنائع:

تعتبر حياة العربي القائمة على الرحلة والانتجاع والغزو, حياة بسيطة, بعيدة كل البعد عن التعقيد الذي تعرفه حياة الحضر, لذلك هي حياة تسعى إلى تحصيل الضروريات, دون الحاجيات, ناهيك عن الكماليات و التحسينيّات.

فالعربي لا يهتم بالصنائع والحِرف والعلوم[1], لأن مثل هذه لأمور هي من سمات سكان المدن[2], وهو يكره سكنى المدن والحواضر, لأنها أيضا منافية لحياة الرحلة والتغلب. فظلت العلوم والمعارف عندهم هي فقط معارف الجاهلية من عناية بالأنساب وكل ما يتصل بحياتهم البدوية، وليس لهم من الاسلام بعد الشهادتين كبير علم أو عمل[3].

أما القيافة والكهانة و طب الأعشاب و تربية الإبل وتفسير الرؤى والمنامات, وحفظ الأنساب, وسرد قصص شجعان القبيلة وتاريخها, وترديد الأشعار الممجدة لها فهي معارف متوارثة تبين السذاجة العربية وخرافيّتها في التفكير.

واهتم العرب بالنجوم, فكان لهم معرفة بمطالعها وأنوائها, وفي ذلك يقول الجاحظ أنهم: عرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء, وذلك لحاجتهم للقطر, ولكثرة ارتحالهم[4], كما اعتنوا بالطبّ البيطري لأجل رعاية أنعامهم[5].

وقد يتاح للقبيلة شيخ ملم ببعض هذه العلوم, , مثل عريف بن عبد الله أبو زيدان, شيخ سويد, فقد جاء في ترجمته أنه:((رجل جليل القدر نبيه الذكر, وافر العقل, مشارك في أنواع العلم والأدب والتاريخ والمعرفة بأيام العرب, ووقائع الناس[6])).

وأيضا كانوا يهتمون بتفسير المنامات, و يعتمدون عليها كثيرا, ولكل قبيلة شيخ معتمد في تفسير الرؤى يذهب إليه أفرادها, ويمتثلون أوامره, فحين رأى طلحة بن يعقوب في النوم كأنّه

---

[1]- محمّد رضا مروة, المرجع السابق, ص20.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 1/187-188.

[3]- الميلي, المرجع السابق, 2/190.

[4]- محمّد رضا مروة, المرجع السّابق, ص20.

[5]- المرجع نفسه, ص21.

[6]- أحمد بن يحيي العمري (ت794هـ), مسالك الأبصار في ممالك الأمصار, تحقيق: ابراهيم صالح, ط1, أبو ظبي: المجمع الثقافي, 1423هـ, 4/216.

يبول نارا, بادر إلى عرض رؤياه على أحد شيوخه, وكان تعبير الرؤيا أنه سيخرج منه ذرية ينتفع بهم أناس, ويتضرر بهم أناس, فما كان من طلحة إلا أن قال: (لا أتزوج). فقال له الشيخ: (ما كتبه الله لا بدّ منه, وكان أمر الله قدرا مقدورا[1])).

أمّا الطبّ فكان بدائيا يعتمد على ما توارثه الأبناء عن الآباء, لا يتغير ولا يتبدل, يقوم على المداواة بتجارب "العارفة" في الطب. ولا يطمئن الأعرابي إلى طب أهل الحضر مهما فتكت به الأمراض أو أنزلت به من آلام، ذلك لأن طب أهل الحضر هو طب غريب عليه بعيد عنه؛ فهو لذلك لا يطمئن إليه. اللهم إلا إذا أقبل عليه رؤساؤه وسادته[2].

يُضاف إلى معارف القبائل العربية علم النسب فلكل قبيلة نسابتها, والذين يسعون دائما إلى تلميع هذا النسب, ويقرب من علم النسب, ما يمكن أن نسميه التاريخ الشعبوي للقبيلة, والذي يغلب عليه الطابع الأسطوري, وغالبا ما يتم حفظ تفاصيله عن طريق نظم الشعر.

ث- إساءة الظن بالغير:

بسبب الظروف المعيشية الصعبة التي عرفتها القبائل العربية عبر مراحل مديدة من تاريخها, وما عاشته هذه القبائل من ظروف صعبة, وأزمات حادّة, تحوّل ابن القبيلة وبطريقة عفوية إلى إنسان يُسيء الظن بغيره, ويرى أن النّاس كلهم له أعداءٌ, يحاولون أخذ ما بيده أو حرمانه من المرعى، و لا ينسى الإساءة كذلك، فإذا أُسيء إليه، ولم يتمكن من ردّ الإساءة في الحال، كظم حقده في نفسه، وتربّص بالمسيء حتى يجد فرصته فينتقم منه[3]. ولعلّه سلوك اكتسبوه من الإبل التي يعرف عنها الحقد على من أساء إليها, فإنّ الانسان يتأثر بمحيطه وبمن حوله.

ج- الجفاء والغدر :

حوّلت الظروف الطبيعية والنمط المعيشي الذي سلكته القبائل العربية, أفرادها إلى بدو جفاة, يتعاملون مع غيرهم بخشونة لا إرادية, يحس بها أبناء المدن والقرى, وينكرونها, في حين أنّ العربي لا يعدّها خروجا عن أدب التعامل وأبجدياته. وقد ورد في الحديث: ((من بدا

[1]- ابن عابد, المصدر السابق, ص26.
[2]- جواد علي, المرجع السابق, 279/1.
[3]- المرجع نفسه, 277/1.

جفا[1])). وكانت هذه الخشونة جبلة لا تفارقهم حتى حين يتعاملون مع السّلاطين في بلاد المغرب الإسلامي, فها هو يعقوب بن علي حين أهداه السلطان أبو عنان كسوة فاخرة من ملابسه التي باشرت جسمه, لم يتفطن يعقوب لهذا التشريف, فقام بمنح تلك الكسوة لابن أخيه محبوب بن أبي دينار, وهو ما جعل النميري يصفه بالعربي الجلف[2]. كما أنّ هداج شيخ الكعوب قد قتله أهالي تونس بسبب جفائه, وغلظته.

أمّا الغدر فيعتبر صفة من صفات أبناء القبائل العربية, والتي بسبب تكررها سعى السلاطين إلى مطالبتهم بالرهائن[3] حتى يضمنوا عدم غدرهم, وقد غدر في كثير من المرات شيوخ العرب بالسلاطين, وكان غدرهم سببا لهزيمة دول, وربما لزوالها. ولذلك قال عنهم ابن رشيق:

نقضوا العهود المبرمات وأخفروا ذمم الإله ولم يفوا بضمان

فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا سبي الحريم وكشفة النّسوان[4]

كما أدى الغدر إلى التفريق بين بعض القبائل القوية, كغدر عثمان بن سعيد بن داود شيخ بني يعقوب بن عامر, بشيخ بني حميد عامر بن إبراهيم, وثأره لأبيه, حين تظاهر بمصالحة عامر بن إبراهيم, ثمّ نزل عليه ضيفا, وقام بقتله غدرا[5].

وبهذا نلاحظ أنّ حياة القبيلة العربية تميّزت بعدّة مميزات, لاشكّ أنّها انعكست على شيخ القبيلة, وعلى طريقة ممارسة القبيلة للسّلطة.

---

[1]- أحمد بن محمّد بن حنبل, مسند الإمام أحمد بن حنبل, تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون, ط1, مؤسسة الرسالة, 1421 هـ – 2001 م, 430/14, "مسند أبي هريرة" رقم :8835, ويرى المحقّق أنّ إسناده ضعيف.

[2]-ابن الحاج النميري, فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب, تحقيق: محمّد بن شقرون, ط1, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1990م, ص250.

[3]- كانت سياسة أخذ الرهائن من العرب مشهورة جدا, حتى أنّ صاحب صقلية حين أراد أن يمد العرب ببعض الفرسان ليقاتلوا الموحدين, طلب منهم رهائن, ونفس الشيء فعله شارل الخامس حين طلب من قواده أن يأخذوا رهائن من أبناء وإخوان قواد الأعراب الذين اتبعوه, تحت قيادة مارتين أركوط. مارمول, المصدر السّابق, 309/2.

[4]- حيزية حيتامة, المرجع السابق, ص99.

[5]-ابن خلدون, المصدر السّابق, 69/6.

الفصل الثاني

شيوخ القبائل العربية

(الشخصية- العلاقات- المهام)

المبحث الأول: المشيخة(المعنى–طرق الانتقال–الخصائص)

بحكم إشراف القبائل العربية على مجالات شاسعة من بلاد المغرب الأوسط, كان عليها اختيار رجالا أكفاء, وهؤلاء الرجال الذين يطلق عليهم لقب "شيوخ", كانوا يمثلون السّلطة الفعلية التي تشرف على تلك التجمعات السكّانية البعيدة عن قبضة السّلطة المركزيّة.

المدلول التّراثي للقب "شيخ":

إنّ معرفة الدلالة الاصطلاحية للقب "شيخ القبيلة", والخلفية اللغوية والتّراثية التي أنتجت هذا اللقب, سيساعدنا على إدراك مكانة ورمزية هذا المنصب. وإذا تأملنا قليلا في كتب التاريخ والمغازي والسيرة النبوية, نجد أنّ أبناء القبائل كانوا ينعتون من يحكمهم ببعض الأوصاف التلقيبية, كلقب السّادة والكُبراء والرؤساء, و هو ما ورد في الحديث النبوي عند قوله صلى الله عليه وسلم عن سيد الخزرج: ((قوموا لسيّدكم[1])), ونفس الوصف نجده في كتب المغازي, مثل إطلاق الواقدي لقب سيّد على دريْد سّيد بني جشمٍ[2]. وبهذا وَصف القرآن زعماء القبائل فقال عن المشركين:((ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا[3])).

- المعنى اللغوي للفظة شيخ:

يطلق لفظ الشيخ لغة على مرحلة من مراحل العمر, وهي ما بعد الكهولة, حيث تصاحبها أوصاف وعلامات تدل على تأخر السنّ من شيب شعر وغيرها, وتزداد هذه العلامات ظهورا مع تقادم السنّ. قال صاحب لسان العرب: ((و الشيْخُ الَّذِي استبانتْ فِيهِ السِّنُّ, وَظهرَ عليهِ الشيبُ[4])). ويُطلق لقب شيخ على من جاوز الخمسين فقيل: ((هو شيخ من خمسين إلى آخرِه؛ وَ قيل: هو من إحدى وَخمسين إِلى آخر عمره؛ وقيل: هو من الخمسينَ إِلى الثَّمانين[5])). وجمع لفظ شيخ : شُيوخٌ وأَشْياخٌ وشِيَخَةٌ وشيخان[1].

---

[1]- البخاري, المصدر السابق, 67/4, باب: إذا نزل العدو على حكم رجل, رقم: 3043.

[2]- محمد بن عمر الواقدي (المتوفى: 207هـ), المغازي, تحقيق: مارسدن جونس, ط3, بيروت: دار الأعلمي, 1989/1409, 889/3.

[3]- الأحزاب, الآية: 67.

[4]- ابن منظور, المصدر السابق, مج4, 2373/24.

[5]- المصدر نفسه, مج4, 2373/24.

ووردت لفظة شيخ في القرآن الكريم لتدل على هذا المعنى المرحلي لعمر الإنسان, وذلك في أربعة مواضع, فوردت على على لسان زوجة ابراهيم عليه السلام حيث قالت: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)[2], وعلى لسان إخوة يوسف, حيث قال تعالى: (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)[3]. وعلى لسان المرأتين اللتين سقى لهما موسى:(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)[4], وفي سورة غافر عند قوله تعالى:(هوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[5] .

- تطور مدلول لفظة الشيخ:

واضح أنّ كلمة شيخ كانت تعني مرحلة من مراحل عمر الإنسان وهي المرحلة التي يكتسي فيها الإنسان كثيرا من صفات الحلم والوقار والحنكة نتيجة كثرة تجاربه, وغزارة معارفه.

و سُرعان ما أُطلقت فيما بعد لقب "شيخ" وأُريد به من كَثُر عِلْمُه، لما كان من شأن الشَّيْخِ أن تكثر تجاربه ومعارفه[6]. فأُطْلِقت منذ صدر الإسلام على أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما, كما أُطلق على أئمة المحدثين كالبخاري ومسلم, لتُصبح فيما بعد لقبا علميا يدلّ على الرُّسوخ في الرياسة في علم من العلوم. فيقال شيخ المحدثين شيخ الأشاعرة شيخ المعتزلة شيخ المتكلمين ...إلخ.

---

[1]- أبو نصر الفارابي, المصدر السابق, 425/1.

[2]- سورة هود, الآية: 72.

[3]- يوسف, الآية: 78.

[4]- القصص, الآية: 23

[5]-غافر, الآية: 67.

[6]- الحسين الراغب الأصفهاني, المفردات في غريب القرآن, تحقيق: صفوان عدنان الداوديدار القلم،ط1, دمشق- بيروت : الدار الشامية, 1412 هـ, ص469.

ومن هذا المعنى بات يطلق على سيد القبيلة لفظةُ شيخٍ لأنّه في العادة يكون قد جاوز سن الخمسين؛ وأيضا لكثرة تجاربه وبصيرته وعلمه بأنساب القبيلة ومجالاتها ودُربته على مجالسة السلاطين والرؤساء وقدرته على الفصل في المنازعات.

و حين دخلت القبائل العربيّة أرض إفريقية, كان يُطلق على سادة القبائل لقب"شيخ القبيلة", ويدلّ على ذلك ما ذكره ابن الأثير عن وصف الهلاليين لموسى بن صنبر الرياحي بقولهم: (إنّك لشيْخ أو أميرها، وأنت المقدّم علينا، ولسنا نقطع أمرا دونك[1]), وشيئا فشيئا تحوّلت المشيخة إلى لقب سياسي يُطلق على رؤساء القبائل المستقلين بمجالات وأرياف المغرب الأوسط, ومع مجيء العُثمانيين, قام خير الدّين باشا باستدعاء العرب فوْر طرده للإسبانيين من تونس سنة935هـ/ 1529م, ودعاهم إلى الطّاعة, واشترطوا عليه إقرارهم على ما تحت أيديهم, وأن يعيّن لهم أمراء منهم, وأصبح بموجب هذا الاتفاق يطلق لقب شيخ العرب على الأمير المعيّن من طرف العثمانيين, كشيخ العرب علي بن عكاز السخري[2].

- ألقاب شيخ القبيلة من خلال كتب التاريخ:

إذا كان مصطلح شيخ القبيلة قد صار لقبا خاصا برؤساء القبائل العربية في بلاد المغرب الإسلامي فإنّ هناك ألقابٌ أخرى أُطلقت على هؤلاء الشيوخ تعكس أهميتهم الاجتماعية وأدوارهم السلطوية.

أ- الملك:

وقد أطلق هذا اللّقب عبد الرّحمن بن خلدون عن لطيف من الأثابج, فقال:((ثم عجزوا عن الطعن وغلبهم على الضواحي الزواودة من بعدهم لما قل جمعهم وافترق ملوكهم))[3], ومهما يكن من تجوُّز في هذه العبارة الخلدونية فإنّ هذا الإطلاق لم يأت من فراغ إذا نظرنا إلى سلطان الأثابج في بداية دخولهم إفريقية, قبل أن يخلفهم الذواودة, فقد كان لهم سُلطان حتّى على بعض سلاطين بني حفص, وتصرفوا معهم بكلّ عنهجية وتجبر.

ب- لقب الإمارة:

---

[1]- ابن الأثير, المصدر السّابق, 87/8.

[2]- محمّد الطاهر بن دومة , المرجع السابق, ص108.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 34/6.

استعمل لقب الإمارة في المغرب الاسلامي للدّلالة على من وُلد في بيت الإمارة و هي مأخوذة لغة من التسلّط فيُقال تَأَمَّرَ عليهم أي تسلَّطَ[1]. و أُطلق هذا اللّقب على شيوخ العرب خصوصا البدو, فعندما استعمل عبد بن خلدون عبارة "أمراء البدو", كان يقاصد بها شيوخ أولاد أبي الليل[2]. كما سمّى ابن خلدون داودَ بن هلال بن عطاف باسم أمير البدو من بني عامر ، وكذلك عُرفَ شيوخُ البدو الذواودة بأمراء البدو[3], وكان شيخ رياح مسعود بن سلطان يُعرف بلقب أمير الرياحيّين [4], ونعتَ ابن خلدون أولاد عريف بن يحيى بأمراء البدو من المغرب[5]. ولم يقتصر استعمال هذا اللقب فقط على أمراء البدو, بل وُصف أمراء الزاب والثعالبة بالإمارة.

كما نَعتت إحدى النوازل المتغلبين من العرب بالأمراء, جاء ذلك في نازلة سئل عنها محمد بن مرزوق, عند قول السائل: ((أرض أنعم بها السّلطان على بعض أمراء العرب[6])). وفي نازلة أخرى وردت في الدرر المكنونة قال السائل:((عن أخوين من أمراء العرب كتب أميرُ المؤمنين لأحدهما أن يسير إليه[7])). واستعمل هذا الإطلاق حسن الوزان عند حديثه عن علاقة شيوخ العرب بالسلاطين فقال: ((لكن العرب المقيمين بالصّحاري المجاورة لمملكتي تلمسان وتونس يعيشون جميعا مثل سادتهم, فكلّ أمير يتوصل من الملك بإعانات مالية ضخمة يوزعها على قبيلته ليتقي الفتن, ويعيش معهم في سلم وعلاقة ودية[8])).

ت- لقب الكبراء:

---

[1]- أبو نصر الفارابي, المصدر السّابق, 85/2.

[2]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 597/6.

[3]- المصدر نفسه, 122/7.

[4]- المصدر نفسه, 30/6.

[5]- المصدر نفسه, 163/7.

[6]- المازوني, الدّرر, تحقيق: مختار حساني, 101/3.

[7]- قموح فريدة, الدرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي زكريا يحيى بن موسى بن عيسى المازوني (ت883هـ/1478م)- دراسة وتحقيق لمسائل الجهاد والأيمان والنذور, ماجستير, جامعة منتوري قسنطينة: تخصص في التاريخ الوسيط, 2010-2011م, ص160.

[8]- حسن الوزان, المصدر السابق, 1 /63.

يدلّ مصطلح كبراء القوم على عليتهم, وأُطْلق على بعض شيوخ القبائل هذا اللقب, كعريف بن يحيى الذي وصفه عبد الرّحمن بن خلدون بكبير بني سويد[1]. ونفس اللقب وُصِف به خالد بن عامر الذي قال عنه ابن خلدون أنّه كبير بني عامر، وذكر أيضا أنّ أولاد عريف هم كبراء سويد[2].

ث- الرؤساء:

تدلّ الرئاسة على الزّعامة, وهي مأخوذة من الرأس, وتُوحي بمعاني المسؤولية والقيادة. والرئاسة من جُملة الألقاب التي عُبِّر بها عن سُلطة شيوخ القبائل العربية, فذكر عبد الرحمن بن خلدون أنّ مسعود بن سلطان بن زمام هو رئيس الذواودة[3], كما وصف شيوخ الذواودة بالرؤساء, حيث ذكر ذلك عند قوله: ((وحاول عليهم فاستقدم رؤساؤهم شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخاه يحيى، وسباع بن يحيى بن دريد بن مسعود. وحداد بن مولاهم بن خنفر بن مسعود وفضل بن ميمون بن دريد بن مسعود ومعهم دريد بن تاز يرشيخ أولاد نابت من كرفة[4])). وقد استعمل حسن الوزان, لقب الرئاسة في وصف حكام تاوريرت, فقال أنها صارت إقطاعا لأحد رؤساء الأعراب[5].

وهكذا تعكس هذه الأوصاف والإطلاقات التلقيبية مدى أهمية شخصية شيخ القبيلة. والتي مع نهاية العهد الزياني ودخول المغرب الأوسط مرحلة الحكم العثماني, تطورت لتظهر إطلاقات أخرى كالأجواد, وشيخ العرب[6], والتي تُثبت أهمّيّة منصب شيخ القبيلة.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 522/6.

[2]- المصدر نفسه, 578/7.

[3]- المصدر نفسه, 44/6.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 46/6.

[5]- حسن الوزان, المصدر السّابق, 350/1.

[6]- محمّد الطاهر بن دومة , المصدر السابق, ص108.

- نسب شيخ القبيلة وحسبه:

إذا كان النسب هو أمر قدري غير اختياري, فإنّ الحسب وهو مجموعة الأخلاق والشمائل الحميدة, كانت في مجملها أمور مكتسبة اختيارية, يسعى إليها أبناء بيت الرئاسة منذ الصغر.

أ- النسب:

مع أنّ القبيلة هي كيان يجمعه نسب واحد, وأفرادها كلهم يرجعون إلى جدّ واحد, إلا أنّ فروع هذه القبائل تتفاوت بحسب القرب والبعد من الجد, والذي يمثّل قمّة الهرم التي تلتقي فيها كلّ فروع القبيلة, يُضاف إلى ذلك تفاوتهم من حيث الكثرة والقوة.

وكان أفراد القبيلة يُقرّون بتفوّق فرع على بقية الفروع[1]. فالقبيلة بأسرها كانت تقوم تلقائيا بتقديم الأسرة النافذة إما لعراقة نسب أو لكثرة عدد, دون غيرها, وتسمى هذه الأسرة ببيت الرئاسة[2], فيما تقوم تلك الأسرة وبطريقة عفوية بطاعة كبيرها, تلك الطاعة التي تنتقل إلى أفراد الأسر والفروع الأخرى, وتبقى سلطته نافذة مادامت القبيلة تتمتع بنفوذها وعلوّ كعبها على بقية البيوت الأخرى[3], ويتوارث المشيخة أبناء بيت الرياسة من أبناء الشيخ وإخوته , إلى أن تتلاشى عصبية بيت الرئاسة[4].

ب- الحسب:

من جُملة العوامل التي يتمّ من خلالها ترشيحُ فردٍ من أفراد القبيلة لمنصب المشيخة, نجد: "الحسب", وهو مجموعة الخلال والشمائل والأخلاق الحميدة[5], كأن تتّصف شخصية من بيت الرّئاسة أو البيت المسامي له بصفات لا تتوفّر في غيره من كِبَر سنٍ ورجاحة عقلٍ

---

[1]- روبار برنشفيك, المرجع السابق, 2/101-102.

[2]- بلهاشمي بن بكارة, مجموع النّسب والحسب والفضائل والتّاريخ والأدب, تلمسان:مطبعة ابن خلدون,1961م, صص347-348.

[3]- روبار برنشفيك, المرجع السّابق, 2/102.

[4]- علي أومليل, الخطاب التاريخي"دراسة لمنهجية ابن خلدون", ط4, الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي, 2005م, ص194.

[5]- محمّد رضا مروة, المرجع السّابق, ص12.

وفصاحة لسانٍ وفضل وجودٍ[1], أضف إلى ذلك الشجاعة والنجدة والصبر على المكاره والحِلم والتواضع و سداد الرأي ووفرة المال مع السخاء والجود[2].

فمثلا أبو زيان عريف بن يحيى شيخ سويد قد نال هذه المشيخة بسبب اتّصافه بصفاتٍ حميدة جعلت ابن مرزوق ينعته بقوله ((الفاضل الطاهر الأصيل أبو زيان عريف بن يحيى بن عثمان السويدي ثم الزغبي, أحد رِجلات الكمال الحائزين من كمال الخصال ما سارت به الأمثال[3])).

ونلاحظ أنّه مع بدايات القرن السابع الهجري, وتزامنا مع بداية جنوح بعض أفراد القبائل إلى التدين, وحياة العبادة والنسك, تحوّل العامل الديني إلى سبب وجيه لسيادة بيت رئاسة على بيت آخر مسام له, فمثلا شيخ أولاد زكرير يغمور بن موسى بن بوزير بن زكرير،كان يسامي عامرا ويناهضه في شرفه إلا أن عامرا كان مقدّماً عليه, بسبب تصوّفه, وكثرة عبادته[4].

- طرق انتقال المشيخة:

رغم ما كان يحتله منصب شيخ القبيلة من مكانة اجتماعيّة, فإنّ القبائل العربيّة لم تحصُر طرقَ انتقال الرئاسة في التوريث للأبناء, تاركةً بذلك الباب مفتوحا أمام الطّرق العفوية والتوافقية في اختيار من يخلف الشيخ بعد موته, وذلك ربما لعقلية العرب الرافضة للنظام الملكي الذي يكبح حرياتهم, ولعراقتهم في البداوة وبُعدهم عن النظام, وهو ما جعل ابن خلدون يصف ذلك بقوله: ((فهم متنافسون في الرّئاسة وقلّ أن يسلّم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلّا في الأقلّ وعلى كره من أجل الحياء[5])). لذلك يمكن أن نلحظ من خلال النصوص التاريخية طرق انتقال المشيخة بعد وفاة الشيخ.

أ- الوراثة داخل بيت الرئاسة:

---

[1]-الميلي, المرجع السابق, 190/2.

[2]- بوزياني الدراجي, ملامح تاريخية للمجتمعات المغاربية, ص224.

[3]- محمّد بن مرزوق التلمساني, المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن, دراسة وتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا, الجزائر: الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع,1981م, صص367-368.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 35/6.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 188/1.

كان شيخ القبيلة يتمّ اختياره بطريقة توافقية من بيت الرئاسة إذا كان بيت الرئاسة لا يزال يتفوّق على سائر فروع القبيلة حسبا ونسبا وعدّة وعددا[1], فيتمّ اختيار شيخ القبيلة الجديد من هذا البيت سواءٌ كان الشّيخُ الجديد ابنًا لشيخ القبيلة أو أخًا أو ابن عمٍّ. فرئاسة الحشم مثلا بقيت تتعاقبها بيوت الرئاسة المتنفذة, من أولاد العبّاس وأولاد حامد وأولاد عوف, ولم تكن ولاية القبيل ورياسته تتعداهم إلى غيرهم[2]. كما ورث يعقوب بن علي بن أحمد رئاسة الذواودة, وهي الرئاسة التي ورثها عن آبائه وأعمامه[3].

وكان للشيخ مساعدون وهم كبار البيوت المسامية لبيت الرئاسة, والقريبة منه جاها وقوة, ويسمى هؤلاء المساعدون بالأرداف, فعلى سبيل المثال كانت رئاسة بني عامر لبني يعقوب وذلك في عهد يغمراسن وابنه, وكان داود بن هلال من بني يعقوب هو شيخ بني عامر, وكان بنو حميد من أبناء عمومتهم أيضا برئيسهم وشيخهم إلا أنه رديف لشيخ بني يعقوب منهم[4].

ولكنّ هذا النّوع من التوارث للرئاسة لم يكن يبقى مدة طويلة كتلك التي عرفها النظام الملكي, بل سرعان ما تنتقل إلى بيت مكافئ, بطرق توافقية لا تنضبط وفق قانون عام[5] إلا ما حصل في أسرة بني مزني والتي شابهت فيها طريقة انتقال الإمارة طريقة سلاطين المغرب الإسلامي, ولعل ذلك لكونها عرفت نوعا من التمدن, وتَقوّت بجاهها لا بعصبيّتها.

أضف إلى ذلك تدخّل السلطة الحفصية في شؤون أسرة بني مزني, فحين توفي منصور بن مزني سنة 725هـ، قام بأمره من بعده ابنه عبد الواحد, فعقد له السلطان الحفصي على عمل أبيه بالزاب، وأضاف إليه ما وراءه من البلاد الصحراوية من قرى ريغة ووارِكلا. وحين قام يوسف بن منصور بن مزني بقتل أخيه عبد الواحد طمعا في الرئاسة سنة

1- روبار برنشفيك, المرجع السّابق, 102/2.

2- بلهاشمي بن بكارة, المصدر السابق, صص347-348.

3- المصدر السابق, 47/6.

4-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 68/6.

5- محمّد نجيب بوطالب, المرجع السابق, ص108.

729هـ/1329م قام السلطان الحفصي بإرسال مرسوم التّقليد والخلع على العادة، وأجرى الرسم في الدعاء له على منابر عمله[1].

ب- تدخل السلطة في تعيين شيخ القبيلة:

يُعدّ تدخل السلطة السياسية أحد أهم عوامل ترجيح كفة فرد من الأفراد أو بيت من البيوت. وفي الغالب يتمّ ذلك بعد بروز الخلافات والمنافسة بين الطامحين للمشيخة, خصوصا إذا حدثت تلك المنافسة في عهد أحد السلاطين الأقوياء, والذين يبادرون إلى الاستثمار في الوضع, وفرض شخصية تتوافق مع أهوائهم السياسية وطموحاتهم العسكرية, وتضمن ولاء القبيلة لهم. فقد عقد أبو الحسن[2] سنة 732هـ/1332م لونزمار بن عريف على سويد وسائر بني مالك، وأضاف إليه رئاسة التابعين لعمالته[3], كما عقد ابنه أبو عنان للشيخ أبي يعقوب من بني مزني على الزاب, وأطلق يده في التصرفات فيها[4]. ومثل هذه التعيينات السلطانية, كانت لا تزول بوفاة السلطان بل تبقى مستمرّة ويحترمها من يأتي بعدهم[5], فابن خلدون عند تطرقه لرئاسة يعقوب بن علي بن أحمد على أولاد محمد من الذواودة، قال:(وهو كبير الذواودة بمكانه وسنه وله شهرة وذكر ومحل من السلطان متوارث[6]).

كما تدخل الأمراء الحفصيون في تعيين شيوخ أولاد مهلهل وعزلهم, بعد الهزيمة التي تكبدوها سنة 867هـ/1462م, وبهذا تحوّلت المشيخة إلى مؤسّسة خاضعة للسّلطة المخزنية[7].

ولم يكن تدخُّل السلاطين في مسألة*إنتقال المشيخة* يمرّ دائما بسلام, بل في بعض الأحيان أدّى إلى تمزيق القبيلة, وقيام المقصيّين من المشيخة بالتشغيب على السلطان. فعندما منح

1-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 591/6.

2- أبو الحسن علي بن عثمان الملقب بالمنصور, ولد سنة 697هـ/1298م, ولي سنة 731هـ/1331م, وتوفي سنة 752هـ/1351م, بعد ويعتبر من ملوك بني مرين الأقوياء, حيث فتح المغرب الأوسط وتونس, وقضى على الدولتين الزيانية والحفصية, ثم انهزم بالقيروان, ونازعه أبنه أبو عنان الملك, إلى أن أذعن أبو الحسن وبايع ابنه, وتوفي بعدها قليلا إثر مرض ألم به. إبراهيم حركات, المغرب عبر التاريخ, الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة, 2000م, 2/36-43.

3-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 63/6.

4-النميري, المصدر السابق, ص435.

5- حمدان خوجة, المصدر السابق, ص38.

6- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 47/6.

7- الزّركشي, المصدر السابق, صص153-154؛ محمّد حسن, المرجع السّابق, ص122.

أبو الحسن المريني المشيخة لعريف وابنه ونزمار نقم أولاد ميمون بن غنم ابن سويد على الدولة, فاجتمعوا وبايعوا الدعي بن هيدور[1]. ونفس الأمر تكرر في أيام أبي حمو موسى الثاني, عندما أسند مشيخة بني عامر لشعيب بن عامر, حقد خالد بن عامر على أبي حمو بسبب ذلك, وبادر إلى منازعته, فبايع المولى أبي سعيد[2].

ويجدر بالذكر أنّ السّلاطين عادة ما كانوا يقصون شيخ القبيلة اذا خالف أهواءهم, ويعيِّنون أحد أقرانه ممّا يمزّق القبيلة, ويتجلّى ذلك مثلا أثناء إسناد السُّلطان الحفصي مشيخة الدواودة لميمون بن علي بدل أخيه يعقوب بن علي بسبب خصومته مع هذا الأخير، مقدّما لميمون على سائر أولاد محمد من الزواودة، وأحَلَّه بمكانه من رياسة البدو والضواحي, الأمر الذي ولَّد صراعًا بين يعقوب بن علي وميمون بن علي[3].

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 70/6.

[2]- زهرة البستان, صص209-210؛ عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 174/7؛ عبد الحميد حاجيات, أبو حمو موسى الزياني "حياته وآثاره", الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, 1974, ص105.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 395/7.

المبحث الثاني: شيخ القبيلة– علاقاته وطريقة حكمه–

إنّ شخصية اجتماعية هامّة كشيخ القبيلة في أرياف ومجالات المغرب الأوسط, والتي تشرف على أراضي واسعة, بعضها يحاذي المدن و الأراضي السلطانية, لا شكّ أنّها كانت لها علاقات داخلية وخارجية, تمليها الضرورة والحاجة الملحّة. وفي هذا المبحث سنتطرّق لأهم الجماعات والأفراد الذين كانت تربطهم علاقات بشيخ القبيلة, ساعين إلى تحديد نوعية هذه العلاقات, وتوصيفها.

- علاقة شيخ القبيلة بالسلاطين:

لم تكن علاقة شيوخ القبائل مع السلاطين تسبح في فلك واحد, بل اختلفت بحسب قوة أو ضعف أحد الطرفين, ويمكن أن نميز بين حالتين اتسمت بهما هذه العلاقة, وهما حالة السلم والموافقة, وحال الحرب و المنازعة.

أ- حالة السلم والموافقة:

عادة ما يكون سبب هذه الحالة هو قوّة السّلاطين, وضعف شيوخ القبائل, مثل ما كان عليه الحال أيام أبي الحسن المريني وأيضا أيّام أبي حمو موسى الأول, وحتى في أواخر عهد الزيانيين والحفصيين ظهر بعض السلاطين الذين حاولوا ترويض القبائل العربية, و أظهروا حزما مع شيوخها كما فعل أحمد العاقل الزياني, الذي ذكر التنسي أنّه:((أظهر في أوّل أيّامه الحزم أمام اللّصوص والعربان))[1], و نفس الأمر فعله أبو فارس عزوز الذي ضرب بيد من حديد, والذي قال عنه أحمد بن يحي الونشريسي :((أنّ الله قطع به أهل الزّيغ والفساد من أهل البادية والبلاد))[2].

وفي هذه الحالة ومع أمثال هؤلاء السّلاطين, كان شيخ القبيلة يُذعن لمنطق القوّة, ويتعامل مع السلطان بمرونة, ويؤدي ما عليه من التكاليف السُّلطانية, وأحيانا تكون هذه الحالة نتيجة الحاجة المتبادلة بين شيخ القبيلة والسّلطان, كأن يرى كلٌّ منهما في الآخر حليفا قويا لا ينبغي التفريط فيه, لمواجهة الخصم المشترك.

1-التنسي, المصدر السابق, ص249.

2-الونشريسي, المصدر السابق, 10/10.

ومن مظاهر هذا النوع من العلاقات, تبادل الهدايا والتّحف والتّشريفات, مثلما حدث حين تخوف الحفصيّون من يعقوب بن علي أمير بدو الذواودة, فأرسلوا إليه ثلاثين حملا من البزّ الرفيع والتحف السنيةّ[1].

و غالبا ما تساهم حالة السلم والموافقة في ارتقاء شيخ القبيلة في هرم الدولة, ليغدوَ أهمّ عنصر فيها, وقد أشار إلى ذلك السلطان أبو حمو موسى الثاني حين رتب لولي عهده طبقات رجال الدولة, فذكر أولا الوزراء والكتاب, ثمّ صاحب الأشغال, ثمّ صاحب الشرطة, ورابعا شيوخ القبائل, وقال عنهم: ((ثمّ تدعو إلى دخول أشياخ دخلتك, وأشياخ القبائل المقربين لخدمتك وقواد أجنادك المستمسكين بحرمتك[2])).

وقد أهّلت المشيخة أبا زيان عريف بن يحيى شيخ سويد لعلوّ المنصب والمقام الرّفيع أيام المرينيين[3], وإليك هذا الوصف الذي وصف به ابن مرزوق أبا زيان عريف تعلم ما كان يتمتع به هذا الشيخ من علوّ المقام, ونفوذ الكلمة: ((وممن كان من مولانا المرحوم بمنزلة الصاحب والخليل, الذي تسقط معه مؤنة التكلف في الغالب, الشيخ الفاضل الطاهر الأصيل أبو زيان عريف بن يحيى بن عثمان السويدي ثم الزغبي, أحد رجلات الكمال الحائزين من كمال الخصال ما سارت به الأمثال[4])).

ثمّ أورد ابن مرزوق حادثة تبين مدى صحة هذا الكلام: ((سمعت شيخنا الفقيه القاضي الأعدل الخطيب أبا عبد الله بن عبد الرزاق في مرضه الذي مات فيه يقول: "وددت لأن ألقى الله عز وجل بعمل عريف", فقيل له: "ومثلك يقول هذا؟" قال: "نعم, لازمت مجلس السلطان أبي سعيد وولده المولى أبي الحسن, فما رأيت قط حسنة مضيت إلا وله في امضائها سبب, ولا مصيبة دفعت إلا وله في دفعها أعظم سبب صدق"[5])). و استمر عريف في هذه

---

[1]- العمري, المصدر السابق, 4/ 201-202.

[2]- أبو حمو موسى الثاني "723هـ-791هـ/1321-1389م, واسطة السلوك في سياسة الملوك, تحقيق: محمود بوترعة, الجزائر: دار الشيماء للنشر والتوزيع, 2012م, ص148.

[3]-ابن مرزوق, المصدر السابق, ص169.

[4]-المصدر نفسه, ص367.

[5]-المصدر نفسه, ص368.

المنزلة السامقة إلى أن توفي بسلا في صحبة المولى أبي عنان ودفن حيث طلب إلى جانب السّلطان أبي الحسن سنة 755هـ/1354م[1].

ب- حالة الحرب والمخالفة:

إذا كانت قوّة السّلاطين أو ضعف القبائل هي من أسباب إذعان الشيوخ للسّلاطين, فإنّ ضعف السّلاطين وقوّة شيوخ القبائل كان يؤدّي إلى تطاول هؤلاء الشيوخ على السلطة المركزية, وتربّصهم بالدولة, ومخالفتهم للنّظام العام, وشنّهم الغارة على أطراف المدن والقرى, وهو ما نتج عنه موافقة السلاطين على مضض لشروطهم المجحفة, أو إلى دخول الدولة معهم في حروب مكلفة.

وكان من أسباب ظهور الخلاف ما عُرف به العرب من أخلاق وصفها ابن خلدون بقوله :((كان اعتزاز هؤلاء العرب على السلطان والدولة لا ينتهي إليه اعتزاز، ولهم عنجهية وإباية وخلق في التكبر الّذي هو غريزة)), ويعزو ذلك ابن خلدون إلى كونهم لم يعرفوا عهدا للذل[2]. وكثيرا ما كان شيوخ القبائل يستعينون بقوة خارجية وبقبائل بربرية, في حروبهم ضدّ السلاطين, ففي أيام أيام يغمراسن بن زيان, استعان بدو بني سليم ورياح بأبي زكريا الحفصي, بمعية عبد القوي بن عبّاس شيخ بني توجين ، والعباس بن منديل بن عبد الرحمن وأمراء مغراوة. سنة 639هـ[3], ثمّ قام عبد القوي وأولاد منديل بن محمد باستنفار جميع أحياء

[1]-ابن مرزوق, المصدر السابق, صص367-368.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 104/6.

[3]- قال يحيى بن خلدون عن يغمراسن بن زيان : ((وفي سنة تسع وثلاثين أتته من مراكش هدية أبي محمد عبد الواحد الرشيد ابن إدريس المأمون ابن يعقوب المنصور ابن يوسف العسري ابن عبد المومن ابن علي استئلافا له دون الأمير أبي زكريا يحيى بن أبي محمّد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر, الثائر يومئذ بإفريقية, فأنف المذكور لها واستجاش أهل افريقية من الموحدين ومواليهم وأحلافهم من العرب كافة كدباب وسليم ورياح وزغبة وهوارة وقرفة وثوبة, وتحرك إلى تلمسان فنزلها يوم الأربعاء التاسع والعشرين لشهر الله المحرم فاتح سنة أربعين وستمئة وبعسكره اثنا عشر ألف رام مترجلة سوى الركبان)). المصدر السابق, 205/1؛ التنسي, ص117.

العرب المستقرين بالمغرب الأوسط[1]. كما استعان الثعالبة ببني مرين ضدّ الزيانيين, وهو ما مكّنهم من الاستبداد بإقليم متيجة[2].

- وسائل كسب الولاء وضمان الطاعة:

تعدّدت الطرق والوسائل السّلطانية السّاعية إلى كسب ولاء شيوخ القبائل, والحدّ من خطرهم, ومن هذه الطرق والوسائل:

أ- سياسة ضمان الطاعة بالرهائن:

بسبب كثرة غدر شيوخ القبائل, أصبح السّلاطين لا يطمئنون لولائهم, لذلك اتّبعوا سياسة أخذ الرّهائن, قصد توثيق عقود الولاء وفروض الطّاعة[3]. وكان الرهائن الذين يأخذهم السّلاطينُ إمَّا أبناءَ شيوخ القبائل أو إخوانَهم. و ذكر النميري هذه السياسة, حين تناول أخذَ السّلطان أبي عنان المريني من العرب رهائن الطاعة قبيل الرحلة نحو الزاب فقال:((فكان أوّل ما اعتمل فيه مولانا أيّده الله أن طلب العرب وسائر القبائل بالمراهين الجزلة التي يملك بها تصريف أمورهم, ويؤخذ بأكظامهم إن قدحوا شرّ شرورهم, ويقادون بأزمّة الالتزام منها مصحبة مصاعبهم[4])).

ونلاحظ أنّ صاحب هذا النص بيّن أنّ السلاطين لا يمكنهم أن يكسبوا ولاء القبائل, وتصريف أمورها إلا بمثل هذه المراهين. ثمّ بيّن التسلسل في أخذ الرهائن فقال أن من كان له ابن: ((طُولب بإحضار ذلك الابن رهينة يكون عليها دركه, وحتّم عليه تسليمه إلى السّجن الذي لا يفلته شَرَكُه[5])), وهنا يتبين لنا أن الرهائن كان مآلها إلى السجن, و توكل بها الحراسة الشديدة, خشية من فرار الرهينة, وهو ما يفضي بالقبيلة إلا التملص من التبعية, والانحراف عن الطاعة.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 7/107-108.

[2]-المصدر نفسه, 6/84.

[3]- روبار برنشفيك, المرجع السابق, 2/101-102.

[4]- النميري, المصدر السابق, ص386.

[5]- المصدر نفسه, صص386-387.

وعندما لا يكون لشيخ القبيلة ابن فإنّ السّلطان ينتزع من شيخ القبيلة أخاه, والذي من صفاته أنه: (أخ يستظهر به على أعدائه, ويأتي به الحرب لا تنهزه إلا نصرة أحيائه)), وفي حالة فقد الابن أو الأخ, فإنّ السلطان يأخذ: ((غير الأخ ممن يعتد به عند احتدام الجلاد والمضاع, ويهيب به إذا أذنت الكماة بقرع أبواب القراع, ويشترك معه في متلاحم الأنساب[1])).

ويبين النميري نجاعة هذه السياسة بقوله:((لا جرم إن طولب المرتهن بإحضاره, وعهد إليه بإطفاء ناره...فلا يواعد أو يذل, ويرقب في المؤمن الذمة و الآل, ويقبض يد ظلمه وجوره, ويستعيذ بالله من جوره بعد كوره)) ومعنى هذا الكلام أنّ أنفة العرب من الذل والضيم يدفعهم إلى الابتعاد عن أسبابه, فيلزمون درب الطاعة. وقد بين النميري أنّ السلطان أبا عنان كان على دراية بأنّ شيوخ العرب لا تصلحهم إلا هذه السياسة فقال:((وعلم مولانا أيّده الله أنّ هذا النوع من السياسة هو الذي يكفي معرتهم, ويستأصل استتابة مضرتهم))[2].

و من بين الشيوخ الذين أخذ منهم السلطان أبو عنان الرهائن, صاحب الزاب يوسف بن مزني مع مشيخة الذواودة, حيث أخذ أبناءهم على الطاعة، وقفل بهم إلى المغرب[3].

كما أنّ السلطان المريني عبد العزيز, حين أبرم اتفاقا مع حصين, قصد صرف وجوههم عن بيعة أبي زيان, بادر إلى قبض الرهائن من حصين على الطاعة, وقرّر عليهم الوضائع والمغارم, ليضمن ولاءهم[4], وأيضا أخذ من زغبة أبناءهم رهنا على الطّاعة, والذين يصفهم عبد الرّحمن بن خلدون بالأعزة[5].

ومع ذلك نجد أن السّلطان أبا حمو موسى الثاني حين خالفه خالد بن عامر وانضمّ إلى أبي بكر بن عريف سنة 768هـ/1366م, واجتمعا على الخلاف عليه ونقض طاعته. وشنّوا الغارة على معسكره، بادرَ إلى الاستنجاد بقبائل رياح مستثمرا في النفرة التي وقعت بين شيخي الذواودة يعقوب بن علي بن أحمد وعثمان بن يوسف بن سليمان بن علي من جهة

---

[1]- النميري, المصدر السّابق, صص386-387.

[2]- المصدر نفسه, صص386-387.

[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 534/6.

[4]-المصدر نفسه, 439/7.

[5]-المصدر نفسه, 178/7.

و السلطان أبي العباس عبد العزيز المريني من جهة أخرى, فضمنوا له طاعة البدو من رياح، وحين بعثوا إليه رهنهم على الطاعة, ردّها إليهم وثوقا بهم، وهو ما يبرز شدّة التحالف, وقوّة الثّقة بين الطّرفين[1].

ب- سياسة لين الجانب:

لم تكن سياسة أخذ الرهائن وحدها هي الكفيلة بكسب ولاء شيوخ القبيلة, بل كان التلطف معهم وإلانة الجانب من الطّرق الأكثر نجاعة, لاسيما حين ترى الدولة نفسها منهمكة في حل مشكلات أكثر أهمية من قضية شيوخ القبائل, ومن مظاهر هذه السياسة:

1- إظهار حفاوة الترحيب:

كان السلاطين يستقبلون بعض شيوخ القبائل بحفاوة, بل وصل الأمر ببعض السلاطين إلى تخصيص طائفة من شيوخ القبائل بمزايا التعظيم والتوقير, مثل قيام سلاطين الموحدين, بإكرام وفادة ولد سباع بن ثعلب بن علي بن مكر بن صغير شيخ الثعالبة. بوضع دينار فوق عمامته يزن عددا من الدنانير سابقة في تكرمته وترفيعه[2].

ولما وفد عريف بن يحيى على السلطان المريني أبي سعيد سنة 720هـ/1320م, على إثر تدهور العلاقة بينه وبين أبي تاشفين بن موسى الزياني[3] بادر السلطان أبو سعيد المريني إلى إكرامه فأكرم نزلته وأدنى مجلسه وأكرم مثواه[4].

2- إكرام شيوخ القبائل بالهدايا والعطايا:

من مظاهر سياسة لين الجانب ما سار عليه السلاطين من إتحاف الشيوخ بنوادر التحف والهدايا السلطانية, تلك التحف والهدايا التي يتم اختيارها وفق ما يتناسب مع ذوق شيوخ القبائل, والتي كانت تلقى استحسانا من طرفهم. فأبو الحسن قد أكرم زيان بن عريف بن يحيى بالنوق العشار, وقد وقع ذلك منه موقعا حسنا, وهو ما يفسره ابن مرزوق بقوله:

1- عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 6 /174.

2--المصدر نفسه, 84/6.

3- أبو تاشفين بن موسى الزياني: تولى الحكم سنة 718هـ/1318م إلى سنة 737هـ/1337م, بعد أن قام بعض الأعلاج بقتل أبي حمو موسى الأول, و بدسيسة منه سنة 718هـ. نظم الدر, ص139؛ يحيى بن خلدون, المصدر السابق, صص212-214.

4-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 62/6.

((فوقع منه من استحسانها, ما تميل إليه طباع العرب غالبا[1], ولذلك بادر السلطان إلى إعطائه ألف ناقة عشرا ء كلها[2])).

و كان الزيانيون أيضا على دراية بما تعمله الهدية, وبموقعها من قلوب العرب, لذلك كان سلاطينهم يهادون شيوخ القبائل المقيمين بأرجاء بلاد المغرب الأوسط, وخصوصا المجاورة للمرينيين والحفصيين, فالسّلطان أبو تاشفين حين كان يجلب على بني حفص, ويخبب عليهم أولياءهم من العرب, يبعث إلى السنيّة أتباع سعادة[3] بالجوائز يستدعي بذلك ولايتهم, ويبعث للفقيه أبي الأزرق وهو شيخهم ورئيسهم بجائزة معلومة كلّ سنة[4].

3- إقطاع الأراضي:

من وسائل كسب ولاء شيخ القبيلة, سياسة بعث المال وإقطاع الأراضي والتي كان لها دور كبير في كسب ولاء القبائل, فنجد أنّ أبا حمو موسى حين أراد أن يستعيد ملكه من بني مرين, ويقضي على أبي زيان الخارج عليه, استمال العرب ببذل المال، وإقطاع البلاد, واستجاب لمطالبهم رغم ما فيها من الشطط[5]. كما حاول يغمراسن بن زيان أن يستغل توتر العلاقة بين الذواودة والحفصيين, فقام بإجارة أولاد سباع بن يحي بتلمسان وتقوى بهم [6].

4- إطلاق أيديهم لجمع الضرائب:

---

[1]- ابن مرزوق, المصدر السابق, ص192.

[2]- المصدر نفسه, ص192.

[3]- سعادة زعيم السنيّة: ينتمي إلى قبيلة رحمان الرياحية, وأمّه كانت تدعى خضيبة, في أعلى مقامات العبادة, وهو ما أثّر فيه, فنشأ منتحلا للعبادة والزّهد, وارتحل إلى المغرب فلقي أبا اسحق التّسولي, وأخذ عنه ولزمه, وتفقّه عليه, ورجع إلى وطن رياح بفقه صحيح, وورع وافر, ثمّ نزل طولقة من بلاد الزّاب, وشرع في تغيير المنكر على أقاربه وعشيرته ومن عرفه أو صحبه, فاشتهر بذلك, وكثرت غاشيته لذلك من قومه وغيرهم, و كان أتباعه من قبائل الذواودة, و زغبة وغيرهم يسمّون بالسنيّة, فاشتدّ على قاطع الطّريق من شرار البوادي. و طالب عامل الزّاب وهو يومئذ منصور بن فضل بن مزني بإعفاء الرّعايا من المكوس والمظالم, الأمر الذي جعل ابن مزني يعمل على القضاء عليه في بداية القرن الثّامن, وقد قام أتباعه بالأمر من بعده, ونصّبوا عليهم فقيها يُدعى أبو عبد الله محمّد بن الأزرق. عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 6/ 51-53

[4]-المصدر نفسه, 53/6.

[5]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 174/7.

[6]-المصدر نفسه, 46/6.

من بين الطّرق التي سلكها السلاطين مع شيوخ القبائل لكسب رضاهم وتلافي أمرهم, إطلاق أيديهم لجمع الغرائم من المدن والقرى التي تغلّبوا عليها لمصلحتهم[1], أو تكليفهم بجمع الغرائم نيابة عنهم مقابل أجرة معلومة[2]. وكانت الرعية تدفع إلى المتغلب الحقيقي, لذلك كانت تلتزم بدفع المغارم لشيوخ العرب مقابل حمايتهم, وعدم التّعرّض لهم[3].

- علاقة شيخ القبيلة بالرعيّة:

تختلف علاقة الشيخ بالرعية بحسب قرب وبعد نسب هؤلاء الرعيّة من نسب شيخ القبيلة, فهناك رعية من أبناء قبيلته الأقربين, والذين تجمعهم به صلة وطيدة وقريبة, وهناك رعية من غير أبناء قبيلته دخلوا تحت طاعته قهرا أو اختيارا, أو قرابةٌ تجمعه بهم قرابة بعيدة.

أ- علاقة الشيخ بأبناء قبيلته:

اتّسمت علاقة الشيخ مع أفراد قبيلته الذين تربطهم به عصبية دم بطابعها العائلي, فأبناء بيت الرئاسة أو البيوت المسامية له يتصرفون كأنّهم هم شيوخ القبائل, لأن شيخ القبيلة لم يكن يعاملهم بأسلوب سلطوي, فهو غير متميز عنهم, يستشيرهم ويتعامل معهم كأي فرد عادي, ويتوخى معهم الحذر, فيتلطّف معهم حتّى لا يُثير حفيظتهم, ويوضّحه ابن خلدون بقوله عن أبناء القبيلة: ((صعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتّوحّش ورئيسهم محتاج إليهم غالبا للعصبيّة الّتي بها المدافعة فكان مضطرّا إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلّا يختلّ عليه شأن عصبيّته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم[4])). وهم بدورهم كانوا يقدمون رأيه, ويسندون إليه أمر التفاوض باسمهم, والفصل بينهم عند تنازعهم[5], وهو ما جعل البعض يصف أن سلطته كانت سلطة معنوية غير متحكمة في الحقيقة, لتقارب قوة ومكانة بقية البيوت من بيت الرئاسة [6]. فعلاقة الشيخ بأبناء قبيلته المقربين علاقة الأب بأبنائه, فهو يسهر على سلامتهم, ويسعى إلى ما يوطّد سلطانهم, ويضمن بقاءهم, في المقابل كان أبناء

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 438/7.

[2]- حسن الوزان, المصدر السابق, 49/1.

[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 6/7.

[4]- المصدر نفسه, 189/1-190.

[5]- مارمول, المصدر السابق, 104/1.

[6]- علي أومليل, المرجع السابق, ص193.

القبيلة يوقرون شيخهم ويرون أن طاعته حتم لازم, إلا في القليل الناذر حين تتحالف بعض الرعية أو تنحاز إلى بعض منافسيه, كتلك المنافسة بين عثمان بن سباع بن شبل وبني عمه علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود وسليمان بن علي بن سباع بن يحيى على الرئاسة, والتي استمرت إلى أيام عبد الرحمن بن خلدون[1].

وكان من مهمات شيخ القبيلة حفظ النظام العام, لا بصفته قاضيا, ولكن بصفته شخصية محترمة, قراراته ملزمة, وتتصف في الغالب بالحكمة التي تطمئن إليها قلوب أبناء القبيلة, وهو ما جعله يتدخل في نزاع أبناء قبيلته ويصلح بينهم لإخماد الفتن[2]. وقد دفع صغير بن عامر شيخ بني عامر بحايته ثمنا لمسعاه من أجل تسكين فتنة دارت بين فرسان بني عامر, حين رام تسكين تلك الفتنة فاعترضه رمح[3]وهو ما يكشف نوعيّة الخلافات التي كثيرا ما كانت تحدث بين أبناء القبيلة, وصعوبة تسكينها.

كما كان الشيخ يقسم بين أبناء قبيلته وبيوت الرئاسة مداخيل القبيلة, متوخيا العدل في ذلك, قال حسن الوزان:((كلّ أمير يتوصل من الملك بإعانات مالية ضخمة يوزعها على قبيلته ليتقي الفتن, ويعيش معهم في سلم وعلاقة ودية[4])).

ب- علاقته بالرعيّة المغلوبين:

لم يكن شيخ القبيلة يعامل رعاياه بنفس الطريقة والأسلوب, فإذا كانت علاقته بأبناء قبيلته هي علاقة الأب بأبنائه يسودها الاحترام, فإنّ الآخرين كانوا يعيشون نوع تهميش, رغم لزومهم فروض الطاعة, و التزامهم بقرارات الشيخ, تلك القرارات التي تكون في الغالب تسير في فلك تكريس سلطة الشيخ, ومضاعفة نفوذ بيت الرئاسة. وهو ما تؤكّده مقولة ابن خلدون من أنّ شيوخ القبائل كانوا إذا ملكوا أمّة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم[5].

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 47/6.

[2]- مارمول, المصدر السابق, 104/1.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 71/6.

[4]- حسن الوزان, المصدر السابق, 63/1.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 190/1.

ومن المؤكّد أنّ المغلوبين من الرعايا لم تكن لهم أي جرأة على مخالفة شيخ القبيلة, وإلا فإن مصيرهم ينتهي بالقتل أو مصادرة الأموال, وهو ما يمكن أن نتأمله في أهل مستغانم الذين كانوا يخضعون للعرب, وكان شيوخ العرب يسومون أهلها أشد العذاب[1], وقد دفع ذلك الكثير منهم إلى المغادرة, والانتقال إلى جوار شيخ قبيلة آخر أقلّ قسوة وجبروتا من الأول[2], ولم ينقذهم من ذلك إلا قدوم العثمانيين[3], وقد حوّل شيوخ القبائل العربية السكان إلى خول وعبيد للجباية[4], وصاروا مغلّبين مثقلين بالمغارم[5].

وكان على هؤلاء الرعايا أن يمتهنوا فلاحة الأرض وتربية المواشي, والقيام على الإبل, وتوفير ما تحتاجه القبيلة من ضروريات العيش, كما كان يتوجّبُ عليهم أن يؤدوا زكاة أموالهم, وخفَّارة إقامتهم في مجال القبيلة. وربما قام الشّيخ باستنفار أحيائهم للظعن مع القبيلة, أو الغزو معها, كقبيلة وينفن وقبيلة وربهامة التي حالفت بعض بطون سليم وصارت تتنقل معها إلى التلال التي بين تبسة و مرماجنة وباجة، ويقلّدونهم في اللغة والزيّ وسكنى الخيام وركوب الخيل، وكسب الإبل وممارسة الحروب، وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم[6].

ت- علاقته بالفقهاء والمتصوفة:

كانت القبائل العربية في الأصل تحترم الفقهاء, فلا تعتدي عليهم, وتقبل شفاعاتهم, وربما تتقرب إليهم بأسنى الصلات والنذور, غير أنّ تشبث شيوخ القبائل بالأعراف القبلية, جعلهم في كثير من الأحيان يصادمون الشرع, ولذلك كثر اعتداؤهم على القضاة كما تشير إليه نوازل المازوني والونشريسي[7], ويشير الحسن الوزان إلى أنّ القضاة قلّما كانوا يجاورون القبائل العربية, ولا يسكنون معهم إلّا مكرهين, لعدم تمكّنهم من تحمّل أعرافهم وطريقة

---

[1]- مارمول, المصدر السابق, 350/2.

[2]- لوسيت فالنسي, المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830م, ترجمة: إلياس مرقص, ط3, بيروت: دار الحقيقة للطباعة والنشر, 1998م, صص129-130.

[3]- مارمول, المصدر السابق, 350/2.

[4]-روبار برنشفيك, المرجع السابق, 2/ 104.

[5]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 6/7.

[6]-المصدر نفسه, 186/6.

[7]- الدّرر المكنونة, تحقيق: مختار حساني, 198/1.

عيشهم, ومع ذلك في حالة أقام بينهم قاض, فإنّ شيخ القبيلة كان يكرمه, وربما أصبح يتقاضى ألفي دينار كلّ سنة[1]. وفي الغالب يكون هذا القاضي خارج عن قاضي السّلطان, فقد ورد في أجوبة البادية سؤال نصّه كما يلي:((ما حَكَم به قاضٍ أقامه جماعة خارجة عن قاضي السّلطان, دون أن يخرجوا عن السّلطان, كحال بعض أهل هذه البلاد إن لم يكن لهم أمر من الإمام...؟ [2])).

وإذا كان هذا هو حال القضاة, فإنّ فقهاء آخرين كان لهم تأثير على شيوخ القبائل, خصوصا فقهاء البلاط, فعندما انطلقت الحملة المرينية في أواخر سنة 771هـ/1369م, واستولى السلطان عبد العزيز المريني على تلمسان سنة 772هـ/1370م, بمعية ونزمار بن عريف وقومه وأحلافه من سويد, قام بإرسال عبد الرحمن بن خلدون لتأليف القبائل الرياحية[3]. كما كلّف أبو حمو عبد الرحمن بن خلدون سنة 776هـ/1374م, باستصلاح الذواودة واستمالتهم, لكن ابن خلدون كان قد ملّ هذا النوع من الأعمال, فتظاهر بالقبول, وفر إلى قلعة بني سلامة, حيث لقي حفاوة في أحياء أولاد عريف[4].

أمّا بالنسبة لرجال التصوف فإنّه وبعد جنوح الكثير من القبائل العربية إلى سكنى القرى والاستقرار, خصوصا بعد هزيمة العرب بسطيف سنة 548هـ/1153م, سرعان ما احتكّ العرب بكبار شيوخ التصوف, مثلَ أخْذ مسعود بن عريف وهو من عرب سويد عن أبي مدين شعيب ت594هـ/1198م, في بجاية, ثم عودته إلى شلف وتأسيسه في وسط قبائل سويد والديالم زاوية أضحت أحد مراكز نشر الطريقة المدينية خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري[5].

1- الحسن الوزان, المصدر السابق, 59/1.

2- أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني, أجوبة البادية, ت1062هـ, تحقيق: يوسف أمال, بيروت: دار الكتب العلمية, ط1, 2015, ص63.

3- محمّد بن معمّر, صورة المغرب الأوسط من خلال رحلة ابن خلدون, مجلة الحضارة الإسلامية, جامعة وهران: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتّوزيع, ع:15, شعبان 2011م, صص185-202؛ ص193.

4- المرجع نفسه, ص195.

5- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 272/7- 274, ص338؛ ابن قنفذ, أنس الفقير وعز الحقير, ص40؛ الطاهر بونابي, ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفية, ص148.

ولعلّ سعادة السّني وطائفته السنيّة من أهمّ شيوخ القبائل الذين كان لتوبتهم أثر بارز في تنامي هذه الظّاهرة الاجتماعية. حيث اتّبع سعادة السّني أبناء مسلم إحدى شعوب رياح, و كثير من الذواودة, و أولاد سباع بن يحي, وأولاد إدريس, وأولاد عساكر, وأولاد يزيد بن زغبة وغيرهم[1]. وتشبه توبة سعادة السّني توبة قاسم بن مرا من الكعوب القائم بالسنّة في قبائل سليم والذي سمّى أتباعه بالجنّادة[2].

وكان رباط أبي يعزى مقصدا لكثير من أبناء القبائل العربية كأبي عمرو عثمان بن عتيق الوهراني من بني جابر[3] , كما أنّ أبا مدين قد حظي بطلبة من قبائل العرب الهلالية وفدوا عليه من افريقية الى بجاية, وأشهرهم طاهر المزوغي ت646هـ/1348م, وأبو يعقوب بن ثابت الدهماني ت621هـ/1224م[4]. وأشار مامول إلى هذه الظاهرة بقوله:((أنّ أحد المرابطين جاء إلى البطحاء واستقرّ بها, وزرعها نظرا لخصوبتها وجودة مرعاها. وقد جاء النّاس ليستقرّوا في حماية هذا الرّجل الذي كان يحظى بتوقير ملوك فاس, واحترام الأعراب على السّواء))[5]. وذكر حسن الوزان أنّ أحد الشيوخ الزهاد كان يأمر بالهدنة بين القبائل المتناحرة[6]. و شيئا فشيئا بدأ رجال الطريقة في فرض أنفسهم, فمثلا باتوا يأخذون الزكاة من القبائل العربية, مثل ما ورد في ترجمة الشيخ علي بن ماخوخ التوزيني, أنّ بعض طلبته كانوا يتوجهون إلى العرب فيأخذون ما يجب عليهم من زكاة الغنم والإبل, فيبيعون ذلك وينض لهم من أثمانه مال كثير, ولا يتعرض لهم أحد[7].

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 6 /51-53.

- Jacques Berque , Jacques Berque, L'Intérieur Du Maghreb–XV-XIX siécle, paris: Gallimard, 1978,PP56-57.

[2]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 106/6.

[3]- أبو العباس العزفي 557-633هـ, دعامة اليقين في زعامة المتقين"مناقب الشيخ أبي يعزى", تحقيق: أحمد التوفيق, الرباط: مكتبة خدمة الكتاب, 1989م, ص50.

[4]- الطاهر بونابي, ظاهرة الاندماج الهلالي, ص151.

[5]-مارمول, المصدر السابق, 326/2.

[6]- حسن الوزان, المصدر السابق, 145/1.

[7]-عبد الحق بن إسماعيل الباديسي, المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التّعريف بصلحاء الريف, تحقيق: سعيد أعراب, ط2, الرباط: المطبعة الملكية, 1993م, ص117.

و نالت ظاهرة إقبال شيوخ القبائل على التوبة والزهد حيّزا واسعًا في كتب النوازل, فوردت عدة أسئلة لمشايخ وعلماء المغرب الأوسط تلخص هذه الظاهرة, ومن ذلك ما سئل عنه أبو عبد الله الزواوي: ((عن مستول على قبيلة وغيرها, وطالت يده عليهم بغرم الأزواج ...ثمّ إنّ الرّجل المذكور أراد التخلّص ممّا حصل بيده, والرّجوع إلى الله والإنابة)). و جاء جواب الشّيخ كالآتي: ((الحمد لله إذا شرح الله صدر هذا الرجل استنار قلبه بنور الحقّ, وانجلت عنه ظلمات الجهل والغفلة, وأفاق منه سكر الهوى الذي كان يصرفه عن مراشده في سالف أيّامه))[1], ويعكس هذا الجواب مدى ابتهاج أبي عبد الله الزواوي بتوبة شيخ القبيلة. وأيضا سئل أبو الفضل العقباني عن رجل من جبابرة العرب, وأهل المخالفة منهم, ثمّ ألهمه الله رشده[2].

وفي نازلة مشابهة سئل أبو القاسم البرزلي:((عن رجل من العرب, ومن متغلبيهم, عُرفت جماعته بالبغي والعدوان في بلاد المغرب, والتّغلب على الرعيّة...ثمّ تاب هذا الرّجل, واعتزل جماعته, وقصد حاضرة من بلاد المغرب, فاستفتى من يقلّد بها من أهل العلم والدّين, فأمره بالخروج عمّا بيده من المال, وتفريقه لاستغراق ذمّته))[3].

وها هو ابن مرزوق يعقد بابا يبين فيه مسائل تتعلق بتوبة الظلمة, وكيف يمكنهم التصرف في أموالهم, ممّا يدل على إقدام الكثير من شيوخ القبائل على التوبة[4].

وإذا كان هذا هو المسلك العام الذي نحاه شيوخ القبائل العربية مع رجال التصوف, فإنّ متصوّفة آخرين قد تعرّضوا لأذى بعض العرب على غرار ما تعرض له محمد بن عمر الهواري[5] من مضايقات[1], والحسن أبركان[2], وأحمد بن يوسف الملياني من إذاية[3].

---

[1]- الدّرر المكنونة, تحقيق: مختار حساني, 131/3.

[2]- المصدر نفسه, 138/3.

[3]- المصدر نفسه, 3/ 142-145.

[4]- ابن قنفذ القسنطيني, أنس الفقير وعزّ الحقير, نشره محمّد الفاسي وأدولف فور, الرّباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي, 1965م, صص110-116.

[5]- محمّد بن عمر الهواري, ولد سنة 751 هـ, وتوفي سنة 843هـ, من أعلام مدينة وهران, ورجال التصوّف بها , نسجت حول شخصيّته الأساطير, وأضيفت إلى جملة مناقبه دعاؤه على وهران. ينظر ابن صعد, روضة النّسرين في التّعريف بالأشياخ الأربعة المتأخّرين, تحقيق: يحي بوعزيز, ط1, الجزائر:منشورات ANEP, ص ص48-55 ؛

وفي أواخر العهد الزياني قام الفقهاء المتأثرون بالتعاليم الصوفية بجهود حثيثة في إصلاح شيوخ القبائل العربية, ما نجم عنه إقبال القبائل العربية على التصوف, وتهذّب طباع الكثير منهم, وظهرت القبائل الدينية[4]. التي انصهرت فيها كثير من القبائل العربية والبربرية, لتشكل قبائل مختلطة, تجمعها طريقة واحدة, كما هو شأن قبائل السنيّة والجنّادة والشابيّة[5]. وأصبح شيوخ القبائل العربية يحتكمون إلى رجال التصوف وشيوخ الطريقة لفضّ نزاعاتهم, كأولاد طلحة بترارة الذين احتكموا إلى عبد الرحمن بن عبد الله اليعقوبي من أولاد يعقوب بن طلحة,

---

عبدالقادر بوباية, الشّيخ محمّد بن عمر الهواري من خلال كتاب روضة النّسرين لابن صعد التّلمساني, جامعة وهران: مجلّة الحضارة الإسلامية, عدد14, شعبان ,2010/1431م, ص ص133-142.

[1]- بن عودة المزاري, طلوع سعد السّعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا, تحقيق :يحي بوعزيز, ط1, بيروت:دار الغرب الإسلامي, 1990, 1/69-75.

[2]- الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعيد المزيلي الرّاشدي أبو علي الشهر بأبركان الشّيخ الفقيه العالم العلم الولي الصّالح القطب الغوث الشّهير الكبير أخذ عن الحفيد ابن مرزوق والحافظ التنسي و الإمام السنوسي, كان لا يخاف في الله لومة لائم, وكان له قبول عظيم من العامّة والخاصّة, ت857هـ. ينظر :ابن صعد, المصدر السابق, ص125؛ أحمد بابا التمبكتي, نيل الإبتهاج بتطريز الدّيباج, تحقيق بإشراف عبد الحميد عبد الله الهرامة,ط1, طرابلس:منشورات كليّة الدّعوة الإسلاميّة, 1989م, صص161-162.

[3]- ذكر الصبّاغ أنّ أحمد بن يوسف الملياني عرض له أعراب سويد أرادوا أن يتعرّضوا لأحمد بن يوسف الملياني, فأمسك حجرين صلدين أملسين في يديه وقال للأعراب الذين أضمروا له الخديعة والسّوء , انظروا لهذين الحجرين, فحكّهما فصارتا ترابا كالدّقيق المغربل فنفخ فيه الشّيخ والأعراب ينظرون فقال هكذا يفعل بكلّ من أضمر لنا سوءا. ينظر: محمّد بن محمّد الصبّاغ, بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار, مخطوط رقم1708, الجزائر: المكتبة الوطنيّة, ورقة: 20-21.

[4]–القبيلة الدّينيّة ويطلق عليها القبيلة الزّاوية, وعادة ما تتراوح نشاطاتها بين القيام بالشّعائر الدّينيّة في المنطقة, والقيام بأعمال الكتابة والتّعليم والعدالة. ينظر: محمّد بوطالب, المرجع السابق, ص113؛ محمود بو عياد, جوانب من الحياة في المغرب الأوسط, في القرن التّاسع الهجري(9هـ/15م), الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع, 1982م, صص49-52.

[5]– تكوّنت الشابيّة بعد تأثّر أحد أفراد الحنانشة بأفكار أحمد بن مخلوف من الشابيّة, والذي سانده محمّد الرصّاع, وأثنى على طريقته, وتوفي أحمد ابن مخلوف سنة 887 هـ/ 1482 م, فخلفه ابنه محمّد, حاول الشابيّة الاستقلال السياسي عقب تفكّك الدّولة الحفصيّة, ولعب الشابيّة دورا كبيرا في كثير من الأحداث السياسيّة بتونس, والأقاليم الشرقيّة للمغرب الأوسط.ينظر: محمّد بن محمّد العدواني, تاريخ العدواني, تحقيق: أبو القاسم سعد الله, ط1, بيروت:دار الغرب الإسلامي, 1996 م, ص173؛ روبار برنشفيك , المرجع السابق, 2/367.

والذي يعتبر من رجال التصوف, وقد سعى إلى الصلح بين أولاد طلحة , بل وتمكّن من أن يحوّل أولاد طلحة إلى طاعة العثمانيين, لاسيما بعد أن توطدت علاقته بين حسن بن خير الدين, والتي بلغت إلى حد المشورة[1].

أمّا حين تقوم هذه القبائل بقتال السلاطين, فنلاحظ أنّ رجال التصوف وكذا الفقهاء كانوا يعتزلونهم, ولا يؤيدونهم, ويفتون النّاس بوجود اعتزالهم[2], مما اضطر هذه القبائل إلى الاستنجاد بأطراف أخرى, كعرب الصحراء الساكنين بالقصور, وهم العرب الذين يصفهم صاحب كتاب مجموع الحسب والنسب بقوله:((أشراف غريس كانوا لا يعتقدون بأهل الصحراء ولا يعتدونهم ولا يرون لهم فضلا بل كانوا لا يعدونهم من جنس الآدمي لغباوتهم وجهلهم وعدم معرفتهم بأحكام الشريعة, ووقوفهم على أصولهم وتمكنهم في البداوة, ومن كان هذا وصفه فهو والبهيمة سواء[3])).

- طبيعة حكم شيخ القبيلة:

قد يعدّ إطلاق بعض الأوصاف المعاصرة على ظاهرة أو مظهر من مظاهر العصر الوسيط من الخطأ بمكان, ومن ذلك محاولة تصنيف طريقة إدارة شيخ القبيلة لقبيلته ضمن التصنيفات الحديثة, مع إهمال الفوارق الجوهرية, لا سيما الفوارق الزمانية والمكانية, وحتى الذهنية التي لم تكن تستوعب مثل هذه التصنيفات المعاصرة, التي يسهل علينا تصورها الآن. لذلك نجد أن بعض الدّراسات الكولونيالية, قد أدرجت طبيعة إدارة الشيخ لأمور القبيلة ضمن خانة الحكم الملكي الدكتاتوري الجبري[4], وفي الحقيقة أنّ هؤلاء قد خانتهم العبارة, وأقصروا في وصف وتحديد ماهية هذا النظام الفريد.

---

[1]- محمّد بن مريم التلمساني, البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان, الجزائر: المطبعة الوطنية للفنون المطبعية, 2009م, ص157.

[2]- بلهاشمي بن بكارة, المصدر السابق, صص347-349.

[3]- المصدر نفسه, صص347-349.

[4]- محمّد نجيب بوطالب, المرجع السابق, ص108.

وحتى نفهم طبيعة هذا النظام, علينا أن نستحضر دائما وظيفة الأب داخل الأسرة[1], فالشيخ يُسيِّر قبيلته بتلك الطريقة الساذجة والبسيطة والصريحة, التي تقوم على مصلحة القبيلة, فشيوخ القبائل لم يكونوا ينفردون باتخاذ القرارات إلا في الحالات الحرجة التي تتطلب سُرعةً في الحسم واتخاذ القرار.

و في الغالب كان للشيخ أعوانٌ ومستشارون من رؤساء الفروع الأخرى للقبيلة[2] تابعون لهم, و يلقَّبون حسب المصطلح الخلدوني بالأرداف. فمثلا شيخ بني حميد من بني عامر, كانت له سلطة ورئاسة في بني حميد, ومع ذلك فإنّه كان رديفا لداود بن هلال بن عطاف شيخ بني يعقوب من بني عامر[3], ومثله رئاسة أولاد علي بن شبل من الذواودة كانت في أولاد يوسف بن سليمان بن علي بن سباع, في حين كان يرادفهم أولاد يحيى بن علي بن سباع[4]. وكانت تعقد مجالس تتخذ فيها القرارات, وهو ما استمر إلى أيام الوجود الفرنسي, وقد مثل لذلك محمد نجيب بوطالب بمجلس الميعاد في القبيلة التونسية[5].

- قوانين القبيلة:

يجدر الإشارة إلى أنّ بعض الكتابات زعمت أن القبائل العربية كانت لا تحتكم إلى قوانين, ولا إلى نظم, لأنهم أمة وحشية كما كان يحلو لعبد الرحمن بن خلدون أن يصفهم به[6], ولعل ما جاء في كتابات ابن خلدون من خلال المقدمة, وما خلّفته لنا المصادر التاريخية, من أخبار عن الغزو الهلالي لبلاد أفريقية, كل ذلك دفع بعض الباحثين إلى تجريد القبيلة العربية من أهم عامل للتجمع, وهو القوانين والنظم التي تحل بها الخصومات وتحدد المسؤوليات والحقوق والواجبات.

---

[1]- ترى نظرية "**تطور السلطة**" والتي من أشهر رموزها الفيلسوف أرسطو و بيرنارث شانتبو 'B. Chantabout أنّ السّلطة الأبوية هي المصدر الأساسي للدّولة والسّلطة, وأنّ هذه الأخيرة ما هي إلا أسرة تطوّرت ونمت بشكل تدريجي. نادية بن أحمد, المرجع السابق, ص25.

[2]- لوسيت فالنسي, المصدر السابق, ص42.

[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 68/6.

[4]-المصدر نفسه, 47/6.

[5]- محمّد نجيب بوطالب, المرجع السابق, ص108.

[6]-المصدر السابق, 181/1.

وبديهة العقل ومشهور العادة يمنعان وجود تجمُّع بلا ضابط يضبطه, بغض النظر عن هذا الضابط وعن تسميته. لذلك فإن القبائل العربية وإن لم تكن تحتكم إلى قوانين شبيهة لقوانين الدّولة من حيث الشكل والمضمون, فإنّها كانت تحتكم إلى مجموعة عوائد وعادات وأعراف ورثوها عن آبائهم, فرضتها طبيعة عيشهم وأسلوب حياتهم.

كانت أعراف القبائل بمثابة القوانين الملزمة, والتي ينشأ عليها الصغير ويهرم عليها الكبير, حيث تستحكم في الأفراد وتصبح جبلة ينقاد إليها الفرد طائعا مختارا. فما تعارفت عليه القبيلة هو قانون مقدس لا يمكن تخطيه ولا مخالفته، لأنّ البداوة ليست موطنا لحريةٍ لا حدّ لها، وفوضى لا يَرْدَعُها رادع، بل إن أبناء القبيلة العربية يخضعون لعرفهم القبلي خضوعًا صارمًا شديدًا، وكل من يخرج عن ذلك العرف يطرد من أهله ويتبرأ قومُه منه، ويضطر أن يعيش "طريدًا" أو "صعلوكًا" مع بقية "الصعاليك[1]".

وقد اعترف الفقهاء بهذا الواقع, لذلك نجد أن كتب النوازل كثيرا ما تصف النّازلة بأنّها مما جرت به العادة في الأرياف[2]. وحتى ابن خلدون أثبت للقبائل العربية عوائد مستحكمة فيهم حيث قال: ((والسّبب في ذلك أنّهم أمّة وحشيّة باستحكام عوائد التّوحّش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلّة...))[3], ورغم أنه راح يعدد بعض مظاهر بداوتهم التي دفعتهم إلى الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسّياسة ومناقضة العمران, بقوله: ((فالحجر مثلا إنّما حاجتهم إليه لنصبه أثافيّ القدر فينقلونه من المباني ويخرّبونها عليه ويعدّونه لذلك والخشب أيضا إنّما حاجتهم إليه ليُعمِّدوا به خيامهم ويتّخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخرّبون السّقف عليه)) [4], فإن مجرد اتفاقهم على مناقضة العمران, وتخريب السقف, يعدّ قانونا للقبيلة تحتكم إليه, ولعله يشبه ما عرف عند الفقهاء بالإجماع السكوتي, إذ أن أفراد القبيلة مجمعون على بعض النظم والتقاليد .

---

[11]- الصّعاليك في اللغة جمع صعلوك وهو الفقير الذي لا مال له, أما في الاصطلاح الأدبي فهم المشاغبون أبناء الليل, الذين طردتهم القبيلة بسبب خروجهم عن أعرافها, حيث يكون هؤلاء الصعاليك جماعة أشرار يقطعون الطريق ويغيرون على القبائل وينتهبون الأموال, ويفرون إذا تفطن لهم أهل القرى. محمّد رضا مروة, المرجع السّابق, ص29.

[2]- محمّد بن حسن, المرجع السابق, ص34.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 1/187-188.

[4]- المصدر نفسه, 1/187-188.

وسبب عدم تدوين القبائل العربيّة لعوائدهم, هو كونهم كانوا متّفقن على هذه العوائد فلم يحتاجوا إلى توثيقها, إضافة إلى كونهم كانوا يعيشون على هامش الدّولة أكثر ممّا كانوا يعيشون في إطارها, ولم يحظوا بنخبة مثقّفة[1], لذلك لم تحظ عاداتهم بكتابات توثيقية يمكن أن نستمدّ منها معلومات حول نظام حكم هذه القبائل وأعرافها, وهو ما يفتح الباب أمام التخمينات, والافتراضات, والمقاربات[2].

ولعلّ منهج المقاربة[3] في مسألة "نظام حكم القبائل العربية في المغرب الأوسط" لا يُعدّ مجازفة ولا حيدةً عن منهج البحث العلمي, باعتبار غياب فوارق جوهرية بين طرفي المقاربة, وأقصد بهما نظام عيش القبائل الهلالية في العهد الزياني ونظام عيش القبائل الهلالية قبل وبعد العهد الزياني. وسبب غياب هذه الفوارق هو ما يعرفه النظام الهلالي من تشبث بتقليد طريقة وعوائد الأسلاف, بحيث يرى العربي أن الخروج عليها يعدّ ردّة عن نظام القبيلة.

وباعتماد هذا المنهج يمكننا أن نستنبط بعض القوانين العامّة التي كان يحكم بها شيخ القبيلة, فالقبيلة العربية تعارفت مثلا على أن الرحلة ضرورة من ضروريات الوجود والاستمرار[4], وأن انتهاب ما في أيدي النّاس, دليل على عزتهم, وأنّ الرزق محصور في ظلال الرماح, وعلى فرض العقوبات في الأموال حرصا على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها[5]. وعدم الاكتراث لظلم ابن قبيلتهم لغيره, وأخذهم بالثأر وغيرها من الأعراف والتقاليد وأيضا يعتبر وفاءُهم للحليف, وتعظيمهم للحلف وللجوار من الأعراف التي كانت تقر بها القبيلة[6].

وبهذا نستنتج أنّ شيخ القبيلة كانت تربطه علاقات كثيرة, أهمّها علاقته بالسلاطين والرعيّة والسّلطة الدينية. فكانت علاقتهم بالسلاطين تختلف بحسب ضعف السلاطين أو شيوخ القبائل وقوّتهم, وفي حالة اضطراب هذه العلاقة كانت النتيجة هي اهتراء السلطة المركزية أو طرد القبيلة واضعافها.

---

[1]-روبار برنشفيك, المرجع السابق, 100/2.

[2]-المرجع نفسه, 100/2.

[3]- بين جدوى استعمال هذا المنهج, محمّد نجيب بوطالب في كتابه سوسيولوجية القبيلة, صص26-27.

[4]- ابن عابد, المصدر السّابق, ص29.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 187/1-188.

[6]- ابن عابد, المصدر السابق, ص26.

أمّا الرعيةّ فكان شيخ القبيلة يعامل أبناء قبيلته خصوصا من أبناء بيت الرئاسة والبيوت المسامية له على أنّهم شركاء, أمّا الرعيّة من غير أبناء القبيلة فكان يتعامل معهم بشدّة, ويستخدمهم لمصلحة القبيلة. أمّا الفقهاء والمتصوّفة, فكان شيوخ القبائل يحترمونهم, ويقبلون وساطاتهم, لكنّهم لم يكونوا يخضعون للقضاة كثيرا, فيما كانت تظهر منهم بعض الإذاية للفقهاء والمتصوفة المحتسبين. وكان شيخ القبيلة يسيّر قبيلته بالتشاور مع أردافه من أبناء البيوت المسامية له في الزعامة, ولم يكن ينفرد دونهم بالقرارات, بينما كان يسعى إلى حفظ النظام العام, ويحترم أعراف القبيلة ويجعلها أساس تسيير قبيلته.

المبحث الثّالث: شيوخ القبائل والأدوار السياسية

عرف المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خلال العهد الزياني مرحلة اضطراب سياسي خطير, وقد مكّنت الزعامة التي اتّصف بها شيوخ القبائل في المجالات التي تغلبوا عليها, من الاضطلاع بمهام وأدوار متنوّعة, كان لها تأثير على الحياة السياسية, وسنتعرّض لأبرز الأدوار التي مارسها شيوخ القبائل العربيّة.

- استقبال خصوم السلاطين:

كانت الأرياف والقرى الواقعة في مجالات العرب, إحدى البؤر التي أرقت كثيرا السلاطين, بعدما تحولت إلى ملجئ يقصده الفارّون من السلاطين, والخائفون من بطشهم, أو الراغبون في منازعتهم, وكان هؤلاء الفارون إما سلاطين أو أمراء أو ولّاة.

فمفازات الأعراب المتاخمة لمملكة تلمسان ظلت ملاذا آمنا يقصده سلاطين بني زيان, أثناء اقتحام المرينيين والحفصيين مدينة تلمسان, ومنها كان الزيانيّون يعيدون تجميع صفوفهم واسترجاع ملكهم[1].

ومن المجالات التي أرّقت كثيرا الزيانيين, مجالات المعقل وبني عامر وسويد, فيوسف بن الزابية[2] الذي خرج على أيام أبي زيان سنة 796هـ/1394م ., قد اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان و الإجلاب عليها، مما اضطرّ أبا زيان إلى بذل المال لبني عامر, فأجابوه إلى ذلك، وأسلموه إلى ثقات أبي زيّان[3]. وساروا به فاعترضتهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم، فبادروا بقتله، وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيّان[4].

[1]– حسن الوزان, المصدر السّابق, 8/2.

[2]– أبو الحجاج يوسف بن أبي حمو موسى المعروف بابن الزابية, تولى الحكم سنة 795هـ/1393م إلى أن قتل سنة 769هـ/1394م. التنسي, المصدر السابق, ص209.

[3]– أبو زيان محمد بن أبي حمو, تولى سنة 796هـ/1394م إلى سنة 801هـ/1399م. المصدر نفسه, ص210.

[4]– عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 483/7.

وحين خرج أبو زيان بن أبي سعيد[1] منازعا لابن عمّه أبي حمو موسى الثاني بتحريض من أبي سالم المريني[2], صادف ذلك نفرة بين أبي حمو وبني عامر وأولاد حسين من قبائل المعقل, فاستجار بهم فأجاروه. إلى أن قام أبو حمو بملاطفة خالد بن عامر وبذل له المال, على أن يطرده إلى بلاد رياح.[3], واستقر عند الذواودة إلى أن دعاه أبو الليل بن موسى شيخ بني يزيد وصاحب وطن حمزة وبني حسن وما لمنازعة أبي حمو 765هـ.[4]

ونفس الشيء فعله الأمراء الحفصيّون الطّامحون إلى الحكم, فأبو زكريا ابن المولى أبي إسحاق بن أبي حفص حين فرّ خوفا من شيعة الدعي أبي عمارة, لحق بتلمسان عند عثمان بن يغمراسن. غير أن هلاك الدعي بن عمارة, واستقلال عمه الأمير أبو حفص بالخلافة، جعله يرغب في العودة إلى تونس سلطانا, بعد أن دسّ إليه الكثير من أهل بجاية يستحثونه للقدوم، ففاوض عثمان بن يغمراسن, ولكنّه اصطدم برفض يغمراسن, لذلك بادر إلى الفرار من تلمسان, و لحق بأحياء زغبة في مجالاتهم بالقفر، ونزل على داود بن هلال بن عطاف, من أحياء زغبة التي انطلقت جموعها بصحبته, و مكّنته من دخول بجاية[5].

واستغل شيوخ العرب الفوضى السياسية بتونس, وقاموا بفرض سلطان موال لهم, حيث استقبلت بعض أحيائهم أبو ضربة وأجلبوا به على الحضرة سنة 751هـ/1350م فملكها ستة أشهر[6].

وكان على من يلجأ إلى شيوخ العرب أن يتوخى الحذر منهم لكثرة غدرهم, فقد غدرت بعض أحياء العرب بالأمير أبي فارس أخي السلطان أبي بكر سنة 727هـ/1327م، وذلك

---

[1]- أبو زيان بن أبي سعيد هو غير أبي زيان محمد بن عثمان بن السلطان أبي تاشفين الذي ولّاه السلطان أبو سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة بعد أن دخل تلمسان, بعد أن طرد عنها أبا حمو, والذي كان يعرف بالفنز ومعناه العظيم الرأس. المصدر نفسه, 168/7.

[2]-أبو سالم المريني: تولى سنة 760هـ, وقتل سنة 762هـ. المصدر نفسه, 404/7-416.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 168/7.

[4]- المصدر نفسه, 168/7.

[5]- المصدر نفسه, 125/7.

[6]- المصدر نفسه, 496/6.

حين أنزلوه عندهم ثمّ طيّروا بالخبر إلى السلطان أبي بكر, ، فصبحه الجيش الحفصي بذلك الحيّ وأحاطوا به, فقاتلهم إلى أن تمّ قتله, ونقلت جثته إلى الحضرة[1].

وبسبب مثيلات هذه الحوادث, أصبح الفارون يتركون القبيلة المجيرة عندما يشتمون رائحة الغدر, فيلاحظ أنّ السلطان أبو عبد الله قبل أن يملك بجاية سنة 765هـ/1364م, كان قد قدم من المغرب وخرج إلى أحياء العرب من أولاد يحيى بن علي بن سبّاع فأقام بين ظهرانيهم وفي حللهم، حيث تكفل أولاد يحيى بنفقة عياله ومؤنة حشمه, وبقي معهم بالمسيلة وأنزلوه , وتركوا له أمر جبايتها, بيد أنّهم وبعد أن مكث عندهم خمس سنين, تحوّل عنهم إلى أولاد علي بن أحمد، ونزل على يعقوب بن عليّ الذي مكّنه من دخول بجاية سنة 765هـ/1364م[2].

ولم يقتصر قصد مجالات العرب على الأمراء, بل حتى العمال وحكام المدن الشبه مستقلة كتقرت[3] وبسكرة وقابس, ومن ذلك فرار عبد الملك بن مكي بعد خروجه من قابس, واستقراره بين أحياء العرب, وذلك بعد أن استرجع أبو العباس الحفصي قابس سنة 781هـ/ 1379م[4].

ولم يكن السلاطين ليغفروا لشيوخ العرب مثل هذه الأعمال, ولذلك بادروا إلى الانتقام منهم كلّما سنحت لهم الفرصة, فالمستنصر الحفصي قام بقتل مشيخة الذواودة بعد أن بايعوا أبا إسحاق أخاه والقاسم بن أبي زيد بن أبي حفص الفازع إليهم لطلب الخروج على الدولة[5], وكذلك قتل أبو حمو شيخَ الثعالبة سالم بن ابراهيم بن سباع[6].

وتجاوز دور شيوخ القبائل العربية مسألة إيواء المشاغبين, وامتدّ إلى درجة إذكاء نار الصراع بين سلاطين دول المغرب الثلاث, فالذووادة مثلا تحالفوا كثيرا مع الزيانيين نكاية في

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 496/6.

[2]- المصدر نفسه, 547/6.

[3]- تقرت: مدينة قديمة بناها النوميديون على جبل في شكل نتوء, يمر في سفحها نهر صغير يقطعه جسر متحرك ..تقع هذه المدينة على بعد ثلاثمائة ميل جنوب البحر المتوسط. حسن الوزان, المصدر السابق, 135/2.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 567/6.

[5]- المصدر نفسه, 46/6.

[6]- المصدر نفسه, 185/7.

الحفصيين وفي المرينيين أيام أبي الحسن وابنه أبي عنان, ونُلاحظُ أنّ قبائل رياح قد أعانت أبا حمو في استعادة أملاك الدولة الزيانية من المرينيين بعد وفاة أبي عنان, أمّا آل عريف فقد حشدوا قبائل حصين وسويد ضدّ الزيانيين, وهو ما أنهى حكم الزيانيين في مناسبتين متكررتين, وكذلك حاول خالد بن عامر أن ينتقم من أبي حمو موسى الثاني بالتحالف مع المرينيين, غير أن تماطل المرينيين جعله يعاود طاعة الزيانيين.

أما قبيلة المنبات من ذوي حسان المعقلية فساهمت في تطاول الزيانيين على المرينيين في عدّة مناسبات[1]. ونفس الشيء قامت به القبائل المجاورة للحفصيين, ففي سنة 729هـ, قام حمزة بن عمر بن أبي الليل بتحريض أبي تاشفين على غزو بجاية, ووعده بنصرة الأعراب له, وهو ما دفع بأبي بكر الحفصي إلى الاستنجاد بالمرينيين[2].

وكان الزيانيون يستعينون بالقبائل المقيمة بجوار الحفصيين والمرينيين للتشغيب عليهم, فالسلطان أبو تاشفين حين كان يجلب على بني حفص, يخبب عليهم أولياءهم من العرب, و يبعث إلى جماعة السنيّة وهم من أتباع سعادة بالجوائز, وذلك رغبة في كسب ولائهم, واتخاذه لهم أعوانا, وكان يبعث للفقيه أبي الأزرق القائم بأمور الجماعة السنية, كلّ سنة جائزة معلومة[3].كما كان ملوك بني زيان يشترون طاعة شيوخ قبائل ذوي منصور وذوي حسان[4] المعقليين بسجلماسة للتشغيب على المرينيين.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 80/6.

[2]- المطوي, السّلطنة الحفصية, ص344.

[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 53/6.

[4]- كانت مواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة, فكان لهم من ملوية كلها الى سجلماسة وعلى درعة وعلى ما يحاذيها من التل مثل تازي وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمقدر. أمّا مواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط، وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة مستوفة ولمتونة.المصدر نفسه, 77/6.

- شيوخ القبائل و دورهم في تنصيب بعض السّلاطين:

بسبب ضعف السلطة المركزية في بلاد المغرب الأوسط[1], قام شيوخ القبائل بمحاولة ترشيح بعض الأمراء الرّاغبين في السلطنة, وذلك حسب أهوائهم.

فعقب استيلاء السّلطان أبي الحسن المريني على تلمسان ثمّ تونس, نصّب شيوخ العرب من الكعوب أحد أبناء البيت الحفصي لإعادة الدولة الحفصية, ونفس الدّور مارسه عرب بني عامر والذواودة بدعمهم وترشيحهم لأبي ثابت الزياني[2].

لقد بلغ النفوذ ببني عامر إلى الخروج عن أعراف الدولة الزيانية, فنصّبوا أبا حمو موسى الثاني, وهو التنصيب المصادم للتقليد المتوافق عليه, وقد تم بتخطيط بني عامر والتنسيق بينهم وبين الذواودة لتكتسي عملياتهم الشرعية[3], وعلى نفس المنوال سار سالم بن ابراهيم بن سباع شيخ الثعالبة, حين استدعى أبا زيان ونصبه بالجزائر سنة 779هـ/1377م[4].

فيما نجد أنّ ونزمار بن عريف قد دفعته عدواته لأبي حمو إلى تنصيب مطالبين بالحكم من البيت الزياني, بغية التشغيب على أبي حمو, واتّخذ من كرسيف قاعدة تعيين السلاطين الجدد[5].

وكانت هذه السياسة التي اتبعها شيوخ القبائل بمثابة استعراض عضلات أمام السّلاطين القائمين, فتجعلهم يكسبون إمّا سلطانا من صناعتهم, أو يعقدون صفقة مع السلطان القائم, ويتخلون بموجبها عن السلطان الذي قاموا بتنصيبه, مثل ما فعله بنو حصين حين دعموا بن زيان سنة 767هـ/1365م, فقام أبو حمو بالتفاوض معهم, فما كان منهم إلا أن تخلوا عن أبي زيان, وانتقل أبو زيان إلى الدواودة, ونالت حصين الحظوة, والجاه العظيم[6].

---

[1] - Mercier ,Histoire de l'Afrique septentrionale(berèrie)depuis les temps les plus reculés jusqu'a la conquête Française ,paris: Ernest Leroux èditeur, 1868,T2p381.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 156/7.

[3]- عبد الحميد حاجيات, المرجع السابق, ص90.

[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 85/6.

[5]- المصدر نفسه, 170/7.

[6]- المصدر نفسه, 64/6.

وفي حالة استتب الأمر للسلطان الذي قام شيوخ القبائل بدعمه وترشيحه فإنّه سيصبح محاصَرا بأهوائهم, ومُطالبًا بتلبية رغباتهم, فمثلا بنو عامر حين حالفوا أبا حمو, واستتبّ له الأمر, اشتطوا في المطالب, وتقلّص نتيجة ذلك ملك بني زيان, وبلغ الأمر في أواخر الزيانيين إلى أن تحوّل سلاطين بني زيان إلى دُمى في أيدي شيوخ العرب المحالفين لهم, وهما قبيلة بني عامر تحت إمرة عبد الرحمن بن رضوان, وقبيلة بني راشد. و صار ابن رضوان يتفاوض مع الاسبانيين بطريقة مباشرة, دون الرجوع إلى رأي السلطان الزياني.

و نشير إلى أنّه من أعظم أخطاء الزيانيين والحفصيين, استعانتهم بشيوخ القبائل قصد الجلوس على كرسي السلطنة, إذ تحول هؤلاء السلاطين إلى لعبة في أيدي شيوخ القبائل, وفي الوقت الذي تزايد نفوذ هؤلاء الشيوخ, تلاشت هيبة السلاطين الحفصيين والزيانيين, وكثرت ضدّهم الثورات والاضطرابات, لتتقلّص الأراضي المخزنية, وأصبح المغرب الأوسط يسيّر وفق أهواء شيوخ العرب, ممّا جعل نظام الحكم يكتسي طابعا بدويا ساذجا.

- شيوخ العرب والتكليفات السّلطانيّة:

تعدّ الوظائف السّلطانية من الوظائف التي لا تسند إلا لأرباب القلم, الذين لهم باع في الفقه ويتقنون اللسان العربي كلاما وكتابة, ومعلوم أنّ شيوخ القبائل كانوا أميّين, وبعيدين كل البعد عن المعارف والعلوم, كما أنهم كانوا يأنفون من الوظائف, ويرونها من سمات العبيد. ومع ذلك فقد مارس شيوخ القبائل بعض المهام, بطريقة عفوية من غير تعيين, معتمدين في ذلك على خبرتهم وقربهم من السّلاطين, ومعرفتهم بخبايا القصور السلطانية, ومتمتعين بنفوذهم وجاههم. ومن تلك المهام التي اضطلع بها هؤلاء الشيوخ نذكر.

أ- الوساطة لدى السلاطين:

تندرج الوساطة ضمن الشفاعة الحسنة, التي تفضّ الخصومة بين المتشاحنين, بطلب من أحدهم, وقد كان كثير من المطالبين بالملك أو العمال الراغبين في الاستقلال, أو العمال الفارين من غضب السلاطين, يلجؤون إلى شيوخ القبائل, ويطلبون وساطتهم, وشفاعتهم لهم عند السلاطين, حتّى يتمّ العفو عنهم.

وكان شيوخ القبائل عندما يقصدهم أمثال هؤلاء, يجعلهم العجب وحبّ الفخر, إلى السعي لاثبات أنّهم عند حسن الظنّ فيبذلون قصارى جهدهم ليقبل السلاطين شفاعتهم ووساطتهم, كما كان السلاطين أمام إلحاح شيوخ القبائل كثيرا ما يقبلون هذه الوساطات, ويبادرون إلى العفو عن الجناة والمخطئين في حقّهم, سعيا لعدم اخفار ذمّتهم. ومن تلك الوساطات ما قام به ونزمار بن عريف مع عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره ابن ماسي عند السلطان أبي حمو الثاني، ممّا جعل السلطان أبا حمو يسمح لهما بالإجازة إلى الأندلس 767هـ[1].

ب- السفارة للسّلاطين:

من المهام التي أسندت لشيوخ القبائل, مهمة السفارة إلى السلاطين والعمال وشيوخ القبائل العربية والبربرية. وكان شيوخ القبائل يؤدون مهمة السفارة بكفاءة ونجاح, لاسيما أثناء فساد المسالك وتردي الأوضاع الأمنية, وانتشار الفوضى, فإنّ شيوخ القبائل كانوا هم الأقدر على ممارسة هذه المهمة بكل أريحية, بسبب قوتهم, وقدرتهم على مواجهة الأخطار.

ومن أولئك الشيوخ الذين كثرت سفاراتهم نجد شيخ سويد عريف وابنه ونزمار بن عريف, فعريف كلّفه السلطان أبو الحسن بخطبة إحدى بنات السلطان الحفي أبي بكر, وقال ابن خلدون عند تطرّقه لهذه السّفارة المتعلّقة بأمور خاصّة, ذات بعدٍ دبلوماسي, :((أصهر إلى السلطان أبي بكر قبيل مهلكه في إحدى كرائمه، وأوفد عليه في ذلك عريف بن يحيى كبير بني سويد من زغبة وصاحب شواره وخالصة سرّه[2])), وضمّ الوفد المرافق رجالات من بني مرين من فقهاء وكتاب وموالي, كان فيهم صاحب الفتيا أبو عبد الله السطي وكاتب الدولة المرينية أبو الفضل عبد الله بن أبي مدين وأمير الحرم عنبر الخصيّ و وتمّت السفرية بنجاح, وعُقد للسلطان أبي على حظية أبي بكر الحفصي عزونة شقيقة ولي العهد الفضل بن أبي بكر[3].

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 427/7.

[2]- المصدر نفسه, 522/6.

[3]- المصدر نفسه, 522/6.

وممّن قام بالسّفارة لمصلحة السلاطين, ونزمار بن عريف بن يحيى الذي سعى في آخر أيّامه إلى الصلح بين بني مرين و أبي حمو. ومن ذلك قيامه بجلب هدية من أبي سالم المريني إلى أبي حمو موسى الثاني سنة 762هـ/1361م, وقد احتفى أبو حمو بمجيئهما, وهيّأ لهما دار كرامة تليق بهما, وأكرمهما أجمل إكرام[1]. ثمّ كانت سفارته الثانية في نفس السنة بعد أن تمكن أبو حمو من استعادة وهران وطرد المرينيين, وقد أسفرت هذه السفارة عن حقن لكثير من الدماء, و قام أبو حمو باطلاق سراح الأسرى, وأخذ مدينة الجزائر صلحا[2]. وتلتها سفرة أخرى سنة 763هـ, القصد منها توطيد الصلح, وتوثيق الشروط[3].

و كان شيوخ الذواوذة والكعوب سفراء لسلاطين بني حفص إلى الزيانيين, أمّا شيوخ بني عامر فتكفّلوا بالسفارة لبني زيان إلى شيوخ العرب الذواودة وبعض بطون حصين. وعندما حاصر يوسف بن يعقوب المريني تلمسان, كان داود بن هلال مستقرا بالأرض التي أقطعه إياها يغمراسن بن زيان, وهي كدارة وطنا من بلاد حمزة، فوفد داود على يوسف المريني ساعيا إلى توطيد صلته به, وحمل معه رسالة من صاحب بجاية, وقد دفع داود بن هلال حياته ثمنا لهذه المهمة، إذ أنّه بعد أن قفل من وفادته بعث يوسف بن يعقوب المريني في أثره خيالة من زناتة بيتوه ببني يبقى في سدّ وقتلوه[4].

ت- الإشارة على السلاطين:

قام شيوخ القبائل في بلاد المغرب الأوسط بمهمّة الإشارة بسبب وثوق السلاطين في حنكتهم وتجربتهم, وتعويلهم عليهم, فمجالس الزيانيين كانت عامرة بشيوخ بني عامر والمعقل, لاسيما أيام الأزمات, كما حفلت مجالس المرينيين بشيوخ سويد والخلط وجشم وسفيان من العرب, أمّا الحفصيين فكانت مجالسهم تضمّ مشايخ الكعوب و الذواودة. وفي عهد أبي العباس الفضل الذي بويع سنة 750هـ/1350م, احتوت العرب على دولته, وشاركته في الديوان,

---

[1]- زهرة البستان, ص135.
[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, ص145.
[3]- المصدر نفسه, ص183.
[4]- المصدر نفسه, 69/6.

وجباية الماشية, والطعام, وزوج أخته لأبي الليل بن حمزة,حتى أن ابن الشماع قال:((ولم يسبقه أحمد من الملوك إلى ذلك[1])).

ومن الرجالات الذين اعتمد عليهم السّلطان أبو الحسن المريني وابنه أبو عنان, الشيخ عريف وابنه ونزمار بن عريف والذي كان صاحب شواره, وصاحب سرّه, كما كان عبد الله بن عسكر بن معروف رديف خالد بن عامر صاحب سرّ أبي حمّو[2].

ث- التفاوض باسم السلاطين:

كانت الدولة الزيانية وكذا الدّولة الحفصيّة حين تشهدان حالات مزمنة من الضعف تتقوّيّان بالقبائل الحليفة, وكان شيوخ هذه القبائل يتفاوضون باسم سلاطينها عند تأزم الصراع بين الزيانيين وجيرانهم من الحفصيين والمرينيين, أو عند طلب الدعم العسكري الحفصي أو المريني لتنصيب سلطان موال للقبيلة, وهذا التفاوض يجب أن تتوافق نتائجه وقراراته مع طموح الشيوخ ومصلحة قبائلهم, حتى يتوطّ نفوذهم, وتتنامى سلطتهم.

- شيوخ القبائل ومصاهرة السّلاطين:

يعتبر الزواج ببنات السّلاطين من المزايا التي لا تتحصّل إلا للقلّة القليلة من المسامين لبيت السّلطنة من سلاطين أو أمراء أو رجال دولة نافذين, كما أنّ السّلاطين لم يكونوا يتزوّجون إلا من بنات البيوت المرموقة.

وقد تبوّأ شيوخ العرب مكانة سامقة في ظلّ تقهقر السّلطة المركزيّة ببلاد المغرب الإسلامي, حتّى نالوا شرف مصاهرة السّلاطين, وهو الأمر الذي كانت بداياته منذ بدايات دخول القبائل العربية أرض إفريقية, حيث زوّج المعزّ بن باديس بناته إلى زعماء العرب من قبيلة مرداس الرياحيّة, وهم فارس بن أبي الغيث وأخوه عائذ، والفضل بن أبي علي, فأصبحوا له أصهارا[3], ويقول التيجاني عن ذلك: ((فزفّ إلى زعمائهم بنات كنّ نجوم الليالي, وأماني

[1]- ابن الشماع, المصدر السابق, ص100.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 439/7.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 22/6؛ ابن عاذرى, المصدر السابق, 297/1.

المغالي, فأصبحوا له أصهارا[1])), كما صاهر المعزّ شيخ قبيلة صنبر مؤنس بن يحيى ، وهو ما جعله يحظى بحمايته, فأمّن له الطريق إلى المهديّة[2].

وفي بدايات الدّولة المرينيّة, تمكّن الخلط من أن ينالوا شرف مصاهرة بني مرين, أيّام رئاسة شيخهم مهلهل بن يحيى. حيث زوّج ابنته للسّلطان يعقوب بن عبد الحق , وكان من نسلها ابنه السّلطان أبو سعيد[3]. ويبدوا أنّ السّلطان أبا سعيد كان يميل كثيرا لأخواله من العرب, حيث بادر إلى الزواج من ابنة شيخ بني عامر؛ عامر بن إبراهيم، وكان عامر هذا قد نزل المغرب قبل عريف بن يحيى, وتحصّل عامر بن ابراهيم بسبب هذه المصاهرة على مال كبير[4] .

و قام أبو العباس الفضل الذي بويع سنة 750هـ/1350م بتزويج أخته لأبي الليل قتيبة بن حمزة في سابقة خطيرة لم يفعلها أحد من سلاطين بني حفص, وهو ما جعل ابن الشماع يقول متأسفا: ((ولم يسبقه أحد من الملوك إلى ذلك)), وعلّل ابن الشماع فعلته هذه لكونه رجى أن يطول ملكه[5]؛ غير أنّ الصّلح الذي أبرم بين أبي محمّد بن تافراجين, وشيخ العرب عمر بن حمزة سنة 750 هـ أثناء تأديتهما لشعيرة الحجّ جعلت قتيبة بن حمزة يساهم في إنهاء حكم أبي العباس الفضل الحفصي سنة751هـ.
وحين أراد أبو الحسن أن يعود من تونس إلى المغرب, على إثر سماعه بخروج ابنه أبي عنان عليه, ترك ابنه أبا الفضل, وعقد له على تونس, وزوّجه من ابنة عمر بن حمزة بن أبي الليل, ونفعت هذه المصاهرة الفضل بن أبي الحسن, فحين دخل أبو العباس الفضل الحفصي تونس, وقامت العامة بمحاصرة الفضل بن أبي الحسن, ورجموه بالحجارة. أرسل الفضل ابن

[1]- الرحلة, ص18.
[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 211/6.
[3]- المصدر نفسه, 41/6.
[4]- المصدر نفسه, 69/6
[5]- ابن الشمّاع, المصدر السابق, ص100.

أبي الحسن إلى بني حمزة مناشدا إياهم حق المصاهرة, فدخل عليه أبو الليل وأخرجه ومن معه إلى الحيّ واستركب له من رجالات بني كعب من أبلغه مأمنه[1].

وبعد أن اشتدّ ضعف الزيانيين مع بدايات القرن العاشر الهجري, جعلت مصاهرةُ بعض سلاطينهم لعبد الرحمن بن رضوان أحد شيوخ بني عامر في تدخّل هذا الأخير لحماية حفيده الزياني والسّعي لتنصيبه, فاستعان بالاسبانيين, مشاركا في حملة مارتينيز دي أونجيلو (Alonso Martinez Angelo) سنة 941هـ/1535م, وهي الحملة التي تمكّن الزيانيون من تشتيتها بفضل جهود المنصور بن غانم شيخ بني راشد[2].

وبهذا يمكننا القول أنّ شيوخ القبائل قد مارسوا كثيرا من الأدوار السياسية, فشيوخ القبائل بحكم احتكاكهم بالسلاطين واتصال مجالاتهم بالمدن السّلطانيّة قد تحوّلت مجالاتهم إلى قِبلة للطّامعين في الاستيلاء على السّلطة, أو الفارين من عقابها. كما ساهموا في تسيير شؤون الدولة وقاموا بتنصيب السّلاطين عند حلول الأزمات, وكانت لهم بعض المهام التي قاموا بها خدمة للدولة كالشفاعة والسّفارة والتفاوض والمشاورة.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 529/6؛ ابن الشماع, المصدر السابق, ص101؛ عبد الله محمّد الزّركشي, تاريخ الدّولتين الموحديّة والحفصيّة, تحقيق: محمّد ماضور, ط2, تونس:المكتبة العتيقة, 1966م, صص90-91.

[2]- دغموش كاميلية, قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني والسّلطة العثمانية (1509-1792م), جامعة وهران: قسم التاريخ وعلم الآثار, 2013-2014م, ص40.

المبحث الرابع: شيوخ القبائل والأدوار العسكرية

شهد المغرب الأوسط في العهد الزياني الكثير من الصراعات والفوضى العسكرية, ولم يكن شيوخ القبائل بمنأى عن هذه الفوضى والصراعات, سواءٌ الصِّراعات الواقعة في المدن والحواضر السلطانية, أو الحاصلة في نطاقات شيوخ القبائل. حيث كان لهم دور عسكري كبير.

- الصراع ضدّ الجيوش السلطانية :

إنّ منصب شيخ القبيلة يملي عليه تقديم مصلحة القبيلة, ورفض أي شيء يمسّ بكرامتها, أو يضرّ بسمعتها, لذلك كثيرا ما يلجأُ إلى خوض المعارك ومقارعة السّلاطين, قصد الضّغط عليه, ودفعه إلى مراجعة سياساته.

ومن أسباب نشوب الصراع بين الجيوش السلطانية وشيوخ القبائل رغبة السَّلاطين في تقليم أظافر شيوخ القبائل بسبب مؤامراتهم وأدوارهم في الفتنة, أو محاولة السَّلاطين إرغام شيوخ القبائل على العسكرة معهم أو دفع الضرائب لصالحهم, أو مطالبتهم لهم بالكفّ عن شنّ الغارة وترويع السابلة والتعرض للأراضي المخزنية, ومن أسباب تأجُّج الصراع أيضا تمادي شيوخ القبائل في غيّهم واستخفافهم بالسّلاطين مع مبالغتهم و اشتطاطهم في المطالبة بالأجرة والعطاء مقابل الخدمة والهدوء و الولاء[1].

وكانت هذه الصراعات تُرهق الجيوش النِّظامية, إذ أنّ شيوخ القبائل إمّا أن يتمكنوا من هزيمة الجيوش السلطانية أو تلحقهم الهزيمة فيفرون إلى الصحراء ثمّ يعاودن الكرّة على المدن والطرقا, ويتزايد شرهم. فينتسفون الزُّروع وينتهبون المحاصيل ويروعون السابلة. كما أنّ السلاطين لم يكن بإمكانهم القضاء على ثورة هؤلاء الشيوخ إلا بالتحالف مع شيوخ عرب آخرين يُوسعون

[1]- مارمول, المصدر السابق, 292/2.

لهم في العطاء ويحبونهم بكثير من الاقطاعات ويتنازلون لهم عن جباية الأراضي الواقعة تحت أيديهم[1].

بدورها كانت القبائل العربية كثيرا ما تخسر عددا وافرا من رجالاتها بسبب هذه النزاعات المتكررة, وبسبب ذلك أصبحت قوّتها تتلاشى مع الأيام وتضعف لتحُلَّ محلّها قبيلة أخرى وتغلبها على مجالاتها, وتصيّرها في عداد القبائل الغارمة[2]. وربّما تولّد عن هذا الصراع تقسيم القبيلة, مثل تفرق بني عامر عند صراع شيخها خالد بن عامر مع أبي حمو, ومثل تفرق بطون حصين أيام أبي حمو[3].

وكانت القبيلة المقاتلة للسلطان في أحسن أحوالها تفرض منطقها على الدولة, ويتزايد جاهها, فيضطرّ السلطان إلى مهادنتها وشراء سلمها وكفّ عاديتها بمنح شيوخها إعانات مالية ضخمة ليتقي الفتن, ويعيش معهم في سلم وعلاقة ودية[4]. أمّا السّلطة السياسية ففي أحسن أحوالها تتمكن من القضاء على نفوذ شيخ القبيلة وبسط سلطانها على مجالاته, وإلزامه بالعسكرة معها, ودفع المغارم لعمالها. مثل ما حصل لقبائل رياح و الأثابج ومن بعدهم عرب الكعوب[5].

وفي بعض الأحيان كانت السلطة المركزيّة تقوم بطرد القبيلة إلى الصحراء ومنعها من الانقلاب نحو التلول في المصيف, وبذلك يحبسها في المشاتي أين تجد نفسها مضطرة إمّا للطاعة أو شنّ الغارة على القرى المجاورة أو قوافل التجارة, مثل ما حصل لمحمد بن يعقوب

---

[1]-مختار حساني وآخرون, التّاريخ العسكري للجزائر من الفتح الإسلامي إلى القرن 16, الجزائر:منشورات المركز الوطني للدّراسات والبحث في الحركة الوطنيّة وثورة أوّل نوفمبر 1954, طبعة خاصّة بوزارة المجاهدين ,2007, صص151-152

[2]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 153/6.

[3]- المصدر نفسه, 175/7.

[4]- حسن الوزان, المصدر السّابق, 63/1.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 31/6؛ 459/6؛ محمّد حسن, المرجع السابق, 114/1-116.

بن علي حين منعه الحفصيون سنة 791 هـ/1389م من الانتقال إلى التلول, وهو ما جعله يغير على قرى الزاب ويضايق ابن مزني[1].

ونلاحظ أنّه وبعد استقرار عدد من القبائل العربية, وتحكّمها في عدد من المجالات, صارت هذه القبائل المستقرة تستنجد بعرب الصَّحراء, حين تقوم بمنازعة السلطة المركزية, وقد تفاقم هذا الوضع في أواخر العهد الزياني, فكانت قبائل الحشم تستعين بقبائل الصحراء السّاكنين بالقصور وبقبائل حميان[2].

- الصراع ضد القبائل المعادية:

يعتبر توسيع المجال والرغبة في تزويد القبيلة بمناطق حيوية متوفرة على مياه الأنهار والأودية, وتضمّ الكثير من الأراضي الخصبة والمجالات الرعوية الفسيحة, وتشرف على الطرق التجارية النشيطة؛ كلّها أسباب كانت تجعل القبائل تتصارع فيما بينها, وكان على الشيخ شحن القبيلة, ودفعها لخوض معارك لتقوية نفوذها وبسط سلطانها على مثل هذه المجالات الاستراتيجية, تلك المعارك التي كانت إما ضدّ قبيلة ضعيفة أو قبيلة قويّة, أو ضدّ حلف يضمّ مجموعة قبائل ضعيفة متحالفة, وكانت القبائل التي يقوم شيخ القبيلة بمهاجمتها إمّا قبائل عربية أو قبائل بربرية, أو قبائل مختلطة[3].

و كان شيخ القبيلة يستعين أحيانا بقبائل أخرى عربية أو بربرية لتأديب القبائل المتمردة على سلطانه, وكانت المعارك تدور في السُّهول والأراضي المنبسطة, وتنتهي إما بطرد القبيلة المعتدية وفرارها أو باستسلام القبيلة المعتدى عليها وتركها لمجالها والاحتماء بالمرتفعات وقمم الجبال والتحصّن بمعاقلها, أو الرضوخ لسلطة شيخ القبيلة المعتدية, والنزول عند حكمه, والتحول إلى قبيلة غارمة[4].

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 577/6.

[2]- بلهاشمي بن بكارة, المصدر السابق, صص347-349.

[3]- محمّد نجيب بوطالب, المرجع السّابق, ص117.

[4]- محمّد حسن, المرجع السابق, 531/2.

وقد أدّت هذه المعارك إلى تقزيم الكثير من القبائل البربرية وحتّى العربية, وتحولها إلى قبائل غارمة ضعيفة لا حول لها ولا قوة, تعيش تحت سلطة شيوخ القبائل العربية, كما ترتّب عن هذه المعارك ضعفُ الكثير من القبائل العربية وتفرقها بين القبائل الكبيرة المتغلبة. ومن النتائج الايجابية لمثل هذه المعارك اندماج القبائل الضعيفة وتحالفها فيما بينها, وتشكيل قبائل الأحلاف, وهو الذي أعاد صياغة التركيبة البشرية في المغرب الأوسط, وساهم في تعريب الكثير من القبائل البربرية[1].

وكان لتيار التصوف دورٌ بارزٌ في الصلح بين شيوخ القبائل المتقاتلين وكفّ عاديتهم, وذلك بتأسيس المرابطين لرباطات كثيرة قريبا من مجالات شيوخ القبائل[2], وهو ما أفرز فيما بعد ما عرف بالقبيلة الدينية, التي عرفت أيضا بالقبيلة الزاوية.

- عسكرة شيوخ القبائل لمصلحة السلاطين:

بفضل قوّة القبائل العربيّة أصبح السّلاطين يستنجدون بها, ويطلبون مقاتليها للعسكرة معهم وتنفيذ سياساتهم, تجلّى ذلك فيما يلي:

1- حماية قوافل التجارة:

مع مطلع القرن الخامس الهجري, عرفت البحرية الإسلامية شبه انهيار في البحر المتوسط, فصارت السفن المسيحية تصول وتجول في البحر المتوسط, خصوصا بعد الغزو النورماندي لصقلية [3]وموانئ إفريقية[4], وهو ما جعل التجارة البحرية الإسلامية تُصاب بضربة قوية[1],

---

[1]- محمّد نجيب بوطالب, المرجع السابق, ص117.

[2]- المهدي بوعبدلي, أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التّركي من خلال مخطوط الثّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني, الأصالة, عدد 8, سنة 2, ماي-جوان, 1972, صص273-293, ص 282.

[3]- سقطت صقلية سنة 484هـ/1091م, نتيجة التنافس بين عمالها المسلمين, وكثرة المؤامرات. محمّد العروسي المطوي, الحروب الصّليبيّة في المشرق والمغرب, ط2, لبنان:دار الغرب الإسلامي, م1982, ص18.

[4]-تحالف روجار الثاني مع جرجير الانطاكي الذي فرّ منم بلاط الزيريين, وكان عالما بنقط ضعفهم, ومنذ سنة 517هـ ابتدأت حملات روجار, فاستولوا على جربة سنة 529هـ, وفي سنة 541هـ دخلوا قابس, وتحولت شرشال وتنس تحت سيطرتهم, ثم سفاقس وسوسة, وفي سنة 543هـ/1148م أرسى الأسطول النرماني أمام المهدية في ثلاثمائة سفينة, . المرجع نفسه, صص224-225.

لتنحصر المبادلات التجارية ببلاد المغرب الإسلامي في الطّرق البريّة, والتي بدورها عانت من تسلط شيوخ القبائل, وفساد السابلة[2].

وكانت الطرق البريّة تربط بين دويلات المغرب الثلاث, الأقصى والأدنى والأوسط, كما أنّه كانت تصل التل بالصحراء. وبفضل وجود هذه الطرق تمكّن المغرب الإسلامي أن يلعب دورا بارزا في تجارة الرقيق والذهب, وليربط بين بلاد السودان الغربي والمشرق الاسلامي, وهو ما سمح بظهور مدن إسلامية على جوانب هذه الطررقات, كما تحوّلت محطات القوافل التجارية إلى حواضر غنية, كتقرت وبسكرة وتوات وتمنطيط. وسجلماسة وبلاد الجريد. وقد أدى الغزو الهلالي إلى انكفاء العمران الحضري في السواحل الشمالية, واختفت الكثير من الطرق التجارية, كتلك الرابطة بين القيروان وفاس, رغم محاولات الموحدين تنشيطها بسبب كثرة الثورات.

و كان السلاطين والوجهاء من رجال الدولة يشاركون بقوة في تجارة القوافل[3], وكان عليهم تأمين وصول القوافل وعودتها سالمة غانمة, فأسندوا مهمّة حراستها لشيوخ القبائل[4], مقابل مبالغ مالية وفيرة, وقام شيوخ القبائل بدورهم على أكمل وجه, حيث نشّطوا تجارة القوافل, وساهموا في حمايتها[5]. فقبيلة صبيح التي كانت تعيش في تخوم المغرب الأوسط, كان شيوخها يتلقون إعانات مالية من ملك تلمسان, وقد كانت إبلهم كثيرة[6]. كما أدى سلاطين بني زيان

---

[1]- الطّاهر بونابي, ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفيّة بالمغرب الأوسط خلال القرن 8هـ/14م , قسنطينة: مجلّة الآداب والعلوم الانسانيّة, جامعة الأمير عبد القادر, عدد12, 2011, صص141-171, ص147.

[2]- الونشريسي, المصدر السابق, 6/153-156؛ كمال السيّد أبو مصطفى, المرجع السابق, ص52؛ الطّاهر قدوري, الطرق التجارية الصحراويةوامتداداتها في البحر المتوسط-في العصر الوقسيط-, جامعة غرداية: مجلة الواحات للبحوث والدراسات, عدد 15, 2011 م, صص88-102, ص94.

[3]- الطّاهر قدوري, المرجع السابق, ص94؛ خالد بلعربي, تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط, جامعة غرداية: مجلّة الواحات للبحوث والدراسات, العدد 15, السنة 2011, صص35-40, ص38.

[4]- مختار حساني, تاريخ الدّولة الزيانيّة, منشورات الحضارة, الجزائر: بئر توتة, 2009م, 44/2.

[5]-عمر سعيدان, علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرّابع عشر, ط1, سوسة: منشورات سعيدان, 2002م, ص26.

[6]- حسن الوزان, المصدر السابق, 1 /51 ؛ مارمول, المصدر السابق, 102/1.

إتاوات جسيمة على حد قول حسن الوزان, وقدموا لشيوخ القبائل الهدايا, قصد تأمين الطريق من تلمسان إلى بلاد السودان, وبسبب ذلك كانت تلمسان تروج بالسلع[1].

وبهذا أصبحت مدن تارودانت ونول وسلجلماسة ودرعة على طرف الصحراء من الشمال و أودغست على طرف الصحراء من الجنوب من أهم المدن وأوفرها مالا, وتحكمت فيها قبائل ذوي حسان, واحتكرت التجارة بين المغرب والسودان, منذ القرن السابع للهجرة[2].

وكانت القافلة التي لا تحظى بحماية من شيوخ القبائل قلّما تصل سالمة, لكثرة قطاع الطريق, وانعدام الأمن بالمسالك البرية[3], ما أدّى إلى تزايد الإقبال على شيوخ القبائل, وكثُر بذلك بذلُ التجّار للأموال مقابل حماية تجارتهم, وتوطّد ثراء شيوخ القبائل, وتشكلّت طبقة أرستقراطية داخل القبيلة[4], وتحوّل شيوخ القبائل إلى أغنياء.

ومن مظاهر ثراء بعض شيوخ القبائل ما كانت تزخر به خيامهم المليئة بنوادر التّحف وجميل الأواني التي قلّما توجد في قصور سكان الحضر[5]. وذلك بسبب ما كانوا يجنونه في مقابل حماية قوافل التجارة, وأيضا بسبب عائدات خفارة المرور التي فرضوها على كل من سلك الطرق التي تغلبوا عليها كأعراب أنقاد, الذين ألزموا المسافر بأن يؤدِّي مبلغا من المال لأول رئيس جماعة يصادفه فيسلم إليه راية صغيرة على رأس رمح تكون كوصل أمان لا يتعرض إليه أحد بموجبه[6].

ولم يكن المقابل المادي دائما هو الدافع وراء حماية القوافل, بل نجد أنّ الرغبة في الثواب الأخروي, والاستجابة للدعوات الإصلاحية كان له الأثر في ظاهرة حماية قوافل التجارة كأتباع سعادة من السنية الذين ساهموا في حماية قوافل التجارة[7].

---

[1]- حسن الوزان, المصدر السابق, 9/2.

[2]- مصطفى أبو ضيف, المرجع السّابق, صص323-326.

[3]- خالد بلعربي, المرجع السابق, ص39.

[4]- علاوة عمارة, المرجع السّابق, ص102.

[5]- حسن الوزّان, المصدر السّابق, 63/1.

[6]- مارمول, المصدر السّابق, 292/2.

[7]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 362/2.

2- القتال إلى جانب السلاطين:

لم يكن الزيانيون ولا الحفصيون يملكون قدرا كافيا من الجيوش النظامية, فكانوا يتقوّون بما تمدّهم به القبائل العربية من فرسان ورجّالة[1], ويدفعون مقابل ذلك أجرة معلومة, فسلاطين بني زيان كانوا يجمعون الأعراب من مختلف القبائل, ويؤجرونهم مدة العمليات العسكرية[2]. وهذه الوسيلة زادت من جشع شيوخ العرب, فكانوا أثناء الصراعات بين السلاطين, يدعمون من يدفع أكثر[3]. وتمّ الاعتماد على العرب أثناء عمليّات صدّ هجمات النورمانديين, وكذا الاسبانيين, و ساهم الأعراب في صد هجمة دييكودي فيرا, والتي انتهت بهزيمته وقتل معظم رجاله[4].

- تحصيل الضرائب وأموال الزكاة:

مثّلت الضرائب أو المكوس أو المغارم واحدةً من أهمّ مصادر بيت المال, حيثُ لم يتحرّج السّلاطين في فرضها على السكان, خصوصا إبّان مرور الدّولة بأزمات عاصفة, وعجزها عن تسديد حاجياتها. وإذا كانت المدن السلطانية, يسهل فيها استخلاص المغارم, ولا يتطلب فيها الأمر إلى كثير عناء, بسبب وجود جهاز شرطة وديوان إحصائي وأجهزة رقابيّة أخرى, فإنّ الأمر في البوادي والأرياف والمدن البعيدة عن قبضة السُّلطان كان فيها الأمر مُختلفا. وهو ما جعل السلاطين يستعينون بشيوخ القبائل الأقوياء من أولياء الدولة وشيعتها, من أجل انتزاع الضرائب من سكان المجالات المستعصية[5]. وذلك مقابل حصول أفراد القبيلة الجابية على قسم من الأموال المنتزعة من السكان.

وفي هذا الصّدد استعان الزيانيون ببني عامر[6]. كما كان شيوخ سويد لهم صيت بعيد, وسيطرة واسعة وأجور يتقاضونها من المتغلّب على تنس من أسرة بني زيّان[1], ويستعين بهم ملك

[1]- مارمول, المصدر السّابق, 301/2.

[2]- حسن الوزان, المصدر السّابق, 23/2.

[3]- مارمول, المصدر السّابق, 292/2.

[4]- المصدر نفسه, 307/2.

[5]- محمّد حسن, المرجع السابق, 534/2.

[6]- مارمول, المصدر السابق, 1/ 103.

تلمسان, في الخراج ويؤدي لهم الأجور مقابل ذلك[2]. وكانت المدن التجارية الرابطة بين مصر والسودان الغربي ملزمة بدفع خراج لجيرانهم من الأعراب, كسكان مدينة فزان و أوجلة في صحراء ليبيا وبلاد الزاب ومزاب وقرى وادي ريغ[3] إضافة إلى مدن جنوب غرب المغرب الأوسط[4].

و ضمنت هذه الوسيلة للدولة تحصيل ضرائبها, وأيضاً كانت تقوي من نفوذ شيوخ القبائل, وتزيد في أطماعهم ليتحوّل شيوخ القبائل فيما بعد إلى جُباة للضرائب لمصلحتهم هم, وربما أثقلوا كواهل السكان بذلك[5], كقبيلة مسلم التي كانت تُقيم بمفازة مسيلة, ويأخذ شيوخها أتاوات من مسيلة وبعض القرى[6], مما دفع بكثير من الفلاحين لترك أراضيهم, والتحصن بأعالي الجبال, وإذا شعر شيوخ القبائل بتقلُّص مداخيلهم, قاموا بتعويض ذلك بالإغارة على المدن السلطانية, ومطالبة السلاطين بإشراكهم في أمر جبايتها.

و استمر قيام شيوخ القبائل العربية بمهمة استخلاص الجباية, إلى أيّام قدوم العثمانيون, الذين وبعد تقويض سلطان الزيانيين, أسندوا مهمّة استخلاص الضّرائب لشيوخ القبائل.

أمّا أموال الزكاة فنستفيد من كتب النّوازل ظاهرة تسخير شيوخ القبائل لجمع أموال الزّكاة من السكّان, فقد سئل أبو القاسم السيوري : ((عمّا يأخذ الأعراب قطيعة على الزّرع وحبّ الزيتون من العين ,هل يسقط زكاة ما يقابله أم لا,وبعض الاعراب يزكّي[7])). وورد في نوازل المازوني عن ابن عرفة حين سئل عمّا يأخذه أعراب افريقية من الزّكاة من بلاد الظّهائر,

---

[1]-تنس: هي مدينة جزائرية ساحليّة تابعة لشلف, تبعد ب200كم غرب الجزائر العاصمة, وهي مدينة قديمة بناها الفينيقوين.حسن الوزان, المصدر السابق, 36/2؛ أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص205.

[2]- مارمول, المصدر السّابق,104/1.

[3]- حسن الوزان, المصدر السابق, 146/2-147.

[4]- عمر بنميرة, النوازل والمجتمع-مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط-, الرباط: المطبعة الأمينية, ط1, 2012, ص104.

[5] - George Marcais , les arabes en berberie du XI au XIV , constantine, braham, 1913, p718.

[6]- حسن الوزان, المصدر السّابق, 49/1.

[7]- الونشريسي, المصدر السابق, 364/1 .

فأجاب :((إن كانوا خدمة أجزأ وإن خالفوا على أميرها فلا تجزئ[1])). وهو ما يؤكّد أنّ السلاطين كان منهم من يكلّف شيوخ العرب بتحصيل مال الزكاة, وتشبهها نازلة أفتى فيها البرزلي عن أعراب إفريقية الذين يكلّفهم السلطان بجمع الزكاة من سكّان البوادي والأرياف[2].

وبهذا يمكننا القول أنّ شيخ القبيلة العربيّة قد مارس كثيرا من الأدوار العسكرية, وذلك إمّا بالقتال إلى جانب السّلاطين أو لمصلحتهم, أو محاربة السلاطين ومناوشتهم, أو القتال ضدّ القبائل المجاورة, ومحاولة إخضاعها, والتغلب على مجالها. وكانت جلّ الأعمال العسكرية تهدف إلى تقوية نفوذ القبيلة, وتنمية ثروتها, وتوسيع مداخيلها.

[1]- الدرر المكنونة, تحقيق:ماحي قندوز, 744/2.
[2]- المصدر نفسه, 744/1.

الفصل الثالث:

مقومات سلطة شيوخ القبائل العربية

المبحث الأول:قوّة القبيلة العربية

تعتبر القوة أحد أهم العناصر التي تحدّد نتيجة أي صراع في الوجود, وتختلف هذه القوة باختلاف المتصارعين, وظروف الصراع, فقد تكون القوة في كثرة العدد, وقد تكون في جودة السلاح, وأحيانا تتجلى في الشجاعة والإرادة. ولا شك أن قوة القبيلة العربية, قد جعلت منها طرفا مهيب الجانب, فبات يطلب ودها, ويخطب حلفها. ولابأس بذكر أهم أسباب قوة القبائل العربية.

- كثرة مقاتلي القبائل العربية:

كانت القبائل العربية تضم أعدادا وفيرة من الفرسان والمقاتلين الأكْفاء, وقد ذكر حسن الوزان أنّ عدد الفرسان الذين أجازوا إلى بلاد إفريقية عند بداية التغريبة ناهز الخمسين ألفا, وأن عدد النساء والأطفال والبهائم لا يكاد يحصى[1], ويصف حسن الوزان كثرتهم بأن أعراب الصحراء هم كالسمك[2]. و قد حاول أن يحصي مقاتلي بعض القبائل العربية أواخر العهد الزياني, وأشار إلى خصائص كل قبيلة, وسنذكر أهم ما ذكره عن القبائل المستقرة ببلاد المغرب الأوسط:

- بنو عبيد **الله** المعقليين:

قال باستحالة إحصاء فروعهم, وأنّهم كانوا يتلقون إعانات من ملك تلمسان, وذكر أن عدد فرسانهم قد يفوق أربعة آلاف فارس, أما عدد الرجالة فتفوق ثلاثين ألفا[3] من عادتهم أن يرحلوا إلى نواحي تلمسان في فصل الصيف[4].

- بنو عامر:

---

[1]- الحسن الوزان, المصدر السّابق, 1/ 46.

[2]- المصدر نفسه, 47/1.

[3]- مارمول, المصدر السابق, 108/1

[4]- حسن الوزان, المصدر السّابق, 49/1.

ذكر أن منهم جالية بتلمسان, وفيهم من يرحلون إلى صحراء تيكورارين[1] , ويستأجرهم ملك تلمسان, وهم ذوو شجاعة فائقة وثروة طائلة, عددهم نحو ستة آلاف من أحسن الفرسان, وأقواهم عتادا[2] , أمّا عدد الرجالة, فذكر مارمول أنهم يفوقون الخمسين ألفا[3] .

- عروة:

ذكر أنّهم مستقرّون بضواحي مستغانم, ووصفهم بكونهم وحوش ولصوص يرتدون أرذل لباس ولا يبتعدون عن الصحراء, إذ لا موطن لهم في بلاد البربر ولا إعانة مالية, وعددهم نحو ألفي فارس[4]. أما عدد الرجالة فأكثر من خمسة عشر ألف راجل[5].

- عقبة:

تستقر بضواحي مليانة, ويمدهم ملك تنس بقليل من المال, لكنهم فتاكون بدون شفقة ولا رحمة, وهم نحو ألف فارس[6] , إضافة إلى عشرة آلاف راجل[7].

- ديار هبرة:

في السهل الممتد بين وهران ومستغانم, وهم فلاحون يؤدون الخراج لملك تلمسان, ولعل عددهم مائة فارس[8] وألفي راجل[9] .

---

[1]- قال عنها حسن الوزان:((منطقة مأهولة في صحراء نوميديا بعيدة بنحو مائة وعشرين ميلا عن شرق تسبت ..وسكان هذه المنطقة أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيرا بسلعهم إلى بلالد السودان, وهنا مجمع القوافل, لأن تجار بلاد البربر ينتظرون تجار بلادج السودان, ثم يذهبون جميعا..ويؤدون عادة إتاوة صغيرة إلى الأعراب ويخضعون لسلطتهم)). المصدر نفسه, 134/2.

[2]- المصدر نفسه, 49/1.

[3]- مارمول, المصدر السابق, 103/1.

[4]- حسن الوزان,المصدر السّابق, 1 /49.

[5]-مارمول, المصدر السّابق, 103/1.

[6]- حسن الوزان, المصدر السابق, 1 /49.

[7]- مارمول, المصدر السّابق, 103/1.

[8]- حسن الوزان, المصدر السّابق, 1 /49.

[9]- مارمول, المصدر السّابق, 103/1.

- مسلم :

تقيم بمفازة مسيلة نحو مملكة بجاية, ويأخذون أتاوات من مسيلة وبعض القرى[1].

- رياح:

تقيم بقفار ليبيا جنوبي قسنطينة, وتمتد سلطتهم على جزء من نوميديا, وينقسمون إلى ستة أفخاذ كلهم أبطال حرب نبلاء مجهزون أحسن تجهيز, وتصلهم إعانات مالية من ملك تونس, وعددهم خمسة آلاف فارس[2].

- سويد :

تقطن بالقفار الممتدة نحو مملكة تونس, ولهم صيت بعيد, وسيطرة واسعة وأجور يتقاضونها من ملك تنس, وهم شرفاء شجعان, يمتلكون كل ما يحتاجون إليه [3]. وتبلغ أعدادهم نحوثلاثة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل, ويستعين بهم ملك تلمسان الحرب ويؤدي لهم الأجور[4].

- الثعالبة:

يسكنون سهل الجزائر[5] ويتنقلون في الصحراء حتى تكديت, ولهم سيطرة على مدينتي الجزائر وتدلس, يبلغ عدد فرسانهم ثلاثة آلاف رجل[6]. وأربعين ألف راجل[7].

- الهدج:

---

[1]- حسن الوزان, المصدر السّابق, 1 /49.

[2]- المصدر نفسه, 1/49-50.

[3]- حسن الوزان, المصدر السابق, 1 /49.

[4]- مارمول, المصدر السابق, 104/1.

[5]- مدينة الجزائر: عاصمة القطر الجزائري كانت تحمل اسم ايكسيوم, وكانت أيام الحكم الروماني قليلة الأهمية, ثم خربت أثناء هجمات الوندال, وثورات البربر, وأصبحت مستقرا لقبيلة بربرية تدعى بني مزغنة, وفي القرن العاشر الميلبادي أسس بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي مدينة دعاها جزائر بني مزغنة, أخذ نمو الجزائر يتزايد إلى أن هاجمت القبائل العربية سهول متيجة, فاستولت قبيلة الثعالبة على جزائر بني مزغنة, ثمّ دخلها العثمانيّون, وصيّروها عاصمة لدولتهم في الجزائر. أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص207.

[6]- حسن الوزان, المصدر السّابق, 49/1.

[7]- مارمول, المصدر السابق, 109/1.

تسيطر على الصحراء المجاورة لتلمسان, بالضبط على أنكاد[1], ليس لهم ممتلكات ولا إعانات, ولا يعيشون إلا على القتل والنهب, هم نحو خمسمائة فارس[2].

- صبيح :

تعيش فرقة منهم في تخوم المغرب الأوسط, ويتلقون إعانات مالية من ملك تلمسان, ومن عادة هؤلاء الأعراب أن يرحلوا كذلك في فصل الشتاء إلى الصحراء لكثرة ابلهم, وتقيم فرقة أخرى من صبيح في السهول[3], ويقدر عددهم مارمول بثلاثة آلاف فارس وأكثر من عشرين ألف راجل, من بينهم عدد من حاملي القاذفات النارية[4].

وكلّ هذه الأرقام والإحصاءات تبيّن لنا أنّ القبائل العربيّة كانت تضمّ إلى صفوفها عددا لا بأس به من الفرسان, ناهيك عن الأعداد الغفيرة للرجّالة, خصوصا قبائل رياح والمعقل وبني عامر, التي كانت تملك خزّانا مُذهلا من الفرسان.

- شجاعة مقاتلي القبيلة العربية:

حظي شيخ القبيلة العربية بمقاتلين أكفاء, يمتلكون شجاعة منقطعة النظير, فبنو عامر مثلا كانوا ذوي شجاعة فائقة[5], وكذلك قبيلة رياح, والتي ضمّت إلى صفوفها عددا من أبطال الحرب[6]. وقد وصف المشرفي بعض بطون القبائل العربية بقوله أنّهم: ((كانوا أهل نجدة وبأس

---

[1]- أنكاد أو أنقاد: منطقة متكونة من سهول عليا تقع بين مدينة وجدة ونهر ملوية, ويخترقها نهر إيسلي, يقول عنها حسن الوزان: ((وهي سهل قفر ووعر ويابس, تمتد نحوا من ثمانين ميلا طولا, وما يقرب من خمسين ميلا عرضا...وهي مأوى لعصابة لصوص من الأعراب, على استعداد للفتك بالمارين من هناك, حيث الطريق المؤدية من فاس إلى تلمسان, وقلما ينجو التجار من شرهم, لا سيما في فصل الشتاء, لأن الأعراب المستأجرين للحفاظ على الأمن في البلاد يكونون قد رحلوا عنها آنذاك إلى نوميديا, ويبقى منهم الغير مستأجرين وحدهم ليتعيشوا من اللصوصية)).حسن الوزان, المصدر السّابق, 11/2.

[2]- حسن الوزان, المصدر السابق, 1 /49.

[3]- المصدر نفسه, 1 /51.

[4]-المصدر نفسه, 102/1.

[5]- المصدر نفسه, 1 /49.

[6]- المصدر نفسه,1 /49.

شديد وقتال عتيد ورأي وتدبير وحيلة وتشمير[1])), كما وصف قبيلة حميان بأن مقاتليها لهم بسالة عظيمة ومكيدة شديدة في الحروب[2].

و حرصت القبائل العربية على المحافظة على شجاعتها أثناء الحرب, و ذلك من خلال عدة وسائل, منها اصطحاب النساء في الحرب لتزداد شجاعتهم[3].

وهو أسلوب متوارث دأبت عليه القبائل الهلالية, حيث تقوم النساء بتشجيع الفرسان, بالزغاريد, وهو ما يعطي شحنة إضافية لهذا الفارس الذي سيصبح فارس أحلام لبنات القبيلة[4]. وأيضا كان الشعر يلعب دوره في رفع معنوياتهم, إذ كان يتقدم كلّ قبيلة شاعر يذكي الحماسة في نفوس أبناء القبيلة[5].

وكانت القبيلة تحتفي بفرسانها وتمجدهم وتبالغ في استقبالهم عقب انتصاراتهم وبطولاتهم, وتخلد ذكرهم بالأشعار والقصص[6]. وهو ما استمر إلى بدايات القرن التاسع عشر الميلادي, ودائما كان ذياب بن غانم وفرسان بني هلال هم مضرب المثل. ومن ذلك مرثية بن جلول لحميسي سنة 1860م, حيث جاء في مرثيته وهو يعزي امرأة فقدت ابنها, ويطالب منها الكف عن المبالغة في الحزن, فابنها مات صغيرا, ولم يكن من المقاتلين المشهورين الذين تهتز القبيلة عند فقدهم:

---

[1]- المشرفي, المصدر السابق, ص26.

[2]- المصدر نفسه, ص27.

[3]- حسن الوزان, المصدر السابق, 64/1.

[4]- روزلين ليلى قريش, استراتيجية القتال في سيرة بني هلال, -نصوص مختارة مع شرح دراسة وتعليق, الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائر, 2009م, ص35.

[5]-كان لكلّ قبيلة شاعر, قد يكون شيخ القبيلة أو غيره, فالكعوب كان شاعرهم هو خالد بن حمزة بن عمر, وهو شيخ الكعوب في زمانه, أمّا أولاد أبي الليل فكان شاعرهم هو شبل بن مسكيانة بن مهلهل, وكان لبني عامر شاعرهم علي بن عامر بن إبراهيم, وكان من رؤسائهم. عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 805/1-816.

[6]- روزلين ليلى قريش, المرجع السابق, ص20.

ولدك ما بانوا شي خصايله مات صغير   ما شفناه نهار تتناطح الأبطـــــــــال

طغاة يقساو على الحرب قنـــــــــاطير   كيف دياب ألي جاب نجع أولاد هلال[1]

وكانت شجاعة أبناء القبائل العربية تتجلى أثناء المعارك, بأن يقتحم ابن القبيلة الكتائب وربما يهاجم عشرة فرسان, أو اثني عشر فارسا منفردا, الأمور التي جعلت الفارسَ العربي يُحسب له ألف حساب, خصوصا وأنّ فرسانهم كانوا يحسنون استعمال القسي, وبعض فرسانهم ربما يحملون ستة حراب, ويجيدون الطعن بها حتى أثناء عمليات فرارهم[2].

ونُلاحظّ أن المقاتل العربي كان يُظهر كفاءة في القتال أثناء دفاعه عن قبيلته, حيث تُصبح الشّجاعة أمر فطريّا, أمّا حين يُقاتل إلى صفوف السّلاطين فلا تكون لهم نفس الشّجاعة والكفاءة, لأنّه لن يخسر شيئا, لذلك كثيرا ما كانوا ينسحبون من المعارك عند تلقي أوّل ضربة, تاركين الجيوش السّلطانية تلاقي مصيرها.

- منهج القبائل العربية في الحرب:

لم تكن القبائل العربية تعرف الأساليب والخطط الحربية المعقّدة, بل حافظت على أسلوبها القديم في المعارك[3], وهو أسلوب الكر والفر, فكانوا يبدأون معاركهم بشن الغارة, ثم يقومون بالعيث فينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة, ولا ركوب خطر[4]. وبذلك تمّ لهم التغلب على أرياف افريقية ثمّ المغرب الأوسط, فكانوا يشنون غارات جريئة وحذرة, يتخلّلها تقهقر إلى قواعد انطلاقهم, وفي الأثناء كانوا يخرّبون المناطق المنبطسة, ويتحاشون المدن وينهبون ويبتزّون الأموال, ويفرّون إثر كل إنذار جدّي يوجّه إليهم, ويتهرّبون من القتال[5].

وكان المقاتل العربي لا يستحي من الفرار بل يعتزّ بقدرته على الفرار دون أن يقع في أسر العدو, والفرار من القيم المتجذّرة في عقلية القبائل العربية, الأمر الذي يجعلنا نشبه مقاتلي

---

[1]- سونيك, المصدر السابق, ص87.

[2]- مارمول, المصدر السابق, 112/1.

[3]- روزلين ليلى قريش, المرجع السّابق, ص10.

[4]-ابن خلدون, المصدر السّابق, 186/1.

[5]- الهادي روجي إدريس, المرجع السابق, 255/1.

القبائل العربية بالمقاتلين الصّعاليك[1]. الذين كانوا يقومون بشن الغارة ثم يلجؤون إلى الفرار, وقد قام البحتري في حماسته بتخليد هؤلاء في باب سماه :(**فيما قيل في الفرار على الأرجل**[2]).

وكثيرا ما عمدت القبائل العربية إلى هذا الأسلوب في إغارتها على أطراف المدن, فبعد أن ينالوا مآربهم, يفرّون إلى منتجعهم بالقفر عندما يشعرون بيقظة حامية الدّولة, وإن لم يجد العرب أي مقاومة فإنهم يواصلون غاراتهم ويقومون بنهب المدن وتخريبها, وأخذ ما تمكنوا من حمله[3].

وأحيانا يقوم السلاطين بمحاولة دحر القبائل العربية, والانتقام منها, فتفر القبائل مبتعدة إلى أقصى مكان في الفيافي والصَّحاري, حتّى تسلم من متابعة العدو. لكنّها سرعان ما تقوم بتجميع صفوفها وتعاود الكرة. وهو ما فعلته القبائل العربية من الذواودة عند انهزامها أمام أبي الحسن المريني, وقد قال في ذلك الكفيف الزرهوني:

جرت بها العرب الى فيفا   ما قط ابت تربـــــــــــها بمطر

مملو بالعرب على الضفا   مخلوق مشتق من حديد وحجر[4]

وبعد أن تطرق مارمول إلى هذا الأسلوب الفريد قال في صدد حديثه عن الأعراب القاطنين جهة الشرق من مملكة تلمسان الى صحاري برقة:((وفعلا فإن طريقة محاربة هؤلاء الشعوب تختلف كثيرا بالنسبة لسائر الأمم, إذ أنهم لا يحاربون مجتمعين بل متفرقين في كل جهة, فإذا اكتشفوا موطن ضعف حملوا عليه وتعجلوا منه الانتصار ما أمكنهم ذلك, لكن إذا هوجموا أولا تراجعوا في الحين ولو كانوا أضخم عددا, ثم أعادوا الكرة من كل جهة, مرات مختلفة محاولين زحزحة عدوهم, وباختصار إنهم على قدر كبير من المهارة والاستعداد[5])) .

---

[1]- محمد رضا مروة, المرجع السابق, صص27-29.

[2]- المرجع نفسه, ص59.

[3]-ابن خلدون, المصدر السابق, 186/1.

[4]- ملعبة الكفيف, ص98.

[5]-مارمول, المصدر السابق, 114/1.

ومن الأمور التي تظهر مهارة المقاتل العربي ودهاءه, تلك الخطّة التي اتّبعوها لإضعاف الخصوم, وذلك عن طريق قتل وجرح الخيول, وهو الأسلوب الذي استعملوه في محاربة المسيحيين[1].

- جودة أسلـحة المقاتلين العرب:

تميزت القبائل العربية بامتلاك بعض الأسلحة التي صنعت الفارق في مناسبات متكررة, و أغلب هذه الأسلحة هي من غنائم الحروب والمعارك, وأعمال السلب والنهب. ووردت الإشارة إلى بعض أنواع هذه الأسلحة, والتي مع بساطتها, فإن حنكة المقاتل العربي ومهارته, وانسجامها مع طبيعته قد صيّرتها سمّا زعاقا أرّق المقاتلين وأرعبهم, ويمكن تناول أنواع هذه الأسلحة على النحو التالي:

أ- السيوف:

يعتبر السيف من أهم أنواع الأسلحة عند العرب خصوصا في العصر الوسيط, وبالغت العرب في تعظيم السيف, حتى سمّت أبناءها بسيف ومهند. وفي بلاد المغرب الأوسط عُرفت القبائل العربية بالقضب المشارف والتي جربوها, وتفننوا في استعمالها [2]. كما أنّهم في العهد الزياني صاروا يشترون السيوف من بلاد النصارى لأنها كانت جيدة[3], إضافة إلى السُّيوف التي كانوا يغنمونها من المنهزمين, أو التي منحهم إياها السلاطين.

ب- الحراب:

من أبرز الأسلحة التي اعتمد عليها الفرسان العرب الحراب التي كانوا يستعملونها في عمليات الإغارة على المدن, وعلى مقدمات الجيوش, وأيضا استعملوها أثناء فرارهم, وقد كانت هذه الحراب تبلغ أربعين أو خمسين شبرا, وطرفاها مصفَّحان بالحديد لتضرب من أمام ومن خلف, فحين يرون عدوا يلاحقهم عن قرب يُحوِّلون الحربة إلى الذراع الأيسر, ويطعنونه من بعيد وهم هاربون, بحيث لا يشك في إصابة الخصم أدنى شك, ويبين مارمول أنهم قد حذقوا

---

[1]-مارمول, المصدر السابق, 114/1.

[2]- عبد الملك بن صاحب الصلاة, المن بالإمامة, تحقيق: عبد الهادي تازي, ط3, بيروت: دار الغرب الاسلامي, 1987م, ص199.

[3]- مارمول, المصدر السابق, 113/1.

في هذا التمرين حتى أن منهم من لا يتصنع أبدا في مهاجمة عشرة فرسان أو اثني عشر فارسا بمفرده في السَّهل, ويجعلهم يدافعون عن أنفسهم بكل حرج, وحتى المادة التي كانت تصنع بها هذه الحراب لم تكن من المران الذي كان شائعا صنع الحراب منه, بل كانت تصنع من الدردار, وأجودها تصنع من جذور نبات يستورد من صحارى ليبيا, وهي من خشب أسود صلب ثقيل, إذ كلما ثقل الخشب كانت الحربة أجود[1].

ت- التروس:

رغم أنّ الفرسان العرب كانوا لا يستعملون التروس كثيرا,, ولا يهتمون كذلك بالخود والزرود لأنها تمنعهم من الدوران بسهولة, فإن مستعملي الرماح كانوا يتترسون بها, حتى تقيهم طعانت العدو. وكانت في الغالب تصنع من جلد بعض الجواميس[2]. وتختلف نوعية هذه التروس, من قبيلة إلى أخرى, فعرب المغرب الأقصى مثلا كانت لهم دروع فخمة أفضل من التروس التي استعملها مقاتلي عرب المغرب الأوسط[3].

ث- الخيل:

كانت الخيول العربية من أجود أنواع الخيول, فقد نبغوا في تربيتها, و تفننوا في تدريبها, ومن فرط اهتمامهم بها, كانوا يعتنون بزينتها[4], وقد كانت مجالات سويد كلّها مكانا لتربية الخيول, وقد كانوا يسعون إلى تجويد نسلها, ويتفننون في تدريبها وتجهيزها لخوض المعارك. ونوّه حسن الوزان بالخيول العربية, فقال أنّها :((نادرة في بلاد البربر إلا ما يوجد منها في الصحراء حيث تستعمل للصيد, ولا يطعمونها إلا ابل الناقة مرتين في النهار والليل, ويحافظون على نشاطها وخفتها ولو أنها تبدو ضامرة, ويتركونها ترعى العشب في فصل الربيع, لكنهم لا يركبونها في ذلك الوقت, وبين حسن الوزان أن ملوك بلاد البربر لم يكونو يملكون خيولا بسرعة خيول العرب في الصحراء, وبفضل هذه الخيول كان يمكنهم الفرار من وجه أعدائهم[5])).

[1]- مارمول, المصدر السابق, 113/1.

[2]- المصدر نفسه, 113/1.

[3]- النميري, المصدر السابق, ص240.

[4]-مارمول, المصدر السابق, 113/1.

[5]- حسن الوزان, المصدر السابق, 263/2.

ج- الإبل:

كان العرب كثيرا ما يخوضون حروبهم في الصحاري والبلاد المقفرة, وكانت الإبل هي الحيوان الذي يصلح لمثل هذه الأماكن الصعبة, لذلك اهتمّوا بتربيّتها[1], ومن يقرأ كتاب الحيوان للجاحظ يجد تلك العلاقة الوطيدة بين العرب والإبل, حيث أنهم صاروا متخصصين في تربية الإبل ووتكثير نسلها وتجويده بطرائق لا يتقنها إلا أمثالهم[2].

وكان العرب يتفاخرون بالابل, ويتنافسون في تحصيل أكبر عدد منها, فيكفي أن تعرف أن رجلا من رجالات العرب كحلوف بن علي بن جابر ونطاح أخوه, وهم أهل إبل يكون عند الرجل منهم نحو ستين ألف بعير[3]. وفي ذلك يقول حسن الوزان: (وعندما يراد ذكر ثروة أمير أو شريف من الأعراب يقال: وفلان له مقدار كذا من آلاف الابل, ولا يقال له مقدار كذا من الدنانير أو الممتلكات, وجميع الأعراب الذين يملكون الابل أمراء يعيشون أحرارا, إذ بها يستطيعون الإقامة في الصحاري التي لا يقدر ملك ولا أمير أنم يذهب إليها لجفافها[4].))

و كانت القبائل العربية الصحراوية تستغل كل نوع من أنواع الإبل فيما ينفع فيه, إذ اشتهرت عندهم الإبل الهجن وهي ضخمة طويلة وحاملات ممتازة, لكنها لا تقدر على حمل الثقيل قبل أربع سنوات, والنوع الثاني البخت, وله سنامان كلاهما صالح لحمل الثقل أو الركاب لكنه لا يوجد في آسيا, وأما الرواحل فهي إبل رقيقة تصلح للركوب, ومعروفة بالسرعة, تستعمكل في البريد والأسفار وغيرها[5].

وقد تفننت القبائل العربية في تربية الإبل, ونجحوا في التدخل الصناعي في توليدها, وتكثيرها والاهتمام بالأنواع الأصيلة منها, وهي حرفة توارثوها عن آبائهم وأجدادهم, لتتحوّل مسارحهم إلى مقصد لأصحاب قوافل التجارة, كي يتزودوا منها بأحسن أنواع الابل [6].

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 152/2.

[2]-عمرو بن بحر الجاحظ ت255هـ, الحيوان, بيروات: دار الكتب العلمية, ط2, 1424هـ, 87/1.

[3]- العمري, المصدر السابق, 4/ 201-202.

[4]-حسن الوزان, المصدر السابق, 259/2.

[5]-المصدر نفسه, 260/2.

[6]-مصطفى أبو ضيف أحمد عمر, المرجع السابق, صص309-310.

ح- القسي:

تعتبر القسي من أهم الأسلحة التي استعملتها القبائل العربية, لزعزعة صفوف العدو, ولشن الغارة, وكذلك لاتأمين عملية الفرار, وواضح أنّها قسي استعملت من جلود الضأن, و من جلد اللمط[1], وكان مستعملي هذه القسي على مهارة كبيرة, وبسبب مهارتهم في استعمالها تأخّر استعمالهم للأسلحة النارية[2]. وقد أشاد النميري بالقسي العربية وقال عنها: (وترسل النجوم الثواقب لكن تمسي نصالا, وبيّن أنّ أغلب قواد جيش أبي عنان كانت تستعمل القسي العربية, عدى القواد الأندلسيين, الذين استعملوا قسيا فرنجية[3]).

خ- الأسلحة النارية:

في أواخر العهد الزياني بدأت تظهر الأسلحة النارية, ولم يكن العرب يرغبون في استعمالها, و كانوا يفزعون عند سماعهم لأصواتها, وأوضح مارمول أن العرب منذ زمن قليل أي مع دخول العثمانيين, أخذ بعض شيوخهم يملكون أسلحة نارية, وخصوصا منهم سكان مملكة تلمسان, لكنهم لا يستعملونها إلا لإرهاب الأعراب الآخرين الذين يخشون النار بكيفية غريبة, إنهم لا يحسنون استعمال هذه الأسلحة ويحاربون بها في اضطراب. ومن أوائل القبائل التي استعملت الأسلحة النارية, قبيلة صبيح, فكان في صفوفها عدد من الرجّالة من حاملي القاذفات النارية[4].

وبهذا نلاحظُ أنّ قوّة القبيلة كانت أحد أسباب تسلّط تنامي الدّور السّلطوي لشيوخها, , تلك القوّة التي تجلّت في كثرة أعداد المقاتلين العرب, خصوصا الفرسان, والشجاعة التي تميّزوا بها إضافة إلى الخطط التي اتّبعوها والتي جنّبتهم الهزيمة الحاسمة, وجعلتهم يستنزفون قوى الخصوم, كما أنّ أسلحتهم وتمرّسهم في استعمالها قد ساهم في تغيير دفّة المعارك لصالحهم.

---

[1]- الدرق اللمطية: قال عنها الزهري أنها من أعجب الدرق, وأخبر أنّها كانت تهدى لملوك المغرب والأندلس, واللمط حيوان على قدر العجل أو أقل منه, طويل العنق, رأسه كرأس الأشكر, له أذنان كأذني المعز, ففي رأسه قرون طوال سود. كتاب الجغرافيا, ص118.

[2]- مارمول, المصدر السابق, 113/1.

[3]- النميري, المصدر السابق, ص224.

[4]-المصدر نفسه, 102/1.

المبحث الثاني:ضعف السّلطة المركزيّة

من أهمّ أسباب ومقّومات سلطة شيوخ القبائل العربية, ذلك الضّعف الذي عرفته السّلطة المركزية خلال العهد الزياني, وهو الضّعف الذي كان وليد الصّراعات الدّاخلية والخارجية للسّلطة المركزيّة, وسأبيّن مظاهر هذا الضّعف من خلال هذه النّقاط الآتية:

الغزو الحفصي والمريني:

في الوقت الذي انهارت فيه دولة الموحدين, سعى الحفصيون والزيانيون والمرينيون إلى توسيع رقعتهم الجغرافية. فكل دولة من هذه الدول الثلاث كانت تعتبر نفسها هي الوريث الشرعي للموحدين. ولسوء حظّ الدولة الزيانية أنها وبحكم موقعها الجغرافي بين الدولة المرينية والدولة الحفصية, تحولت إلى حلبة صراع كما أنها تعرضت لكثير من الغزو من قبل جيرانها.

وكان الزيانيون لا يشرفون إلا على الإقليم الغربي لبلاد المغرب الأوسط, من ملوية إلى ضواحي مدينة بجاية في أقصى اتساع للدولة, فالحفصيون كانوا قد ضمّوا إلى سلطنتهم الجانب الشّرقي بما فيه بجاية وقسنطينة, و كان سلاطين الزيانيين في كثير من المرات يكتفون بالحكم الإسمي, مظهرين الولاء لبني مرين أو بني حفص[1]. وقد أحصى حسن الوزان عدد المرات التي قام فيها المرينيون باقتحام تلمسان, بنحو عشر مرات, وذكر أن مصير السلاطين الزيانيين كان حينها إما القتل أو الأسر أو الفرار إلى مفازات الأعراب[2].

ففي أيام يغمراسن بن زيان وتزامنا مع تعرض دولته لحصار يوسف بن يعقوب المريني سنة 698هـ/1299م[3], ضاقت أحوال أهالي تلمسان, و أكلوا الجيف[4], وهلك عثمان بن

---

[1]-محمود بو عياد, جوانب من الحياة في المغرب الأوسط, في القرن التّاسع الهجري(9هـ/15م), الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع, 1982م, صص13-31.

[2]- حسن الوزان, المصدر السّابق, 8/2.

[3]-كان أبو يعقوب بن عبد الحق المريني قد سار إلى تلمسان سنة 689هـ/1290م, ثمّ قفل إلى المغرب بعد حروب طويلة, وفي سنة 695هـ/1296م . نازل تلمسان في حركته الثانية, فنزل ندرومة, ثم ارتحل, وفي نفس السنة عاود أبو يعقوب الحركة إلى تلمسان, ونزل بذراع الصابون, وفي سنة 697 هـ/1298م, نازلها للمرة الرابعة, وفي 698هـ/1299م عاود محاصرتها, وبنى المنصورية. ينظر:بن خلدون, المصدر السابق, 209/1-210؛ التنسي, المصدر السابق, ص130.

[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 126/7-127.

يغمراسن أثناء الحصار, ذلك الحصار الذي استمرّ إلى غاية 706هـ/1306م[1]. و تكرر غزو المرينيين لبني زيان في حقب متكررة, خصوصا أيام أبي الحسن المريني سنة 737هـ/1336م الذي قضى على دولة بني زيان الأولى, وابنه أبي عنان سنة 753هـ/1352م[2] الذي بسط نفوذه على سائر المغرب الأقصى والأوسط وبلاد إفريقية. أمّا الغزو الحفصي فبدأ مع السلطان أبي زكريا الحفصي, وتكرّر في النصف الأول من القرن التاسع الهجري, حيث تعرضت تعرضت تلمسان لغزو من قبل السلطان أبي فارس عزّوز[3], الذي دخلها سنة 827هـ/1424م[4], ثمّ قام ابنه أبو عمر عثمان من بعده ببسط نفوذه على تلمسان سنة 866هـ/1462م[5].

- تدخل الحفصيّين والمرينيين في اختيار سلاطين بني زيان:

أراد المرينيون والحفصيون أن يُحكموا قبضتهم على الدولة الزيانية, فاستعصت عليهم بسبب دهاء بني زيان وخبرتهم في تأليب القبائل ضدّ المرينيين والحفصيين. وبسبب عجز هؤلاء عن البقاء في تلمسان, وخوفهم من أن يتمكن بنو زيان من بناء دولة قوية تهدّد وجودهم

---

[1]-روى التنسّي قصّة رفع الحصار عن تلمسان فقال:((كان يوسف بن يعقوب قتل الفقيه العالم أبا عليّ المليابي, واستصفى أمواله, ومن جملة ما أخذ له خصيّ اسمه سعادا, كان ربّاه أبو عليّ المليابي يقول له: أنت أخي فلمّا أخذه يوسف بن يعقوب, صيّره من جملة الخصيان المتصرّفين بين يديه, فلمّا كان يوم الأربعاء السّابع من ذي قعدة من عام ستّة بعد سبعمائة, دخل الخصيّ المذكور على يوسف بن يعقوب وهو نائم, فألقى الله في قلبه طلب ثأر مولاه, فوجأه بسكّين في بطنه, فكان ذلك له الحتف, ولأهل تلمسان اللّطف, فلمّا وصل الهزميري فاسا, ونزل بجامع الصّابرين بلغهم الخبر, فدخل عليه خديمه وقال له: السّلطان أبو يعقوب مات, وفرّج الله على أهل تلمسان, فبسم الله نرجع إلى بلادنا)).ينظر: المصدر السابق, صص133-134.

[2]- ابن خلدون, المصدر السابق, 7/ 148-161؛ التنسي, ص146, 154؛ رشيد بورويبة وآخرون, الجزائر في التّاريخ– العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية الحكم العثماني–, الجزائر:المؤسّسة الوطنيّة للكتاب,1984م, صص384-389.

[3]- روبار برنشفيك, المرجع السابق, 241/1.

- J.-J.-L. Bargès, Complément de l'histoire des Beni-Zeiyan, rois deTlemcen : ouvrage du cheikh Mohammed Abd'al-Djalil al-Tenessy, paris: Ernest leroux , Libraire-éditeur, 1887 , p278.

[4]-التنسي, المصدر السّابق, ص241؛ برنشفيك, المرجع السّابق, 256/1.

[5]-الزركشي, المصدر السّابق, ص153.

وتقلّص حدودهم, بادر سلاطينهم إلى التدخل في اختيار السلاطين الزيانيين[1] حسب أهوائهم. ففي سنة 801 هـ/1398م, نصّب السّلطان عبد العزيز المريني على تلمسان أبا محمّد عبد الله بن أبي حمو الثاني, ثم قامت الدّولة المرينيّة بعزله سنة804هـ/1401م بعدما رأت منه إتّباع سياسة حازمة[2], و نصّبت محمّد بن خولة على عرش تلمسان, فكان عهده عهد استقرار, واستمرّ من 804هـ/1401م إلى غاية 813هـ/1401م, وخلفه ابنه عبد الرّحمن الذي بقي شهرين, ثمّ خلفه السّعيد بن أبي حمّو سنة 814هـ/1411م, فأسرف في البذل والعطاء حتّى أخرج له السّلطانُ المريني أبا مالك عبد الواحد, أحد أبناء أبي حمّو الثّاني فطرد عنها السّعيد بعد خمسة أشهر من ولايته[3].

و قام بعض السلاطين الحفصيين أيضا بتنصيب من يضمنون ولاءه من أبناء البيت الزياني, فمثلا قام أبو فارس عزوز بتنصيب ابن الحمراء سنة 827هـ/1424م[4], وكذلك ابنه أبو عمر عثمان الذي أخضع المتوكّل الزياني سنة 871هـ/1466م[5].

وغالبا ما كان تنصيب السلاطين الموالين يتطلب بعث الحشود, كما فعل السلطان أبو سالم, سنة 761هـ/1360م عقِبَ دخوله تلمسان ثمّ رجوعه الى المغرب بعد أن ولي عليها أبو زيّان حافد السلطان أبي تاشفين[6].

---

[1]-ابن الأحمر, تاريخ الدّولة الزيانيّة بتلمسان, تحقيق: هاني سلامة, ط1, بور سعيد:مكتبة الثّقافة الدّينيّة للنّشر والتّوزيع, 2001؛ زهرة البستان, صص 41-132؛ خالد بلعربي, الصّراع العسكري الزياني المريني- أسبابه ونتائجه- مجلّة الحضارة الإسلامية, جامعة وهران:دار الغرب للنّشر والتّوزيع,ع14, شعبان 2010/1431, صص185-190, ص188.

[2]-التنسي, المصدر السّابق, ص229.

- J.-J.-L. Bargès,op, cit, p275.

[3]-التنسّي, المصدر السابق, ص234

[4]- المصدر نفسه, ص241؛ برنشفيك, المرجع السّابق, 256/1.

[5]- أبو المكارم عبد الباسط بن خليل, رحلة عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس866-871هـ/1462-1467م, تحقيق: عمر عبد السّلام تدمري, مجلّة التّاريخ العربي, عدد17, شتاء2011, صص111-146؛ روبار برنشفيك, المرجع السابق, 291/1.

[6]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 167/7.

- الصراعات الداخلية:

شهد المغرب الأوسط عقب العصر الموحدي حالة من التفكك السياسي نتيجة الصراعات الداخلية, والتي ساهمت في توطد سلطة شيوخ القبائل العربية المستقرّة ضمن مجالات نفوذ الحفصيين والزيانيين.

أ- الدولة الزيانية:

كانت الدّولة الزيانيّة منذ قيامها سنة 633هـ/1236م تعرف حالة من الفوضى, بسبب تدهور أوضاعها السياسية, فالصّراعات الدّاخليّة بين أبناء الأسرة الحاكمة لعبت دورا همّا في زعزعة الاستقرار[1]. إضافة إلى الحروب التي خاضها السلاطين الزيانيون ضد خصومهم من مغرواة وبني توجين, وبعض شيوخ القبائل العربية الذين بلغت حروب يغمراسن[2] ضدّهم أكثر من 72 موقعة[3]. ولعلّه ليس من المجازفة أن نقول أنّ الدولة الزيانية لم تعرف استقرارا إلا في عهد سلاطين قلائل, ولفترات قصيرة, والتي كانت تنتهي بعودة الأمور إلى ما كانت عليه. ومن بين السلاطين اللأقوياء نذكر أبا حمو موسى[4] الأول الذي تولى سنة 707هـ-1307م وقد استعاد هيبة الدولة وسلطناها, من وادي ملوية إلى ضواحي الجزائر, وذلك خلال عشر سنوات أن, لكنّه قتل بعد أن ثار عليهم ابنه أبو تاشفين سنة 718هـ/1318م[5]. و نفس الشيء يقال عن أبي حمو موسى الثّاني[1] الذي أعاد للدولة

---

[1]- أبو العبّاس النّاصري, الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى, تحقيق وتعليق: أحمد النّاصري وجعفر النّاصري, الدّار البيضاء: دار الكتاب, 1954م, 161/4-163؛ مختار حساني, الدّولة الزيانيّة, ج1/ 19-21.

[2]-هو يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمّد العبد الوادي, أوّل من استقلّ بتلمسان من سلاطين بني عبد الواد, بويع سنة 633هـ, وتوفي في طريقه إلى تلمسان عائدا من تونس سنة 681هـ. يحي بن خلدون, المصدر السابق, 204/1؛ ابن خلدون, التّاريخ, المصدر السابق, 105/7-122؛ الزّركلي, المرجع السابق, 206/8-207 .

[3]-التنسي, المصدر السابق, ص128؛ الميلي, المرجع السابق, 454/2.

[4]-هو أبو حمّو موسى الأوّل بويع سنة 707هـ/1307م, وقد قال عبد الرّحمن بن خلدون أنّه : ((كان صارما يقظا حازما داهية, قوي الشّكيمة صعب العريكة, شرس الأخلاق مفرط الدّهاء, وهو أوّل ملوك زناتة, رتّب مراسم الملك وهذّب قواعده)). ثار عليه ابنه أبو تاشفين, فتوفي مقتولا سنة718هـ.ينظر: عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 7 /131-142.

[5]-عبد الرحمن بن خلدون, 7/ 139-142؛ التنسي, المصدر السابق, ص139.

عافيتها بعد الغزو الذي تعرضت له من قبل السلطان أبي عنان, ومع ذلك ففي عهده فقدت الدولة هيبتها أيضا, فبعد أن انهزم في بجاية أمام أبي عبد الله الحفصي سنة 765هـ/1364م, زالت هيبة الدولة من نفوس العرب, وبدأوا يُوجِّهون أنظارهم نحو التل, لذلك بادرت زغبة إلى التدفق على السهول الخضراء[2], ولكن ابنه أبا تاشفين ثار عليه واستعان بالسلطان أحمد المريني ليدخل تلمسانومن ثمّ قام بخوض حروب كثيرة ضدّ أبي حمو الأوّل والتي لقي فيها أبو حمو مصرعه سنة 791 هـ[3].

و أتاح ضعف الزيّانيين الفرصة أمام المرينيين والحفصيين وشيوخ القبائل العربية لتنصيب المطالبين بالحكم من البيت الزياني, سعيًا منهم لإضعاف شوكة الدولة, وتقوية نفوذهم على حسابها, فالسلطان أبو تاشفين محمّد المدعو -ابن الحمراء- حين ثار على أخيه أبي مالك عبد الواحد استعان بأبي فارس عزّوز[4] الذي نهض في جموعه, ودخل تلمسان سنة 827هـ/1424م[5], ونصّب ابن الحمراء. كما أنّ تشغيب البيت الزيّاني على أحمد العاقل, واستنجادهم بأبي عمر عثمان, هو الذي مكّن محمّد بن محمّد المتوكّل سنة 866 هـ/1462م من التربع على العرش الزياني[6].

ب- الدّولة الحفصيّة:

لم يكن الإقليم الشرقي لبلاد المغرب الأوسط بأحسن حال من الإقليم الغربي للبلاد, وكان استقرار هذا الإقيلم وتبعيته للحفصيين, مرتبطا بمدى قوة سلاطين بني حفص. فمدينة قسنطينة وعنابة وبجاية وغيرها من مدن الشّرق الجزائري كانت تابعة للحفصيّين, و لعبت

---

[1]-أبو حمو موسى بن يوسف, ولي الحكم سنة 760هـ/1359م, أظهر الحزم, وأحيى رسم الدّولة بعد أن عفّ, واهتمّ بالفقهاء والصّلحاء, وأقام الموالد. عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 163/7.

[2]- عبد الحميد حاجيات, المرجع السابق, ص117.

[3]-التنسي, المصدر السابق, ص181.

[4]- روبار برنشفيك, المرجع السابق, 241/1؛ محمّد العروسي المطوي, السّلطنة الحفصيّة تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1986م, صص570-574

-Bargès, op cit, p278.

[5]-التنسي, المصدر السّابق, ص241؛ برنشفيك, المرجع السّابق, 256/1.

[6]- المصدر نفسه, ص254.

أدوارا هامّة في تاريخ الدّولة الحفصيّة. فقسنطينة كانت تعدّ القاعدة الحفصيّة الثّانية بعد مدينة تونس, وتعتبر العمق الاستراتيجي والاقتصادي للسّلطة المركزيّة, وإحدى قلاعها العسكريّة المنيعة, لذلك كان يعيّن على إدارتها وال للعهد أو أمير حفصي مؤهّل يتميّز بخبرة سياسية وعسكريّة وإدارة عاليّة[1], يقول عبد العزيز فيلالي:((وليس غريبا أن تجتمع سنوات ازدهار هذه الدّولة واستتباب أمنها, في ظلّ أمراء وُلِدوا و نشأوا وترعرعوا في مدينة قسنطينة)).[2]

ومع نهاية القرن الثّامن وبداية القرن التّاسع الهجري شهدت المدن الغربيّة للسّلطنة الحفصيّة الكثير من مظاهر الفوضى وعدم الاستقرار. فبعد وفاة السّلطان أبي العبّاس الحفصي سنة796هـ/1394م[3] حاولت بعض المدن الاستقلال, هي المحاولات التي لم يقض عليها إلا السلاطين الأقوياء, كأبي فارس[4], الذي استطاع أن يستعيد سيطرته على قسنطينة وبجاية وبسكرة وبلاد ريغ ووارقلا والزاب, بل وقضى على إمارة بني مزني سنة 804هـ/1401م[5]. ووصل بحدوده الغربية إلى مدينة الجزائر سنة813هـ/1410م[6][7]. ونفس الشيء يقال عن ابنه أبي عمرو عثمان الحفصي الذي قضى على ثورة عليّ بن أبي فارس صاحب بجاية مع شيخ الذواودة وحاصر قسنطينة[8]. وعلى ثورة بني سيلين و ثورة عمه أبي الحسن ببجاية سنة 856هـ/1452م[9].

---

[1]- ابن قنفذ القسنطيني, الفارسية في مبادئ الدّولة الحفصيّة, تحقيق:محمّد الشّاذلي النّيفر وعبد المجيد التّركي, تونس:الدّار التونسيّة للنّشر, 1968, صص91-93.

[2]- عبد العزيز فيلالي, مدينة قسنطينة في العصر الوسيط, دراسة سياسيّة عمرانيّة ثقافيّة, قسنطينة:طبع دار البعث, ص55.

[3]-الزركشي, المصدر السابق, ص114؛ ابن قنفذ, المصدر السّابق, ص189. المطوي, المرجع السابق, صص 545-547.

[4]-ابن قنفذ , المصدر السابق, صص 190-198؛ المطوي, المرجع السّابق, ص554.

[5]-المصدر نفسه, صص190-194 .

[6]- الزّركشي, المصدر السابق, ص120؛ أبو عبد الله الباجي المسعودي, الخلاصة النقيّة في أمراء إفريقية, ط2, تونس, 1323 هـ, ص82.

[7]-روبار برنشفيك, تاريخ المرجع السابق, 246/1.

[8]-الزّركشي, المصدر السابق , صص137-138.

[9]- المصدر نفسه, صص142-146.

ولكنّ وفاة أبي عمرو عثمان سنة 893هـ/1488م قد أسدلت الستار عن عصر الدولة الحفصية الذهبي, و أدخلت السّلطنة الحفصيّة في مرحلة الانهيار[1]. منذ تولّي يحي بن محمّد المسعود أمور السّلطنة من 893 هـ/ 1488م إلى 899هـ/1494م[2]. وصارت السلطنة الحفصية لا تحُكم قبضتها على شرق المغرب الأوسط تماما, بل صار ذلك من اختصاص الأمراء المستقلين وشيوخ العرب النافذين[3].

- الغزو الاسباني لسواحل المغرب الأوسط:

مع نهاية القرن التاسع وبدايات القرن العاشر الهجري, استغلّ الإسبانيون أحوال المغرب الأوسط وضعُف سلاطينه من بني زيان وبني حفص, وتزايد صراع أمرائهم على العرش, وظهرت الكثير من المدن شبه مستقلة في وهران وتنس ومازونة[4] ومليانة وجزائر بني مزغنة وبجاية[5]. فبدأوا في شن الغارة على سواحله, ضمن مخططهم الذي عرف بحرب الاسترداد.

و تفاقم الوضع في أيام محمّد الخامس بن محمّد الثّابتي الملقّب بأبي قلمون الزياني, والذي كان من الضّعف بمكان, حيث أنّه:((لم يهن له في الملك قرار, ولا استقرّت في المملكة عمارة ولا دار, وقد عجز عجزا كليّا عن الدّفاع, وصار غير نافذ الكلمة ولا مطاع[6])).

---

[1]-بروبار برنشفيك, المرجع السّابق, 276/1.

[2]- أحمد بن أبي الضياف, إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان, تونس:الدّار العربيّة للكتاب, 1999, 1/ 189-190.

[3]- الباجي المسعودي, المصدر السابق, ص ص82-84.

- C.Fèraud, Conquète de Bougie par les Espagnols, R.A , N°12 , 1868 ,OPU , Alger ,1986, p247-249.

[4]- مازونة: مدينة صغيرة تبعد بنحو 60كلم غربي شلف, قال عنها حسن الوزان:((مدينة أزلية بناها الرومان, حسب قول بعضهم, على بعد نحو أربعين ميلا من البحر, تمتد على مساحة شاسعة وتحيط بها أسوار متينة, لكن دورها قبيحة فقيرة, وفيها جامع وبعض مساجد أخرى, لقد كانت مدينة متحضرة جدا في القديم, لكنها كثيرا ما تعرّضت للتخريب من قبل املوك تونس تارة ومن قبل الثوار تارة أخرى, وبالتالي من الأعراب, حتى أصبحت اليوم قليلة السكان...وجميعه تقريبا فقراء لأنّ الأعراب يثقلون كواهلهم بالاتاوات,)) . المصدر السابق, 36/2.

[5]- الباجي المسعودي, المصدر السابق, صص82-84.

- C.Fèraud, Op, cit, p248.

[6]- المزاري, المصدر السابق, 196/1.

وكان من نتيجة ذلك استيلاء الاسبانيين على المرسى الكبير[1] سنة911هـ/1505م[2], ووهران سنة915هـ/1509 م[3], وبجاية في 915هـ/1510م, ثمّ صخرة ألبنيون المقابلة لمدينة الجزائر, وميناء هنين[4]. ثمّ سعوا إلى التوسّع في أرجاء مملكة تلمسان فهاجموا مستغانم سنة917هـ/1511م, ومزغران[5], وسارع السّلطانين الزياني والحفصي, وزعماء المدن المستقلّة إلى تقديم فروض الطّاعة لملك إسبانيا, ولحاكم وهران وبجناية. أمّا الموانئ التي لم يحتلّها الاسبان كشرشال[6] وتنس[7] ومستغانم[1] ودلّس[2] وميناء مدينة الجزائر فقد أعلنت خضوعها لسلطة صاحب قشتالة, والتزمت بأداء ضريبة للاسبانيين[3].

---

[1]-المرسى الكبير: أحد أهم مراسي الجزائر الواقع بوهران, قال عنها حسن الوزّان:((مدينة صغيرة أسّسها في عصرنا ملوك تلمسان على ساحل البحر المتوسّط, بعيدة ببضعة أميال عن وهران, ومعناها الميناء الكبير, لأنّ هناك ميناء ما أظنّ أنّ في الدّنيا أكبر منه, يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب والسّفن الحربيّة, في مأمن من كلّ عاصفة وإعصار)), حسن الوزان, المصدر السابق, 31/2.

[2]-الميلي, المرجع السابق, 22/3-23.

[3]- قام الكردينال خيمينيس يتابع بالهجوم على وهران بعد أن صدر بيان ملكيّ في ديسمبر914هـ/1508م, و استطاع أن يقود سنة 915هـ/1509م عمارة مكوّنة من ثلاثة وثلاثين باخرة حربيّة, وواحد وخمسين زورقا صغيرا, من قرطاجنة بالأندلس, وقد شارك في غزو وهران كبار القادة, وقد سقطت المدينة سنة915هـ. الميلي, المرجع السّابق, 24/3؛ عبد القادر فكاير, الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة وآثاره(910-1206هـ/1505-1792م), الجزائر:دار هومة, 2012م, ص54.

[4]-وليم سبنسر, الجزائر في عهد رياس البحر, تعريب عبد القادر زباديّة, ط1, الجزائر:المكتبة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع, 1980, ص27.

[5]- مزغران: حاليا هي إحدى البلديات التابعة لحاسي مماش بمستغانم, قال عنها حسن الوزان:((مدينة صغيرة بناها الأفارقة على شاطئ البحر المتوسط, قريبا من مصب نهر الشلف في البحر, وهي كثيرة السكان مصونة, لكنها متعرضة كثيرا لتعسفات الأعراب, وليس لواليها إلا قليل سلطة في الداخل, وأقل من ذلك في خارج المدينة. المصدر السابق, 32/2.

[6]- شرشال: مدينة بها ميناء شرشال, تابعة لولاية تيبازة بوسط الجزائر, قال عنها حسن الوزان: ((مدينة كبيرة جدا وأزلية, شيّدها الرومان كذلك على ساحل البحر المتوسط ...خربت أثناء الحروب القائمة بين ملوك تلمسان وملوك تونس, وبقيت خالية من السكان زهاء ثلاثمائة سنة, حتى سقوط غرناطة, في أيدي المسيحيين فقصدها الغرناطيون إذ ذاك وأعادوا بناء عدد مهم من دورها, وجددوا القلعة ووزعوا الأراضي بينهم). المصدر نفسه, 34/2.

[7]-بعد وفاة السّلطان الزياني محمّد الثّابتي سنة908هـ/ 1503م, آل الأمر إلى ابنه الأكبر عبد الله, فثار عليه شقيقاه أبو زيان ويحيى, فألقى السّلطان عبد الله القبض على أبي زيان, بينما فرّ يحيى, واستنجد بالأسبان, فقاموا بتنصيبه

وكان من نتائج ذلك ظهور القبائل العربية الحليفة[4], وأصبحت أكثر قبائل بني عامر رعية للاسبانيين فيما تحوّل بطن شافع منهم إلى جند لهم, وكانوا قرابة عشرين دوارا و مشهورين بإذعانهم الشّديد للاسبانيّين, وكانت تربطهم على حسب المصادر علاقة حب وولاء ليهود وهران[5], وأولاد علي القبيل العامريين كانوا يناهزون سبعين دوارا, وعرفوا بإذعانهم الشديد, وكان فيهم رابح بن صولة أحد شجعانهم, كثرت غاراته ضدّ القبائل الخارجة عن طاعة الاسبانيين, كما غزوا قرية الكرط في مرات عديدة[6], وكذلك الونازرة وقيزة وأولاد عبد الله من بني عامر[7].

ونفس الشيء فعلته قبائل حميان العربيّة و الذين أطلق عليهم المشرفي " القبائل المتنصرة" وقد قام شيخهم بجلب الماء إليهم بعد حصار الباشا إبراهيم لهم سنة 1050هـ/ 1641م[8]؛ وكانت هذه القبائل كما يقول المشرفي :((أهل نجدة وبأس شديد, وقتال عنيد, ورأي وتدبير, وحيلة وتشمير, فتقوّى بهم الاسبانيون بغاية التّمكين, واشتدّت شوكتهم على المسلمين, واعتدّوا بهم, وصاروا مشتدّين وأكثروا من شنّ الغارات على الأقربين والأبعدين, فكانوا

حاكما على تنس, مقابل التزامه بمحالفة الأسبان, وأداء ضريبة لحاكم وهران. عبد القادر فكاير, المرجع السّابق, ص58.

[1]- مدينة مستغانم هي مدينة ساحليّة, تقع شرق وهران, وقد جعلها موقعها الجغرافي عرضة لتدخّل حاكم وهران الإسباني, والذي خضع له شيوخها وشيوخ مدينة مزغران, بعد أن فقدوا الثّقة في ملوك بني زيان, وذلك في 26ماي 1511م؛ فعقدوا اتّفاقيّة يتكفّلون بموجبها بمحالفة الأسبان, وأداء ضريبة ماليّة, وإطلاق الأسرى المسيحيّين. حسن الوزان, المصدر السابق, 32/2.

[2]- تدلّيس (دلّس) مدينة ساحلية تقع بين بجاية ومدينة الجزائر, تمّ تأسيسها في القرن الثاني قبل الميلاد من طرف القرطجانيين, قال عنها حسن الوزان:((مدينة عتيقة بناها الأفارقة على بعد نحو تسعة وثلاثين ميلا من شاطئ البحر المتوسط, تحيط بها أسوار قديمة متينة, وجل سكانها صباغون لوجود عدد من العيون والجداول بها, ...وتتبع تدلس دائما عاصمة الجزائر في كل شيء)). حسن الوزان, المصدر نفسه, 42/2؛ أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص218.

[3]- الميلي, المرجع السابق, 43/3؛ دغموش كاميلية, المرجع السابق, صص36-38.

[4]- أحمد بن محمّد الراشدي, المصدر السابق, ص438.

[5]- المشرفي, المصدر السابق, صص 26 -27, ص31؛ الزياني, دليل الحيران وأنيس السّهران, ص146.

[6]- المشرفي, المصدر السابق, ص31.

[7]- المصدر نفسه, ص32.

[8]- المصدر نفسه, ص26.

عيونهم الباصرة, وجنودهم الهائلة المكاثرة وإخوتهم النّصحاء, وأحبّاؤهم النّجباء))[1], و بهذا صارت هذه القبائل تعمل لصالح الإسبانيين[2]. ومن مظاهر ولاء شيوخ القبائل, بثّ الدّعاية في وسط الأهالي لصالح الإسبانيين, وهذا ما جعل المشرفي يقول أنّهم :((صارو شجى في حلق الدّين باحتكام, وقذى في عيون الإسلام, وحلاوة في قلوب الكفرة اللّئام))[3] .

وكانت الإمبراطورية الإسبانية تُعوّل كثيرا على دعم شيوخ القبائل لأنها تعلم أنهم عماد حلفائهم الزيانيين, وعصب جيشهم, و نجد في رسالة من لبريخا كوريجبدور وهران إلى الإمبراطور بتاريخ 2سبتمبر1531م, وهو ما يوافق تقريبا:20 محرّم 938هـ ما نصه:((إنني باذل قصارى جهدي لاقناع عرب المملكة-تلمسان-بأن ينضموا إلينا[4])). ويعتبر ابن رضوان من أشهر شيوخ القبائل العربية الذين تحالفوا مع الاسبانيين, والذي كثرت مراسلاته لملوك إسبانيا, طالبا العون منهم[5], ومظهرا مدى استعداده لمحاربة خصومهم[6]. لا سيما بعد أن تحول الزيانيون إلى جثة هامدة تعبث بها سياسة الاسبانيين, و تتحكم فيها أهواء بني عامر بن زغبة[7].

وحفظ لنا الأرشيف الاسباني مراسلة من بعض بطون سويد, إلى شرلكان, تظهر مدى الخنوع والخضوع, وإظهار الولاء المطلق لإمبراطور إسبانيا مقابل مكاسب ضيقة, فقد جاء في

---

[1]- المصدر نفسه, ص26.

[2]- المشرفي, المصدر نفسه, صص13 -16؛ أحمد بن عبد الرّحمن الشّقراني الرّاشدي, القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط, تحقيق وتقديم: ناصر الدّين سعيدوني, ط1, بيروت:دار الغرب الإسلامي,1991م, صص65-68.

[3]- المشرفي, المصدر السابق, ص26.

[4]- أحمد توفيق المدني, حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792 م, الجزائر: الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع, ص250.

[5]- كان عبد الرحمن بن رضوان أحد كبار شيوخ بني عامر, وقد صاهر بعض سلاطين بني زيان, وكان له حفيد منهم, وسعى إلى تنصيبه, فاستعان بالاسبانيين, وقد شارك في حملة مارتينيز دي أونجيلو (Alonso Martinez Angelo) سنة 1535م, وهي الحملة التي تمكّن الزيانيون من تشتيتها بفضل جهود المنصور بن غانم شيخ بني راشد. دغموش كاميلية, المرجع السابق, ص40.

[6]-أحمد توفيق المدني, المرجع السابق, ص252.

[7]-مولاي بلحميسي, المقال السابق, صص30-37.

هذه الرسالة قولهم: (السلطان العلي القوي المرفع الكمل الحفل الأجل المشكور الأشنع الأرفع, طيعنا ومولانا السنيور السلطان النبرادور(الإمبراطور)نصره الله وعلى قدره وشنو على جميع سلاطن الدنيا. من خدمك المِقَبِّلين الأرض تحت أقدمكم السعدة. وصفنكم"عبيدكم"... محمد بن يوسف السودي وعبيد الجزائر السودي, بعد السلام على مقمك العلي...مرسلين من عند خوتنا الشيخ حميد العبد وكافة ولاد محمد وكافة ولد بوبكر ونحن في خيل وقوم كثير قد الالفين خيل صحححه و نحنا خدمكم وجندكم للغرب والشرق.ونحب بالله أن نحنا جند برسم الجزائر وغيرها بالله تعل وكذلك على خدمتكم الله ينصرك المربطين أولاد سي أبو عبد الله سيدي محمد أفغول وسيدي عمار [1])).

ويظهر من لغة الرسالة أنّ كاتبها لم يكن من أهل العلم, وأنها قد كتبت باللهجة العامية, وهو ما يؤكد أنّ شيوخ القبائل كانوا يحافظون على السرية في مراسلاتهم, ولم يكن لديهم كتاب أو فقهاء يعولون عليهم في كتابة مثل هذه الرسائل, بسبب خوفهم من افتضاح أمرهم, وبسبب انفضاض الفقهاء والمثقفين عنهم.

وقد صرّح الفقهاء بتكفير بطون بني عامر المتعاملة مع الإسبانيين, ومن سار على دربها, كقول العلامة أبي العباس أحمد بن أبي محلي الذي ملك مرّاكش:

فمن مبلغ عنّي قبائل عامر   ولا سيما من قد ثوى تحت كافر

إلى قوله

فصرتم من جور البغاة كأنّكم   يهود الجزا تعطونها بالأصاغر[2]

وهو الحكم الذي أصدره في حقهم الحلفاوي في القصيدة الحلفاوية التي قام بشرحها الجامعي[3] الحلفاوية والمشرفي في بهجة الناظر[1].

---

[1]-أحمد توفيق المدني, المرجع السابق, ص267.

[2]- المشرفي, المصدر السابق, صص 32-33؛ أبو راس محمّد بن النّاصر النّاصري, الحلل السندسيّة في شأن وهران والجزيرة الأندلسيّة, تحقيق سليمة بنعمر, ط1, ليبيا:دار صنين للطّباعة والنّشر, 1370هـ-2002م, ص207.

[3]- أبو زيد عبد الرحمن الجامعي, فتح مدينة وهران, ضمن "تاريخ تحرير وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي, من خلال مخطوطتين, تحقيق: مختار حساني, جامعة الجزائر, 2003م, 1 /35.

وفي المقابل لم تذعن قبائل كثيرة للإسبانيّين كهبرة والبرجية ومجاهر وغيرها من القبائل؛ الذين لم يدخلوا تحت طاعة الاسبانيين[2], وكان لهبرة حروب عظيمة معهم حتّى فنيت أعداد كبيرة منهم[3]. وكثير من بطون بني عامر كانت فقط مقيمة في جوار الاسبانيين, وسبب عدم اتّخاذها موقفا ثوريا ضدّ الاسبانيين, قد يكون راجعا إلى طبيعة المجال الجغرافي الذي هو أغلبه أراضي منبسطة لم تسمح لهم بالدفاع عنها, لعدم وجود تحصينات طبيعية, ممّا يجعلها لقمة سائغة في أيدي الفرسان الاسبانيين[4].

وإنّ الانصاف يجعلنا نبتعد عن أحكام الرواية التاريخية التقليدية, ونقول بكلّ تجرّد أن ولاء هذه القبائل للاسبانيين, قد تعدّدت أسبابه, فبعض القبائل تحالفت معهم خوفا من غاراتهم العنيفية, والتي ساعد على فاعليتها الحيز الجغرافي المنبسط, والذي لم يسمح لهذه القبائل بالدفاع والاحتماء بالمعاقل الطبيعيّة, وبعض القبائل كانت قد أثرت فيها الدعاية ضدّ العثمانيين, فخافوا من سطوتهم, كما أنّ قبائل أخرى كان الدّافع المادي والبحث عن النفوذ هو سبب موقفها هذا[5].

ولا يجب أن ننسى أن دعم كثير من هذه القبائل للإسبانيين لم يكن حبا فيهم, أو تقصدا منهم لمصادمة نصوص الشريعة الاسلامية, وإنّما رغبة في توسيع النفوذ على حساب قبائل

---

[1]- المشرفي, المصدر السابق, صص12-16.

[2]- يُشار إلى أنّه لا يعدّ من قبائل المغطسين من دخل تحت حماية الاسبانيين بعد احتلالهم وهران وبجاية, بسبب ضعف هذه القبائل وغياب قوة تحميهم, كما فعل قائد ومرابطي وشيوخ مستتغانم ومازغران, وكذلك جميع السكان من عرب ويهود, في 26 ماي 1511, وإنّما يقصد بالمغطّسين القبائل التي أعانت الاسبانيين ضد المسلمين. أحمد توفيق المدني, حرب الثلاثمائة سنة, ص146.

[3]- المشرفي, المصدر السابق, ص36.

[4] - أبو زيد الجامعي, المصدر السابق, 22/1.

[5]- دغموش, المرجع السابق, صص67-72.

أخرى, كما أنّه مساير لسياسة حلفائهم من ملوك بني زيان الذين تحالفوا مع الاسبانيين[1], أي أنّ القبائل العربية قد كانت تدعم الزيانيين من خلال مساندة الاسبانيين[2].

ولو أنّ الدولة الزيانية لم تتعامل مع الاسبانيين وتحالفت مع العثمانيين لما تحالف العرب مع الاسبانيين, لذلك نجد أنّ الدولة الزيانية حين قام بعض سلاطينها بإظهار عداوته للاسبانيين, وطلب من العرب أن يكفوا عن بيع المؤن لهم, امتنع العرب عن ذلك, وهو ما توضحه رسالة لبريخا كوريجبدور وهران إلى الامبراطور بتاريخ 2 سبتمبر 1531, ما نصه:((إنني باذل قصارى جهدي لاقناع عرب المملكة-تلمسان-بأن ينضموا إلينا وأنا معتقد أن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يمكننا بها معاقبة ملك تلمسان على عدم وفائه, وعلى عدم سماحه للعرب بأن يبيعونا المؤن كما كانوا يفعلون من قبل[3])). إذا شيوخ القبائل الذين استمدوا سلطتهم من دعم الزيانيين, لم تكن أنفتهم تسمح لهم أن يتخلوا عن حلفائهم لحساب العثمانيين الذين لن يعترفوا بسلطتهم, فهم يرون أنّ الاذعان للاسبانيين مقابل نيلهم بعض السلطة خير من التسليم للعثمانيين, وفقدهم لمكانتهم وجاههم, لذلك حين لجأ الأمير الزياني عبد الله إلى حاكم وهران مصطحبا نساءه وأولاده , رافقه كثير من الشيوخ المنضمين تحت لوائه خوفا من المصير المجهول الذي ينتظرهم لو استسلموا للعثمانيين, لا سيما بعد صدور فتاوى تكفيرهم من قبل الفقهاء والمرابطين[4].

وفي الأخير نستنتج وبوضوح أنّ السلطة المركزية في بلاد المغرب الأوسط كانت تعرف ضعفا وتقهقرا رهيب, نتيجة صراع الزيانيين ضدّ المرينيين والحفصيين, وتدخّل هؤلاء في شؤون

---

[1]- أحمد بن محمّد الراشدي, المصدر السابق, ص440.

[2]- من ذلك تحالف أبي حمو الثالث مع الاسبانيين, فقد دخل تلمسان بمساندتهم سنة 1518م/964هـ. وثار عليه أخوه أبو سرحان المسعود, واستعان بخير الدين واحتل تلمسان سنة 1519م, وبايع العثمانيين وحكم باسمهم ثم قام بنقض العهد فتحالف العثمانيون مع أخيه أبي عبد الله الثاني, ودخل تلمسان. ونفس الشيء فعله محمد السابع ابن أبي عبد الله الثاني سنة 1524م, الذي انصاع لدسائس الاسبانيين, إلى أن تمّ خلعه فذهب إلى وهران ملتجأ عند الاسبانيين, وخلفه أبو زيان أحمد الثالث 1542, و استجاب لرغبة الشعب وأظهر استعدادا لمحاربة الاسبانيين. ينظر: أحمد توفيق المدني, حرب الثلاثمائة سنة, ص247.

[3]-المرجع نفسه, ص250.

[4]-أحمد توفيق المدني, المرجع السابق, ص251.

تلمسان, عن طريق الغزو أو من خلال تنصيب السلاطين الموالين. إضافة إلى الثورات الداخلية التي شهدها المغرب الأوسط, فالزيانيون كثرت الثورات ضدّهم وكذلك ثارت المدن الشرقية ضدّ الحفصيين. وهو ما أدّى إلى ظهور ممارسين للسّلطة, وعلى رأسهم شيوخ القبائل العربية على التقوّي.

المبحث الثالث:العصبـــــــــية العربية

مكنت العصبية العربية شيخ القبيلة من لم شمل أبناء القبيلة, واستغلال رابطة القرابة بينهم, لتقوية نفوذه, وفرض نفسه على السلطة المركزية, وأجهزتها في قرى ومدن المغرب الأوسط. ولابأس بالتنويه والإشارة إلى مدى أهميّة العصبية العربية ودورها في تقوية نفوذ شيوخ القبائل العربية في بلاد المغرب الأوسط.

مفهوم العصـــــبية:

تمثّل العصبية أحد أهم مقوّمات سُلطة شيوخ القبائل, وهي مشتقة لغة من العصبة, وهم قرابة الرجل. يقول ابن منظور: ((والتَّعَصُّبُ: مِنَ العَصَبِيَّة. والعَصَبِيَّةُ: أَن يَدْعُوَ الرجلَ إِلى نُصْرةِ عَصَبَتِه، والتَّأَلُّبِ مَعَهُمْ، عَلَى مَنْ يُناوِيهم ظَالِمِينَ كانوا أَو مَظْلُومِينَ. ويبيّن ابن منظور أنّ العصبة هم الأَقاربُ مِنْ جِهَةِ الأَب، لأَنهم يُعَصِّبونه، ويَعْتَصبُ بِهِمْ أَي يُحِيطُون بِهِ[1])).

أمّا اصطلاحا: فتعد العصبية رابطة اجتماعية– سيكولوجية, شعوريّة ولا شعوريّة معا, تربط أفراد جماعة ما, قائمة على القرابة, ربطا مستمرا يبرز ويشتدّ عندما يكون هناك خطر يهدّد أولئك الأفراد أو كجماعة[2].

وقد أسهب عبد الرحمن بن خلدون في تناول مسألة العصبية, فبيّن أنّ العصبيّة بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة[3], ورأى فيها المنطلق المنهجي لتفسير توليد الدّولة من رحم القبيلة في المغرب الوسيط[4]. وتقوم العصبية على النسب، وهي تختلف لذلك باختلاف درجات تقارب الأنساب؛ ولذلك نجد عصبيات مختلفة. وتشمل العصبية الصرحاء والموالي والجيران[5].

---

[1]–ابن منظور, المصدر السابق, 606/1.

[2]– عابد الجابري, المرجع السابق, ص254؛ محمّد بن حسن, المرجع السّابق, ص13.

[3]– المصدر السّابق, 174/1.

[4]–المصدر نفسه, 174/1؛ محمّد بن حسن, المرجع السّابق, ص12.

[5]– جواد علي, المرجع السابق, 392/7-393.

و كانت العصبية تدفع بالرجل من القبيلة إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين، وليس له أن يتساءل: أهو ظالم أم مظلوم[1]؟ ولعل البيت الجاهلي يفسر هذا السلوك الطبيعي لدى أفراد القبيلة:

قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم　　　طاروا إليه زُرافات ووحـــــدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم　　　في النائبات على ما قال برهانا[2]

كما جعلت العصبية الأفراد ينصهرون في الجماعة القبلية, ولا يعبرون عن إراتهم الخاصة, بل تتحول إرادتهم الخاصة وبطريقة عفوية إلى إرادة متناغمة مع إرادة القبيلة, فالفرد من أبناء القبيلة إذا غزى أو ثأر, فهو يفعل من أجل القبيلة لا لمصلحة نفسه[3].

وتعتبر البداوة أحد أهم العوامل التي تحافظ بها القبيلة على قوة عصبيتها[4], وقد مثل لذلك ابن خلدون بقبائل بني طيِّئ وبني عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور ومن بعدهم لما تأخّروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن, أمسكت حال البداوة عليهم قوّة عصبيّتهم[5].

ولا نبالغ إذا قلنا أن العصبية تمثّل أهم وسائل ومرتكزات تجمع القبائل العربية في بلاد المغرب الأوسط, حيث أضفت على هذا التجمع طابعا سياسيا فريدا, فأصبحت القبيلة تهادن وتساوم وتطالب و تقاوم, مستغلة الظروف العامة, وضعف السلطة المركزية, وقد استغل مشايخ القبائل الأذكياء مسألة العصبية في تكثير سواد قبائلهم [6] .

---

[1]-جواد علي, المرجع السابق, 7/ 392-393.

[2]-المرجع نفسه, 7/ 392-393.

[3]- محمّد نجيب بوطالب, المرجع السابق, ص108.

[4]. رحال بوبريك وعبد الله هرهار, الديناميات الاجتماعيّة وأفق البحث بالصّحراء, الرّباط: مركز الدّراسات الصّحراوية, 2016, ص105.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 1 /173.

[6]- محمّد فاروق النّبهان, المرجع السّابق, ص160.

ومكنت العصبية القبائلَ العربية من لمّ شتاتها[1], والوقوف ضدّ السلطة المركزية, وضدّ القبائل البربرية العريقة والتوسع على حسابها, فحين نصبت بنو حصين ابن عم السلطان أبي حمو للملك سنة سبع وستين وسبعمائة, ساهمت العصبية في هبوب ريح العرب وجيشان مرجلهم على زناتة, فاستولوا على تلول بلادهم بالمغرب الأوسط ، فتملكت زغبة سائر البلاد بالأقطاع من السلطان طوعا وكرها ، وأفرجت لهم زناتة عن كثيرها، ولجئوا إلى سيف البحر[2].

العصبية العامّة والعصبية الخاصّة:

تعتبر العصبية شعور بالقرابة ووحدة المصير[3] , ويختلف نوع هذا الشعور داخل القبيلة بحسب القرب والبعد من الأب الأول للقبيلة, و الذي إليه يرجع نسبها, وبحسب المصالح الخاصة والمصلحة العامة, ويمكن أن نلاحظ نوعين من العصبيات ظهرت عند القبائل الهلالية:

أ- العصبية العامّة:

يُقصد بالعصبية العامّة تلك الرّابطة التي بامكانها أن تنصهر فيها كلّ العصبيات الخاصّة, وتضمحلّ فيها كلّ الرغبات الشخصية والمصالح الضيقة, حيث يتعصب كلّ حيّ أو بطن من القبائل لنسبهم العامّ, بسبب المصلحة العامّة, تعصبا يستوي فيه أصحاب النسب القريب مع أصحاب النسب البعيد, كما يستوي فيه حتى أولئك النازعون إلى القبيلة عن طريق الولاء والحلف والجوار.

وتملك هذه العصبية قدرة كفيلة بتزهيد أبناء القبيلة في المصالح الضيقة[4]. ويمكن لهذه العصبية أن تتّسع لتجمع القبائل المختلفة, مكوّنة ما يعرف بالجمهور, وهذا هو أقوى أنواع التجمع القبلي, وتظهر هذه العصبية حين يظهر العدوّ المشترك مشكلا خطرا على كيان القبيلة بشتى أفرادها وأطيافها وفصائلها[5].

---

[1]- محمّد فاروق النّبهان, المرجع السابق, ص160.

[2]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 64/6.

[3]- جواد علي, المرجع السّابق, 394/7.

[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 164/1.

[5]- جواد علي, المرجع السّابق, 394/7.

ويربط ابن خلدون بين بقاء هذا النوع من العصبية, وبين البداوة, وأنّ القبيلة إذا بدأت تفارق نظام البداوة, فإنّ العصبية العامّة ستضمحل, حيث قال:((وهذا حال بني طيِّئ وبني عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور ومن بعدهم لما تأخّروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبّسوا بشيء من دنياهم كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوّة عصبيّتهم[1])).
و كان العرب يناشدون هذه العصبية عند الضرورة, , مثل استنجاد صغير بن عامر شيخ البدو من بني عامر بيعقوب بن علي شيخ الذواودة, ودعوته إياه لنصرة حليفهم أبي حمو[2].
وأيضا استنجاد عرب التل بعرب الصحراء, مثل استنجاد قبائل الحشم بسهل غريس بقبائل الصحراء من حميان وغيرهم[3].

ب- العصبيّة الخاصّة:

من الواضح أن القبيلة حين تتسع بطونها, تبدأ الفوارق المميزة لبعض البطون والأفخاذ عن سائر البطون الأخرى, وتحصل المنافسة على الرياسة, وتكون غالبا الفوارق إمّا كثرة عدد, أو عراقة نسبٍ, أو وثاقة قربٍ, أوحصول شرف, أو تأييد خارجي مؤثر. وهو ما يرجح الكفة لبعض الفروع على حساب البعض الآخر, ممّا يسمح بظهور عصبيات خاصّة, تكون أشدّ التحاما من النّسب العام, فيبيت التعصب للنسب القريب دون النسب البعيد. وهي العصبية التي تغلّب فيها لغة المصالح الخاصّة, و تؤدي هذه العصبية إلى تفرق القبيلة وتقاتلها, ولا يتفطّن إلى هذه العصبيات الدّاخلية إلا السلاطين الأذكياء, والذين يلعبون عليها لإخضاء القبائل الكبيرة[4].

وممّا يساعد على وجود هذا النوع من العصببية, دخول القبيلة في حالة الترف, وبداية التمدّن والتلبس بمذاهب الحضر, ومن أسباب الترف التي عرفتها بعض القبائل العربية بالمغرب الأوسط, وساهمت في تشتيت القبائل إلى عصبيات خاصة متصارعة, المشاركة في تجارة

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 1 /173.
[2]- المصدر نفسه, 71/6.
[3]- بلهاشمي بكارة, المصدر السّابق, صص347-349.
[4]- جواد علي, المرجع السّابق, 394/7.

القوافل الكبيرة, وظهور أسر أرستقراطية تشرخ نظام القبيلة القائم على المساواة بين الأفراد والفروع[1].

و تجلت هذه العصبية الخاصة في الصراع الذي كان دائم النشوب بين قبائل الصحراء, وقبائل القرى والمدن, والذي حدث بين قبائل عربية مستقرة ضدّ قبائل أعرابية, وكانت القبائل الصحراوية تشكل خطرا على القبائل المستقرة, ويرجع ذلك ابن خلدون إلى أنّ كلّ حيّ من العرب يلي نعيما وعيشا خصبا دون الحيّ الآخر فإنّ الحيّ المتبدّي يكون أغلب له وأقدر عليه إذا تكافئا في القوّة والعدد[2].

ومن مظاهر هذا الصراع ما كان يعانيه عمال الزاب من هجمات الأعراب الذواودة, فحين منع السلطان إبراهيم الحفصي شيخ البدو الذواودة محمد بن يعقوب بن علي ابتداءا من 791هـ/ 1389م, من الصعود إلى التل, وأبقاهم في مشاتيهم, نقصت عندهم الميرة, وقل الطعام, فقاموا بشن الغارة على بسكرة, حتى كاد يفسد ما بينهم وبين ابن بمزني من الحلف القديم. ولم تتوقف غاراتهم إلا سنة 792هـ/1390م, بعد وفاة السلطان ابراهيم الحفصي, وقيام محمد بن يعقوب بن علي باظهار الطاعة للحفصيين[3].

- دور العصبية العامة في توطّد سلطان القبائل الهلالية:

ساهمت العصبية العامّة في توطّد سلطان القبائل العربيّة, وذلك أنّ شيوخ هذه القبائل قد استغلوا حالة التشرذم التي عرفتها القبائل البربرية, إضافة إلى ضعف السلطة المركزية وانقساماتها الداخلية والخارجية, وعملوا على تكثير سوادهم.

و سهّلت هذه العصبية العامّة في عملية الغزو الهلالي لبلاد إفريقية, فحين وطأت أقدامهم بلاد إفريقية, رأوا ضرورة تقوية صفهم وتدعيمه بأبناء عمومتهم في صعيد مصر, فبادروا إلى

---

[1]- علاوة عمارة, المرجع السّابق, ص102.
[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 1 /173.
[3]- المصدر نفسه, 577/6.

الكتابة لإخوانهم شرقيّ النيل يرغبونهم في البلاد[1]. وفعلا أجاب أبناء عمومتهم هذا الصريخ, ولم يتخلف إلا عدد قليل, بل إنهم بذلوا المال لأجل نجدة إخوانهم ومشاركتهم ملك إفريقة.

ويظهر أنّ القبائل الهلالية قد طلبوا العصبية إلى أبعد حدوها, فتحالفوا مع عرب الفتح, رغم الفوارق التاريخية والدينية والاجتماعية بين العصبيتين, وفعلا أذعن عرب الفتح لصريخ أبناء جنسهم من الهلاليين, فما إن بدأت المعركة بين المعز بن باديس وبين القبائل الهلالية حتى تحيّز عرب الفتح إلى الهلاليين للعصبية القديمة, ممّا أدّى إلى هزيمة المعزّ أمامهم, واستغلت رجالات من عرب الفتح الأوضاع المزمنة ليؤسّسوا إمارات مستقلة, استطاعت أن تعيش بفضل التحالف مع القبائل الهلالية كبني جامع وبني خراسان[2].

وفي أثناء الصراع بين تميم والناصر بن علناس, سعى الناصر إلى كسر شوكة أنصاره الرياحيين[3], مستعينا على ذلك بالهلاليين, ولكنّ الرياحيين تنبهوا إلى الخطر المحدق بهم, فراسلوا بني عمومتهم من العرب الذين حالفوا الناصر, يذكرونهم وشائج القربى, ووحدة المصير, وخطورة إعانة الناصر, و طلبوا منهم الغدر به, وخوفوهم من استتباب الأمر للناصر, , وهو ما وجد آذانا صاغية عند إخوانهم.

وفور التقاء الناصر بن علناس برياح عند موضع يسمى سبيبة سنة 457هـ/1065م. حتى خذلته بنو هلال, وانهزم الحماديون، وسلم الناصر فى عشرة أفراس, فكان جملة من قتل فى هذه الوقعة من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرون ألفا. وصار للعرب غنائم كلها كبيرة صارت لهم سندا في توطيد وجودهم, وتكريس نفوذهم[4]. وهكذا امتدّت أيدي العرب واستطالوا على بني حماد وبني زيري وزناتة على حد سواء, وفُتِحت أمامهم مجالات المغرب الأوسط, و أدرك النّاصر بن علناس وتميم ذلك, وندم تميم على فعلته, وتيقّن من أنه فوت على نفسه

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 20/6.
[2]- المصدر نفسه, 21/6.
[3]-المصدر نفسه, 230/6-232.
[4]-النويري, المصدر السابق, 222/24-223.

فرصة طرد العرب من بلاد إفريقية والمغرب نهائيا. فاصطلح تميم مع الناصر سنة سبعين وأربعمائة، وأصهر إليه تميم بابنته[1].

أما في العهد الزياني فكثيرا ما كانت العصبية العامة تحشد الكثير من القبائل الهلالية, ضدّ أو مع الدّولة, فقد تحالف سنة 767هـ/1365م, أغلب بطون بني هلال مع بني حصين, ذلك التحالف الذي قال عنه ابن خلدون ابن خلدون:((هبت من يومئذ ريح العرب وجاش مرجلهم على زناتة ووطئوا من تلول بلادهم بالمغرب الأوسط فأعجزوا عن حمايته، وولجوا من فروجها ما قصروا عن سده)).[2] وهكذا يتّضح جليًّا أن العصبيّة العامّة مكنت القبائل الهلالية من أن تقف في صف القوى التي سعت إلى تجريدها من نفوذها, واستطاعت أن تصمد وتتغلب على القبائل الصنهاجية والزناتية, بخلاف القبائل البربرية التي لم تكن تحركها إلا العصبية الخاصّة.

وهناك ملاحظة مهمّة رغم مناشدة شيوخ القبائل العربية للعصبية العامة, في ظروف متكرّرة, فإنّهم عجزوا عن تطوير العصبية العامّة, وتحويلها إلى حلف دائم, تتمخض عنه دولة قويّة, وسبب ذلك أنّ هذا النّوع من العصبية كان مجرّد ردّة فعل, فهو استجابة لشعور آني لمواجهة خطر كاسح يهدّد سمعة القبائل العربية ووجودها. وليس نابعا من فكرة قومية, أو طموح سياسي ناضج.

- إثارة السلاطين للعصبيات الخاصّة:

بسبب احتكاك البربر مع القبائل الهلالية, وإقامتهم بجوارهم, واتصال مجالاتهم, فإنهم سرعان ما تفطّن سلاطينهم وزعماؤهم إلى هشاشة النظام القبلي الهلالي, ونقاط ضعفه, وأدركوا وجود عصبيات خاصّة, وهو ما أسفر عن وجود منافسة شديدة بين البطون والفروع, لأجل الرئاسة والزعامة[3].

وقد أدّى ذلك إلى تقلّص نفوذهم, وكان أول من تفطن لذلك من ملوك البربر تميم الذي كان يفرق بين العرب ومن ذلك تفريقه بين عدى ورياح, حين قتل رجل من رياح, ثم

---

[1]-عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السابق, 212/6.

[2]-المصدر نفسه, 64/6.

[3]-المصدر نفسه, 67/6.

اصطلحوا وأهدروا دمه، وكان صلحهم مما يضر بتميم وبلاده، فقال أبياتا يحرض فيها على الطلب بدم المقتول، وهي:

متى كانت دماؤكم تطـــل أما فيكم بثأر مستقـــل

أغانم ثم سالم إن فشلتـــم فما كانت أوائلكم تـــذل

ونمتم عن طلاب الثأر حتى كأن العز فيكم مضمحل

وما كسرتم فيه العـــــوالي ولا بيض تفلّ ولا تـــسل[1]

وحقا عملت هذه الأبيات عمَلها, فثارت ثائرة رياح, وقتل إخوة المقتول أميرا من بنى عدى. فقامت الحرب بينهم واشتد القتال، وكثرت القتلى بينهم حتى أخرجوا بنى عدى من إفريقية، وهكذا بلغ تميم بلسانه ما لم يبلغه بسنانه[2].

وفي عهد الزيانيين والحفصيين كان السلاطين يكتفون بالتحريش بين الفروع المتنافسة, ويقدمون فرعا ويؤخرون آخر, وهو ما جنّبهم الكثير من المخاطر[3]. مثل قيام الأمير أبو زكريا باستنفار الكعوب ومرداس من بطون بني سليم من مواطنهم بقابس وطرابلس وما جاورها. واصطنعهم لمشايعة الدولة. وأسْكنهم بجوار قبائل رياح, فأنزلهم بالقيروان وبلاد قسطيلة، وقد تمّ لأبي زكريا ما أراده, إذ سرعان ما وفدت رجالات من مرداس على رياح في بعض أيام القحط, وما إن رأوا النعيم الذي يعيش فيه الرياحيون, حتى حسدوهم وقاتلوهم عليها، وقتلوا رزق بن سلطان عمُّ محمدٍ بن مسعود شيخُ رياح، فكانت بينهم وبين رياح أيام وحروب حتى رحُّلوهم من الجانب الشرقي من إفريقية وأصاروهم إلى جانبها الغربي. وملك الكعوب ومرداس من بني سليم ضواحي الجانب الشرقي كلها، من قابس إلى بونة[4] إلى نفطة[1],

[1]-النويري, المصدر السّابق, 236/24.

[2]-المصدر نفسه, 236/24.

[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 183/7-186.

[4]- بونة أو عنابة مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط على بعد نحو مائة وعشرين ميلا غربا, وكانت تسمى قديما أوربونة, وفيها كان سان أوكيستان, حين مكانت خاضعة للقوط الوندال, وبنيت بعدها مدينة أخرى تبعد

وطردوا الذواودة إلى قسنطينة وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ وواركلا وما وراءها من القفار في بلاد القبلة[2]. ونفس الشيء فعله الزيانيون حين استقدموا قبائل بني عامر من مجالات بني يزيد, وجعلوهم بينهم وبين المعقل, كما ضربوا بينهم وبين قبائل سويد, ممّا ولّد حزازات بين بني عامر وخصومهم من المعقل وسويد .

وبالتأمّل في سياسة السّلاطين الزيّانيّيين, لا يُمكننا إلا القول أنّهم قد تمرّسوا في تفكيك العصبيات العامّة إلى عصبيات خاصة متناحرة, وصاروا يقزّمون حتى العصبيات الخاصة, ويفرقون بين أفخاذها, كتفريقهم بين بني يعقوب بن عامر وبني حميد بن عامر, بل وفرّقوا بين فرع بني حميد بن يعقوب, حين تولى أبو حمو موسى الثاني وقدّم عبد الله بن عسكر على خالد بن عامر.

وهكذا نجدُ أنّ العصبية العربية ساعدت في تقوية نفوذ شيوخ العرب, تلك العصبيّة التي جعلت إرادة العربي تتلاشى أمام إرادة القبيلة التي يشترك معها في الدم الواحد, لاسيما العصبيّة العامّة بخلاف العصبية الخاصة التي تنبّه إليها السلاطين ومن خلالها تأتّى لهم تقزيم القبيلة.

عن الأولى بنحو ميلين, واستعملت في بنائها أحجار المدينة القديمة, وهي مشهورة عند الكثير من الناس باسم بلد العناب, لكثرته في ذلك المكان. حسن الوزان, المصدر السابق, 61/2.

[1]–نفطة: مدينة قريبة من توزر التونسية. المصدر نفسه, 140/2.

[2]– عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 45/6.

المبحث الرابع: تناحر القبائل البربرية

استطاعت القبائل البربرية أن تُوجِد لنفسها كيانات سياسيةٍ, تطوّرَ بعضها ليُكوّن دولة بربرية, كدولة بني يفرن وبني حمّاد ودولة المرابطين والموحّدين, والحفصيّين والزيانيين والمرينيين, وذلك منذ انتفض سكان المغرب الإسلامي ضدّ حكم الأمويين وأوائل أيّام الخلفاء العباسيين. ونتج عن ذلك ظهور تحوُّلاتٍ اجتماعية وسياسية عرفتها بلاد المغرب عموما, ساهمت في تلاشي قوة البربر, وهو ما حدث قبيل وبعد الغزو الهلالي, والذي كان له دور في تقوية نفوذ شيوخ القبائل العربية, وهو التلاشي الذي أوجدته تراكمات زمنيّة وتحوّلات سياسيّة أسفرت عن تغييرات اجتماعيّة واضحة, وهو ما تمّ عبر مراحل سأتطرّق إلى أهمّها:

في عهد العبيديين:

يعتبر المغرب الأوسط موطن قبائل زناتة, وكانت تلمسان هي قاعدته, وهي دار ملكهم[1].
أماّ من جهة الشرق فتجاورهم قبائل صنهاجة, ابتداءا من مدينة الجزائر والمتيجة والمدية[2]
وصولا إلى بجاية[3] .ومن بجاية وقسنطينة تستوطن قبائل زواوة وكتامة ومجيسة وهوارة[4].
وقد قامت الدولة العبيدية على سواعد كتامة, وعلى أشلاء خصومهم من البربر كقبائل زناتة الذين دفعوا ثمن وقوفهم ضد العبيديين[5], ونفس الشيء حصل لتلك القبائل التي ثارت مع أبي يزيد النكّاري[6], وهو ما أدّى إلى تلاشي قوّة العديد من القبائل البربرية التي كانت معروفة

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 134/6.

[2]- مدينة تقع على بعد 80 كم جنوب الجزائر العاصمة, وهي أهم مدن إقليم التيطري, وسميت نسبة لقبيلة صنهاجية اسمها لمدية, قال حسن الوزان عنها:((مدينة بناها الأفارقة في تخوم نوميديا, على بعد نحو ثمانين ميلا من البحر المتوسط, وتقع في سهل خصيب جدا, تحط بها جداول ماء كثيرة وبساتين, سكانها أثرياء لأنهم يتجرون مع نوميديا, ويرتدون لباسا أنيقا, ويسكنون دورا جميلة, إلا أن الأعراب يثقلون كواهلهم بالاتاوات, ولا يستطيع ملك تلمسان أن يدافع عنهم, ولا أن يسيطر عليهم)). المصدر السابق, 41/2.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 134/6.

[4]- المصدر نفسه, 134/6.

[5]- محمّد سهيل طقوش, المرجع السابق, ص88.

[6]- هو أبو يزيد مخلد بن كيراد، ولد ونشأ بتوزر، وتعلم القرآن وخالط النكاريّة من الخوارج وهم الصفريّة، فمال إلى مذهبهم ، ولما مات المهدي العبيدي خرج بناحية جبل أوراس، وركب الحمار وتلقّب بشيخ المؤمنين، ودعا للناصر

بالنجدة والبأس, مثل قبيلة بني كهلان أحد بطون هوارة والتي بسبب مناصرتها لأبي يزيد, ردّد عليهم العبيديون البعوث حتّى تشتّتت بطونهم وتفرّق أمرهم[1]. ونفس الشيء يمكن أن يُقال على قبيلة لواتة, و التي كثر ترديد السلاطين البعوث عليهم فقلّ عددهم, وضعف أمرهم, وصاروا في عداد القبائل الغارمة[2].

وإذا كان هذا هو حظّ القبائل المعاديّة للوجود العبيدي[3], فإنّ القبائل الحليفة قد دفعت أيضا ثمن السّيادة والزعامة, كقبيلة كتامة والتي سرعان ما قلّت أعداد بطونها وخلت مجالاتهم[4], والسبب هو تحملهم أمر قيام الدّولة, وكثرة المعارك التي خاضوها في إفريقة والمغرب الأوسط ومصر والشّام, فقد كان فتح مصر على سواعدهم, ومثّلوا دعامة أساسية للجيش العبيدي الذي قصد بلاد المشرق, وهو ما يعبر عنه عنه عبد الرّحمن بن خلدون بقوله:((وكانت بالدولة عند عهد العزيز والحاكم قد خلا جوّها من رجالات كتامة وتفرّقوا في المشرق في سبيل ذلك الملك، وانقرضوا بانقراض أمر الشيعة وموت العاضد آخر خلفائهم، وأكلتهم الأقطار والوقائع))[5].

ومعلوم أنّ قبيلة كتامة, سرعان ما لحقها الضعف, وتحوّلت الدّولة عنهم, حين فقدوا الكثرة والقرة[6], وهو ما أتاح للصنهاجيين أن يخلفوهم. وقد أدّى ضعف قبيلة كتامة, ولواتة إلى خلو مجالاتهم من الرجالات المقاتلة, ولذلك حين قدم العرب الهلاليون إلى بلاد المغرب

صاحب الأندلس من بني أميّة فاتبعه أمم من البربر وكاد ينهي وجود العبيديين إلى أن تمّ القضاء عليه. عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 52/4, محمد سهيل طقوش, المرجع السابق, ص120.

[1]-المصدر نفسه, 186/6.

[2]-المصدر نفسه, 153/6.

[3]- اصطفّت كثير من القبائل البربريّة ضدّ الوجود العبيدي, بسبب الخلافات المذهبية بين السنة والفكر الإسماعيلي من جهة, والصّراع العبيدي الأموي على مراكز النفوذ من جهة أخرى. محمد حسن, المرجع السابق, 31/1؛ بوبة مجاني, دراسات إسماعيليّة, قسنطينة: مطبوعات جامعة منتوري, 2002-2003م, ص83.

[4]- موسى لقبال, المرجع السابق, ص518.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 107/4.

[6]- قال الادريسي: ((ولم يبق من كتامة في وقت تأليفنا لهذا الكتاب إلا نحو أربعة آلاف رجل وكانوا قبل ذلك عددا كثيرا, وقبائل وشعوبا)). المصدر السّابق, 270/1.

الأوسط تمكّنوا من إخضاع هذه القبائل ومزاحمتهم في ديارهم, وغلبتهم, ومن ذلك قبيلة بني سعادة من لواتة الذين صاروا في أقطاع أولاد محمد من الزواودة[1].

- الصراع الزناتي الصنهاجي:

شهد المغرب الإسلامي صراعا قويا, امتدّ لفترات مديدة بين الزناتيين والصنهاجيين, ويمكن ملاحظة هذا الصّراع من خلال:

1- قبيل قيام دولة بني زيري:

يعتبر زيري بن منّاد الصنهاجي من أوّائل ملوك صنهاجة الذين كلّفهم العبيديون لقيادة حروبهم ضدّ الثائرين, وهو ما دفع بالقبائل الزناتية خصوم الصنهاجيين إلى التشيع للأمويين بالأندلس أيام المستنصر, وأقاموا دعوته ببلاد المغرب الأوسط نكاية ببني عبيد, وكانت قيادتهم إذ ذاك تحت إمرة محمد بن الخير بن محمد بن خزر[2] أمير مغراوة, وزعيم زناتة[3].

نفذ صبر الحاكم العبيدي ورأى ضرورة تأديب قبائل زناتة, وأسند المهمّة إلى زيري بن مناد , وأسفر الصراع عن مقتلة عظيمة في صفوف الزناتيين, و وهلك فيما يذكر بضعة عشر أميرا منهم[4]. بعد هذا الانتصار استطال زيري وصنهاجة على بوادي المغرب، وصارت له المسيلة والزاب, ثمّ تجدد الصراع بين صنهاجة وزناتة, فقتل زيري في جمع من صنهاجة, سنة 360هـ . وبعد مهلك زيري, تولى ابنه بلكّين فنهض إلى زناتة من أشير, ودارت بينهم حرب شديدة. فانهزمت زناتة وصارت لبلكين تيهرت[5] وسائر أعمال المغرب، وضمّ إليه المسيلة

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 153/6.

[2]- محمّد بن خزر: ملك بلاد زناتة, وكان من أكبر ملوكهم, ووقعت بينه وبين زيري بن مناد حروب كثيرة, قُتل بعضها. يحي بن خلدون, المصدر السابق, 169/1.

[3]-ابن الخطيب, المصدر السّابق, ص154

[4]- عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 207/6.

[5]-تيهرت: مدينة أسسها عبد الرحمن بن رستم, سنة 761م, وأصبحت عاصمة للرستميين, إلى أن قام العبيديون بانتزاعها منهم, وبنيت على أنقاضها تيارت, والتي تعتبر من مدن الجزائر. أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص205.

والزاب فاستفحل أمره واتسعت ولايته, فقام بالإثخان في القبائل البربرية التي نازعته نفوذه, كزناتة و هوّارة ونفزة[1].

2- عهد الدّولتين الزيرية والحمّادية:

بعد فتح العبيديين لمصر, عزم حاكمهم المعز[2] على الاستقرار بها, ساعيا لمضايقة العباسيين, وفكّر فيمن يقلّده ملك إفريقية, فلم يجد أكفأ من بلكّين بن زيري, فقلّده ملك بلاد إفريقية سنة 361 هـ/972م[3], وكنّاه أبا الفتوح، ولقبه سيف الدولة[4]. ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة[5]. وبعد خروج العبيديين, استمرّ إجلاب بلكين على بلاد المغرب الأوسط, وأثخن في زناتة, عملا بوصية المعزّ الذي أوصاه : "أن لا يرفع السيف عن البربر". وقد توطّد ملك بلكين سنة 367هـ, وأضاف إليه نزار بن المعز ولاية طرابلس، وسرت وأجدابية, ثم ارتحل بلكّين إلى المغرب، وفرّت أمامه زناتة وأوقع بهم وقتل ابن خزر أمير مغراوة. فاستنجدت زناتة بالمنصور بن أبي عامر[6].

وفي أيام باديس استمرّ الصراع بين آل زيري الصنهاجيين وزناتة, فعقد المعزّ لعمّه يطوفت على تاهرت، وأرسله رفقة حمّاد لقتال زناتة, كما عقد باديس لعمّه حمّاده سنة 395هـ, لقتال زناتة, فأثخن فيهم واختطّ مدينة القلعة. وحين تولى المعزّ بن باديس كانت له كسلفه وقائع كثيرة مع زناتة, استطاع فيها أن يروّض بعض أحيائهم ويضمن ولاءهم[7].

3- الصراع بين الحماديين وزناتة:

---

[1]-ابن الخطيب, المصدر السّابق, ص65؛ عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 207/6.

[2]-هو معد بن تميم ولد بالمهدية يوم الاثنين في رمضان سنة 319هـ, وولي وله اثنتان وعشرون سنة, قام في أيامه أبو الحسن جوهر بفتح مصر سنة 358هـ, وانتزعها من الإخشيديين, وأقيمت له الخطبة بجوامعها, وبنى جوهر القاهرة, ووصلها المعز بعد بناء القاهرة في رمضان سنة 363هـ. ابن حماد, المصدر السّابق, ص88.

[3]-محمّد الطمّار, المرجع السّابق, ص43.

[4]- ابن حمّاد, المصدر السّابق, ص92.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 207/6؛ محمّد الطمار, المرجع السّابق, ص3.

[6]- المصدر نفسه, 207/6.

[7]-المصدر نفسه, 209/6-211.

بسبب الصراع بين آل زيري وزناتة, قام باديس بتكليف حمّاد بقتالهم, فأثخن حماد في قبائل زناتة, وتزايد نفوده, وسرعان ما أظهر الخلاف[1], و استقل عن باديس[2], فانتقسمت صنهاجة إلى دولة آل زيري ودولة آل حماد[3], وقد ورثت الدولة الحمادية الصراع مع زناتة, لا سيما أن الدولة الحمادية كانت متاخمة لديارهم[4].

وفي أيام المنصور الحمادي صارت رئاسة قبائل زناتة لقبائل بني ومانوا والذين تمكّنوا من الاستقلال بتلمسان واتصلت مجالاتهم إلى قريب من المدية[5], وعندما ظهرت دولة المرابطين, وقامت بفتح تلمسان, تحالف بنو ومانو مع المرابطين, وبدؤوا بالإجلاب على أراضي الحماديين, وبإغراء من والي المرابطين بتلمسان تاشفين بن يغمر، و لم يتمكن المنصور من صدّ قبائل بني ومانو إلا بالاستعانة بأحياء من عرب الأثبج وزغبة وربيعة، 476هـ في نحو عشرين ألفا[6].

- استغلال القبائل الهلالية للصراع الصنهاجي الزناتي:

دفع الحقد الناجم عن الصراع الصنهاجي الزناتي بقبائل زناتة إلى خذلان صنهاجة في صراعاتها ضدّ العرب, ففي معركة حيدران الفاصلة, انفضّت زناتة, ليتكبّد المعزّ بن باديس هزيمة مدويّة, مكّنت العرب من دخول القيروان, كما غدرت زناتة بالناصر بن علناس الحمادي بسبيبة, فجرّوا عليه الهزيمة ، التي فتحت أمامهم بلاد المغرب الأوسط[7].

---

[1]-قال ابن الخطيب: ((وكان حماد شجاعا جوادا. قرأ الفقه بالقيروان, ونظر في الجدل, وكان من أكمل الملوك, فعز وظهر على أعدائه, واستمرت حاله إلى أن نهض باديس بأمره, وفي سنة 405هـ كتب إليه باديس يأمره برفع يده عما حازه من الأعمال فامتنع حماد وساء ما بينهما, وكان بين باديس والعم حماد أهوال عظيمة, وحروب مبيدة وهزم حماد هزيمة مستأصلة, ألجأته الى الاعتصام بالجبال والقلاع في أثناء ذلك طرق باديس الموت فجأة, لعشر بقين من ذي القعدة سنة 406هـ)). المصدر السابق, صص71-72.

[2]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 227/6-233.

[3]- محمّد الطمّار, المرجع السّابق, ص88.

[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 209/6-211.

[5]-المصدر نفسه, 233/6.

[6]-المصدر نفسه, 224/6.

[7]- المصدر نفسه, 230/6.

وهكذا انتهب الهلاليون بلاد المسيلة و حمزة و الجزائر والمدية ومليانة والتي صارت ملكا لبني يزيد وحصين والعطاف من زغبة، و قبيلة الثعالبة, وهي المجالات التي كانت لبني ملكان بن كرت الصنهاجيين[1].

أمّا زناتة فإنها دفعت ثمن غدرها بالصنهاجيين, إذ سرعان ما تفرّغ لهم العرب بعد أن قوّضوا ملك الصنهاجيين, لا سيما بعد معركة سبيبة, وتمكّن العرب وبمداخلة الصنهاجيين من دخول الضواحي وعجز صاحب تلمسان من آل محمد بن خزر[2] وجيوشه مع وزيره أبي سعدى خليفة اليفرني أن يردّهم, بل انهزم أمامهم, وقتل بعد حروب طويلة، وبذلك خرب عمران بلاد المغرب الأوسط وغلب العرب صنهاجة وزناتة على الضواحي[3].

يقول ابن خلدون:((ولم يزل هذا دأب العرب وزناتة حتى غلبوا صنهاجة وزناتة على ضواحي إفريقية والزاب، وغلبوا عليها صنهاجة وقهروا من بها من البربر وأصاروهم عبيدا وخدما[4])).

وتمكن الهلاليون من إزاحة قبائل بني واسين من بني مرين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى مواطنهم بصحراء المغرب الأوسط من مصاب وجبل راشد إلى ملوية فيكيك[5] ثم إلى سجلماسة, وصاروا أنصارا لبني ومانوا وبني يلومي ملوك الضواحي بالمغرب الأوسط، فكان

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 203/6.

[2]- قال يحي بن خلدون: ((جدّهم خزر بن حفص بن صولات بن وازمار بن مغراو وهو مولى لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه, تملكه من سبي إفريقية, فأسلم على يده المباركة, فلم تزل ذريته شيعة لبني أمية, وذلك هو السبب في تولية بني أمية إياهم المغرب...وانتهت دولتهم بمقتل تميم بن معنصر على يد المرابطينسنة 461هـ)). المصدر السابق, 1/ 170-169

[3] - عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 230/6.

[4]- المصدر نفسه, 230/6.

[5]- فيكيك: عبارة عن ثلاثة قصور وسط الصحراء, يحيط بها عدد كبير من النخيل, يطلق على مجموعة كبرى من الواحات والقصور التي تحتل مسافة 20كم في وهاد يبلغ ارتفاعها 900م, وقصر فيكيك يضم سبعة قصور مهمة وهي زناكة والودلغير والعبيدات والنعيز وأولاد سليمان والحمام الفوقاني والحمام التحتاني. تقع على بعد 371 كلم جنوب وجدة على مقربة الحدود الجزائرية. حسن الوزان, المصدر السابق, 132/2؛ عبد الرحيم سلامة, المرجع السابق, صص93-94.

لبني مرين الناحية الغربية بتيكورارين إلى ملوية وسجلماسة، في حين استقر بنو يادين[1] بالناحية الشرقية ما بين فيكيك ومديونة إلى جبل راشد ومصاب. وكان بي بني مرين وبني يادين الكثير من الفتن, والصراعات.

ومن القبائل التي ضعفت بسبب الصراع مع بني حماد, نجد قبيلة عجيسة الذين دخلوا في صراعات مع بني حماد, فاستلحمهم السيف، وورثت مواطنهم قبائل عياض وسمّي الجبل بهم, وتحوّلوا إلى قبائل غارمة[2].

ومن نتائج هذا الصراع أيضا تزايد ثراء القبائل العربية, فمثلا حين تولى الناصر بن علناس الحمادي, بعد أن قتل بلكين, أمر بخزائن بلكين فوهبها ذؤبان العرب[3].

- عهد الموحدين:

مع قيام دولة الموحدين, كانت بلاد المغرب الأوسط تحت إشراف بني يلومي وبني ومانو الزناتيتين[4] , وعندما زحف عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط في اتباع تاشفين بن علي[5]، قام بنو ومانو بطاعته, أمّا بنو يلومي فناصروا تاشفين بن علي ممّا كلّفهم الثمن باهظا بعد زوال دولة المرابطين[6].

وما إن تغلب الموحدون على المغرب الأوسط وقبائله من زناتة, تحيّز لهم بنو عبد الواد وبنو توجين, وطردوا بني مرين إلى الصحراء[7]. ولما قام عبد المومن[1] بفتح بجاية وانتزعها من بني

---

[1]- بنو يادين بن محمد, يجتمعون مع بني راشد في جدهم محمد وهم مكن بطون زناتة, وكانو معروفين ببني واسين, ومن فروعهم بنو عبد الواد وبني مرين وبني توجين وبني مصاب وبني زردال.عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 79/7.

[2]- المصدر نفسه, 192/6.

[3]-ابن الخطيب, المصدر السّابق, ص93.

[4]- عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السابق, 74/7.

[5]- تاشفين بن علي, هو آخر ملوك المرابطين, هزمه عبد المومن بن علي بين الصخرتين, من ظاهر تلمسان, وفرّ إلى وهران يبغي النجاة في أسطوله البحري, فسقط من جرف ليلا, ومات ليلة 27 من رمضان سنة 539هـ, وبذلك انتهى أمر المرابطين, وبدأت دولة الموحدين. يحيى بن خلدون, المصدر السابق, 170/1.

[6]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 76/7.

[7]- يحيى بن خلدون, المصدر السّابق, 198/1؛ عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 84/7.

حماد, اختلّ أمر العرب بسبب ذهاب دولة بني حمّاد, وخالفوا الموحدين, كما أنهم تحالفوا مع ابن غانية, لذلك قام الموحدون بنقل العاصم ومقدم وقرة وتوابع لهم من جشم، وأنزلوا جميعهم بالمغرب. وبذلك خلا الجوّ لرياح, وتفرّغت للقبائل البربرية, فتملّكت إفريقية وضواحي قسنطينة[2].

و ساهم الموحدون في تقويض سلطان البربر في الإقليم الشرقي للمغرب الأوسط, كما مكّنوا لقبائل رياح من الاستبداد فيه, لا سيما حين نقلوا إلى المغرب خصومهم الأثابج من العاصم ومقدم وقرة وتوابع لهم من جشم بسبب فتنة ابن غانية، وذلك في عهد يعقوب المنصور, فملكت رياح ضواحي قسنطينة[3].

و أدّى انقسام القبائل البربرية وكذا العربية بين مؤيد للموحدين, ومخالف لهم إلى توّحد القبائل البربرية والعربية الحليفة, تحت راية الموحدين, ممّا مكّن قبائل زغبة من النزول بجوار قبائل بادين, جنوب المغرب الأوسط من مصاب إلى جبل راشد[4] .

وبهذا صارت القبائل العربية والبربرية تجتمع وتتفرق بحسب المصالح والميول السياسية. والمتتبع للمسيرة التاريخية للعرب الهلالية يجد أن أهم شيء مسؤول عن توجيههم هو المال, فهم لا يقدمون على أي حركة دون التأكد من المنفعة المالية, وقد أُثر عن المنصور الموحدي أنّه وصّى في مرض موته بقوله: ((إن هؤلاء العرب تداروهم وتلاطفوهم وتحسنوا إليهم, ومن وفد عليكم منهم تعطوه وتحسنوا إليه غاية الاحسان, وتشغلوهم بالحركات ولا تتركوهم للعطلة والراحات[5])).

- في عهد الدولة الزيانية:

قبيل قيام دولة بني زيان, كان الصراع على أشدّه بين الموحدين وخصومهم من بني مرين وبني

[1]- هو عبد المومن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان بن نصر بن علي بن عامر ويرجع إلى قيس عيلان بن مضر, ملك تلمسان سنة 539هـ, وهو الذي وطّد ملك الموحدين, وقضى على دولة المرابطين, ووحّد أقسام المغرب من أوسط وأقصى وأدنى سنة 555هـ. يحي بن خلدون, المصدر السابق, 1/170-171.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 315/6.

[3]-المصدر نفسه, 31/6.

[4]- عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 29/6.

[5]- شرقي نوارة, المرجع السّابق, ص47.

حفص, وهو ما ساهم في تفرّق الكثير من القبائل البربرية, كفروع سدويكش وفروع بني يادين الذين تحالفوا مع زغبة, وصار لهم ما بين المسيلة إلى صحراء تلمسان, وملك بنو يادين وزناتة التلول[1], وأصبحت قبائل كثيرة أوزاعا بين أحياء وقبائل العرب إلا من تحيّز منهم إلى أعالي الجبال واعتصم بها من غارات العرب[2].

وفي خضم هذا الصراع ظهر الزيانيّون, والذين لم يكونوا على وفاق مع بقية القبائل الزناتية الأخرى, لا سيما أبناء عمومتهم بني عبد القوي ، وألاد منديل المغراوي, ومنصور المليكشي, خصوصا بعد أظهرت هذه القبائل منافسة شديدة لبني زيّان, وذلك رغبة في الاستقلال عنهم, لذلك بادروا إلى الاستنجاد بالعرب, وقد ظهر ذلك جليا سنة 639هـ [3], عندما قامت هذه القبائل بحشد أحياء زناتة و زغبة ضدّ بني عبد الواد[4] مستعينين بالسلطان الحفصي[5] .

كما استعان الزيانيون بشيوخ العرب للدفاع عن عرشهم, وبذلك مكّنوا العرب من لعب أدوار حاسمة في تقرير مصير بلاد المغرب الأوسط, ومن ذلك الصراع بين بني عبد الواد ومغراوة أيام أبي ثابت سنة 752هـ. وقد استعان أبو ثابت بأحياء زغبة من بني عامر وسويد، وحين انهزمت مغراوة فر شيخها عليّ بن راشد إلى تنس، إلى أن اقتحمها عليه أبو ثابت, فقام بقتل نفسه, وافترقت مغراوة من بعده وصارت أوزاعا في القبائل[6].

وقد تحالف كثير من البربر مع ونزمار بن عريف وقبائل سويد, تحت راية أبي الحسن وأبي عنان المرينيين, وهو ما أسفر عن زوال الدولة الزيانية[7].

نتج عن صراع القبائل العربية تزايدُ نفوذ شيوخ القبائل العربية, وتفرق القبائل الزناتية, فقد افترقت بطون مغراوة وصارت أوزاعا في القبائل[1], ومن ذلك قبائل بني راشد الذين تفرقت

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 54/6.

[2]- المصدر نفسه, 198/6.

[3]-المصدر نفسه, 392/6.

[4]-المصدر نفسه, 390/6-391.

[5]- قام السلطان أبو زكريا الحفصي بتنصيب شيوخ قبائل توجين ومغراوة ومليكش كأمراء مستقلين عن يغمراسن بن زيان, وذلك حتى يضعف من نفوذ يغمراسن حليف الموحدين. يحيى بن خلدون, المصدر السّابق, 206/1.

[6]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 145/7-161؛ التنسي, المصدر السّابق, ص153.

[7]-التنسي, المصدر السّابق, ص154.

رياستهم وبطونهم بعد أن انتقلت رياستهم من بني عمران إلى منافسيهم, لتنقسم قبيلتهم[2], وقد استمرت انقساماتهم إلى أن ذهبت رياستهم فصاروا من القبائل الغارمة[3].

وأما بنو توجين فرغم أنهم في أيام محمد بن عبد القوى قد تقبضوا على شيوخ حصين, وأغزى من وراءهم من بقية الثعالبة واستلحمهم واكتسح أموالهم. وغلبهم بعدها على تيطري وأزاحهم عنها إلى متيجة، وصيرهم في عداد الرعايا يؤدون إليه المغارم والوظائف، ويأخذهم بالعسكرة معه, غير أن تنازع بني عبد القوي ، وقتل بعضهم بعضا. ودخولهم في حروب كثيرة مع بني عبد الواد[4] , ضعف أمرهم, وتملّك كل فريق منهم بحيّ من أحياء العرب, يستنصر به على بني عمومته[5]. وقد وصل الأمر ببني توجين بسبب صراعهم مع بني سلمة إلى أن تحوّلوا إلى : ((عبيد للعرب وخول لسويد وعبيد لجبايتهم))[6].

وعندما تغلبت بنو مرين على المغرب الأوسط, قاموا بإذهاب ملك مليكش من صنهاجة ببسيط متيجة, وكان الثعالبة في إيالتهم, فاهتبلوا الفرصة, وتملكوا سهل متيجة[7].

وهكذا تكرّر الأمر مع قبائل زناتية أخرى في مناسبات متكرّرة, حتى تفرقت بطونهم, بين قبائل العرب, مثل بني ريغة الذين قال عنهم ابن خلدون:((لما افترق أمر زناتة صار بنو ريغة أهل مغارم لأمراء عياض يقبضونها للدولة الغالبة ببجاية، وأمّا من كان ببسيط نقاوس فهم في أقطاع العرب لهذا العهد[8])) ومعلوم أنّ قبائل ريغة كانت قبل هذا العهد أهل عزّ وسلطان.

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 7/145-161؛ التنسي, المصدر السّابق, ص153.

[2]- بنو راشد بن محمد بن يادين, أحلاف بني عبد الواد, كانت مواطنهم بالصحراء بالجبل المعروف براشد اسم أبيهم. وكانت مواطن مديونة من قبائل البربر قبلة تاسالت وبنو ورنيد من بطون دمر قبلة تلمسان الى قصر سعيد. وثمّ غلبوا بنو يلومي على جبل هوّارة وتوسعوا إلى بسائط مديونة وبني ورنيد، واستوطن بنو ورنيد الجبل المطل على تلمسان، واستوطنت مديونة جبل تاسالت. وملك بنو راشد بسائطهم القبلية. ثم استوطنوا جبلهم المعروف بهم لهذا العهد. المصدر نفسه, 7/203-204.

[3]-المصدر نفسه, 7/203-204.

[4]-المصدر نفسه, 6/74.

[5]-المصدر نفسه, 7/214.

[6]-المصدر نفسه, 7/217.

[7]-المصدر نفسه, 6/74.

[8]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 7/64.

وبعض القبائل البربرية رفضت الضيم, والنزول تحت حكم العرب, ودفع المغرم لهم, مثل قبيلة واركلا التي تغلب الهلاليون على مجالاتها, فنزحت جنوبا إلى المدينة التي عرفت باسمهم, وهي مدينة واركلا "ورقلة حاليا", فاستبحر عمرانها, وصارت قِبلة لمن يرفض العيش تحت ظلّ شيوخ العرب, فلحق بهم الكثير من ظواعن زناتة عند غلب الهلاليين إيّاهم على الضواحي، وهكذا خلا الجوّ لقبائل الأثبج بضواحي القلعة والزاب وما إليها فاحتلوا بلادهم وتفرّدوا بحكمها[1].

كما قامت قبائل أخرى باللجوء إلى الجبال الوعرة, محتمية بها من هجمات العرب, كقبائل زواوة[2] والذين كانت معاقلهم من أمنع الحصون[3]. ومع ذلك فإن العرب تربصوا بهذه القبائل, المحتمية بالجبال وحاولوا إخضاعهم, فجبال الأوراس كانت تشهد حروبا طاحنة بين العرب والبربر[4].

و قام بنو زيان بدور مهم حين سعوا إلى التحريش بين القبائل العربية والبربرية المتحالفة, ومن ذلك قيام أبي حمو ابن أبي سعيد سنة 710هـ, بغزو قبائل توجين, ثمّ أعطى إرث ملكهم لقبيلة الحشم وهي السياسة التي يصفها التنسي بقوله: ((سياسة فرقت بين الفصيلتين إلى آخر الدّهر, واستعمل فيهم يعقوب بن يوسف بن حيون المغراوي))[5] .

ونلاحظ أنّ قبائل توجين أثناء تشيعهم لبني مرين على حساب بني زيان, قد اصطدمو بقبائل عربيّة حليفة لبني زيان, فحين تحالف نصر بن عثمان من بني تجين مع يحي بن علي

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 7/69-70.

[2]-قال عنهم عبد الرحمن بن خلدون: ((زواوة مثل بنو بجرو وبنو مابكلات وبنو مترون وبنو ماني وبنو بوعردان وبنو تورغ ، وبنو بو يوسف، وبنو عبسي، وبنو بو شعيب، وبنو صدقة، وبنو غبرين، وبنو كشطولة. ومواطن زواوة بنواحي بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة أوطنوا عنها جبالا شاهقة متوعّرة تنذعر منها الأبصار ويضلّ في غمرها السالك مثل بني غبرين بجبل زيري)). المصدر نفسه, 7/183-186

[3]- المصدر نفسه, 6/169.

[4]- مارمول, المصدر السّابق, 2/390.

[5]- يحيى بن خلدون, المصدر السّابق, 1/213.

بن عبد الرزاق أحد عمال بني مرين على بلاد بني توجين, قام بالإغارة على هبرة, فأوقع بهم, ثم إنهم قتلوا إخوته[1].

ولا نبالغ إن قلنا أن قبائل البربر لم تعرف مرحلة ضعف وتفكك كما عرفته في العهد الزياني, وهو ما دفع بالكثير من قبائل البربر إلى الانتساب إلى القبائل العربية, ومن ذلك زعم نسّابة زناتة أنّهم حميريّون, بسبب ترفّعهم عن النسب البربري, ويعلّل ابن خلدون ذلك أنّه بسبب ما "يرونهم في هذا العهد خولا وعبيدا للجباية وعوامل الخراج"[2], ويقول موضحا ذلك: ((فلمّا فنيت أجيالهم أصبحوا مغلّبين فنالهم ضرّ المغرم، وصار اسم البربر مختصّا لهذا العهد بأهل المغرم، فأنف زناتة منه فرارا من الهضيمة[3])), ويتضح من خلال هذا النص, أنّ القبائل البربرية في عهد الدّولة الزناتية تحولت إلى قبائل غارمة, بعد أن تغلّب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار. وتقلّص ظلّ الدولة واشترت طاعتهم ببذل العطاء. وإقطاع البلاد والنزول عن الكثير من الأمصار[4].

وكانت قبيلة هوراة سبّاقة إلى التنكر لبربريتها, حتى قبل أن تطأ أقدام الهلاليين أرض افريقية, فقد ذكر اليعقوبي أنّ هوراة تزعم أنهم قوم من اليمن جهلوا أنسابهم[5]. وكانت بعض بطونها مستوطنة تبسة[6] كقبيلة وينفن وقبيلة وربهامة, واللتين كانتا تظعنان مع بعض بطون سليم

---

[1]-زهرة البستان, المصدر السّابق, ص77.

[2]- استمر ضعف بالقبائل البربريّة المقيمة في جوار القبائل العربية إلى أواخر العهد العثماني, ومن ذلك ما أشار إليه صاحب كتاب مجموع الحسب والنسب عن بعض قبائل زناتة, من أنَّهم صاروا خداما للعرب, خدمة مخصوصة من رعي الدواب واصلاح شان البيوت والقيام بأمور الضيفان وحمل السلاح من ورائهم إلى غير ذلك, مما هو شأن الخديم الخاص, ولذلك قيل فيهم المشاشيل فإن معنى هذه اللفظة عند زناتة الخدام, والواحد منهم مشيل, فإذا أرادوا النسبة قالوا مشيلي, ومن ثم لا تجد هذا الاسم إلا في وطن الأجواد وفي حمايتهم المشاشيل وفي واد الحمام عند أولاد محمد بن خدة المشاشيل وفي التاغية عند أولاد العربي المشاشيل. بلهاشمي بكارة, المصدر السابق, ص353.

[3]- عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 6/7.

[4]-المصدر نفسه, 183/7-186.

[5]- اليعقوبي, المصدر السّابق, ص135.

[6]-تبسّة: مدينة تقع في الشرق الجزائري, على الحدود التونسية الجزائرية, وهي مدينة عتيقة حصينة كانت تدعى في العهد الروماني تهيفست, وقد حطمها البربر الدوناتيون, وأوعاد القائد صالومون البيزنطي بناءها وشيّد حولها سورها,

إلى التلال التي بين تبسة و مرماجنة وباجة، ويقلّدونهم في اللغة والزيّ وسكنى الخيام وركوب الخيل، وكسب الإبل وممارسة الحروب، وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم.[1] وصاروا يتكلمون بالعربية الفصحى، فلا يكاد يفرّق بينهم وبين العرب[2] كما أن بعض فروع قبيلة ولهاصة المستوطنة لبسيط بونة كانوا يركبون الخيل ويأخذون بمذاهب العرب في زيهم ولغتهم وسائر شعارهم[3].

إنّ التناحر بين القبائل البربريّة قد ساعد في تلاشي قوّة هذه القبائل, واستعانة بعضها بالعرب لقتال القبائل الأخرى. وامتدّ هذا الصّراع عبر مراحل, ولفترات مديدة, بداية من الصّراع بين كتامة والقبائل الصنهاجية والزناتية, ثمّ الصّراع الزناتي الصنهاجي, وبعده الصّراع بين بطون زناتة, والذي حوّل القبائل البربرية إلى قبائل ضعيفة منهكة, تستنجد بشيوخ العرب, وتخضع لأهوائهم.

وتظهر لنا بوشكل واضح في نهاية هذا الفصل أنّه توجد عدّة أسباب ومقوّمات ساعدت شيوخَ القبائل العربيّة في بناء سلطتهم ونفوذهم, كانت مقوّمة لرياستهم. فالقبائل العربيّة كانت قويّة بفضل كثرة عدد مقاتليها, ووفرة الفرسان فيها, إضافة إلى شجاعتهم, وجودة أسلحتهم, وخططهم التي استعصت على الجيوش السّلطانيّة, لا سيّما أسلوب الكرّ والفرّ.كما كان لضعف السّلطة المركزّية بسبب الصراع بين المرينيين والحفصيين والزيّانيين, وأيضا الصّراع الدّاخلي بين أبناء الدّولتين الحفصيّة والزيّانيّة, مع ما لحق القبائل البربرية من الضّعف والوهن عبر مراحل متكرّرة من تاريخ المغرب الإسلامي, دور في تسهيل عمليّة بسط النفوذ أمام شيوخ القبائل العربية.

واستقرت بها في العهد العثماني النمامشة وفي جوارهم الحنانشة شمالا والحراكتة غربا. حسن الوزان, المصدر السابق, 63/2. أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص201.

[1]- ويبدوا أنّه وبسبب التشابه بين نمط عيش القبائل العربيّة وبعض القبائل البربريّة اختلط الأمر على بعض الكتّاب كصاحب مسالك الأبصار, والذي جعل قبيلة هوارة من جملة قبائل العربان. العمري, المصدر السّابق, 200/4.

[2]- عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 186/6.

[3]- المصدر نفسه, 151/6.

الفصل الرابع:

مظاهر سلطة شيوخ القبائل العربية

المبحث الأول: عجز السلاطين عن إخضاع شيوخ القبائل العربية

إنّ المتأمل في تاريخ القبائل العربية ببلاد المغرب الأوسط سيكتشف الكثير من مظاهر سلطة شيوخ القبائل العربية في المجالات التي كانوا يديرونها, وتعتبر ممارسة شيوخ القبائل العربية للسلطة رغم نظامهم البدوي, المنافي للعمران, ظاهرة بحدّ ذاتها.

ومن المظاهر التي تؤكّد مدى سلطة شيوخ القبائل العربيّة, ما نستشفّه من خلال كثير من النّصوص التّاريخيّة التي تبيّن تعذّر إخضاع السلاطين لشيوخ القبائل العربية, وكبح أهوائهم, وهو ما جعل السّلاطين ينتهجون سياسة قائمة على كسب الولاء, والتغاضي عن الأخطاء, مقابل كفّ العادية, و طلب الأمن من جانبهم, وسنتناول في هذا الفصل جوانب من عجز السلاطين عن اخضاع شيوخ القبائل العربية.

- موافقة السّلاطين على شيخ اختارته القبيلة:

كانت كلّ قبيلة تدار من طرف شيخ فوّضت إليه تصريف أمورها وتسيير شؤونها, وعادة ما يكون اختيار الشيخ بطريقة توافقية, وذلك عندما يفرض الشيخ نفسه كمرشح وحيد للرئاسة, بسبب ما يمتاز به من كبر سن ورجاحة عقل, وكثرة تجربة, وشدّة مراس في الحروب, وحنكة في تسيير الأمور. وحين يسعى السلاطين إلى توطيد علاقتهم بقبيلة ما من القبائل العربية, رغبة في التحالف معها أو لشراء سلمها, فإنهم يجدون أنفسهم مرغمين على عقد الصفقات, وإبرام العهود مع شيوخها, فيكون اعترافا بأمر واقع. وفي حالة موت شيخ القبيلة, فإنّ السلطان كان يمتثل إلى الواقع الاجتماعي والسياسي, فيزكي المتغلب على القبيلة والذي يكون من بيت الرئاسة[1] سواء كان ابن شيخ القبيلة أو أحد الأرداف من اخوانه أو بنو عمومته النافذين.

فعلى إثر وفاة منصور بن مزني سنة 725هـ/1325م، قام بأمره من بعده ابنه عبد الواحد, فعقد له السلطان الحفصي على عمل أبيه بالزاب، واستضاف إليه ما وراءه من البلاد الصحراوية من قرى ريغة ووراكلا. وحين قام يوسف بن منصور بن مزني بقتل أخيه عبد

[1] - روبار برنشفيك, المرجع السابق, 2/101-102.

الواحد طمعا في الرياسة, سنة تسع وعشرين وسبعمائة, قام السلطان الحفصي بإرسال مرسوم السلطا التقليد والخلع على العادة، وأجرى الرسم في الدعاء له على منابر عمله[1].

وكان على السلاطين تحمل العواقب في حالة تدخلهم في شؤون القبيلة وقيامهم بعزل شيخها وتولية أخيه أو أحد أقربائه, ومن ذلك ما قام به أبو حمو من عزل خالد بن عامر عن مشيخة بني عامر, بسبب عدم ارتضاء كفاءته, وتولية أخيه شعيب بن عامر[2], ما دفع بخالد إلى الاتصال بعبد العزيز المريني, بعد أن أرسل له عبد العزيز نصيبا من المال ، فبادر خالد بن عامر إلى منازلة أبي حمو مع عسكر المرينيين, وأوقع بأبي حمّو ومن كان معه من عرب عبيد الله وبني عامر، وانتهب معسكره وأمواله، بل وأسر حرمه وحظاياه, وساقهم إلى قصر السلطان عبد العزيز، كما ألقى القبض على عطية مولى السلطان أبي حمو، وهو ما جعل السلطان المريني يرفع من قدر خالد بن عامر, حيث صيره من حاشيته[3] .

وتكمن العلاقة بين السلاطين وهذا النوع من الشيوخ, في التعاون السياسي والعسكري, كما يلتزم الشيخ ببعض الالتزامات ذات الصّبغة العسكريّة وأحيانا الجبائيّة. وقد تطورت أدوار بعض الشيوخ في قلب الدولة, وكان لهم أثر في توجيه سياستها الداخلية بل وتنصيب السلاطين, مثل قيامهم بتنصيب يحي المعتصم ضد ادريس المأمون سنة 633هـ/1235م[4], وقام بنو عامر بتنصيب أبي حمو موسى الثاني, وهو التنصيب الذي يراه عبد الحميد حاجيات مخالفا لأعراف الدولة, وأنه جاء مصادما للتقليد المتوافق عليه, وأنه تم بتخطيط بني عامر والتنسيق بينهم وبين الذواودة لتكتسي عملياتهم الشرعية[5], ويشبهه قيام بني عريف بتنصيب أبي تاشفين, وأيضا دور الكعوب في إحياء الدولة الحفصيّة وتنصيب من ارتضوه من سلاطينها.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 591/6.

[2]- زهرة البستان, ص211.

[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 178/7.

[4]- عبد الحميد حاجيات, المرجع السّابق, ص11.

[5]- المرجع نفسه, ص90.

تغاضي السّلاطين عن تصرفات شيوخ القبائل:

عُرف شيوخ القبائل العربية ببعض الصفات المخالفة لأعراف وعادات أهل الحضر, والتي كان الحضر يرون أنها أعمال استفزازية, و على أنها امتهان لحرمة الدين, ومخالفة لحدود الأدب, ولذلك نجد أنّ هداج شيخ الكعوب, والذي استطال على الدولة الحفصية, ودخل تونس فأحدث فيها صخبا, حين دخل يوم الجمعة إلى جامع الزيتونة لأداء صلاة الجمعة منتعلا خفيه, ونهاه بعضهم عن ذلك فأجابه بقوله: ((إني أدخل به مسجد السلطان)). أُعتبر ذلك تطاولا على السلطان وامتهانا للمسجد, وبعد انتهاء الصلاة ثارت به العامة وقتلوه, وسحبوا جثته في شوارع المدينة [1].

وكان السلاطين خلافا للعامة يراعون هذه الصفات, من الغدر والعدوان و والجفاء والعنهجية والأنفة[2], والتكلم بسذاجة, مع عدم مراعاة حرمة سلطان أو غيره, فيغضون الطرف عنها, ويضعونها في إطارها الصحيح, فمن بين نصائح أبي حمو لولي عهده قول:((تسايس من كان مفرط الجهالة من الخدام, وترايضه مرايضة الجموح باللجام حتى تنتفع بخيره وتأمن من شره, فتستدرجه بلطف سياستك وترده إلى لاطف غرضك, حتى يصير بعد جفوته طوع قيادتك[3])).

وتشيرُ بعض النوازل إلى هذه القضية, وتصوّر لنا ضعف السلطان واضطراره إلى تجاهل تصرفات شيوخ القبائل, حيث جاء على لسان صاحب النازلة, وهو الفقيه أبو العبّاس أحمد المعروف بالمريض[4]. بعدما تطرق إلى وجود جماعة محاربة تقدر بعشرة آلاف أو تزيد تشنا الغارات, وتقطع الطرقات وتسفك الدماء, وتنتهب الأموالهم بغير حق إلى أن قال: ((مع أن أحكام السّلطان أو نائبه لا تنالهم, بل ضعف عن مقاومتهم فضلا عن ردعهم؛ بل إنّما

---

[1] - المطوي, المرجع السابق, ص299

[2] -عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السابق, 104/6.

[3] - أبو حمو, المصدر السّابق, ص151.

[4] -الدرر المكنونة, تحقيق: مختار حساني, 796/1.

يداريهم بالأعطية والإنعام ببعض بلاد رعيته, ونصب عمّالهم فيها, وقطع نظر عمّال السّلطنة عن النّظر في حياتها, وفصل أحكامها[1])).

وحين منح السلطان أبو عنان ليعقوب بن علي كسوة فاخرة, وكان قد سبق للسلطان أبي عنان أن لبسها, وهو ما يعتبر مزيّة خصّ بها هذا الشيخ, فبدل أن يبادر يعقوب بن علي إلى لبسها, قام بمنحها لابن أخيه محبوب بن أبي دينار, ولم يقدّر حقّ ذلك التشريف. فاحتملها منه السلطان أبو عنان على مضض[2]. ثمّ قام يعقوب بن علي بالسعي في الفتنة, وتخبيب القبائل حيث اتصل بالقبائل العربية الرياحية, فأطاعه أولاد محمد بن مسعود بن سلطان, ويحيى بن جريد بن مسعود, وأولاد عساكر ابن سلطان, وقبائل سعيد والأخضر ومسلم, وبعض القبائل الهلالية كتوبة, وحين علموا أنّهم لا قبل لهم بمحاربة أبي عنان, بادروا إلى إعطاء مرهونهم, وبعضهم فرّ إلى الصحراء[3]. كما كان السلاطين يتحملون من شيوخ القبائل الشطط في المطالبة بثمن الولاء, مثل ما فعله أبو حمو موسى مع شيوخ العرب حين أراد أن يسترجع ملك بني زيان.

وممّا بات صفةً لازمة لكثير من شيوخ القبائل الغدرُ, ومع ذلك كان السلاطين يعفون عنهم, إلا إن تكرّر الغدر ونقض العهد فإنّهم حينئذ يتحينون فرصة تأديب هؤلاء الشيوخ, مثلما فعل السلطان الحفصي بمشيخة الذواودة سنة 666هـ, حين قتل شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخوه يحيى، وبنو عمّهما أولاد زيد بن مسعود: سباع بن يحيى بن دريد وابنه، وطلحة بن ميمون بن دريد، وحداد بن مولاهم بن خنفر بن مسعود وأخوه. بعدما تربصوا بالدولة, وسعوا إلى نصب المطالبين بالملك, ونصرتهم, وكثرة تشغيبهم على السلطان, وتكرر غدرهم, إذ تقبّض عليهم بعد قدومهم عليه, رغم تأمين أبي هلال عبّاد عامل بجاية لهم, فتقبّض عليهم لحينهم، وعلى دريد ابن تازير من شيوخ كرفة. وانتهبت أسلابهم وضربت أعناقهم ونصبت أشلاؤهم بزوايا من جهات نقاوس[4].

---

[1]-الدّرر المكنونة, تحقيق: مختار حساني, 796/1.
[2]- روبار برنشفيك, المرجع السّابق, 101/2-102.
[3]- النميري, المصدر السّابق, صص390-391.
[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 423/6.

ونفس الشيء فعله أبو حمو موسى بعد أن تكرر غدر سالم بن إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد بن ثابت بن محمد بن سباع شيخ الثعالبة، وكثرت مساعيه في الفتنة وتربصه بالدولة, فلما استعاد أبو حمو ملكه, واسترجع أملاكه, بادر إلى ديار الثعالبة بمتيجة, فحاصرهم بجبال متيجة, ثم استنزل سالم بن إبراهيم على عهده. ولكنّه أخفره وتقبض عليه وقاده إلى تلمسان أسيرا وقتله قعصا بالرماح. ثم تتبع إخوانه وعشيرة وقبيله بالقتل والسبي والنهب إلى أن تلاشى أمر الثعالبة[1].

الصراع بين شيخ القبيلة والسلطان:

إنّ العلاقة بين السلاطين وشيوخ القبائل كانت تتغير بتغير المصالح, وموازين القوى, فحين يقوى السلطان, يخضع شيخ القبيلة بالقهر والقوة, وحين يضعف السلطان تفسد طاعة شيخ القبيلة, ويبادر إلى نقض العهد لاسترجاع ما فقده, أو لمضاعفة أقطاعه وأملاكه, وعندما تفتر العلاقة بين الشيخ والسلطان, فإنّ الشيخ يظهر الشقاق و المخالفة بالإغارة على أراضي الدولة, وتأليب شيوخ القبائل الأخرى والتشغيب على السلطان, ونهب البلاد, وعدم تأدية الخراج, كما فعل ذلك يعقوب بن علي أيام أبي عنان, حين سعى إلى تخبيب القبائل الرياحية, كأولاد محمد بن مسعود بن سلطان, ويحي بن جريد بن مسعود, وأولاد عساكر ابن سلطان, وقبائل سعيد واالأخضر ومسلم, وبعض القبائل الهلالية كتوبة[2].

وقد يعمد شيخ القبيلة إلى الاتصال بقوة خارجية, مثل ما قام به خالد بن عامر من التحول عن طاعة أبي حمو إلى طاعة السلطان عبد العزيز المريني, بعد أن أرسل له عبد العزيز نصيبا من المال[3] , وربما بادر شيخ القبيلة إلى مبايعة أحد الطامحين إلى الملك مثال مبايعة شيوخ سويد لأبي زيان, ومشايعتهم له ضدّ أبي حمو [4] , وفي ذلك يقول مبارك الميلي: ((وكان سلاطين تلك الدول في حاجة الى العرب لكن اضطربت سياستهم معهم. فاذا كانت الحرب واحتاجوا الهم أقطعوهم الاراضي الواسعة وجباية القبائل المستضعفة ونفحوهم

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 75/6.
[2]- النميري, المصدر السابق, صص390-391.
[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 178/7.
[4]-المصدر نفسه, 178/7.

بالهدايا والاموال وقربوهم بالصهر والاستشارة. واذا استغنوا عنهم بالسلم قلبوا لهم ظهر المجن وحاولوا تجريدهم من امتيازاتهم. فلم يعدم العرب في الامراء المرشحين للملك والملوك الطامعين في التوسع ما يعينهم على احداث ثورة للاحتفاظ بامتيازاتهم[1])).

عدم خضوع شيوخ القبائل للقادة والعمال:

كان السّلاطين يعيّنون على مدن المغرب الأوسط ولاةً يعِينونهم في أمر حماية تلك المدن, وتنظيم شؤونها. وكثيرا ما قام الحفصيون بإسناد إدارة كبريات المدن إلى أبناء البيت الحفصي, كما كان الزيانيون يعيّنون عمالا لإدارة المدن الخاضعة لسلطانهم, والذين يتّصفون بالولاء للدولة, والكفاءة الادارية والعسكرية. وهم الذين اطلق عليهم مصطلح القوّاد.

وواضح أنّ القواد لم يكن لهم نفوذ على شيوخ القبائل, فعندما يرى شيخ القبيلة أنّ القائد قد تجاوز صلاحياته, وأضر بمصالحه. يثور ضدّ السلطان, ويعتبر تحصيل الخراج وجمع الضرائب, من أهم نقاط الخلاف بين شيوخ القبائل والقيّاد, إضافة إلى عنهجية شيوخ القبائل وعدم امتثالهم لقانون الدولة. وتشير كتب المصادر إلى كثير من شيوخ القبائل الذين لم يكن وجود قائد في مجالاتهم إلا شكليا, كيعقوب بن علي أحد رجالات الذواودة الذين تحكّموا في الزّاب الأوسط, وقاعدته بسكرة, كانت له عزّة وسلطان على عامل الزّاب[2] . حتى أن بعض السلاطين حسب نازلة المريض قام بإقرار العمّال الذين عيّنهم شيوخ القبائل في المناطق التي يسيطرون عليها, وقطع نظر عمّال السّلطنة عن النّظر في حياتها, وفصل أحكامها[3].

وحتى في أيام السلاطين الأقوياء لم يكن للقائد كبير سلطان على شيخ القبيلة, ففي أيام السلطان أبي عنان سرعان ما نشب الخلاف بين شيخ جبل بني ثابت علي بن بكر بن ثابت؛ والذي كانت له شياخة الجبل وجبايته إضافة إلى النظر في أعمال مدينة القل وحمايتها, و قائد قسنطية الذي قام بسجن ابن شيخ الجبل, ممّا جعل الابن يهرب من محبسه, لكنّ السلطان أبا عنان ما إن وصلته شكاية شيخ جبل بني ثابت حتى أنصفه, وعفا

---

[1]- الميلي, المرجع السابق, 354/2.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 47/6.

[3]-المصدر نفسه , 796/1.

عنه, بيد أنّ مرض أبي عنان أعاد علي بن بكر بن ثابت إلى المنازعة, بسبب نفرته من القائد[1]. وفي سنة 869هـ, في عهد أبي عمرو عثمان الحفصي قام نصر بن صولة أحد شيوخ الذواودة بالخروج على القائد المنصور الفي صبّان مزوار قسنطينة, فاضطر إلى طلب المدد من تونس[2]. وفي نفس السنة قام السلطان أبو عمرو عثمان بالخروج في محلّته و وسار إلى تقرت وهدم سور ها لأجل كثرة مخالفة مشيختها للقواد[3].

وبسبب تكرُّر الصراعات بين شيوخ القبائل والقوّاد أصبح السّلاطين الأقوياء يُسندون إدارة المدن المحادية لمجالات العرب كمقرة ونقاوس[4] وتقرت وبسكرة إلى قواد أكفاء, مضطلعين بعقلية شيوخ القبائل, ولهم قدرة على التعامل معهم, وهو ما يوضحه النميري, عند تطرقه لإسناد مقرّة للقائد حامد ابن الوزير بن أبي زيد رحو بن يعقوب, من قبل السلطان أبي عنان, والذي وصفه بقوله:((لما عرف مولانا أيده الله تعالى من نجاعته, وحسن استماعه وإجابته...ومزاولاته لآراء العربان, وتفطنه لما اقتضتهم طباعهم في ملابسة الأوطان[5])).

ورغم تعكّر العلاقة بين شيخ القبيلة والقائد, فإنّ ذلك لم يمنع من ظهور بعض التنسيق بينهما فرضته المصلحة المتبادلة, كذلك الذي تم بين عمال الزاب ويعقوب بن علي أمير بدو الذواودة, فكان عمال الزاب تأخذ من البادية المحاذية لمجالات رياح, كديار كرفة الجباية , و بإذن من كبيرهم يعقوب وإشراكه في الأمر[6].

إنّ ما كان يعانيه السّلاطين من عجز عن إخضاع شيوخ القبائل العربية, قد دفعهم إلى استمالة هؤلاء الشيوخ والتجافي عن أخطائهم, ومنحهم الاقطاعات, وإطلاق أيديهم على

1- النميري, المصدر السابق, ص285.

2- الزركشي, المصدر السّابق, صص155-156.

3- المصدر نفسه, صص157-158.

4- مدينة تتاخم نوميديا, بناها الرومان على بعد نحو مائة وثمانين ميلا من البحر المتوسط, ثمانين ميلا من مسيلة, تحيط بها أسوار متينة, عتيقة, إ سمها بالرومانية نيسيفيوس, ودعاها العرب نيكاؤوس, فصارت نكاوس, وتبعد عن البحر المتوسط بنحو 160كم. حسن الوزان, المصدر السابق, 53/2.

5- النميري, المصدر السابق, ص468.

6- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 46/6-53

جمع المغارم في البلاد التي تغلّبوا عليها, مع إِظهار الحفاوة عند استقبالهم, وتمتين علاقتهم بهم من خلال الهدية.

المبحث الثاني:تنامي إقطاعات شيوخ القبائل العربية

من أهم مظاهر سلطة شيوخ القبائل العربية حصولهم على إقطاعات واسعة وإدارتهم لها. خصوصا في البوادي والأرياف والمجالات المتاخمة لتلول المغرب الأوسط, وهي السياسة التي انتهجها أواخر السلاطين الموحدين, الأمر الذي تفاقم مع نهاية القرن التاسع الهجري.

الإقطاع لصدّ هجمات الأعداء:

تعدّ ظاهرة إقطاع السّلاطين الأراضي الواسعة لشيوخ القبائل العربية, من الأمور التي صار لها أثر وخيم في إضعاف السّلطة المركزية, بداية من عهد الدّولة الموحديّة[1], إذ تزايد نفوذ الزعامات الهامشية التي كانت تحظى بنوعية استقلال, وتخرج عن أحكام السلطان, ولا تخضع لأوامره. وكان لهذه الظاهرة عدّة أسباب أهمّها رغبة السلاطين في التقوي بشيوخ القبائل العربية.

كان سلاطين المغرب الأوسط, يتقوّون بولاء شيخ القبيلة, خصوصا حين يتهدّدهم خطر خارجي أو داخلي, نتيجة الفتن التي ألمت ببلاد المغرب الأوسط طيلة العهد الزياني, ولم يجد السلاطين من وسيلة يبلغون بها هدفهم غير إطلاق يد شيوخ القبائل على ما تغلبوا عليه, ومنحهم إقطاعات أخرى نظير خدماتهم العسكرية إضافة إلى قيام هؤلاء السلاطين بما عرف بسياسة استقدام القبائل إليهم, واصطناعهم ثم الاستعانة بهم في صدّ هجمات الخصوم, وهو ما يلخصه ابن خلدون عند حديثه عن قبائل الذواودة :((ثم تلافت الدولة أمرهم بالاصطناع والاستمالة وأقطعوهم ما غلبوا عليه من البلاد بجبل أوراس والزاب، ثم الأمصار التي بالبسيط الغربي من جبل أوراس المسمى عندهم بالحصنة وهي نقاوس ومقرة والمسيلة[2])). كما أقطع الحفصيّون بعضَ بقايا الاثبج لدحرِ القبائل الهلالية المعادية لهم , فاستبدت الأثبج بالجانب الشرقي لجبل الأوراس, وكثير من بلاد الزاب[3].

وأيضا قام يغمراسن بن زيان باقطاع صحراء تلمسان لعرب زغبة, مقابل ضمان ولائهم, فعندما كثر عيث قبائل المعقل وفسادهم في وطنه, استقدم قبائل بني عامر من محلاتهم

---

[1]-ابن أبي زرع, الذخيرة السنية, ص35.
[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 46/6.
[3]- محمّد حسن, المرجع السابق, 99/1.

بصحراء بني يزيد[1]، وأنزلهم في جواره بصحراء تلمسان ، وتبعتهم حميان من بطون بني يزيد[2]. و أقطع ليوسف بن مهدي من قبائل سويد ببلاد البطحاء[3] وسيرات وأقطع عنتر بن طراد بن عيسى مراري البطحاء, وأطلق يدهم في جمع مغارمها[4]. وفي أيام أبي حمو موسى الثاني, قام وزيره عبد الله بن مسلم[5] والي درعة بنقل معظم عرب ذوي منصور من العمارنة والمنبات وغيرهم من المعقل إلى ضواحي تلمسان, فأقطعهم الأراضي وصيرهم أحلافا لبني عامر بن زغبة[6], وجدارا منيعا ضدّ خصومه من بني مرين [1] .

---

[1]- قال عبد الرحمن بن خلدون: ((كان لبني يزيد هؤلاء محل من زغبة بالكثرة والشرف، وكان للدول به عناية، فكانوا لذلك أول من أقطعته الدول من العرب التلول والضواحي. أقطعهم الموحدون في أرض حمزة من أوطان بجاية مما يلي بلاد رياح والأثابج فنزلوا هنالك، ولجوا الثنايا المفضية إلى تلول حمزة والدهوس وأرض بني حسن ونزلوها ريفا وصحراء، وصار للدولة استظهار بهم على جباية تلك الرعايا من صنهاجة وزواوة. فلما عجزت عساكر بجاية من جبايتهم دفعوهم لها فأحسنوا في اقتضائها وزادت الدول بهم تكرمة وعناية بذلك. وأقطعتهم الكثير من تلك الأوطان. ثم غلب زناتة الموحدون على تلك الأوطان فاقتطعوها عن أوطان بجاية وأصاروها عن ممالكهم)). المصدر السابق, 59/6.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 156/6.

[3]-البطحاء مدينة قديمة بالغرب الجزائري لم يعد لها وجودا, قال عنها حسن الوزان: ((تقع قريبا من مدينة غيليزان, كانت مدينة كبيرة متحضرة جدا وآهلة بالسكان, بناها الأفارقة في عصر قريب, في سهل فسيح ...وكانت تحقق لملك تلمسان دخلا يقدر بعشرين ألف مثقال, لكنها خربت أثناء الحروب التي استعرت بين ملوك تلمسان وبعض أقاربهم من سكان جبل ونشريس, ..وظل السهل خاليا تماما من السكان إلى أن جاء أحد النساك على طريقة أهل البلاد, فأقام به مع عدد من أتباعه الذين يرون فيه وليا صالحا, فأمر هذا الرجل بحرث الأراضي, وتكاثر بقره وغنمه...ولا يؤدي هو ولا ذووه أية أتواة للملك ولا للأعراب, لأنه كطما قلت يعد من الأولياء...يعظم الأعراب هذا الرجل ويقدرونه إلى حد أن الملك أصبح يخشاه, ورغبت في التعرف عليه فأقمت عنده ثلاثة أيام كاملة)). المصدر السابق, 28/2؛ وينظر أيضا كلام محقق كتاب "زهرة البستان", ص75.

[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 61/6.

[5]-عبد الله بن مسلم: هو سيد بني برزال, استوطن المغرب, إلى أن ولاه أبو عنان القيادة, وجعله واليا على درعة وأنحاءها, واستمال القبائل باحسانه, وصار بمثابة الأمير المطاع, والرئيس ذا الأتباع, فلمّا علم بتوطّ الأمر لأبي حمو موسى الثاني, أرسل مبايعا, وحوّل الأعراب الذين بجهته لطاعة أبي حمو, وهلك سنة 749 هـ, بسبب الطاعون، أثناء مسيره لقتال أبي زيان الخارج على أبي حمو موسى الثاني. زهرة البستان, صص80-81؛ عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 170/7.

[6]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 124/7-132.

وقد جعلت مسألة إقطاع شيوخ العرب الأراضي, السُّكان يسألون الفقهاء عن نوعيّة هذا الإقطاع, فقهاء, ونقل الونشريسي عن ابن عرفة أنه إقطاع انتفاع لا إقطاع ملك, فهو يتيح لمن تحصل على الإقطاع فقط الانتفاع بالأرض وغلّتها لا تملّكها[2], وبعيدا عن تنظيرات الفقهاء لم يكن شيوخ القبائل يعتبرون هذه الإقطاعات إلا ملكا من أملاكهم[3].

توسيع شيوخ القبائل العربية إقطاعاتِهم:

إذا كان إقطاع الأراضي لشيوخ القبائل العربية في بلاد المغرب الأوسط, جاء بمحض إرادة السلاطين, حتى يكونوا سدا منيعا يحميهم من هجمات الأعداء وعيثهم, فإنّ هؤلاء الشيوخ سريعا ما بدأت أطماعهم تتزايد, مستغلين ضعف السلاطين, وضعف القبائل البربرية.

ويعدّ عصر أبي حمّو موسى الثاني من العصور الذهبية للإقطاع في بلاد المغرب الأوسط, إذ سعى شيوخ القبائل إلى توسيع مجالاتهم, خصوصا أيام الصراع بين أبي حمو موسى مع أبي زيان[4], فتمكنت قبائل حصين وبني عامر والمعقل من قول كلمتها, وتملّكت الكثير من مدن وأرياف المغرب الأوسط, وهو ما يعبر عنه عبد الرّحمن بن خلدون بقوله :((سنة سبع وستين وسبعمائة هبت من يومئذ ريح العرب وجاش مرجلهم على زناتة ووطئوا من تلول بلادهم بالمغرب الأوسط فأعجزوا عن حمايته، وولجوا من فروجها ما قصروا عن سده, ودبوا فيها دبيب الظلال في الفيوء، فتملكت زغبة سائر البلاد بالأقطاع من السلطان طوعا وكرها رعيا لخدمته، وترغيبا فيها وعدة وتمكينا لقوته[5])).

وبهذا تمكّن العرب من توسيع نفوذهم, فأفرجت لهم زناتة عن كثير من البلاد، ودخلوا التلول المجاورة للصحراء التي كانوا مقيمين بها, و استولى بنو يزيد على بلاد حمزة وبني حسن ، وامتنعوا عن دفع المغارم للسلطان، كما استولى بنو حسين على ضواحي المدية وصيّروها من

---

[1]- تحوّلت القبائل المجاورة للزيانيين إلى شرارة اصطلى بحرّها سلاطين بني زيان, فمثلا حين أسند أبو حمو موسى الثاني رئاسة بني عامر لشعيب بن عامر, غضب أخوه خالد بن عامر وتحالف مع محمد ابن أبي سعيد ابن عمّ السلطان أبي حمو موسى, رفقة قبيلة المعقل763هـ, زهرة البستان, ص211.

[2]- الونشريسي, المصدر السابق, 73/9؛ كمال السيّد أبو مصطفى, المرجع السابق, ص62.

[3]- عمر بنميرة, المرجع السابق, صص254-255.

[4]- مختار حساني, الدولة الزيانية, 18/2.

[5]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 64/6.

إقطاعاتهم, أمّا قبيلة العطاف فاستولت على نواحي مليانة، و استولى الديالم على وزينة، وسويد على أغلب بلاد بني توجين ما عدا جبل ونشريس لتوعره, في حين تملّك بنو عامر على تاسالة وميلانة غرب المغرب الأوسط, أمّا ضواحي المدن الكبرى فقد تحصّل لهم الكثير منها إذ أقطع أبو حمو كلميتو لأبي بكر بن عريف، ومازونة لمحمد بن عريف، ونزلوا لهم عن سائر الضواحي فاستولوا عليها كافة[1].

وإذا تأملنا في هذه النطاقات الواسعة التي صارت من أقطاعات العرب, يتبيّن لنا أنّ الزيانيين, لم يتبق لهم إلا الأمصار, والتي بدأ العرب يرغبون في الاستيلاء عليها, وهو ما جعل ابن خلدون يقول :((وأوشك بهم أن يستولوا على الأمصار[2])). وشيئا فشيئا استقر بعض شيوخ العرب بجوار تلمسان, و أصبحوا يوجّهون سياستها وينصّبون من أرادوا ويعزلون من أرادوا, خصوصا أيام الصراع بين الزيانيين والعثمانيين[3].

وقوع القبائل البربرية في إقطاعات شيوخ القبائل:

كان من نتيجة توسيع القبائل العربية لاقطاعاتها وقوعُ الكثير من القبائل البربرية في إقطاعات العرب, وتحت سلطة شيوخهم, فقبائل بني راشد صاروا من القبائل الغارمة, بعد أن تفرقت رئاستهم, وأصبح شيوخ القبائل هم المتحكمون في مجالاتهم[4]. أما بنو توجين فلم يتمكّنوا من منع تقدّم العرب, أو التملّص من التبعيّة لشيوخهم, واضطرّوا لمهادنتهم, بعد أن ذهب عزهم, و ضعف أمرهم, وتمسك كل فريق منهم بحيّ من أحياء العرب, يستنصر به على بني عمومته[5]. حتى صاروا : ((عبيدا للعرب وخولا لسويد وعبيدا لجبايتهم))[6].

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 64/6.
[2]-المصدر نفسه, 64/6.
[3]- مختار حساني, المرجع السابق, ص23.
[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 203/7-204.
[5]-المصدر نفسه, 214/7.
[6]-المصدر نفسه, 217/7.

وفي سهل متيجة الذي كان يعدّ من أغنى سهول المغرب الأوسط, فقد أزيحت عن إدارته قبيلة مليكش, وصار شيوخُ الثعالبة هم حكامه الفعليّون, لتتحول قبيلة مليكش البربرية إلى قبيلة غارمة تأتمر بأوامر مشيخة الثعالبة, وتخضع لنفوذهم[1].

ومن القبائل التي فقدت أيضا نفوذها بسبب وقوعها في إقطاعات العرب, قبيلة بني ريغة بعد أن أسند الحفصيون مهمة جمع الضرائب وادارة شؤون إقليمهم لقبيلة عياض[2].

ولم تشفع لبعض القبائل البربرية كثرة أعدادها ولا قوّتهم, أمام زحف القبائل العربية مؤيّدة بترشيح السّلطة المركزية, فقبيلة أوغمرت[3] التي كانت من أوفر القبائل عددا، تغلّب الزواودة عليها حين استولوا على ضواحي الزاب, وأقطعتهم الدّولة إياها, وصاروا يأخذون منهم المغارم[4]. و تفاقم الأمر في بدايات القرن العاشر الهجري, فقد ذكر مارمول أنّ السّكان في مازونة لم يكن يسمح لهم العرب بفلاحة الأرض حتّى يدفعوا مالا معلوما[5].

وهكذا أنهك شيوخ القبائل العربية كاهل الفلاحين بالضرائب, فمثلا قبائل البدو كانت عند عودتها من مشاتيها عند بداية موسم الحصاد, يأخذ كل شيخ قوت قبيلته الذي يكفيه في سنته, ويخلق جوا من الرعب في وسط سكان المدن, ثم ينقلب بقبيلته إلى مشاتيه, وهو ما يشير إليه ابن خلدون عند قوله: ((وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرات من إضرارهم بإفساد السّابلة ورعي الزرع مخضرا وانتهابه قائما وحصيدا. إلا ما أحاطته الدولة وذادت عنه الحامية في الممالك التي للسلطان عليهم فيها سبيل[6])).

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 74/6.

[2]-المصدر نفسه, 64/7.

[3]- قبيلة أوغمرت: إخوة وجديجن من ولد ورتنيص بن جانا, كانوا من أوفر القبائل واستوطنوا الجبال الواقعة جنوب بلاد صنهاجة, قاتلوا العبيديين إلى جانب أبي يزيد صاحب الحمار ، وأوقع بهم إسماعيل القائم عند ظهوره على أبي يزيد وأثخن فيهم، وكذلك بلكّين وصنهاجة من بعده. وتحالفوا مع حماد عند قيام دولته, إلى أن حدث خلاف بين حماد وشيخهم ابن أبي جلى ، فانقلبوا إلى طاعة باديس, وعقد لهم بنو زيري على طبنة وأعمالها. حتى إذا جاء العرب الهلاليون وغلبوهم على الضواحي اعتصموا بجبال الواقعة جنوب المسيلة. عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 69/7.

[4]-عبد الرحمن ابن خلدون, المصدر السابق, 69/7.

[5]- مارمول, المصدر السابق, 359/2.

[6]-مارمول, المصدر السابق, 17/2؛ الميلي, المرجع السابق, 187/2.

هذا الوضع قد دفع بكثر من سكان هذه المدن إلى الهجرة وترك أراضيهم[1], التي صارت من إقطاعات شيوخ العرب فمدينة مستغانم مثلا قد خسرت أكثر من ثلثي سكانها بسبب مضايقة العرب لها على حسب رواية حسن الوزان[2], ونفس الشيء يمكن ملاحظته بالنسبة لمدينة مازونة, والتي قام العرب بإثقال كواهل سكانها بالإتاوات, حتى أصبحوا فقراء. كما قام العرب بتخريب الكثير من عمارة مازونة, لتتحوّل إلى مدينة قليلة السكان[3].

وقد حاول رواد المدرسة الاستشراقية أن يستغلّوا مثل هذه الحوادث للحطّ من العنصر العربي, وتحريك النعرة العرقية[4]., فقام جوج مارسي بكتابة رسالة دكتوراه حول العرب في بلاد البربر من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر[5], ووصف دخول الهلاليين إلى بلاد المغرب الاسلامي بالكارثة[6] الهلالية, واعتبرها بداية التقهقر الحضاري, ووصف العرب بكل قبيح[7], كما ركز على تلك التحالفات التي عقدها السلاطين مع الهلاليين, والتي زادت من ثراء العرب, ووسعت إقطاعاتهم, وبذلك تحول العرب إلى جند مرتزقة يخدمون من يدفع أكثر[8]. ليأتيَ بعده أمثال لويس هلفن(louis Helphen)[9].

وكذلك فعل برنارد فريدون, في كتابه تاريخ الجزائر السياسي والجغرافي والإداري, والذي قال أن المنطقة الممتدة من برقة إلى حدود الحماديين شهدت خرابا وحرقا من طرف الهلاليين,

---

1-الميلي, المرجع السابق, 185/2.

2-حسن الوزان, المصدر السابق, 32/2.

3-المصدر نفسه, 36/2.

4- كريم بوترعة, المغرب الأوسط الاسلامي في الكتابات التاريخية الفرنسية 1830-1930, ماجستير, 2009-2010, قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر, قسم التاريخ, صص81-93.

5-علاوة عمارة, المرجع السابق, ص12.

6- واجه مايكل برات(Michael Brett), الكتابات التريخية الفرنسية, واستبعد كارثة الهجرة الهلالية.. ينظر: الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب, علاوة عمارة, مجلة الآداب والعلوم الانسانية, عدد10, جانفي 2009, صص09-27, ص10.

7 -George Marcais , la berbérie Musulmane et l'orient au moyen àge, paris, aulier, 1928, p3. ; George Marcais , les arabes en berberie du XI au XIV , constantine, braham, 1913, p78-79,83-84.

8 -George Marcais, les arabes en berberie, p718.

9- علاوة عمارة, الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية, ص13.

وهو ما أدى إلى التصحر, وجعل البربر يفرون إلى الجبال[1]. و بالغ أوغيست برنار في الغزو الهلالي لقرى وبوادي المغرب الاسلامي[2], وعزف غوتيه على نفس الوتر, فأطلق على القبائل العربية أوصاف الهمجية والتوحش, وأنهم قد أفسدوا المغرب, وحملهم المسؤولية كاملة, وجعلهم سبب الخراب والانحطاط, معتمدا على ما ورد في تاريخ ابن خلدون[3].

وشيئا فشيئا بدأت المدرسة الاستشراقية تستعمل مصطلح بلاد البربر عوضا عن بلاد المغرب, ساعية في ذلك إلى جعل العنصر العربي طارئ ومستعمر, و تجلى ذلك في دراسة جامعية من إنجاز فوندرهيدان(Vonderheyden) والتي نشرت عام 1924م, ليتلوه روبارت برونشفيك(Robert Brunschvig) في كتابه بلاد البربر الشرقي في عهد الحفصيين, ليخلفه تلميذه الهادي روجي إدريس في كتاب بلاد البربر الشرقي في عهد الزيريين, والتي نشرت مرتين 1959-1962م, وترجمت مؤخرا إلى العربية.

ونحن لا ننكر دور القبائل العربية في تقهقر عمارة المغرب الإسلامي, ولكّنهم ليسوا السّبب الوحيد في ذلك, فالحوادث السياسية التي تعاقبت على بلاد المغرب الاسلامي, خصوصا الصراع القديم بين صنهاجة وزناتة, والذي كان يتجلى في صراع بين قبيلتين, ثمّ تطوّر إلى صراع بين دولتين, ابتداءا من الصراع الأموي العبيدي ببلاد المغرب الاسلامي, والذي أقفرت بسببه مجالات زناتة, وكذلك الصراع بين بني غانية والموحدين في نهاية القرن السادس الهجري[4]. كما أنّ الهمجية هي صفة تعتري القبائل البدوية عموما, ولا تختص بالعرب, فالحياة البدوية تساعد على الثورة لأدنى اضطراب سياسي, لأنها ببساطة حياتها, واعتمادها في تلك الحياة على القليل الأقل الضروري, من المعاش, تتأثر بأي أزمة سياسية بخلاف

---

[1] -Bernar fredon, Histoire de l'algerie, colonisation, geographie, administration, alger, adolphe; 1906, p12-20.

[2] -Augustin Bernard, l'algerie, félise alcon, paris,1929 , p41.

[3] -Emile filix gqutier, L'islamation du Maghreb du nord-les siecles obscurs du Maghreb, 1942, paris, payot , p84-112

[4] - jacques Thiry, l'égypte et le déclin de l'afrique du nord XI-XII siecle ; egypte and syria in the fatimid and ayyubid and mamlouk earas, leuven, Vitgeveriji peetens, 1998 ; p237-248.

سكان المدن السلطانية[1]. لذلك نجد أنّ البربر من سكان الأرياف قد أظهروا همجية مشابهة لهمجية البدو العرب, وذلك في كثير من المرات, وتجلى ذلك في تخريبهم لعدّة مدن وقرى البربر منذ أيام الكاهنة[2], إلى أواخر العهد الزياني. وطال التخريب حتى قرى ومدن العرب التي اختطوها حين بدؤوا يألفون حالة القرار, كما كانت بلاد المصامدة موطنا للطوائف المفسدة من البربر كقبيلة برغواطة وغيرها[3].

وأمّا محاولات المستشرقين تصنيف هذا الصراع القبلي ضمن الصراعات الطائفية الاثنية, بين قبائل عربية هلالية وقبائل بربرية, فيكفي تفنيده بتلك التحالفات بين قبائل عربية وبربرية لقتال قبيلة عربية أو بربرية, وأيضا بإقبال البربر على اللغة العربية, و بادّعاء البربر النسب العربي, و نشير إلى أن العرب الهلاليين عندما قدموا إلى أفريقيا كانوا يظنون أنّ قبائل زناتة من أصل عربي حميري, كما تدلّ عليه رواية التغريبة, فتقول: ((عرب الزناتة عرب أحرار...وكان أصلهم من اليماني...عرب الهلاليل عرب كمال ووكان فيه بينهم فيه قتالي[4].))

يقول الزناتي والزناتي خليفة[5] تونس مدينتنا ونحن كبارها

من نسل حمير وأهل تبع نسبتي ونتلو كتاب الله جملة سوارها

1- بوخالفة عزي, تغريبة بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الهلالية الجزائرية, دكتوراه دولة, جماعة الجزائر: كلية الآداب واللغات, قسم اللغة العربية وآدابها, 2002-2003, ص20.

2- في سنة 78هـ توجّه حسّان بن النّعمان إلى إفريقيّة لقتال الكاهنة, إحدى أعظم ملوك البربر, فتحصّنت بباغاية بعد أن أخرجت الرّوم منها, وهدمتها ظنّا منها أنّ حسّانا يُرِيدُ أن يتّخذ منها حصنا, ثم التقى المسلمون بقوات الكاهنة, فهُزِمِ المسلمون, وحاول حسان بن النعمان التجهيز لهجوم جديد, و لما رأت الكاهنة إقامة حسّان قالت لقومها إنّ العرب يريدون المدائن والذّهب والفضّة, نحن إنّما نُرِيدُ منها المزارع, والمراعي, فأمرت بقطع الأشجار, وهدم الحُصون, فنفر منها البربر والرّوم وملّوا سيرتها فراسلوا حسّانا يطلبون منهُ أن يكفيهم شرّها, وكان عبد الملك قد أمدّ حسّانا بالمدد فبادر إلى قتال الكاهنة فهزمها وقتلها. ينظر: ابن عذارى, المصدر السابق, 1/35-38.

3- بوخالفه عزي, المرجع السابق, ص19.

4- تغريبة بني هلال, ص37.

5- هو أبو سعدى خليفة بن اليفرني, وزير بني يعلى ملوك تلمسان, قام بقتال الهلاليين, وله مواقف بطولية معهم, هلك في قتاله لهم, وقد خلدته أشعار الهلاليين. ابن خلدون, 1 /808؛ 84/7؛ التغريبة, ص37.

ويرى بوخالفة عزي أن اصطناع هذا النسب الحميري لزناتة في التغريبية, خصوصا في الرّوايات المصرية بالخصوص, يكون قد تسرب إليها من آراء بعض المؤرخين من نسابة زناتة أنفسهم, والشأن نفسه بالنسبة إلى المعز بن باديس بن منصور بن بلكين الحميري الصنهاجي, بل إن صنهاجة كانت تنتسب إلى حمير[1]. وممّن فنّد عرقية هذا الصراع غابرييل كامب, حيث قال: ((كما سيكون من الخطأ أن يذهب بنا الاعتقاد إلى أنّ ما وقع بين العرب الغزاة والبربر كان مواجهة شاملة من طبيعة عرقية أو قومية))[2].

كتب النوازل وظاهرة الإقطاع:

تميّزت كتب النّوازل في العصر الزياني بوفرة النوازل التي تعكس الواقع الاجتماعي والسياسي والفكري والديني, ومن بين هذه النوازل نجد نوازلا تجسّد ظاهرة إقطاع الأراضي لشيوخ القبائل العربية.

ففي إحدى نوازل المازوني, سئل أبو الفضل العقباني على النحو التالي:((أنّ أرضا معروفة لأناس ومنسوبة إليهم قديما وحديثا ينتفعون بحراثتها وغيرها ويؤدّون خراجها للسلطان, ولكّن السلطان ملّك هذه الأرض تمليكا مطلقا لرجل من شيوخ العرب وذلك للمصلحة. ولكنّ أحد بني عمومة هذا الشيخ وسّع من إقطاعه, وانتزع أرضا أخرى, وادعى أنه يستحقها[3])), ونلاحظ كيف أنّ السّائل يبيّن أنّ هذه الأرض كانت معروفة لأناس منذ القدم, ورغم ذلك قام السلطان بتمليكها لشيخ من شيوخ العرب تمليكا مطلقا, و أنّ هذا الشيخ وبنو عمومته لم يكتفوا بما يملكونه من أرض, وراحوا يوسّعون من إقطاعهم, بالاعتداء على أرض أناس آخرين.

وفي نازلة أخرى سئل عنها محمّد بن مرزوق, نلاحظ أنّ السّائل اكتفى بنعت ظاهرة الاقطاع بقوله:((ما بات مشهورا من إنعام السلاطين ببعض الأراضي لشيوخ القبائل)), وهو ما يعكس مدى شهرة الاقطاع, والذي هو بمثابة إنعام من السلطان على شيخ القبيلة, وقد

---

[1]- بوخالفة عزي, المرجع السابق, ص21.

[2]- غابرييل كامب, , البربر ذاكرة وهوية, ترجمة: عبد الرحيم حزل, الدار البيضاء: أفريقيا الشرق, 2014م ,ص174.

[3]-الدرر المكنونة, تحقيق: مختار حساني, 3/94-95.

قال السائل في نازلته: ((أرض أنعم بها السّلطان على بعض أمراء العرب[1])). فوصف شيخ القبيلة هنا بالأمير, وهو ما يدلّ على قوّته وسيادته[2].

وكثيرةٌ هي النوازل التي تبين اعتداء أحد شيوخ القبائل على أرض فلاحين آخرين, وتحويلهم من ملاك الأراضي إلى خدم, وسط غياب سلطة رادعة وقوية تتكفل بحماية أملاك هؤلاء الرعايا. ففي نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني, وملخصها أنّ أرضا معروفة لأناس ومنسوبة إليهم قديما وحديثا, ينتفعون بحرثها, ويؤدّون خراجها للسلاطين, غير أنّ السلطان الذي تصفه النازلة((بالإمام الخليفة)) ملّكها لرجل من شيوخ العرب لما رأى فيهم من المصلحة تمليكا مطلقا...)), وتشير النازلة أنّ أحد بني عمومة شيخ القبيلة, تعدى على أرض مجاورة لإقطاعه, وكسرها بالحراثة, وقام بإحيائها ثمّ ادّعى بأنّه يستحقّها بذلك[3] , وتشبه هذه النازلة نازلة أخرى سئل عنها محمد بن مرزوق عن أرض منحها السلطان لشيخ من شيوخ العرب[4].

وهو الوضع الذي لم يكن يشجّع كثيرا فلاحي المغرب الأوسط.كما توضحه نازلة سئل عنها الإمام المازري تعكس معاناة الفلاحين من بعض أعمال شيوخ العرب, وجاء في نص النازلة: ((عمن ابتلي به المسلمون من هؤلاء العرب الذين اقتطعوا أراضيهم ورباعهم ومنازلهم واقتسموها بالسيف وحالوا بينهم وبينها, فيخرج الناس إلى الحرث والحصاد وجمع الزيتون مستوفرين مستعجلين إلى الرجوع إلى مدائنهم, يخاف كل واحد منهم إن تأخر عن أصحابه على نفسه وماله.. .[5]). ولا شكّ أنّ العمل في مثل هذه الظروف لم يكن يساعد الفلاحين, بل يزيد السائل في تصوير الواقع بقوله:(ويتركون كثيرا من زيتونهم عند جمعه لبعدهم عنه وعدم تمكنهم من الأسباب فيه والمخاصمة عليه, فيحتاجون لضرورتهم أن

[1]- الدرر المكنونة, تحقيق:حساني مختار, 101/3.
[2]-المصدر نفسه, 101/3.
[3]- المصدر نفسه, 3/ 94-95.
[4]- المصدر نفسه, 101/3.
[5]-الونشريسي, المصدر السابق, 374/1.

يستأجروا على جمع الزيتون قبل طيبه بثلثه وربما كان بنصفه, ولو وجدوا العافية لجمعوه على مهل بعد طيبه بأيديهم وعبيدهم...[1])).

كل هذه النوازل تؤكّد مساهمة القبائل البدوية في –الاعتداء على أراضي الفلاحين, وانتهاب المحاصيل, كما تشير إلى قيام القبائل المستقرة بانتزاع أراضي السكان الأصليين, والاستيلاء عليها. وهو ما أثّر سلبا في الزراعة.

إنّ تنامي إقطاعات شيوخ القبائل العربية واحدة من أهمّ مظاهر سلطتهم في بلاد المغرب الأوسط, تلك الاقطاعات التي منحها لهم أوائل السلاطين الزيانيين والحفصيين قصد جعلهم سدّا منيعا أمام هجمات خصومهم, إلى أنّ ضعف السلطة المركزية. جعلت العرب يوسعون اقطاعاتهم, تلك الاقطاعات التي صيّرت القبائل البربرية خاضعة لشيوخ العرب, وتحت قبضتهم.

[1]–الونشريسي, لمصدر السابق, 374/1.

المبحث الثالث:جباية الضـــــــرائب

بعد أن قامت القبائل العربيّة بالتوغّل في بلاد المغرب الأوسط, تملّكت اقطاعات واسعة, متاخمة لكثير من المدن السلطانية, ومحيطة بالتّجمعات السُّكانية البربرية في أعالي الجبال أو السهول الغنية بالحبوب, ومحكمة قبضتها على أهمّ الطرق التجارية, لذلك قام شيوخ العرب بفرض الضرائب على سكان المدن والسهول وخفارات المرور على سكان الجبال وزعماء المدن التجاريّة. ومن المهمّ أن نتتبّع الأطوار التي مرّت بها هذه الظّاهرة.

قبل العهد الزيانية:

يعدّ الإدريسي من أوائل من تناول ظاهرة فرض الضرائب وخفارات المرور على السكّان في أواخر العهد الحمّادي, ومن ذلك ما ذكره من أنّ الشّرق الجزائري كان عُرضة لغارات العرب وضررهم ولم تسلم منهم إلّا الأماكن الجبلية الوعرة, لأنّ العرب كانت لا تقدر على شنّ الغارة عليها لمنعتها, ولكنّها ظلت محدقة بهذه المعاقل والحصون, ممّا اضطر أهل هذه الحصون إلى عقد مهادنة مع العرب, وصارت العرب لا تسمح لأهل هذه الحصون بالخروج إلا شريطة دفع خفارة , ولم يكن بمقدرة ملوك صنهاجة أن ينجدوهم[1] .

وأشار الادريسي إلى مدينة باغاي وكيف أنّ العرب كانت تُنهك كواهل ساكنيها[2], ونفس الشيئ شهدته المنطقة الواقعة بين قسنطينة والقل[3], وهو ما عانت منه المدن الممتدة على الطريق الواصل بين القلعة و بجاية, كالقائف وحصن الناظور, مثل سوق الخميس و حصن تافلكايت, وقصر عطية وحصن القلعة, فقال عنها:((وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب في مهادنة وربما أضر بعضهم ببعض غير أن أيدي الأجناد فيها مقبوضة, وأيدي العرب مطلقة في الاضرار))[4] .

[1]-الإدريسي, المصدر السابق, 1/ 263.

[2]- المصدر نفسه, 276/2.

[3]- المصدر نفسه, 270/1.

[4]- المصدر نفسه, 263/1.

وبعد أن قامت دولة الموحدين, وتمكنت من ترويض شيوخ القبائل وإخضاعهم, تمّ كفّ أيديهم عن جمع المغارم, ثمّ دبّ الضعف إلى دولتهم وتقلص نفوذ ملوكهم, وخرجت البوادي من دائرة حكمهم, ليتكفل شيوخ القبائل بجمع المغارم, وشن الغارة وترويع السابلة[1].

خلال العهد الزيــاني:

بعد قيام دولة بني زيان وبني حفص اتبع سلاطينها سياسة التغاضي عن أعمال شيوخ القبائل العربية, واستمر الأمر إلى أن قام بعض سلاطينهم بمنح إقطاعات للعرب وأطلقوا أيديهم لجمع المغارم, ففقدت الدّولة حقّ الإشراف على جباية الضّرائب من القبائل مثل ما كان عليه الحال في عصرها الذّهبي, بل أصبح ذلك من احتكار القبائل العربيّة[2]. فيغمراسن أطلق يد كل من يوسف بن مهدي من قبائل سويد على جمع مغارم بلاد البطحاء وسيرات, وأطلق يد عنتر بن طراد بن عيسى على تحصيل مغارم براري البطحاء[3].

كما أطلق أبو حمو موسى الثاني أيدي العرب, فقاموا باستخلاص المغارم لأنفسهم, رغبة منه في استعادة ملكه حين نازعه أبو زيان الملك, لذلك قال صاحب زهرة البستان:((لم يتمكن من ذلك إلا بعد أن جمع عليه عتاة العرب واستمالهم, وخدّمهم بالأطماع وزيّن لهم أعمالهم, فانقادوا إليه على عتوهم ونفارهم[4])). وربّما تقاسم شيوخ العرب مداخيل بعض البلاد, فتقاسم الزيانيين والشيوخ المتغلبين على أنكاد جباية وجدة[5].

وكان شيوخ العرب حين تستقرّ الأمور بالدّولة الزيانية وتتقلّص مداخيلهم, ويضيق دخلهم يطالبون السّلاطين بالعطايا مقابل الكفّ عن شنّ الغارة, وترويع السّابلة, ويذكر ابن خلدون أن :((العرب كانوا يزرعون الأراضي في بلادهم بالتلول ولا يحتسبون بمغارمها فيضيق الدخل،

---

[1]-ابن أبي زرع, المصدر السابق, ص35.

[2]-مختار حساني, تاريخ الدولة الزيانية, 26/1.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 61/6.

[4]-زهرة البستان, ص40.

[5]- حسن الوزان, المصدر السابق, 13/2.

ويمنعهم السلطان العطاء من أجل ذلك, فتفسد طاعتهم, وتنطلق بالعيث والنهب أيديهم)).[1]

ونفس الأمر شهدته المدن الشرقيَّة للمغرب الأوسط, نتيجة السِّياسة التي انتهجها الحفصيّون, والتي لخّصها النميري بقوله:((وأسلموها للعرب يعيدون برامها إلى النقض, ويحلبون ضروع جبايتها شحبا في الإناء وسخبا في الأرض, ويتحكمون في أهلها تحكّم النار في الحطب[2])), وذكر النميري أنّ هذه السياسة لم تكن في أيام السلاطين الأقوياء, ولم يصرّح باسم أول سّلطان حفصي انتهج هذه السياسة, ولكنّ ابن خلدون حدد اسمه وبين أنه المستنصر بالله أبي حفص , والذي عقب قضاءه على الدعي سنة 683هـ قام بمكافأة العرب الذين ساعدوه, فأقطعهم البلاد وأطلق أيديهم على جمع المغارم للعرب رعيا لذمة قيامهم بأمره[3], وهكذا صار العرب يتوارثون هذه الإقطاعات, وبذلك فتحت الدولة على نفسها باب شر كبير[4].

تجريد العرب من المغارم:

كانت الدّولتان الزيانية والحفصيّة حين تتمكّنان من القضاء على خصومها, تحاول تأديب شيوخ القبائل, وإخضاعهم إلى الولاة لاسيّما أيّام السّلاطين الأقوياء, والذين بمجرد قضائهم على خصومهم الخارجيين, و إخمادهم لفتن الأمراء المنازعين لهم في الملك, يبادرون إلى تأديب القبائل العربية, وإلزامها بأداء الجباية, ودفع المغارم, ويُطالبونهم أيضا بإزالة الخفارات التي كانوا يفرضونها على الناس.

ومن بين السّلاطين الذين تمكّنوا من ترويض القبائل العربية نجد أبا الحسن المريني, وابنه السّلطان أبو عنان الذي جرّد كثيرا من هؤلاء الشيوخ من إقطاعاتهم, وجعل كثيرا من أحياء العرب خاضعين لأوامر قائده حامد ابن الوزير بن أبي زيد رحو بن يعقوب, والذي استخلص

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 577/6.
[2]-النميري, المصدر السابق, صص466-468.
[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 447/6.
[4]-المصدر نفسه, 447/6.

منهم جباية قسنطينة وعياض[1]. و قام أبو عنان بإزالة خفارات الأعراب[2], ورفع ضرائبهم, وقد النويري شاهدا على هذه السياسة الحازمة, فبين أن الأعراب لم يسعهم إلا الموافاة بالإجابة, وإظهار الطاعة, ثمّ لخص النميري هذه السياسة بقوله:((لم ينشب أيّده الله أن أمر بإقامة البريح بأنّ مطالب العرب قد ارتفعت عن الأوطان, وأكفّهم قد كفّت عن الأقاليم والبلدان, وضرائبهم قد أزيلت وأحوال خفاراتهم قد أحيلت, وعثرات الرعايا قد أقيلت[3])), ولا شكّ أن الرعية قد فرحوا بهذه السياسة الحازمة, في الوقت الذي بدأ العرب ينتظرون فرصة الانقضاض على الدولة[4].

ويُشبهه ما فعله أبو فارس عزوز الحفصي عندما قام بتأديب القبائل العربية المتحكمة بإقليم وقرى الزاب, وبعد أن قضى على أسرة بني مزني[5].

- **القبائل البربرية وأداء المغارم:**

في الوقت الذي أطلق فيه سلاطين المغرب الأوسط أيدي شيوخ القبائل العربية لتحصيل المغارم, كان السسكّان قد تحوّلوا إلى رعايا مُلزمين بدفع المغارم لمصلحتهم, وهكذا دفع سكان بلاد الزاب والأوراس ونقاوس ومقرة والمسيلة المغارمَ لأولاد يحي بن سباع[6]. فيما قامت قبيلة عياض باستخلاص المغارم السلطانية من بني ريغة لصالح السّلطة الغالبة في بجاية ولم يسع قبيلة ريغة إلا الالتزام[7], نفس الأمر حصل مع قبيلة أوغمرت التي التزمت أداء ما عليها من المغارم لصالح الذواودة الذين أقطعتهم الدولة مجالات واسعة[8]. ودفعت القبائل الواقعة

---

[1]-النميري, المصدر السابق, صص466-468.
[2]- أبو حمو, المصدر السابق, ص83.
[3]- النميري, المصدر السابق, ص281.
[4]- المصدر نفسه, ص282.
[5]-ابن قنفذ, المصدر السابق, ص198.
[6]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 46/6.
[7]-المصدر نفسه, 64/7.
[8]-المصدر نفسه, 69/7.

بإقليم بني راشد[1] المغارم للقبائل العربية[2]. أمّا قبائل سويد فبادرت بتحصيل المغارم من قبائل بني توجين وصيروهم عبيدا لجبايتهم[3]. فيما فرض شيوخ الثعالبة على الرعايا المستوطنين لسهل متيجة مثل مليكش وغيرهم الضرائب[4]. وهو الأمر الذي حصل للقبائل البربرية المقيمة بين تسالة ووهران والذين صاروا يدفعون المغارم لشيوخ العرب[5].

إنّ ظاهرة تحصيل شيوخ العرب للضّرائب لأنفسهم أو لمصلحة السلاطين مقابل أجرة معلومة, والتي استمرّت في المغرب الأوسط منذ العهد الحمّادي, لتتفاقم في العهد الزياني, وهو ما حوّل القبائل البربرية إلى قبائل غارمة, إلا قبائل قليلة اعتصمت بأعالي الجبال خوفا من بطش شيوخ القبائل العربية وعقابهم.

---

[1]- إقليم بني راشد: يضمّ هذا الإقليم مدينتي شلف وغيليزان, وتوجد بشلف بلدية بمعروفة باسم هذا الإقليم وهي بلدية بني راشد, وبغليزان توجد قلعة بني راشد. وقال حسن الوزان عن هذا الإقليم: قال حسن الوزان أنّ طول هذا الإقليم نحو خمسين ميلا من الشرق إلى الغرب, وعلى عرض يقرب من خمسة وعشرين ميلا, جهته الواقعة جنوبا كلها سهول, والواقعة شمالا كلها تقريبا مرتفعات, لكن أراضيهما معا صالحة للزراعة, وينقسم السكان كذلك قسمين, فأهل المرتفعات يسكنون دورا لائقة جدا مبنية بجدران, ويزرعون الحقول والكروم, ويشتغلون بسائر ضروريات المعيشة, وسكان السهول, وهم أشرف بكثير, يقيمون في البادية, ويعيشون تحت الخيام, معتنين بماشيتهم, ولهم عدد وافر من الجمال والخيل, وهم أثرياء جدا لأهل المرتفعات قرى عديدة.. حسن الوزان, المصدر السابق, 26/2.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 203/7-204.

[3]-المصدر نفسه, 217/7.

[4]-المصدر نفسه, 74/6.

[5]-مارمول, المصدر السابق, 2/ 325-326.

المبحث الرابع:استقلال شيوخ القبائل العربية بإدارة الأقاليم

من أهمّ مظاهر سلطة شيوخ القبائل العربية في بلاد المغرب الأوسط, ما شهدته الكثير من المدن والمجالات والبوادي من ظاهرة الاستقلال عن السُلطة المركزية, واكتفاء السّلاطين بالبيعة الاسميّة.

أ- الشيوخ المستقلون في المجالات الشرقيّة للمغرب الأوسط:

استقلّ شيوخ القبائل العربية[1] ببعض البوادي والمجالات المتاخمة للمدن الشرقية لبلاد المغرب الأوسط, ولم يكن أمام السّلاطين الحفصيين وحتى المرينيين أيّام تغلبهم بإفريقية, سوى التّسليم لهؤلاء الشيوخ وإقرارهم على ما تغلبوا عليه من البلاد. كما تمكّن بعض شيوخ القبائل العربيّة من الاستقلال بالتّصرف في عدد من المدن. فبنو مزني الذين تغلبوا على بني رمان ببسكرة, استطاعوا أن يستقلّوا بإدارتها, منذ أيام أبي اسحاق الحفصي الذي أسند لشيخهم وكبيرهم فضل بن عليّ بن أحمد بن الحسن بن علي بن مزني شؤون بسكرة[2]. و استطاع بنو مزني أن يحوّلوا بسكرة إلى دويلة شبه مستقلة, قصدها العلماء والوجهاء, ولجأ إليها الطامحون إلى الملك, والفارون من غضب السلاطين[3].

أمّا الذواودة من بطون رياح فتمّ لهم التغلب على ضواحي قسنطينة وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ ووراكلا وما وراءها من القفار في بلاد القبلة[4]. ولم يجد الحفصيون سوى التسليم لهم وتلافي أمرهم واصطناعهم. واستمالوهم باقطاعهم على ما غلبوا عليه من البلاد بجبل أوراس والزاب، ثم الأمصار التي بالبسيط الغربي من جبل أوراس المسمى عندهم بالحصنة وهي نقاوس ومقرة والمسيلة. واختص أقطاع المسيلة بأولاد سباع بن شبل .أمّا أقطاع مقرة فاختص بأولاد أحمد بن عمر بن محمد، وهو ابن عم شبل بن موسى بن سباع. فيما اختص أولاد عساكر بإدارة نقاوس. أمّا أولاد محمد فقد قوي نفوذهم لا سيما في أيام شيخهم يعقوب

[1]- لا نقصد بعبارة "الشيوخ المستقلون" ما قد يتبادر إلى الذّهن من "الاستقلال التّام", لأنّ الاستقلال التّام لا وجود له ببلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط, بل هو استقلال بإدارة مجال ما مقابل البيعة الاسمية, واعلان الولاء لدولة شرعية قائمة.

[2]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 587/6؛ الميلي, المرجع السابق, 365/2.

[3]-المصدر نفسه, 588/6

[4]-المصدر نفسه, 45/6.

بن علي بن أحمد، كبير الزواودة بمكانه وسنه, والذي حظي بشهرة وذكر ومحل من السلطان متوارث. و أشرف أولاد محمد وأولاد سباع بن يحيى على الزاب الغربي والذي كانت قاعدته طولقة والزاب الأوسط وقاعدته بسكرة وكان لشيخهم يعقوب بن علي سلطة على عامله ، بسبب منعته واستبداده بوطنه، وحماية ضواحي الزاب من عيث الأعراب وفسادهم في غالب الأوقات. في حين استبدّ أولاد نابت رؤساء كرفة بالزاب الشرقي وقاعدته بادس وتنومة[1] .

ب- الشيوخ المستقلون بالمجالات الغربية للمغرب الأوسط:

إذا كان شيوخ العرب قد استقلّوا بكثير من الأقاليم والمجالات في الجهة الشرقية لبلاد المغرب الأوسط, رغم أنّ الجهة الشرقية كانت إسميا تخضع للحفصيين, ومع علمنا أنّ الحفصيّين كانوا أقوى من الزيانيين, فإنّ النتيجة الحتمية هي أنّ ظاهرة الاستقلال بالأقاليم الغربيّة التابعة إسميا للزيانيّين كانت أكثر تفاقما, وأقوى ظهورا[2].

فعلى سبيل المثال لا الحصر نجدُ أن بني عريف شيوخ سويد قد استقلّوا بالكثير من الأرياف وبعض المدن, لاسيما حين أقطع أبو حمو مدينة كلميتو لأبي بكر بن عريف، ومازونة لمحمد بن عريف[3]. أمّا بنو عامر بن زغبة فاستبدّوا بالقسم الجنوبي من تلمسان, فزاحموا المعقل وضيّقوا عليهم. و بقي لهم نفوذ على بني يزيد في القسم الشرقي من بلاد المغرب الأوسط، وكانوا يغلبون غيرهم من القبائل المستقرة ببلاد حمزة والدّهوس[4]، وبلاد بني حسن, حيث يتزودون من خراج أرضهم في المصيف[5]. و أشرفت بعض بطون بني عامر بتأييد من أبي زكريا الحفصي على كدارة التابعة لبلاد حمزة[6] .

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 46/6-53.

[2]-جون.ب.وولف, الجزائر وأوربا 1500-1830, ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله, ط1 , الجزائر: عالم المعرفة, 2009م, ص24.

[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 65/6.

[4]- ذكر ابن خلدون أن الدهوس من وطن حمزة, وتقع حاليا بضفاف وادي الدّهوس في البويرة, حيث توجد إلى اليوم بلدية أولاد بليل التي ترجع إلى بني يزيد . المصدر نفسه, 56/6.

[5]-المصدر نفسه, 68/6.

[6]-المصدر نفسه, 69/6.

أمّا قبيلة المعقل فصارت ديارهم ما بين تلمسان وتاوريرت[1] في التل وما يواجهها من القبلة. و قد جاوروا قبائل زناتة في القفار[2], ويشير عبد الرحمن بن خلدون إلى مواطن المعقل ومجالاتهم, بقوله :((من بين تلمسان إلى وجدة[3] إلى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي صا من القبلة. وتنتهي رحلتهم في القفار إلى قصور توات وتمنطيت، وربما عاجوا إلى ذات الشمال إلى تاسابيت وتوكرارين، وهذه كلها رقاب القفر إلى بلد السودان[4])).

وبفضل استقرار قبائل المعقل بجوار قبائل زناتة تكاثرت أعدادهم, وتعلّموا التجارة وعمارة الرمال وبناء القصور, والتغلُّب على الفيافي[5]. ولما اشتدّ ضعف الزيانيين, بدأت قبائل المعقل تتربّص بالتلول, فأقطعهم الزيانيون وجدة وندرومة[6] وبني يزناسن[7] ومديونة وبني سنوس، كما

---

[1]- تاوريرت: هي مدينة قديمة بناها الأفارقة, على تل مرتفع قرب نهر زاع يبلغ ارتفاعها 392م, تحيط بها أراض زراعية جيدة, لكنها لا تمتدّ بعيدا لمحاذاتها صحراء وعرة جافة, وتتاخم هذه الصحراء من الشمال صحراء كرط, , لعبت دورا هاما في تاريخ المغرب نظرا لوقوعها في مفترق الطرق المؤدية الى الجزائر ومليلية وتافيلالت وفاس كالنت توريت مسرحا لمعارك طاحنة بين المرينيين والزيانيين وبنى بها المرينيون عدة تحصينات وقلاع لصد غزاة الشرق تقع على بعد 109كلم غرب وجدة و116كلم شرق تازة. وذكر حسن الوزان أنها دمرت سنة 780هـ, بسبب الصراع بين المرينيين والزيانيين, ثم تحولت إلى اقطاع لأحد رؤساء الأعراب, ورأى سكانها أنهم بعد أن هدتهم تلك الحروب أصبحوا تحت رحمة هؤلاء الأعراب, فغلبهم اليأس, وعزموا على الهجرة وترك المدينة, وذات ليلة فروا إلى ندرومة. حسن الوزان, المصدر السابق, 350/1؛ عبد الرحيم سلامة, المرجع السابق, ص 57.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 77/6.

[3]-وجدة: عاصمة المغرب الشرقي وأقرب مدينة مغربية الى الحدود الجزائرية تقع وسط سهول أنقاد على ارتفاع 550م أسسها زيري بن عطية المغراوي سنة 384هـ وبنى بها الملوك المرابطون والموحدون والمرينيون عدة مآثر, احتلها الاتراك سنة 1210هـ واستردها المولى سليمان سنة 1121هـ, تقع المدينة على بعد 14كلم من الحدود الجزائرية.عبد الرحيم سلامة, المرجع السابق, ص 107.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 80/6.

[5]-المصدر نفسه, 77/6.

[6]- ندرومة: حاليا هي إحدى الدوائر التابعة لمدينة تلمسان, أسس هذه المدينة الرومان قديما عندما كانوا يحكمون المنطقة, وبنوها على بقعة واسعة في سهل, بعيدة بنحو ميلين من الجبل واثنتي عشر ميلا من البحر المتوسط, ويمرّ قربها نهر قليل الأهمية. حسن الوزان, المصدر السّابق, 13/2.

[7]- يزناسن: هو جبل من الجبال التي كانت ضمن حدود مملكة تلمسان, قال عنه حسن الوزان: ((يقع هذا الجبل على بعد نحو خمسين ميلا غربي تلمسان, ويتاخم جهة قفر كرط, وقفر أنكاد من جهة أخرى, ممتدا على طول خمسة وعشرين ميلا, وهو شديد الوعورة والارتفاع, صعب المسالك, تكسوه غابات كثيرةتنتج كمية وافرة من الخروب الذي يعتبر الغذاء الرئيسي للسكان, إذ ليس لهم سوى القليل من الشعير)). المصدر نفسه, 43/2.

ضربوا على بلد هنين[1] بالسّاحل ضريبة الإجازة منها إلى تلمسان، فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها إلا بإجازتهم، وعلى ضريبة يؤديها إليهم[2].

أمّا ذوو عبيد الله فقد ساعدهم ضعف دولتي زناتة من بني زيان وبني مرين من الاستقلال والاستبداد بأرياف تلمسان وصحرائها, بل وتدخلوا في شؤون الدولتين, وساهموا في إثارة الكثير من القلاقل[3].

فيما استقلّ الثعالبة مع قبائل المعقل بجبل تيطري[4]. ثمّ تقدّموا نحو سهل متيجة, والذي كان تحت قبضة قبيلة مليكش البربرية,[5] ليستبدوا بالسهل منذ أيام أبي الحسن المريني, فتملكوه وفرضوا أنفسهم كحكام فعليين له[6].

- نتائج استقلال شيوخ العرب بإدارة الأرياف وبعض المدن:

كوّنت القبائل العربية ما يمكن أن نصطلح عليه بالإمارات المستقلة, فصارت تولية القائد من قبل السلاطين لا تعدوا أن تكون شكلية, وكان العرب يستغلون مراحل الضعف التي تمر بها الدولتان الحفصية والزيانية, فيبدؤون بالتدخل في سياسة الدولتين, لا سيما في القرن التاسع الهجري, حين فقدت الدّولتان الزيانية والحفصية حقّ الإشراف على جباية الضّرائب من القبائل و أصبح ذلك من احتكار القبائل العربيّة[7].وصارت الاقاليم التي كانت الدّولة تعيّن لها قادة مثل جزائر بني مزغنة والمديّة ومليانة وبرشك[8] من اختصاص شيوخ القبائل العربيّة[1].

---

[1]- هنين: مدينة ساحلية تقع بين بني صاف والغزوات, على بعد 60كم شمال غرب تلمسان, بها مرسى معروف, قال عنها حسن الوزان:((مدينة صغيرة قديمة بناها الأفارقة, وهي أنيقة صينة للغاية, لها ميناء صغير محروس ببرجين, كل واحد منهما في جهة, وتحيط بها أسوار عالية متينة, وتأتي إلى هذا الميناء سنويا سفن شراعية من البندقية تحقق أرباحا جسيمة مع تجار تلمسان)). المصدر نفسه, 15/2.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 81/6.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 78/6.

[4]- المصدر نفسه, 84/6.

[5]-الميلي, المرجع السابق, 371/2.

[6]- المصدر السابق, 84/6.

[7]- مختار حساني, تاريخ الدولة الزيانية, 26/1.

[8]- برشك: مدينة قديمة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط, أشار إليها الادرسي فقال:((مدينة برشك مدينة صغيرة على تل وعليها تراب وهي على ضفة البحر, وشرب أهلها من عيون مائها, وأشار إلى أنها تبعد بستة وستين

وفي نهاية القرن التّاسع, باتت القبائل القوية لا تقدّم مساعداتها للدّولة, إلا بأجرة معلومة, وذاق ملوك بني زيان, الأمرّين من غارات العرب[2], وأصبحت القبائل الضعيفة عرضة لتلك الغارات, والتي لم يمكن تجنبها إلا بمصانعة شيوخ هذه القبائل[3].

وبعد أن تحكمت القبائل في المسالك التجارية, وصارت من اختصاصها, لم تكن القوافل تقدر على العبور إلا بخفارة يدفعونها[4], وهي الأمور التي جعلت شيوخ القبائل يعرفون فترة رخاء وغناء, جعلت حسن الوزان يقول أنّ ما يملكه شيوخ هذه القبائل في خيامهم من أموال وأثاث لا يوجد مثله في قصور الدّولة الزيّانيّة[5]. وحين تكلم عن مدينة أغبال[6] ذكر أن الأعراب المتحكمون في هذه الأراضي أغنياء بأراضيهم ومواشيهم[7]. وأشار حسن الوزان إلى أنّ هؤلاء العرب كانوا يكسبون عددا لا يحصى من الغنم والبقر, الأمر الذي جعلهم لايستقرون في مكان واحد لعدم وجود أرض كافية لرعيي هذه الأعداد الوافرة من الماشية[8].

ويمكن أن نأخذ صورة عن أعداد الماشية الكثيرة التي صارت للعرب, من خلال ما كان يغنمه منهم السلاطين أثناء هزيمتهم لهم, ونكتفي بذكر موقعتين, تلخص ذلك؛ فالأولى أثناء الصراع بين يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان, اكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن، وامتلأت أيدي بني مرين من نعمهم وشائهم[9]. أمّا الثانية فحين نشب

ميلا عن تنس في الساحل, وأن الملك روجار افتتحها سنة وخمسمائة)) وأشار حسن الوزان أنّه يسكنها أناس كثيرون خشنون, ويشتغل معظمهم بحياكة الأقمشة. الإدريسي, المصدر السابق, 258/2؛ حسن الوزان, 33/2.

[1]-مختار حساني, المرجع السابق, 1/ 27.

[2]- مارمول, المصدر السابق, 373/2.

[3]-مختر حساني, تاريخ الدّولة الزيانيّة, 28/1.

[4]-المرجع نفسه, 29/1.

[5]- حسن الوزان, المصدر السابق, 306/1.

[6]- قال حسن الوزان عن جبل أغبال: ((يسكن جبل أغبال أناس أنذال خاضعون لحكومة مدينة وهران, وكلهم فلاحون وحطابون, يحملون الحطب إلى وهران, وكانوا في عيشة راضية يوم كانت المدينة بأيدي المسلمين)). المصدر نفسه, 44/2.

[7]-مارمول, المصدر السابق, 2 /325-326.

[8]- حسن وزان, المصدر السابق, 62/1.

[9]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 270/7.

الصراع بين خالد بن عامر وأبي حمو موسى الثاني, فبعد أن تحالفت سويد هذه المرة مع الزيانيين, وبعد أن تمكنت عساكر الزيانيين من إلحاق الهزيمة بخالد بن عامر, وقتل ملّوك بن صغير مع العبّاس ابن موسى بن عامر، ومحمد بن زيّان من العامريين , غنم الزيانيون الكثير من النعم والأنفال, والتي تدل على و فرتها عندهم[1].

أمّا الإبل فكان شيوخ العرب يتفاخرون بعددها, فمثلا حلوف بن علي بن جابر ونطاح أخوه, وهم أهل إبل يكون عند الرجل منهم نحو ستين ألف بعير[2]. وفي ذلك يقول حسن الوزان: (وعندما يراد ذكر ثروة أمير أو شريف من الأعراب يقال: وفلان له مقدار كذا من آلاف الابل, ولا يقال له مقدار كذا من الدنانير أو الممتلكات, وجميع الأعراب الذين يملكون الابل أمراء يعيشون أحرارا, إذ بها يستطيعون الإقامة في الصحاري التي لا يقدر ملك ولا أمير أنم يذهب إليها لجفافها[3].))

- إتخاذ شيوخ العرب للقلاع و القصور:

بعد أن عُرفت القبائل العربيّة بحياة الرّحلة سُرعان ما بدأت تألف السّكون و تجنح إلى حياة القرار, تاركةً شيئا فشيئا حياة التبدي والترحال. و من الأمور التي ساعدتهم على ذلك مخالطتهم للسلاطين, وكثرة مجالستهم وترددهم على بلاطاتهم واحتكاكهم بسكّان المدن مع تأثرهم بحياة الترف, وجنوحهم إليها, إضافة إلى ظهور الرباطات, وعجز كثير من القبائل عن الرّحلة بسبب تقلّص أعداد مقاتليها. وهكذا بدأ شيوخ القبائل يختطون القرى والدن, ويبنون القصور ويشيدون القلاع الحصينة, إضافة إلى البساتين النضرة. فونزمار بن عريف شيخ عريف قد اتخذ من دبدو[4] وكرسيف[1] قاعدة لملكه، واتخذ بها معقلا يحتمي به[2], وبنى قصر

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 183/7.

[2]- العمري, المصدر السابق, 4/ 201-202.

[3]-حسن الوزان, المصدر السابق, 259/2.

[4]- دبدو: أحد المدن المغربية, قال عنها حسن الوزان:((مدينة قديمة أسسها الأفارقة, على منحدر جبل شاهق منيع جدا باستحكاماته الطبيعية, ويسكن المدينة فرع من شعب زناتة, و...وتقع المدينة على بعد خمسة أميال من السهل, حاول الأعراب المجاورون انتزاع إمارة دبدو من بني ورتاجن, لكن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم ببسالة,...فاضطر الأعراب إلى عقد معاهدة معه, .وذكر الوزان أنه إلى غاية 904هـ, بقيت المدينة تحت إشراف بني ورتاجن)).المصدر السابق, 352/1.

مرادة الذي صيره مركزا لحياكة المؤامرات ضد سلاطين بني زيان, وتنصيب الأمراء وتأليب الخصوم ضدهم[3], واتّخذت قبائل بني عامر قصورا بالصحراء قبلة جبل راشد[4]. فيما بنى عثمان بن علي بن أحمد الرياحي قصرا صار أعجوبة الزمان, وقد قال النميري أنه قصر بديع, وأنّه من عجائب الآثار, غاية في الحسن, وقد أحيط بأبراج شاهقة, و تمّ تحصين بابه بخراجة, لمنع ولوجه, كما احتوى القصر على ديار محكمة البناء, متناسقة السكك متسعة الأذراء, أجلها دار عثمان بن أحمد وكانت بديعة الاختطاط, .وحفت بهذا القصر جنات ورياض غنّاء, أبدع عثمان بن علي في تزيينها[5]. أمّا سعيد بن موسى بن أحمد الرياحي فبنى قصر باينة قريبا من تيجمامين إضافة إلى الكثير من القلاع بأعالي الجبال, واتخذه قاعدة يغير منها على القوافل, ويجهز الكتائب لشن الغارة على المدن, و ملجأ يلتجأ إليه حين يضعف عن مواجهة الجيوش السلطانية[6]. فيما تفنن بعض رجالات العرب كأبي دينار سليمان بن علي بن أحمد من الذواودة[7] في تعمير مدينة لميس والتي وصفها النميري بأعجوبة الليالي والأيام, والتي تميّزت بقبتها العظمى المبنية بالحجارة المنحوتة , والتي ازدانت بالتصاوير[8].

ومن القصور التي بناها رجالات العرب بلاد الزاب قصر باتنة [9], و قصر القنطرة الذي شيده يعقوب بن علي الذي الذي أسكن فيه صهره عليا بن الحكيم[10], إضافة إلى حصن يعقوب

---

[1]- كرسيف: مدينة لا تزال موجودة بشرق دولة المغرب على مقربة من واد مليل المتفرع من نهر ملوية, يرجع تاريخها الى العصر المريني, وبها اليوم العديد من السكان الذين يشتغلون بفلاحة الحقول والبساتين وغابات الزيتون ولها أهمية فلاحية وتجارية واقتصادية بالناحية الشرقية ومنطقة الريف تقع على بعد 63كلم من تازة, و160كلم من وجدة.عبد الرحيم سلامة, المرجع السابق ص74.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 170/7.

[3]- المصدر نفسه, 176/7.

[4]- المصدر نفسه, 177/7.

[5]- النميري, المصدر السابق, صص413-415.

[6]- المصدر نفسه, ص416.

[7]- المصدر نفسه, ص418.

[8]- المصدر نفسه, ص416.

[9]- باتنة: مدينة تقع جنوب قسنطينة, محاذية لجبال أوراس, وقريبة من الخرائب الرومانية بتيمقاد ولمبيز من جهة أخرى. أحمد توفيق المدني, كتاب الجزائر, ص196.

[10]- النميري, المصدر السابق, ص423.

بن علي, المسمى حصن الجريد والذي منه كانت أقواته المرغدة, ومراقده المسعفة المسعدة[1], و حصن فلق[2], وقصبة طولقة المنيعة[3], وحصن فرفر الذي أحكم يعقوب بن علي بناءه[4]. بينما شهدت نقاوس الكثير من الحصون والقصور, كحصن سفيان و قلاع ريغة قريبا من تقواوس و قصر زراية[5].

وكان السلاطين يعلمون خطورة مثل هذه الحصون والقلاع والقصور, لذلك بادروا إلى الانتقام من شيوخ القبائل بهدم هذه القلاع والحصون والقصور, مثل ما فعل أبو عنان حين خرب قصور يعقوب بن علي ومن تحالف معه من الرياحيين[6]. ونفس الشيء فعله أبو حمو سنة 766هـ عندما اقتحم مدينتي دبدو وكرسيف، ما جعل ونزمار يعتصم بمعاقل الجبال، وقام أبو حمّو بانتساف الزروع والعيث في مدينتيه, وسائر النواحي. وخرّب قصر مرادة[7].

وبعد أن تقبّض أبو حمو على محمد بن عريف, بادر إلى قومه سويد فشرّدهم، وعاث في بلادهم[8]. كما تعرضت قصور بني عامر للتخريب بعد أن نازعوا أباحمو[9].

إنّ الاستقلال بالأقاليم, والعديد من المجالات المحاذية لمدن المغرب الأوسط في الإقليمين الشرقي والغربي التي صارت من اختصاصات شيوخ العرب, قد نتج عنه إشراف شيوخ القبائل على كثير من طرق التجارة, والاستئثار بخيرات تلك المدن, وتقليص مداخيل الدّولة, وتزايد ثراء القبائل العربية وشيوخها. كما بدأ شيوخ القبائل إتخاذ القصور والقلاع.

---

[1]- النميري, المصدر السابق, ص426.

[2]- المصدر نفسه, ص429.

[3]- المصدر نفسه, ص443.

[4]- المصدر نفسه, ص444.

[5]- المصدر نفسه, صص460-463

[6]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 394/7.

[7]- المصدر نفسه, 170/7.

[8]- المصدر نفسه, 176/7.

[9]- المصدر نفسه, 177/7.

الفصل الخامس:

الشيوخ المستقلون بإدارة أقاليم المغرب الأوسط

المبحث الأول:أمراء بنـــــي مزني

كانت بسكرة إحدى مدن الزاب, بل اعتبرت قاعدته, وكان حكامها في عهد الزيريين والحماديين, هم بنو رومان, والذين تعرضوا لعدة نكبات بعد نبذهم طاعة الصنهاجيين, مما دفع ببلكين إلى اقتحام القلعة عليهم, وصار تدبير أمرها لبني سندي من أهلها[1]. ثمّ تمكنت أسرة بني مزني من قبائل الأثابج من تحويلها إلى عاصمة مملكتهم.

- نسب بني مزني ومراحل تشكل إمارتهم:

لا خلاف بين النسابين أن أسرة بني مزني عربية, فبنو مزني كانوا ينسبون أنفسهم إلى قبيلة فزارة العربية, في حين يرجح ابن خلدون كونهم يرجعون إلى قبيلة لطيف من الأثبج[2], أحلاف بني هلال, وأنهم من بني جرى بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف, واسم أبيهم مزنة بن ديلف بن محيّا بن جرى, وقد اعتمد بن خلدون في ذلك على ما شافهه به نسابة العرب الهلاليين, وأيضا على موطنهم ببلاد الزاب الذي كان يعجّ بقبائل الأثبج, بعد عجزهم عن الرحلة. ويرى ابن خلدون أن السبب وراء ادعاء بني مزني أنّهم من فزارة, هو نفرتهم من الانتساب إلى قبائل الأثبج, بسبب ما لحق هذه القبائل من ذل المغرب والوضائع[3].

- بداية نفوذهم:

بعد الغزو الهلالي توغلت قبائل الأثبج نحو الغرب, وبعد تخريب القلعة, وتفرق الأثابج, عجزت لفائف منهم عن الظعن, فسكنوا قرى الزاب, ودخلوا حياة القرار والاستقرار, وتحولوا إلى تربية المواشي, والزراعة, وبنوا القصور والحصون, مشاركين لسكان الزاب من البربر في عمارته, وإدارة شؤونه. وتمكنت أسرة بني مزني و التي سكنت بسكرة من أن تفرض نفسها في هذا المدينة, بعد أن صار لأبنائها العز والغناء والكثرة, فساهمت في إدارة شؤونها,

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 585/6؛ الميلي, المرجع السابق, 364/2.

[2]- يرى علاوة عمارة أن إثبات الأصول الهلالية لعائلة بني مزني يحتاج إلى بحث عميق, لكن في ظل غياب أ ي معلومات نكتفي بما ذكره ابن خلدون, والذي كان بامكانه أن يوافق بني مزني فيما ادعوه, لولا وجود معلومات قوية جعلته يثبت نسبتهم الأثبجية, ولعل علاقة بني مزني بالذواودة تؤكد على هلاليتهم. المرجع السابق. ص26.

[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 585/6؛ الميلي, المرجع السابق, 364/2.

وانتظمت في مجلس الشورى , غير أن بني رمان قد حسدوا بني مزني, وسعوا إلى إقصائهم, لتبدأ المنافسة بين بني مزني وبني رمان, والتي تجلت عندما سعى بنو رمان ببني مزني عند أبي حفص أول الملوك الحفصيين[1], لذلك ترافع شيخا الأسرتين إلى أبي حفص, ثم ابنه أبي زكريا وابنه المستنصر, ثم بدأت الخصومة, وتحيزت الدولة لبني رمان. و بقيت العلاقة مضطربة بين الأسرتين, وظلّ بنو رمان هم السادة الفعليون لبسكرة, إلى أن خرج أبو اسحاق على أخيه محمد المستنصر, ولحق بالذواودة من العرب, وبايع له موسى بن محمد بن مسعود البلط أمير البدو يومئذ, فقام فضل بن عليّ بن أحمد بن الحسن بن علي بن مزني بدعوته[2], ولذلك سير السلطان الحفصي جيشا للقضاء على هذه الحركة, واقتحم الجيش الحفصي بسكرة ففر فضل بن علي مع أبي اسحاق إلى الأندلس, وحين هلك المستنصر, وصارت الخلافة لأبي اسحاق, عقد لفضل بن علي على الزاب, ولأخيه عبد الواحد على بلاد الجريد[3] رعيا لذمة خدمتهما, ورجحت كفة بني مزني[4].

تزايد سلطة بني مزني:

بعد تغلب أبي زكريا يحي على بجاية وقسنطينة وبونة واستقلاله بإدارتها, عرفت الدولة الحفصية مرحلة انقسام, وحاول بنو مزني أن يتمسكوا بدعوة أبي حفص صاحب تونس, ولكنّ تعكُّر العلاقة بين أبي حفص و منصور بن فضل بن علي, وحبسه إياه بتونس, جعلت منصور بن فضل فوْر فراره من محبسه يلتحق ببجاية سنة 691هـ/1292م, ليقوم بعدها بمبايعة أبي زكريا, وطلب منه المدد لتحويل دعوة أهالي بسكرة, وتعهد أمامه بأداء الأموال والجباية إليه. فسارع أبو زكريا إلى اقتناص الفرصة, فعقد لمنصور بن فضل على الزاب, وأمده بالعسكر فنازل بسكرة, ودخلها سنة 693هـ/1294م, ولما تمكن من البلد بادر إلى طرد بني رمان, وبدأ يوسع عمالته مستغلا انهماك الحفصيين بمشاكلهم الداخلية, وأضاف له أبو زكريا جبل أوراس وقرى ريغة, وبلد واركلى وقرى الحضنة, وهي مقرة ونقاوس والمسيلة, كما عقد له على

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 585/6؛ الميلي, المرجع السابق, 64/2

[2]- المصدر نفسه, 586/6.

[3]- بلاد الجريد: تمتد من تخوم بسكرة إلى تخوم جزيرة جربة, ومدنها توزر وقفصة ونفزاوة, وتاورغة وزليطن وغدامس وفزّان. حسن الوزان, المصدر السابق, 2/ 142-147.

[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 587/6؛ الميلي, المرجع السابق, 365/2.

ما تغلب عليه, وأوكل إليه مهمة مدافعة البدو من رياح وغيرهم, فقام باستخلاص الجباية منهم, ووفر أموال الدولة, وأدى الخراج, كما وطّد علاقته برجال السلطان[1].

ولما تولَّى أمور القسم الغربي للسَّلطنة الحفصية السلطان أبو البقاء خالد, وقام بتولية حاجبه أبو عبد الرحمن بن عمر, استغل منصور بن مزني العلاقة المتميزة مع هذا الأخير, ليوطّد من نفوذه, فصار لمنصور بن مزني السلطة على بلاد سدويكش من بلاد التل وبلاد عياض.

دور بني مزني في الأحداث السياسية في المغرب الإسلامي:

غدت بسكرة في عهد بني مزني إلى موطن يلجأ إليه الطامحون للملك والفارون من غضب السّلاطين, فناصر بنو مزني أبا اسحاق حين طالب بالملك, وأيّام انقسام الدول الحفصية ما لبث بنو مزني أن بايعوا لأبي زكريا الحفصي, كما أنّهم قاموا بالتشغيب على أبي البقاء خالد الحفصي, وأجلبوا على قسنطينة بيحيى بن خالد بن أبي اسحاق, حيث تمّ استدعاؤه من تلمسان وبايعوا له[2].

ومعلومُ أنّ بني مزني بأفعالهم هذه كانوا يبحثون عن سند شرعي يبرر مشيختهم ورئاستهم على بلاد الزاب وخصوصا بسكرة, وفي حالة ما لم يجدو ضالتهم عند الحفصيين, لم يكونوا يترددون في تحويل البيعة إلى جيرانهم المرينيين والزيانيين. فمثلا عندما سار السُّلطان أبو يحيى إلى تونس سنة 717هـ/1317م, تحيز منصور بن مزني إلى أبي تاشفين وأوفد ابنه يوسف عليه بالطاعة, وبقي منصور بن مزني على عداوته للحفصيين, إلى أن توفي سنة 725هـ/1325م, وصار الأمر لابنه عبد الواحد ثم يوسف بن منصور[3]. ولا ننسى أيضا أنهم أدّوا البيعة للسلطان المريني أبي الحسن ولابنه أبي عنان[4], حين تغلبا على تلمسان وتونس حيث لحق بملك المغرب أبي الحسن المريني خالعا طاعة الحفصيّين, وبدوره قام أبو الحسن بالعقد له على الزاب وما وراءها من قرى ريغة ووراكلى, وصرفه إلى عمالته, وأمره برفع الجباية

1-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 588/6

2-المصدر نفسه, 588/6

3-المصدر نفسه, 590/6.

4-الناصري, المصدر السابق, 3/ 318.

إليه[1]. وقام بنو مزني بدعم جيوش المرينيين, لاسيما في أيام أبي عنان عند مسيرهم إلى تونس سنة 753 هـ/1352م, حيث قام يوسف بن منصور بن مزني, بتمهيد أمور إفريقية لأبي عنان, وأوفد عليه أمراء القبائل والبدو ورؤساء النواحي سنة 754هـ/1354م, وصار من جلساء أبي عنان وأهل مخالصته, وصيَّره سنة 758هـ/1357م من بين وزرائه. وحين سير أبو عنان جيوشه إلى قرى الزاب لتأديب البدو بعد مخالفة أميرهم يعقوب بن علي, قصَد أبو عنان مع جيشه المنهك بسكرة للراحة, فبهرهم يوسف بن منصور بكرمه وأرغد عيشهم وكفاهم همّهم, ورفع إلى أبي عنان جبايته لعامه قناطير من الذهب, وفرح أبو عنان بذلك فأجزل مثوبتهم[2].

وأثناء قيام أبي العباس الحفصي بمحاولة تمكين ولاته في قرى الزاب, وإزاحته لأسرة بني يملول أصحاب توزر، بادر أحمد بن يوسف بن منصور إلى مراسلة أبي حمو, غير أنهم سرعان ما خاب ظنهم في أبي حمو وعلموا عجزه بعد أن استولى السلطان أبو العبّاس على توزر سنة 781هـ/1379م دون أن يحرّك أبو حمّو ساكنا.[3], فراجع أحمد بن يوسف طاعة السلطان أبي العباس بعد أن سعى يعقوب بن علي في السلم، سنة 783 هـ/1381م[4], ثم عاود أحمد الخروج عن طاعة الحفصيين, ليقوم يعقوب بن علي أمير البدو بالسعي في الصلح مرة أخرى, وأعاد بسكرة إلى طاعة الحفصيين سنة 786هـ/1384م[5].

نهاية حكم بني مزني وإنجازاتهم:

بعد وفاة أبي العباس الحفصي, بدأ رؤساء الجنوب وأعيانه يطمحون الى الاستقلال عن الدولة, ويمتنعون عن أداء الجباية[6], وما إن توطّد الأمر لأبي فارس عزوز, وقضى على حركات العرب المتغلبين على التلول وأهانهم وألزمهم الزكاة[7], حتى بادر سنة 804هـ/1401م إلى

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 592/6.

[2]-المصدر نفسه, 593/6.

[3]-المصدر نفسه, 186/7.

[4]- المصدر نفسه, 569/6-571.

[5]-الميلي, المرجع السابق, 369/2؛ روبار برنشفيك, المرجع السابق, 223/1.

[6]-روبار برنشفيك, المرجع السّابق, 244/1.

[7]-ابن أبي دينار, المصدر السابق, ص135.

الزاب, وأقام ببئر الكاهنة مدة حتى دبر أمره, ثم ارتحل إليها, وحاصر أحمد ابن مزني وضيق عليه, فحين عجز عن مدافعته, بادر إلى التسليم, فقام أبو فارس بعزله, ويرى ابن قنفذ أن السلطان الحفصي لم يكن قد بيّت النية لعزله, ولكنه حين وصلته شكاوى الرعية قام بخلعه, واقتاده إلى تونس, ودخل أمير المؤمنين بسكرة في 7 جمادى الثانية سنة 804هـ/11 جانفي 1402م, وبذلك أسدل الستار على حكم أسرة استقلت بالمشيخة, قرابة 140 سنة, منها أربعين سنة لأحمد بن يوسف وحده[1].

وبزوال نفوذ بني مزني فقدت بسكرة بريقها ورونقها, وتحولت إلى مدينة قليلة السكان, على حد تعبير مارمول, والذي أخبر أنها باتت غير مأهولة, وسكانها صاروا فقراء[2].

وقد عرفت بسكرة مرحلة استقرار ورخاء أيام حكم أسرة بني مزني, ونستشف من خلال المصادر التاريخية التي هي بين أيدينا ما كان عليه بنو مزني من حسن التدبير والإدارة. إذ أنّهم قد أحسنوا معاملة الذواودة، واستعانوا بهم. واستعملوا البدو لصالحهم, فصانعوهم بالبذل والعطاء, وحين كانوا يجدون من أنفسهم قوة, يسارعون إلى إجلاء البدو وطردهم, واستخلاص الجباة منهم, ومن دهاء بني مزني قيام يوسف بن مزني أثناء صراعه مع أمير البدو وكبير الذواودة علي بن أحمد, بتزويج يعقوب بن علي بأخته وبذلك كسب يعقوب بن علي إلى صفه, فما كان من علي بن أحمد إلا الركون لمساعي ابنه في الصلح [3].

وتتجلى عبقرية أمراء بني مزني في سياسة يوسف بن منصور الذي بادر إلى تولية ابن الأزرق شيخ جماعة السنية أتباع سعادة القضاء ببسكرة, وذلك لتفريق أمر السنية, فأجابه ابن الأزرق ونزل عنده، فولاه القضاء ببسكرة[4].

وجديرٌ بالذّكر أن بسكرة تحولّت إلى قبلة للأمراء والعلماء والولاة, كيحي بن خلدون الذي لجأ إليها حين خلص من معتقله ببونة أيام أبي العباس الحفصي [5], كما استقر بها عبد

---

[1]-ابن قنفذ, المصدر السابق, ص198.
[2]- مارمول, المصدر السابق, 168/2.
[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 591/6.
[4]-ابن خلدون, المصدر السابق, 53/6.
[5]-المصدر نفسه, 563/7.

الرحمن بن خلدون, وقد راسله ابن الخطيب وهو مستقر ببسكرة, بكلام بديع وأبيات مدح فيها بني مزني وبسكرة:

من أنكر غيثـــا منشـــــؤه	في الأرض وليس بمخلفها
فبنان بـــــــني مزني مـــزن	تنهل بلطف مصرفـــــها
مزن مذ حل ببســـــــكرة	يوما نطقت بمصحفـــها
شكرت حتى بعبــــــارتها	وبمعناها وباحرفــــــها
ضحكت بابي العباس زخرفها	من الا يام ثنايا زخرفــها
وتنكرت الدنيا حـــــــتى	عرفت منه بمعرفـــــها[1]

وهكذا عرفت بسكرة في أيام بني مزني رخاءًا منقطع النظير, فحين دخل أبو عنان بسكرة للراحة, بهره يوسف بن منصور بكرمه, وأرغد عيشه هو وعساكره, ورفع إليه جبايته لعامه قناطير من الذهب, وأجزل السلطان مثوبته وأسنى عطيته, واختصه بكسوة وثياب هو وعياله [2].

وحتّى النميري صاحب الرّحلة تحركت شاعريته لينشد ابن مزني بهذه الأبيات سرورا بما قام به من كرم الضيافة, فقال بعد أن أمره أبو عنان بذلك:

ولكن به عبد لخير خليـــــــفة	جواد ينيل الرفد أو يبذل الأنسا
فمهما شكت باليبس بسكرة حبا	ببعض عطايا فارس فزكت غرسا
كأنّ ابن مزن يخلف المزن عندما	يجود إمام لم يدع هديه لبـــسا
وإنّ بلاد الزاب بعد حـــــلوله	بها لحقيق أن تحبّ ولا تنـــسا[3]

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 566/7.

[2]-المصدر نفسه, 593/6.

[3]- النميري, المصدر السابق, صص441-442.

المبحث الثاني: إمارة أولاد عريف شيوخ سويد

من بين شيوخ القبائل العربية الذين لعبوا أدوارا هامة في بلاد المغرب الأوسط, أولاد عريف بن يحيى شيوخ سويد, الذين ترددوا على بلاطات المرينيين والزيانيين, وتمكنوا من فرض أنفسهم كوسطاء وأمراء نافذين, فقصدهم السلاطين والأمراء والأعيان والعلماء.

نسب أولاد عريف وبدايتهم:

يرجع نسب أولاد عريف إلى قبيلة سويد من قبائل زغبة الشهيرة, فسويد هم من بني مالك بن زغبة, مثلهم مثل قبيلة العطاف والديالم. والذين ناصروا بني عبد الواد, عند قيام دولتهم لذلك اختصهم الزيانيون بحلفهم وولايتهم[1].

و كانت رياسة قبيلة سويد في أولاد عيسى بن عبد القوي بن حمدان، ثم صارت لولده مهدي، ثم ابنه يوسف بن مهدي, والذي أقطعه يغمراسن بلاد البطحاء وسيرات, كما أقطع ابن عمه عنتر بن طراد بن عيسى البطحاء, فصارت لهم سلطة على أهلها, وقبضوا منهم الإتاوات.

واستمرت العلاقة الوطيدة بين يغمراسن وسويد ووصلت إلى أوجها حين صارت مشيخة سويد لعمر بن مهدي, فكان كثيرا ما يستخلفه على تلمسان أثناء خروجه إلى ناحية الثغور الشرقية[2]. وبسبب هذه العلاقة المتميزة, تركت قبيلة سويد, الرحلة والظعن, إلا أحياءًا قليلةً منهم, وفضّلوا حياة القرار والاستقرار[3].

وكانت علاقة سويد بسلاطين بني زيان, تعرف في مناسبات متكرّرة حالة فتور, بسبب تحالف الزيانيين مع بني عامر, لذلك كان شيوخ سويد يبحثون عن سند خارجي يرجّح كفّتهم, وهو ما ظهر فعلا حين زحف يوسف بن يعقوب المريني إلى تلمسان, إذ وفد عليه شيخ سويد سعيد بن عثمان بن عمر بن مهدي، فأتى مجلسه وأكرم وفادته, إلى أنَ يوسف بن يعقوب توجس خيفة من شيخ سويد فأراد أن يبطش به, مما دفع بسعيد بن عثمان إلى

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 59/6.

[2]-المصدر نفسه, 61/6.

[3]-المصدر نفسه, 61/6.

اللحاق بقومه, والإجلاب على أطراف التلول فملك السرسو[1]، وبقي على ذلك حتى توفي يوسف بن يعقوب[2].

بداية نفوذ آل عريف:

بعد موت يوسف بن يعقوب, وانتهاء مدة حصار تلمسان, ولي أبو تاشفين بن موسى بن عثمان بن يغمراسن, وكانت تربطه علاقة متميزة بعريف بن يحيي بن عثمان ابن أخ سعيد بن عثمان بسبب الأدوار التي قام بها أثناء الحصار, وإجلابه على بلاد السرسو وغيرها من البلاد, و قام أبو تاشفين بتقريبه إليه, وصيره من رجال مشورته.

استمرّت العلاقة على حالها بين أبي تاشفين وعريف بن يحيي إلى أن سعى هلال مولى أبي تاشفين بعريف بن يحيي, فأفسد ما بينهما، وبدأ أبو تاشفين ينحرف عن عريف, ويؤخر قبيلة سويد, فنزع عريف بن يحيي إلى خصوم الزيانيين, ووفد على السلطان المريني أبي سعيد سنة 720هـ, فاستقبله واحتفى به, وبالغ في إكرامه. وبسبب ذلك قام أبو تاشفين باعتقال عمّ عريف بن يحى وهو سعيد بن عثمان[3], واستمّر في اعتقاله إلى أن هلك في محبسه[4]. لتصل الخصومة بين مشيخة سويد والزيانيين إلى ذروتها.

وبعد أن وفد عريف بن يحيي على السلطان أبي سعيد المريني, قام هذا الأخير بإكرام وفادته, وصيره من جلسائه, ولما تولى أبو الحسن مقاليد حكم دولة بني مرين, رفع عريف بن يحيي, وصيّره من أهل مشورته. ومن أخصّ جلسائه, بل أرسله ليخطب له ابنة السلطان أبي بكر الحفصي, الأمر الذي يعكس مدى ثقته في ولائه وإخلاصه, ومدى قربه منه[5].

---

[1]- تعددت تعريفات عبد الرحمن بن خلدون لبلاد السرسو, فمرّة يقول أنّها جنوب الونشريس, وفي موضع آخر يجعلها جنوب مملكة تلمسان, بينما بيّن أنّها متاخمة لتيارت, خصوصا حين ذكر أنّ ملاكو هي إحدى جهات هذه البلاد, وأنّها تقع جنوب جبل تيارت, ممّا يجعلنا نميل إلى أنّها إقليم ممتدّ من جنوب غرب جبال الونشريس إلى جنوب شرق جبال لدجار بتيارت, وتوجد قرية في تيسمسيلت لا تزال تُعرف بهذا الإسم. المصدر نفسه, 132/6؛ 6/ 154-158؛ 68/7، 205/7.

[2]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 63/6.

[3]-المصدر نفسه, 62/6.

[4]-المصدر نفسه, 62/6.

[5]-المصدر نفسه, 522/6

و كان عريف بن يحى وافر العقل, متصفا بالحكمة, متأدبا بآداب الملوك, يراعي حرمتهم, ويحسن التعامل معهم, كما أنه كان يحسن التفاوض والشفاعة, وقد وصفه ابن خلدون بقوله:((عريف بن يحيى أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية[1])).

وبعد أن التحق عريف بن يحيى بالبلاط المريني, بدأ يظهر نفوذ عائلته, ابتداءا من السلطان أبي سعيد إلى أيام السّلطان عبد العزيز, فلعبوا أدوارا مهمة في إسقاط العرش الزياني, في ثلاث مناسبات, ومكنوا المرينيين من إحكام قبضتهم على تلمسان.

آل عريف وسقوط تلمسان:

كان من نتيجة الخصومة بين آل عريف والزيانيين, دعمهم لغزو المرينيين بلاد المغرب الأوسط, وهم ما تمّ ثلاثة مرّات بداية من عهد أبي الحسن, ونجم عنه سقوط تلمسان في ثلاثة مناسبات مختلفة.

أ- آل عريف و سقوط تلمسان الأول سنة737هـ /1336م:

كسب عريف بن يحى قلوب بني مرين, وصادف ذلك فساد علاقة السلطان أبي سعيد المريني[2], وابنه أبي الحسن بأبي تاشفين, بسبب رفض أبي تاشفين مطالبة المرينيين له بالكف عن بجاية[3], فاستغل ذلك عريف بن يحيى, وأوغر صدر أبي الحسن, وحرّضه على غزو تلمسان, وسهّل له ذلك, وقد استجاب أبو الحسن لنصيحته وغزى تلمسان, وتمكن من فتحها سنة737هـ/1336م[4], وساهم عريف بن يحيى في توطئة المغرب الأوسط للسلطان وإفريقية للمرينيين, ففاوض رؤساء القبائل وشيوخه من عرب وبربر, وحوّلهم إلى طاعة أبي الحسن[5].

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 132/7.

[2]- ابو سعيد المريني: تولى سنة (710هـ /1310م), وتوفي سنة (731هـ-1331م), تزوج ابنة السلطان الحفصي أبي بكر زكريا, سنة 731هـ, وهو ما كان سبب نصرته للحفصيين.ابراهيم حركات, المرجع السابق, صص33-35.

[3]- التنسي, المصدر السابق, صص144-146.

[4]- المصدر نفسه, ص219.

[5]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 63/6.

وبعد دخول أبي الحسن تلمسان, صار لقوم عريف بن يحيى اليد الطولى في بلاد المغرب الأوسط, خصوصا حين عقد أبو الحسن ، لوزمار بن عريف على سويد وسائر بني مالك، وأضاف إليه رئاسة التابعين لعمالته، وبذلك تحول وزمار إلى أمير نافذ الكلمة مخوف الجانب, فأخذ الصدقات والأتاوات، وأطاعته القبائل[1] , وقام بقتال بني عامر وكل من نازع المرينيين[2].

ب- آل عريف وسقوط تلمسان الثاني سنة753هـ-1352م:

لم يتمكن السلطان أبو الحسن المريني من إحكام قبضته على بلاد المغرب الأوسط, بعد هزيمته بالقيروان, وغرق موكبه سنة 750هـ/1349م, فنجا بصعوبة وأقام بالجزائر.

فاستغل أبو ثابت وأبو سعيد الزيانيين[3] الفرصة لاسترجاع ملك الزيانيين, ونكّلا بسويد, ممّا دفع بونزمار بن عريف، إلى جمع قبائل العرب وزناتة, وأوفدهم على أبي الحسن بالجزائر[4], وقام بقتال الأمير الزياني أبي ثابت سنة 751هـ/1350م[5], لكن السُّلطان أبا الحسن, قد انهزم قريبا من بلاد شلف. فلجأ إلى أحياء سويد بالصحراء ونجا به ونزمار بن عريف إلى سجلماسة[6].

وعندما أحكم أبو عنان قبضته على الدولة المرينية, تفرغ لأبي ثابت رفقة ونزمار بن عريف بن يحيى, حيث هزم المرينيون الزيانيين بفضل دهاء ونزمار سنة 753هـ/1352م[7], وقُتِل كلّ من

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 63/6.

[2]-المصدر نفسه, 63/6.

[3]- بعد هزيمة أبي الحسن بالقيروان, عاد أبو ثابت وأبو سعيد إلى تلمسان, وملكا سنة 749هـ/1348م, ثم بويع أبو سعيد, وحاول توطيد البلاد, وصار السلطان والدينار والمنبر لأبي سعيد, والجيوش والألوية والحروب لأبي ثابت. واستعان بهما أبو عنان المريني لتوطيد ملكه, سنة 750هـ, وقاموا بمقاتلة أبي الحسن وقائده أبي يعقوب ونزمار بن عريف سنة 751هـ/1350م, إلى أن استتب الأمر لأبي عنان فقاتلهما حتى قضى عليهما سنة 753هـ. ينظر: التنسي, المصدر السابق, صص150-156؛ يحي بن خلدون, المصدر السابق, 240/1-247.

[4]-التنسي, المصدر السابق, ص152؛ يحي بن خلدون, 236/1, 243.

[5]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 158/7.

[6]-المصدر نفسه, 159/7؛ التنسي, المصدر السابق, ص153.

[7]-التنسي, المصدر السابق, ص155.

أبي ثابت وأخيه أبي سعيد, بعد أن ساقهما ونزمار إلى أبي عنان من بجاية إلى تلمسان[1], ودخل تلمسان[2].

وكان أبو عنان يعلم الدور البارز الذي لعبته قبيلة سويد, فرعى لها ذمة الانقطاع إليه، ورفع وزمار بن عريف على سائر رؤساء البدو من زغبة وأقطعه السرسو, وقلعة بني سلامة وكثيرا من بلاد توجين[3]. فيما بقي عريف بن يحي جليسا لأبي عنان, وصاحب مشورته, حتى توفي ودفن بجوار أبي الحسن وأمراء بني مرين. وبادر أبو عنان إلى تعيين ونزمار مكان أبيه, وصيّره من جلسائه, وعقد لعيسى بن عريف على رئاسة البدو[4].

ت- آل عريف وسقوط تلمسان الثالث772هـ/1370 م:

استمر آل عريف, وأبناء قبيلتهم في ولائهم لأبي عنان, فقاتلوا بني عامر, وألزموا قبائل المغرب الأوسط طاعة بني مرين[5], وبعد وفاة أبي عنان قام أبو حمو موسى بن يوسف محاولا استعادة تلمسان, وكان يعلم الدور الذي لعبته قبائل سويد[6], لذلك ذكر التنسي أن أبا حمو حين ورد عليه سفير بني عامر يدعوه إلى استعادة ملكه[7]: (غزوا أولاد عريف, فكانوا يسيرون إليهم عشرة أيام لم يحلوا فيها سرجا ولا حطوا رحالا, فصبحوهم بواد ملال فاستباحوا المال, وقتلوا كثيرا من الرجال, قتل فيهم عثمان بن ونزمار بن عريف)[8]. وبذلك تحصل لبني عامر ما كانت تصبوا إليه, وتحصلت على ناجعة سويد[9] فتذبذب ولاء سويد وقام ونزمار بإيغار صدور المرينيين[10], فسرّحوا أبا زيان محمد بن عثمان سنة 765هـ/1363م[11]. وبعد أن

---

[1]- يحي بن خلدون, المصدر السابق, 247/1.

[2]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 162/7.

[3]-المصدر نفسه, 63/6.

[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 64/6.

[5]-المصدر نفسه, 70/6.

[6]-المصدر نفسه, 64/6.

[7]-يبين صاحب زهرة البستان أن أرسال بني عامر وصلت أبي حمو موسى الثاني ببلاد بني ورار. زهرة البستان, ص26.

[8]-التنسي, المصدر السابق, ص158.

[9]-زهرة البستان, ص31.

[10]-التنسي, المصدر السابق, ص185؛ زهرة البستان, ص78.

[11]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 169/7.

تمكن أبو حمو من هزيمة أبي زيان, نكل بسويد وأذلّهم, واستطال عليهم بنو عامر, فسجن محمد بن عريف, وقاتل أبا بكر بن عريف وحاصره, لذلك استنجد أبو بكر بن عريف بالسلطان المريني عبد العزيز سنة 770هـ/1368م, بوساطة أخيه ونزمار, وبادر عبد العزيز إلى إجابة صريخه, فقام باقتحام تلمسان سنة 772هـ/1370م[1] , وفرّ أبو حمّو وبنو عامر فتبعتهم العساكر المرينية تحت إمرة ونزمار بن عريف[2].

الصلح بين آل عريف والزيانيين:

حين رأى أبو حمو ما فعله ونزمار بن عريف وإخوته أبو بكر ومحمد, وعلم أن سياسة إذلال سويد لم تعد تجدي نفعا, كما أنّ عداوة ونزمار قد ألبت ضدّه المرينيين, بدأ يفكر في انتهاج سياسة توطيد العلاقة مع سويد, وكسب ولاء آل عريف, خصوصا عندما نابذته بنو عامر العداء. فوفد محمد بن عريف لدى أبي حمو لأبي بكر بن عريف. وبادر محمد بن عريف وأبو بكر بن عريف إلى طاعة أبي حمو[3], وزحفوا معه رفقة الديالم والعطاف وقاتلوا بني عامر. وقتلوا شيخهم عبد الله بن صغير, وأخاه ملوك وعدد من رجالات بني عامر. كما عقد ونزمار حلفا مع أبي حمو, وألبه على بني عامر فنكل بهم[4].

و سرعان ما تحول ونزمار إلى رسول سلام بين المرينيين وأبي حمو, فحين اقتحم أبو حمو وهران, بسبب مولاة قائدها علي ابن أجانا للمرينيين, خاف أبو سالم المريني من أن يستولي أبو حمو على الجزائر, وكانت لا تزال تابعة لسلطان المرينيين, فأوفد ونزمار بن عريف لعقد الصلح مع أبي حمو, كما أنه حث بني مرين على تسليم الجزائر لأبي حمو[5].

وبسبب نصيحة ونزمار لأخويه أبي بكر ومحمد, تحول آل عريف إلى جلساء لأبي حمو, فناصروه, واستقاموا في الطاعة, حتى أنهم صاروا يحشدون الناس إلى نصرته, وقد تمكن محمد بن عريف من تحويل أخيه أبي بكر إلى طاعة أبي حمو, ثمّ عقد صلحا بين أبي حمو والذواودة, كما استألف سالم بن إبراهيم كبير الثعالبة المتغلّب على بسيط متيجة وبلد الجزائر، أمّا

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 178/7.

[2]-المصدر نفسه, 176/7.

[3]- عبد الحميد حاجيات, المرجع السابق, ص123.

[4]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 71/6- 73.

[5]- زهرة البستان, صص 138-150.

ونزمار بن عريف فقد عقد هدنة بين أبي حمو والمرينيين, لذلك لم ينجد المرينيون خالد بن عامر وابن أخيه عبد الله بن صغير من شيوخ بني عامر[1]. و قام آل عريف بقتال بني عامر, و قرّبهم السلطان أبو حمو, وقام بإقطاعهم الكثير من الأرياف وبعض المدن, فأقطع كلميتو لأبي بكر بن عريف، ومازونة لمحمد بن عريف[2].

وحين عاود أبو زيان الخروج على أبي حمو, تحيز محمد بن عريف لأبي حمو, فيما خالف أبو بكر إلى أنه عاود طاعة أبي حمو, ونهض أبو حمو من تلمسان سنة 777هـ/1375م, فيمن معه من قبائل بني عبد الواد وعرب المعقل وسويد[3].

وهكذا استمرت سويد في ولائها لأبي حمو, إلى أن خرج ابنه أبو تاشفين عليه سنة 788هـ/1386م[4]. فاستنجد أبو تاشفين في صراعه ضد أبيه ببني مرين, وحالفته أحياء سويد، ووفد محمد بن عريف رفقة أبي تاشفين إلى السلطان أبي العبّاس سلطان بني مرين صريخين على شأنهما[5]. إلى أن جهزهما سنة 791هـ/1389م, ودخل أبو تاشفين تلمسان وقتل أبو حمو[6].

وبهذا نستنبج أن أولاد عريف كان لهم دور كبير في أحداث السياسية , وعانت الدّولة الزيانيّة من مؤامراتهم, لا سيما بعد أن تحالفوا مع سلاطين بني مرين, ولم تقرّ لهم عين إلا بعد أن تحالف الزيانيّون معهم, وقد نعتهم ابن خلدون بأولياء الدولة, وهو لقب لاشكّ أنه يعكس مدى رفعة هؤلاء الأمراء, وعلوّ مكانتهم[7].

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 7/180-181.

[2]- المصدر نفسه, 6/65.

[3]-المصدر نفسه, 7/184.

[4]-المصدر نفسه, 7/192.

[5]-المصدر نفسه, 7/194.

[6]-المصدر نفسه, 7/194-197.

[7]-المصدر نفسه, 7/163

المبحث الثالث: بنو عامر بن زغبة

تعتبر قبيلة بني عامر من أشهر بطون زغبة التي توطّدت علاقتها بالزيانيين, واستمرّت في ولائها لهم إلى أيّام صراع الزيانيين ضدّ العثمانيين, إلا في فترات قليلة.

أصولهم و بداية علاقتهم بالزيانيين:

مثّلت قبائل بني عامر أحد أقوى فروع قبيلة زغبة, و كانت مواطنهم مع بني يزيد في القسم الشرقي من بلاد المغرب الأوسط، وكانوا يغلبون غيرهم من القبائل المستقرة ببلاد حمزة والدّهوس، وبلاد بني حسن حيث يتزودون من خراج أرضهم في المصيف[1].

و حين رأى يغمراسن بن زيان كثرة عيث قبائل المعقل في بلاده, وتخوف من مساندتهم لبني مرين, قام بنقل بني عامر من مواطنهم الأولى وجعلهم بينه وبين قبائل المعقل, وصاروا يتقلبون في قفار تلمسان في الشتاء، ويستقرون بالتلول في المرابع والمصايف[2].

ولما استقرت قبائل بني عامر بن زغبة بالقسم الجنوبي من تلمسان, غلبوا قبائل المعقل. كما أنهم ظلّوا يأخذون ضريبتهم من الزرع على وطن بني يزيد رغم ارتحالهم عنه, وذلك إلى أيام ابن خلدون.

وشكّلت قبائل بني عامر مع الدّولة الزيانية حلفا استراتيجيا منذ أيام مؤسسها يغمراسن بن زيان الذي نقل بني عامر إلى صحراء تلمسان, حتى يكفَّ بهم عادية قبائل المعقل[3], ثمّ فسدت علاقة يغمراسن بن زيان بشيخهم داود بن هلال, بسبب إيواء داود للأمير أبي زكريا ابن أبي إسحاق الحفصي, ونزل معه بأرض عطية بن سليمان شيخ الذواودة[4].

وفي الوقت الذي حاصر فيه يوسف بن يعقوب المريني تلمسان, سعى داود بن هلال مناصرته, وحمل إليه رسالة عامل أمير بجاية الحفصي, لكنّ المرينيين استرابوا منه, فأرسلوا خيالة قامت بقتله, وبسبب ذلك راجع سعيد بن داود بن هلال طاعة بني زيان, وأدّى دورا كبيرا في تنفيس الخناق عن تلمسان أيام عثمان بن يغمراسن[5].

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 68/6.

[2]-المصدر نفسه, 68/6.

[3]-المصدر نفسه, 68/6.

[4]- المصدر نفسه, 69/6.

[5]- المصدر نفسه, 69/6.

وكان لبني عامر ثلاثة بطون هي: بنو يعقوب بن عامر وبنو حميد بن عامر وبنو شافع بن عامر، ومن بني شافع كان بنو شقارة وبنو مطرف[1].

أمّا رئاستهم: فكانت في عهد يغمراسن في بيت بني يعقوب, حيث تولى الرئاسة داود بن هلال بن عطاف بن رداد بن ركيش بن عياد بن منيع بن يعقوب, وكان يساعده أردافه, من مشايخ البطون الأخرى مثل شيوخ بني حميد[2].

الصِّراع بين بطون بني عامر:

بعد أن توترت العلاقة بين أولاد يعقوب من بني عامر, وبني زيان, آلت زعامة بني عامر إلى أولاد معرف بن سعيد بن رباب من بني حميد, , وكان لشيخ أولاد يعقوب؛ سعيدٍ بن داود دورٌ في كسر حصار تلمسان, ليحظى بعدها برضا آل زيان, ويعود ببني يعقوب بن عامر إلى وطنهم, لكنّ المنافسة كانت قد بدأت بين أولاد معرّف بن سعيد وبني يعقوب, وكان الزيانيون, قد اختصوا بني معرف وأقبلوا عليهم بسبب استقامتهم, وقلة خلافهم, فقام سعيد بن داود باللجوء إلى المرينيين[3]. ووفد على السلطان أبي ثابت من ملوكهم يدعوه إلى قتال بني زيان، ثمّ عاد إلى موطنه, واستمرت الخصومة إلى أن وصلت إلى ذروتها أيام أبي حمو موسى بن عثمان, وانتهت بقيام ماضي بن ردان من أولاد معرف بن عامر بقتل سعيد بن داود, وبذلك صار بنو عامر فريقين. صنف مع بني يعقوب و فريق مع بني حميد[4].

و التحق عامر بن إبراهيم شيخ بني حميد بالبلاط المريني, واتصل بسلطانهم أبي سعيد, قبل عريف بن يحيى, وزوج ابنته للسلطان أبي سعيد, و نال حظوة كبيرة, وكان عثمان بن سعيد بن داود شيخ بني يعقوب يعلم أنه لا يقدر على قتل شيخ بني حميد بسبب اتصاله بالمرينيين, فتظاهر بمصالحته, وبذلك عادت العلاقة بين بني يعقوب وبني حميد, إلى أن غدر عثمان بن سعيد بشيخ بني حميد عامر بن إبراهيم في بيته, ممّا جعل الفريقين ينفصلان بصفة نهائية[5]

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 68/6.

[2]-المصدر نفسه, 68/6.

[3]-المصدر نفسه, 69/6.

[4]-المصدر نفسه, 69/6.

[5]-المصدر نفسه, 69/6.

و نتج عن ذلك تحالف بني يعقوب مع قبيلة سويد, ضد بني حميد. لكنّ ارتحال عريف بن يحى ببدو سويد, أسفر عن استطالة بني حميد, ما جعل بني يعقوب يقتفون أثر سويد, وقد ساهم بنو يعقوب في دخول أبي الحسن إلى تلمسان, في حين بقي بنو حميد شيعة لبني زيان, واستمر الحال في أيام أبي عنان[1]. ولما تمكن بنو حميد من إعادة سلطان الدولة الزيانية, في عهد أبي حمو, دبّ الخلاف بين شيخهم خالد بن عامر وبين أبي حمو, وصار بنو يعقوب وبنو حميد يختلفون في ولائهم بحسب المصلحة, لا سيما حين خرج أبو زيان منازعا لأبي حمو[2].

وأدّى الزيانيون دورا بارزا في تفريق العامريين, فتفرق أيضا بنو يعقوب وتنازعت بطونهم على الرئاسة, كما تنازعت بطون بني حميد, ولذلك نجد مثلا أولاد سليمان من ولد عامر بن إبراهيم قاموا بالنزول مع بني يعقوب بأحياء أبي بكر بن عريف وصاروا كلهم أعداء لبني حميد[3].

رئاسة بني يعقوب بن عامر:

كانت العلاقة بين بني يعقوب وبني زيان جيدة, في أيام يغمراسن بن زيان, وفي أيام عثمان بن يغمراسن توترت العلاقة بينه وبين داود بن هلال ، بسبب إيواء داود الأمير لأبي زكريا ابن أبي إسحاق الحفصي, ونزل معه بأرض عطية بن سليمان شيخ الذواودة[4].

ولما استتبّ الأمر لأبي زكريا الحفصي أقطع داود بن هلال كدارة التابعة لبلاد حمزة, وأقام داود بها, ثمّ سرعان ما نازل يوسف بن يعقوب تلمسان، وقام بحصاره، فوفد عليه داود راغبا في طاعته، حاملا رسالة صاحب بجاية إلى يوسف بن يعقوب, مما جعل يوسف بن يعقوب يستريب بداود, فبعث في أثره خيالة من زناتة, قاموا بقتله[5].

وانتقلت المشيخة إلى ابنه سعيد، الذي سعى إلى الانتقام من المرينيين, فساهم في كسر حصار تلمسان, لذلك صفح الزيانيون عن بني يعقوب , وأعادوهم إلى مواطنهم مع

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 70/6.

[2]-المصدر نفسه, 72/6.

[3]-المصدر نفسه, 73/6.

[4]- المصدر نفسه, 69/6.

[5]- المصدر نفسه, 69/6.

قومهم[1]. وفي نفس الوقت قرّب بنو زيان بني حميد, ورفعوا شيخهم معرف بن سعيد بن رباب على شيخ بني يعقوب, فقام سعيد بن داود بمدّ يده للمرينيين, بيد أنّ تماطلهم جعله يعود إلى أرضه مجاورا بني حميد, وهو ما ولّد الكثير من الصراعات الداخلية بين البيتين, حتّى قام ابراهيم بن يعقوب بن معرف بقتل سعيد بن داود بهلال, فتأزمت الأمور, وتحالف بنو يعقوب مع سويد, ثمّ نزعت قبيلة سويد إلى المغرب الأقصى, فاستطال بنو حميد على بني يعقوب ممّا دفع ببني يعقوب إلى اللحاق بأحلافهم[2], وشاركوا معهم في احتلال تلمسان رفقة أبي الحسن.

و في عهد أبي عنان, حالف بنو يعقوب المرينيين وتغلّبوا على مجالات بني حميد, الذين فرّوا إلى الصحراء[3], وفي أيام أبي حمو موسى الثاني حدثت فتنة بين بني يعقوب, وسويد بعد أن قام بنو يعقوب بقتل أبناء محمد بن عريف, الأمر الذي جعل شيخهم ساسي بن سليم يتحالف مع خالد بن صغير شيخ بني حميد, فأضرموا نار الفتنة في المغرب الأوسط, وقاتلوا أبا حمو سنة 777هـ, فقام أبو حمو بمقاتلتهم مستعينا بسويد و الديالم والعطاف, وأسفر القتال عن مهلك عبد الله بن صغير وأخيه ملوك وفرّ ساسي إلى الصحراء[4].

وما إن فرّ ساسي إلى الصّحراء حتّى اجتمع مع الديالم والعطاف وسالم بن ابراهيم كبير الثعالبة وبايعوا أبا زيان, ثمّ تمكّن أبوا حمو من هزيمتهم, ففروا مرّة أخرى إلى الصّحراء, وبعدها راجع بنو حميد وشيخهم مسعود طاعة أبي حمو, وكذلك فعل ساسي شيخ بني يعقوب, بيد أنّ ونزمار بن عريف قد استطاع أن يوغر صدر أبي حمو, فقام بسجن مسعود وإخوته من بني حميد, وفرّ ساسي إلى الصحراء, ثمّ شفع ونزمار في المسعود وإخوانه, فقبل أبو حمو شفاعته, وأطلقهم من السجن, فعادوا إلى الخلاف, وتحالف معهم شيخ بني يعقوب ساسي, لكنّهم فشلوا في استعادة نفوذهم لذلك دخل بنو يعقوب في جوار سويد, ونزلوا بأحياء أبي بكر بن عريف[5].

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 69/6.

[2]-المصدر نفسه, 70/6.

[3]- المصدر نفسه, 71/6.

[4]- المصدر نفسه, 72/6.

[5]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 73/6.

رئاسة بني حميد بن عامر:

أدت قبائل بني حميد العامرية دورا حاسما في الدولة الزيانية, وكان لها الفضل في إحيائها بعد أن قضى عليها أبو عنان المريني[1].

كانت رئاسة بني حميد أيام عثمان بن يغمراسن في أولاد رباب, و رئيسهم معرف بن سعيد بن رباب كان رديفا لشيخ بني يعقوب داود بن هلال. وبعدما خالف دواود بن هلال عثمان بن يغمراسن, تحوّل إلى كدارة ببلاد حمزة, بسبب نصرته لأبي اسحاق الحفصي, وبذلك خلا الجوّ لبني حميد, واستبدّ أولاد معرّف بن سعيد, وقرّبهم بنو زيان وأعلوا مكانهم. وحين آلت الرئاسة إلى عامر بن ابراهيم, نزل على أبي سعيد المريني, ووطد علاقته به إلى أن صاهره أبو سعيد, واستمرّ على مكانته تلك عند بني مرين حتّى قام عثمان بن سعيد بن داود بقتله انتقاما لوالده[2].

وحين وفد رجالات سويد على السلطان المريني أبي سعيد, خلت مجالاتهم, واستبدّ فيها بنو حميد, بمؤازرة بني زيان, وهو ما دفع بعريف بن يحيي شيخ سويد إلى تحريض المرينيين لغزو بني زيان, حتى يرفع عن قومه الظلم الذي لحقهم من بني حميد.

وفي الوقت الذي تحرك فيه أبو الحسن إلى تلمسان, قام بنو حميد بالدفاع عن حلفائهم الزيانيين, ثمّ ظهر عجزهم عن مدافعة بني مرين, فبادروا إلى الفرار صوب الصحراء, وحاول شيخهم صغير بن عامر تفريق صف بني مرين, فبايع رفقة الذواودة وأولاد ميمون بن سويد الدعي بن هيدور[3], وبعد أن قضى أبو الحسن على ابن هيدور, أعلن صغير بن عامر الطاعة لأبي الحسن, لكنّه ما لبث أن عاد إلى طاعة بني زيان, بعد أن تغلب أبو سعيد وأبو ثابت على تلمسان, عقب هزيمة أبي الحسن بالقيروان.

وما إن استتبّ الأمر لأبي عنان, حتّى بادر هذا الأخير إلى القضاء على أبي سعيد وأبي ثابت, ودخل تلمسان, فرّ صغير بن عامر إلى الصحراء كعادته, وبقي بها يتربص إلى أن ثار

---

[1]- عبد العزيز الفيلالي, تلمسان في العهد الزياني, ج1/19-20.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 69/6.

[3]- المصدر نفسه, 70/6.

أولاد حسين من العقل ضد أبي عنان, فتحالف معهم, سنة 755هـ, ونازلوا سجلماسة, لكنّهم ما لبثوا أن تكبدوا خسارة مروّعة, جعلت صغير بن عامر يعود إلى الصحراء[1].

استمرّ بنو حميد في سعيهم لإحياء دولة بني زيان, وكان لهم ذلك بعد أن اتفق صغير بن عامر مع يعقوب بن علي شيخ الذواودة من أجل مناصرة أبي حمو, وهي الحركة التي عجلت باستعادة أبي حمو لدولة بني زيان في منتصف شوال عام 759هـ[2].

وقد جعلت هذه الأعمال السلطانَ أبي حمو تنطلق شاعريته لمدح شجاعة حلفائه من العرب العرب, والتنويه بشيخ بني حميد صغير بن عامر:

تسربلتُ كُردوسين من آل عامر ومن آل إدريس الشريف ابن قاسم

رجال إذا هاج الوطيس تراهم أسود الوغى من كل ليث ضبـــارم[3]

إلى أن أثنى على صغير بن عامر بقوله:

فحاز الثنا فيها صغير بن عامر كما حاز من قبل دياب بن غانم[4]

وبعدها بسنتين, توفي صغير بن عامر أثناء محاولته فض نزاع بين أبناء قبيلته, فانتقلت الرئاسة إلى خالد بن عامر, ويرادفه عبد الله بن صغير, فرفعهم أبو حمو وأعلى مكانهم, واستمّر ذلك مدّة ثمّ فسدت العلاقة نتيجة كثرة مجالسة أبي حمو لأحد أقارب خالد بن عامر, وهو عبد الله بن عسكر[5], ما جعل خالد يلجأ إلى السلطان عبد العزيز المريني, وجاء مع عساكر بني مرين, وأوقع بأبي حمو ومن معه من العرب, سنة 774هـ/1372م[6] .

---

[1]- ابن خلدون, المصدر السابق, 71/6.

[2]- زهرة البستان, ص26؛ عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 71/6.

[3]-زهرة البستان, ص34؛ أبو حمو, المصدر السابق, ص69.

[4]- أبو حمو, المصدر السابق, ص72.

[5]- أرجع صاحب زهرة البستان سبب تحول خالد بن عامر عن طاعة أبي حمو إلى إسناد أبي حمو المشيخة لشعيب بن عامر. زهرة البستان, ص212.

[6]- ذكر صاحب زهرة البستان أن خالد بن عامر قال لأبي زيان: ((أنا أمكّنك من تلمسان, فإنها خالية من الفرسان, وإنّ وزير السلطان حمّو متوغّل بالبلاد الشرقيّة, ونحن العرب في عصابة قوية)), المصدر نفسه, صص211-212.

وقد تمكن أبو حمو من طرد بني مرين, فقام خالد بن عامر بالتحالف مع شيخ بني يعقوب ساسي والعطاف والديالم والثعالبة, وبايعوا أبا زيان, سنة 777هـ/1375م, مما أسفر عن مقتل عبد الله بن صغير وأخيه ملوك, وفروا إلى الصحراء, ولحقوا بالديالم والعطاف[1] . واستمر خالد بن عامر على تذبذبه وتشغيبه مدّة من الزّمن, ثمّ هلك فتفرق أمر بني حميد, وولي المسعود بن صغير, وقام أيضا بالتشغيب على بني زيان, كلما سنحت له الفرصة, جاعلا من القفر بالصحراء ملاذا له بعد كل هزيمة. أما الزيانيون فقربوا إليهم سليمان بن ابراهيم وعبد الله بن عسكر من عمومة صغير بن عامر[2].

ويتّضح لنا الدّور الذي قامت به قبائل بني عامر في بلاد المغرب الأوسط, ومساعي مشيختها في بسط نفوذهم, وتوسيع إقطاعاتهم, ونلاحظ أنّ قبائل بني حميد كان لها دور بارز في إعادة إحياء الدّولة الزيانية, أمّا بنو يعقوب فقد حالفوا سويدا وبني مرين لأجل استعادة نفوذهم. وفي بعض الفترات نجد بني يعقوب يراجعون طاعة الزيانيين, فيما تتحالف بنو حميد مع المرينيين, كما حصل أيام شيخ بني حميد خالد بن صغير.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 72/6.

[2]- المصدر نفسه, 73/6.

المبحث الرابع: أمراء المـــــعقل

نسبهم وبطونهم:

كان لقبيلة المعقل دور بارز في الحياة السياسية والعسكرية ببلاد المغرب الأوسط, طيلة العهد الزياني, وهي ترجع بحسب ما رجحه عبد الرّحمن بن خلدون إلى قبيلة معقل اليمنية, فهو يرى أن أباهم الأول سُميّ بمعقل وعرف أيضا باسم ربيعة بن كعب بن كعب بن الحرث[1]. وكانت ديارهم ما بين تلمسان وتاوريرت. وجاوروا قبائل زناتة في القفار[2], ويبين ابن خلدون طريق رحلتهم فيقول عن مواطنهم :((من بين تلمسان إلى وجدة إلى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي صا من القبلة. وتنتهي رحلتهم في القفار إلى قصور توات وتمنطيت، وربما عاجوا إلى ذات الشمال إلى تاسابيت وتوكرارين، وهذه كلها رقاب القفر إلى بلد السودان[3])).

ونتج عن استقرارهم بجوار قبائل زناتة تكاثر أعدادهم, وواضحٌ أنهم تعلموا من قبائل زناتة التجارة وعمارة الرمال وبناء القصور, والتغلب على الفيافي, لا سيما أنهم كانوا أحلافا لهم سائر أيامهم[4].

و كان لمعقل ولدان, هما سحير ومحمد. فمحمّد ولد مختار ومنصور وجلال وسالم وعثمان. فمن مختار كان ذوو حسان والشبانات المستقرّون بالسوس. ومن جلال سالم ومن عثمان كان عرب الرقيطات الذين سكنوا البادية المجاورة لذوي حسان ينتجعون معهم. ومن ولد منصور بن محمد من الأولاد كان حسن وأبو الحسين وعمران وشب يقال لهم جميعا ذوي منصور[5].

وولد سحير عبيد الله وثعلب، ومن عبيد الله وُجد بطن ذوي عبيد الله[6]. ومن ثعلب وجد الثعالبة. وسنتكلم عن سلطة أمراء أولاد سحير المعقليين, لأنّهم كانوا مجاورين للدوّلة الزيانية.

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 79/6.

[2]-المصدر نفسه, 77/6.

[3]-المصدر نفسه, 80/6.

[4]-المصدر نفسه, 77/6.

[5]- المصدر نفسه, 79/6.

[6]-المصدر نفسه, 79/6.

أ- أمراء ذوي عبيد الله:

يرجع نسب ذويبي عبيد الله إلى قبيلة المعقل, وبدورها ترجع هذه القبيلة بحسب ما رجحه كثير من علماء الأنساب, وأيدهم ابن خلدون إلى قبيلة معقل اليمنية, وأبوهم الأول سمي بمعقل وعرف أيضا باسم ربيعة بن كعب بن كعب بن الحرث[1]. وكانت رئاسة ذوي عبيد الله في بطنين هما الهراج والخراج، وكان الصراع بينهما على أشده. وكانت مواطنهم من تلمسان إلى وجدة إلى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي زا من القبلة. وتنتهي رحلتهم في القفار إلى قصور توات وتمنطيت، وربما عاجوا إلى ذات الشمال إلى تاسابيت وتوكرارين[2].

ومن ذوي عبيد الله كانت قبيلتي الخراج والهراج:

1- الخراج :

من ولد فراج بن مطرف بن عبيد الله، وانقسمت رئاستهم بين طلحة بن يعقوب بن يغمور، ورحو بن منصور ابن يعقوب بن عبد الملك. ولهم بطون كثيرة كالجعاونة والغسل ، والمطارفة ، والمهايا .

2- الهراج :

وهم من ولد الهراج بن مهدي بن محمد بن عبيد الله، ومواطنهم مستوطنون ناحية المغرب ومجاورون لبني منصور ولهم تاوريرت وما إليها. وقد كانوا حلفاء لبني مرين في الغالب, وفي قليل من الأحيان كانوا يوالون بني عبد الواد, وكانت رياستهم في أولاد يعقوب بن هبا بن هراج[3].

ب- أمراء الثعالبة:

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 79/6.

[2]- المصدر نفسه, 80/6.

[3]- المصدر نفسه, 82/6.

يرجع أصل الثعالبة إلى قبيلة المعقل, و ينتهي نسبهم إلى صغير بن معقل, ويلتقون مع ذوي عبيد الله في جدهم صغير بن معقل[1]. فالثعالبة هم من ولد ثعلب بن عليّ بن بكر بن صغير أخي عبيد الله بن صغير.

مراحل سلطة ذوي عبيد الله:

يعتبر أمراء ذوي عبيد الله المعقلية, من أهم من مارس السّلطة, وانفرد بإدارة إقليمه, تحت وصاية المرينيين, وفي أحيان أخرى تحت وصاية الزيانيين. وقد تمكن هؤلاء الأمراء من أداء أدوار بارزة, و هامّة, وساهموا في تشكيل الوضع السياسي .

فبعد ظهور الدولتين الزناتيتين في المغربين الأقصى والأوسط, تفردت قبائل ذوي عبيد الله بالأوطان, ووضعوا عليها الأتاوات والضرائب، وفرضوا جباية على السكان. في حين استمر شيوخهم في إعطاء الصدقات للسّلاطين الزيانيين, ومقابل ذلك أطلقت الدولة أيديهم على ما تملكوه في فيافي ورمال المغرب الأوسط وما جاور تلمسان من ناحية الغرب, وهو ما جعل الكثير من القبائل الضعيفة تستقر بجوارهم, وتصبح حليفة لهم, كمسلم سعيد بن رياح والعمور من الأثبج، و فزارة من أشجع ، وبعض بطون كرفة, والمهاية من عياض، والشعراء من حصين والصباح من الأخضر ومن بني سليم وغيرهم. وهو ما مكّنهم بعد ضعف الدولتين الزناتيتين من الاستقلال والاستبداد بأرياف تلمسان وصحاريها, بل وتدخلوا في شؤون الدولتين, وساهموا في إثارة الكثير من القلاقل[2].

وكان ذوو عبيد الله أحلافا لبني مرين في الأول, بسبب عداوتهم وحروبهم المتواصل مع قبائل بني عامر, لذلك كان يغمراسن بن زيان, يغري بهم أبناء عمومتهم من ذوي منصور[3], ثمّ سرعان ما جنحت قبائل ذوي عبيد الله إلى الطاعة, وتكفلت بإعطاء الصدقة للزيانيين, كما تكفلوا بإمداد الجيش الزياني والعسكرة معه, وقد استمر ذلك إلى أن ضعف الزيانيون, فبدأت قبائل ذوي عبيد الله تتوسع وتتقدم إلى التلول, وتملكوا وجدة وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس, ولم يجد الزيانيون أي حرج في إقطاعهم ما تغلبوا عليه, حتى يضمنوا

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 79/6.

[2]-المصدر نفسه, 78/6.

[3]-المصدر نفسه, 80/6.

تحالفهم معهم, وهكذا قامت قبائل ذوي عبيد الله بفرض الضرائب على السكان وأخذ الجبايتها، كما فرضوا ضريبة على من يرغب في الانتقال من بلد هنين بالسّاحل إلى تلمسان، فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها إلا بإجازتهم، وعلى ضريبة يؤديها إليهم[1].

ومع نهاية القرن التاسع و بدايات القرن العاشر, تحولت بطون ذويي عبيد الله لا سيما أولاد طلحة إلى قوة لا يمكن الاستهانة بها, و تذبذب ولاؤهم فتارة يوالون الزيانيين, وتارة يوالون العثمانيين. وبعد أن قضى العثمانيون على الزيانيين, استبدّ الخرج والهراج بإقليمهم, ومنعوا تقدم العثمانيين صوب بلاد المغرب الأقصى, مستقلين بإدارة مدن كثيرة كوجدة وأنقاد, وورد ذكر بطون هذه القبائل في مراسلة جرت بين عثمان باشا صاحب الجزائر, ومحمّد بن الشريف, حيث عاتب باشا الجزائر محمد بن الشريف على إفساده طاعة أَوْلَاد طَلْحَة والهداج والخراج, وأنهم كانوا من رعايا الدولة العثمانية, يؤدون الخراج, ومما جاء في الرسالة :((أَوْلَاد طَلْحَة وهداج وخراج يؤدون لهَذِهِ المثابة مَا ثقل وخف من الْخراج وَلَا يفوتنا من ملازمها وبر وَلَا شعر وَلَا صوف وَلَا سقب وَلَا جدي وَلَا خروف إِلَى أَن طلعت علينا بشمسك السعيدة[2])).

ويشير ابن عابد في رحلته أن أولاد طلحة قد حصلت بينهم فتنة طاحنة, أشعلت منطقة أنقاد ووجدة وغيرها, وأن القبائل الضعيفة لم يكن أمامها إلا التحيز لفرع من فروع أولاد طلحة[3].

وقد بين مارمول أنّ الخراج والهداج, كانو في زمنه يملكون أراضي شاسعة, وأنهم كانوا يتلقون إعانات مالية من تلمسان, وأنهم بعد استيلاء العثمانيين على تلمسان, امتنعوا عن الخضوع لهم, وقد قدر عددهم بأربعة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل, وأنهم كانوا يعيشون على الإغارة واللصوصية, وأن الهداج استقروا بأنكاد[4].

---

[1]- عبد الرحمن ابن خلدون, المصدر السابق, 82/6.

[2]-الناصري, المصدر السابق, 23/7.

[3]- ابن عابد, المصدر السابق, صص30-31.

[4]-مارمول, المصدر السابق, 109/1.

سلطة أمراء الثعالبة المعقليّين بمتيجة:

يعتبر أمراء الثعالبة من أهم الأمراء الذين لعبوا دورا مهما, منذ عهد الدولة الموحدية إلى غاية بداية التواجد العثماني بأرض الجزائر.

انتقل الثعالبة مع قبائل المعقل فنزلوا من ناحية كزول, إلى ضواحي المدية ثمّ استقروا بجبل تيطري, وحين تغلب بنو توجين على جبل تيطري, وفدت مشيختهم على أمير توجين محمد بن عبد القوي , فاستلحمهم, وقام باذلالهم, وإلزامهم بدفع المغارم, والعسكرة معه, ثمّ قام محمد بن عبذ القوي بإجلاء قبائل الثعالبة, وأنزل قبائل حصين في جواره[1].

استقر الثعالبة بسهل متيجة, والذي كان تحت قبضة قبيلة مليكش البربرية, فأدوا المغارم, ولزموا الطاعة[2], وبقي الأمر كذلك إلى أن تمكن بنو مرين من إخضاع المغرب الأوسط, وأذهبوا ملك مليكش, قام الثعالبة بالاستبداد بسهل متيجة, فتملكوه وفرضوا أنفسهم كحكام فعليين له[3].

كانت رياسة الثعالبة في أولاد سباع بن ثعلب. والذي كانت تربطه علاقة وطيدة بالموحدين, حتى أن ابن خلدون نقل عن نسابة وإخباريي الثعالبة أنّ أن سباعا كان إذا وفد على الموحدين يجعلون من فوق عمامته دينارا يزن عددا من الدنانير, مبالغة في تكريمه وترفيعه. ثم صارت الرئاسة لبني يعقوب بن سباع, ثم انفرد بنو حنيش بأمر الثعالبة[4].

وقبيل دخول أبي الحسن المريني أرض المغرب الأوسط صارت الرئاسة إلى إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد بن ثابت بن محمد بن سباع والذي شايع المرينيين, ثم تولى من بعده ابنه سالم بن ابراهيم, فشايع أبا عنان, وتحالف مع حصين, واستبدّ في سهل متيجة إلى وادي سيق[5]. وبعد تغلّب أبي حمّو موسى الثاني. أظهر سالم الطّاعة, إلى أن ظهر أبو زيان مطالبا بالملك, فبادر إلى استدعائه ونصبه بالجزائر سنة 779هـ[6]. وبعد أن تمكّن أبو حمّو من

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 84/6.

[2]-الميلي, المرجع السابق, 371/2.

[3]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 84/6.

[4]-المصدر نفسه, 84/6.

[5]- عبد الرحمن الجيلالي, المرجع السابق, 176/2.

[6]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 85/6.

هزيمة أبي زيان, حاصر الثّعالبة بجبال متيجة, ثم استنزل سالم بن إبراهيم على عهده. ولكنّه أخفره وتقبض عليه وقاده إلى تلمسان أسيرا وقتله قعصا بالرماح[1]. ثم تتبع إخوانه وعشيرة وقبيله بالقتل والسبي والنهب إلى أن تلاشى أمر الثعالبة[2].

علاقة أمراء المعقل بالسلاطين:

كانت تربط أمراء المعقل المتحكمين ببعض مجلات المغرب الأوسط علاقات متقلّبة بالسلاطين .

أ- ذوو عبيد الله:

كان أمراء ذوي عبيد الله بحكم استقرار قبيلتهم بين تلمسان إلى وجدة إلى مصب وادي ملوية, مجاورين لبني عامر, وكان بينهم وبين بني عامر وبني زيان قبل قيام دولتهم حروب, لذلك شايعوا المرينيين, وصاروا أحلافا لهم. وكان المنبات من ذوي منصور أحلافا لبني عبد الواد, واستغل ذلك يغمراسن للإجلاب على المرينيين, وكانت رياسة الخراج في أولاد عبد الملك, وكان يعقوب بن يغمور شيخ الخراج أيام السلطان أبي الحسن، ولما تغلب على تلمسان استطاع يعقوب بن يغمور أن يجعل ذوي عبيد الله خدما لبني مرين . غير أنّ السلطان أبا الحسن سرعان ما انتزع بعض قصور الصحراء من أيدي ذوي عبيد الله, وأضافها إلى أملاك المرينيين, بسبب استماعه لسعاية يحي بن العز أحد رجالات قبيلة بني يزناسن. فانتفضت على إثر ذلك قبائل ذوي عبيد الله وخلعت طاعة المرينيين, وقتلو يحي بن العز. وانتهبوا عسكر السلطان ونقضوا الطاعة. وفروا مع يعقوب بن يغمور إلى الصحراء.

وفي أيام أبي حمو قام ذوو عبيد الله باعاقة الجيش المريني الزاحف الى تلمسان[3], بل إنّهم قاموا بقتل حليف المرينيين, وواليهم على وهران عامر بن ماساي وحزو رأسه وأخذوه إلى أبي حمو[4].

[1]- عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, 185/7.

[2]-المصدر نفسه, 75/6.

[3]- زهرة البستان, ص58.

[4]- المصدر نفسه, ص60

وبهذا نلاحظ أنّ ذوي عبيد الله استغلّوا تلاشى نفوذ المرينيين, وبادروا إلى مراجعة طاعة الزيانيين, بل والتزموا بأداء المغرم لهم, وإظهار الطاعة, وبعد ضعف الزيانيين, تربصوا بالتلول, فملكوا وجدة. وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس إقطاعا من السلطان إلى ما كان لهم عليها قبل من الأتاوات والوضائع فصار معظم جبايتها لهم، وضربوا على بلد هنين بالساحل ضريبة الإجازة منها إلى تلمسان، فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها إلا بإجازتهم، وعلى ضريبة يؤديها إليهم[1].

وأصبح السلاطين الزيانيين يستعينون بهم في العسكرة معهم, ولحماية قوافلهم, وبذلك تزايد نفوذهم, وثراؤهم. وبعد مجيئ العثمانيين تذبذب ولاؤهم, وأصبحوا شبه مستقلين ببلاد أنكاد, غير أنّ تقلّص مداخيل التّجارة, بسبب التغيرات السياسية, جعلتهم يمتهنون الحرابة, ويمارسون أعمال السلب والنّهب.

ب- الثعالبة:

كانت رياسة الثعالبة في أولاد سباع بن ثعلب. و كانت تربطهم علاقة وطيدة بالموحدين[2].

ثم صارت الرئاسة لبني يعقوب بن سباع, ثم انفرد بنو حنيش بأمر الثعالبة[3].

وقبيل دخول أبي الحسن المريني أرض المغرب الأوسط صارت الرئاسة إلى إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد بن ثابت بن محمد بن سباع والذي شايع المرينيين, ثم تولى من بعده ابنه سالم بن ابراهيم, فشايع أبا عنان, وتحالف مع حصين, واستبدّ في سهل متيجة إلى وادي سيق[4].

وواضح أن الثعالبة لم تكن علاقتهم بالزيانيين وطيدة منذ أن كان إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد بن ثابت بن محمد بن سباع شيخا لهم, لذلك استغلوا فرصة الغزو المريني أيام أبي الحسن, فصاروا من حلفائهم, ثم تولى من بعده ابنه سالم بن ابراهيم, فشايع أبا عنان, وتحالف مع حصين, واستبدّ في سهل متيجة إلى وادي سيق[5], وبعد وفاة أبي عنان واسترجاع

---

[1]- عبد الرّحمن بن خلدون, المصدر السابق, 81/6.

[2]-المصدر نفسه, 84/6.

[3]-المصدر نفسه, 84/6.

[4]- عبد الرحمن الجيلالي, المرجع السابق, 176/2.

[5]- المرجع نفسه, 176/2.

الزيانيين لملكهم أيام أبي حمو, قوّض من سلطانهم, فألزموا بدفع المغارم, لذلك استغلوا فرصة خروج أبي زيان وحصين على أبي حمو سنة 760 هـ. وفي أيام الصراع بين أبي زيان وأبي حمو, وأيضا الصراع بين المرينيين في عهد عبد العزيز المريني وأبي حمو, تذبذب سالم بن إبراهيم في ولائه لأبي حمو, وانتقض عليه مرارا، وسعى في تأليب القبائل ضده, ومن ذلك استدعاءه لأبي زيان ونصبه بالجزائر، مما جعل أبا حمو يزحف إليه سنة 779هـ, فعاود الطاعة وإظهار الخضوع لأبي حمو. لكنّ أبا حمو رأى ضرورة القضاء على سالم, فزحف إليه وحاصره بجبال متيجة، واستنزله على عهده. ثم أخفر ذمته, وقبض عليه وقاده إلى تلمسان أسيرا, وقتله قعصا بالرماح, ثم تتبع أهل بيته, وأبناء قبيلته, فقام بقتلهم وتشريدهم, وبذلك ضعف أمر الثعالبة[1].

ومع نهايات القرن العاشر الهجري, تفاقم ضعف الزيانيين, لذلك بدأ أمراء الثعالبة يحاولون استعادة نفوذهم بتأييد الخارجين, والوقوف معهم, كما فعلوا مع محمد المستعين بالله الزياني سنة 841 هـ, حين خرج على أبي العباس أحد العاقل, غير أنهم سرعان ما غدروا به حين اشتدت عليهم وطأته, فتحالفوا مع أهل الجزائر ومن بضواحيها من العرب, وقاتلوه ممّا أدى إلى مقتله سنة 843هـ[2]. وهكذا استقل الثعالبة برئاسة جزائر بني مزغنى من جديد, وأحكموا قبضتهم على سهل متيجة, وكان من بين من تعاقب على رأس هذه الهيئة العلامة سيدي عبد الرحمن الثعالبي.

واستمرت رئاسة الثعالبة إلى أواخر أيام الزيانيين, لاسيما حين آلت الرئاسة إلى أحد أولاد سالم بن ابرهيم, وهو سالم التومي[3], الذي خضع مضطرا الى الاسبانيين لما ملكوا بجاية. وكان له دور كبير في استقدام عروج من جيجل حيث استنجده فأنجده، ودخل الجزائر سنة 922, ولكنّ سالم سرعان ما ندم على فعلته, فبدأ يتربص بالعثمانيين, ممّا دفع بعروج إلى قتله, واستصفى الثعالبة, وجردهم من سلطانهم[4].

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السّابق, 85/6.

[2]-التنسي, المصدر السابق, ص251.

[3]-أبو راس النّاصري, عجائب الأسفار ولطائف الأخبار, دراسة وتحقيق: محمّد بوركبة, رسالة دكتوراه, وهران: كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة, 2007-2008م, 149/1.

[4]- الميلي, المرجع السابق, 444/2.

الخاتمة

هذا البحث الذي وضعناه بين أيديكم هو دراسة تناولت ظاهرة سلطة شيوخ القبائل العربية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني, وتوصلنا من خلاله إلى عدة نتائج وأجبنا على الإشكالية التي قمنا بطرحها فأثبتنا أنّ شيوخ القبائل العربيّة في المغرب الأوسط قد كانت لهم سلطة إجتماعيّة تمثّلت في القهر والغلبة والنفوذ داخل وخارج القبيلة, استمدّت شرعيّتها من قوّة القبيلة وضعف السّلطة المركزيّة, وقد خضع لهذه السّلطة سكان البوادي والأرياف و المجالات المحاذية للمدن السّلطانية, بل وامتدّت إلى بعض المدن.

وبيّنا أنّ هذه السّلطة قد ساهمت عدّة مقوّمات في تشكّلها, كما أنّها تجلّت من خلال عدّة مظاهر, وسنشير إلى أهمّ النتائج المتوصّل إليها:

ترجع القبائل الهلالية إلى منصور بن عكرمة بن خصفة, كانت مواطنها الأولى ببلا نجد, ثم استوطنت صعيد مصر ومنه تقدمت صوب افريقية والمغرب الأوسط بداية من عهد المعز بن باديس. والتي دخول القبائل العربية إلى بلاد المغرب الأوسط تمّ في مراحل, بداية من هزيمة سبيبة سنة 457هـ/1065م, من يومها بدأت القبائل العربية تتقدم في قرى ومدن المغرب الأوسط, من جهات الساحل والهضاب والصحراء, ليتزايد هذا التواجد والانتشار مع قيام الدولة الزيانية.

من أهم القبائل العربية التي استوطنت بلاد المغرب الأوسط قبائل الاثابج, ورياح وزغبة والمعقل وبعض بطون سليم.

تميزت القبيلة العربية الهلالية عن غيرها من القبائل بتعظيم النسب, وسكنى الخيام والاعتماد على حياة الرحلة. فيما كان ابن القبيلة متصفا بالجد والصرامة, والإقدام والشجاعة, وإكرام الضيف وعروبة اللسان, مع كثير من الصفات الذميمة كضعف الوازع الديني, وقطع الطريق, وترويع السابلة والإغارة على القرى والدن, والتعصب للقبيلة على حساب الوطن

والأمة, وعدم الاهتمام بالصنائع والعلوم, مع ما جبل عليه من الجفاء والغدر وإساءة الظن بالغير.

مثلت رتبة شيخ القبيلة رأس الهرم داخل القبيلة, فشيخ القبيلة هو الأب الروحي والزعيم الزمني للقبيلة, و في العادة ينتمي إلى بيت الرئاسة الذي فاق سائر البيوت في عدد الفرسان والمقاتلة والجاه والشرف الحسي والمعنوي, وأحيانا تتدخل عوامل أخرى في ترشيح شخص نافذ إلى رئاسة القبيلة, كترشيح سلطاني, أو صبغة دينية, وغيرها من العوامل.

كان يساعدُ الشيخَ في إدارة قبيلته رؤساء البيوت المسامتة والرّديفة لبيت الرئاسة والمشاركة له في العز والسلطان والكثرة والجاه والشرف ويعرف هؤلاء الرؤساء بالأرداف, وعادة ما ينتقل لقب المشيخة بعد وفاة الشيخ إلى أحد أفراد عائلته أو أردافه النافذين. ويكون الانتقال في الغالب بالتوافق, وأحيانا يتدخل السلطان في تولية شيخ القبيلة, وهو ما كان يتسبب أحيانا في تمزيق القبيلة وتناحرها.

من مهام الشيخ إدارة قبيلته, وتوزيع الثروات على أفرادها, وإعلان الحروب والسلم, وعقد التحالفات مع السلاطين أو ضدهم, إضافة إلى استخلاص الضرائب وأموال الزكاة وفرض المغارم, مع تنظيم شؤون الرحلة وأخذ الخفارات من القوافل, نظير تأمينها, والمشاركة في الأعمال العسكرية, وتمثيل القبيلة في المجالس السلطانية, وتأمين الرباطات وعدم التعرض لها, وكانت تربط شيخ القبيلة الكثير من العلاقات مع السلاطين والفقهاء والعمال والمتصوفة والرعايا من غير أبناء قبيلته.

من أهم مظاهر سلطة شيوخ القبائل العربية عجز السلاطين عن إخضاعهم, واستعانة السلاطين بهم لضبط أمور البلاد, وتصرفهم كحكام مستقلين من خلال استخلاص الضرائب وأموال الزكاة, إضافة إلى استقلالهم بادارة الأقاليم, وإشرافهم على طرق التجارة, وإخضاعهم للقبائل الضعيفة الواقعة ضمن مجالاتهم. دون أن ننسى إسهامات متأخري شيوخ القبائل العربية في اختطاط المدن, وتشييد القصور والحصون والقلاع.

ساهم ضعف السّلطة المركزية, وتنامي قوة بعض شيوخ القبائل في استقلال شيوخها بإدارة الكثير من الأرياف والمجالات وبعض المدن, وبذلك يُمكننا أن نقول أن سلطة شيوخ القبائل

العربية لم تنحصر في الأرياف والمجالات البدويّة الهامشيّة, بل امتدّت إلى مجالات هامّة, بل تعدّت إلى بعض المدن كمازونة وأغبال وكلميتو ووزينة ووجدة.

نتج عن تنامي سلطة شيوخ القبائل العربية الكثير من النتائج على جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادة والدينية, فقد أدى ذلك إلى زيادة ضعف السلطة المركزية, وتأجيج الصراع بين الحفصيين والمرينيين والزيانيين, وهي الصراعات التي استغلتها القبائل العربية للإغارة على المدن, وإثقال كواهل السكان, و انتساف الكثير من الزروع وترويع التجار.

كان لبعض القبائل دور بارز في تنشيط الحركة التجارية والرعوية والزراعية, خصوصا بعد أن تحولت بعض هذه القبائل من حياة الرحلة والانتجاع إلى حياة القرار والاستقرار.

كان لشيوخ القبائل يد في صبغ الحياة بالمسحة الصوفية, وتزايد ظهور الزوايا والرباطات والتي شيئا فشيئا استطاعت أن تدمج شيوخ القبائل في منظومتها, ليتحول شيخ الطريقة إلى مريد خاضع لإرادة وحكمة شيخ الطريقة, لتبدأ القبيلة الدينية في الظهور.

لم تكن نتائج سلطة شيوخ القبائل العربية كلها سيئة, بل كان لوجودها عدة نتائج إجابية مثل إسهامات بعضهم في تنمية الثروة الحيوانية من خلال خبرتهم في الرعي, وتنشيطهم للحركة التجارية, دون أن نُغفل أدوارهم البارزة مع بداية من نهايات القرن الثامن الهجري في ظهور القبيلة الدينية, مع مشاركاتهم في صدّ هجمات المسيحيّين وجهادهم بالمغرب الأدنى والأندلس.

تتحملّ السلطة المركزيّة في بلاد المغرب الإسلامي مسؤولية تسلّط شيوخ القبائل العربيّة وما انجرّ عنه من مفاسد, حيث لم يقم السّلاطين بمحاولات جادّة لدمج القبائل الهلاليّة وتأهيلها, بل كانوا سببا في إثارتها لمصلحتهم قصد ضرب خصومهم. كما أهملوا أمر البوادي والأرياف معتبرين لهذه المجالات مجرّد مورد جبائي, وبذلك تركوا هذه المجالات تحت رحمة شيوخ القبائل.

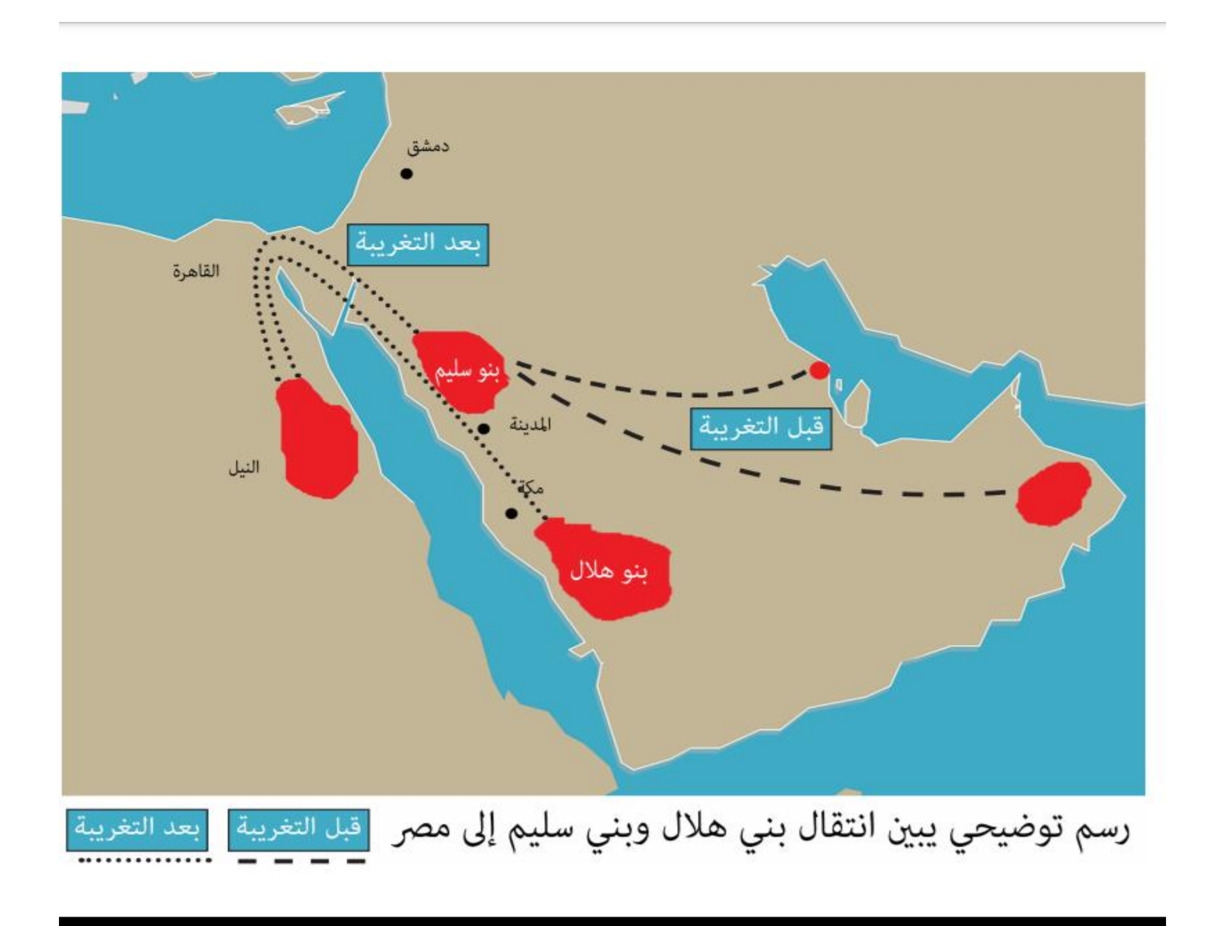
بهذا نكون قد أنهينا الحديث عن موضوع سلطة شيوخ القبائل العربية, آملين أن تكون هذه الدراسة إسهاما جديدا ورؤية مبتكرة حول تاريخ المغرب الوسيط, خصوصا في الفترة الزيانية,

وهي الدراسة التي قد تملأ الكثير من الفراغات وتجيب عن عدّة تساؤلات, وتفنّد العديد من نتائج الدراسات السابقة التي حوّلت التاريخ إلى وسيلة استعمارية بحتة انساق خلفها كثير من حذّاق النخبة المثقفة حتّى بعد الاستقلال مردّدين أحكاما جائرة, لا تمتّ للحقيقة العلمية التاريخية بصلة.

ونأمل أن يكون هذا البحث محفزا للطلبة والباحثين قصد إثراء هذه الدراسة, وإشباع مباحثها حتى تكون عندنا صورة متكاملة وواضحة المعالم عن تاريخ المغرب الأوسط دون تهميش لأي عنصر من عناصره الفاعلة.

الملاحق

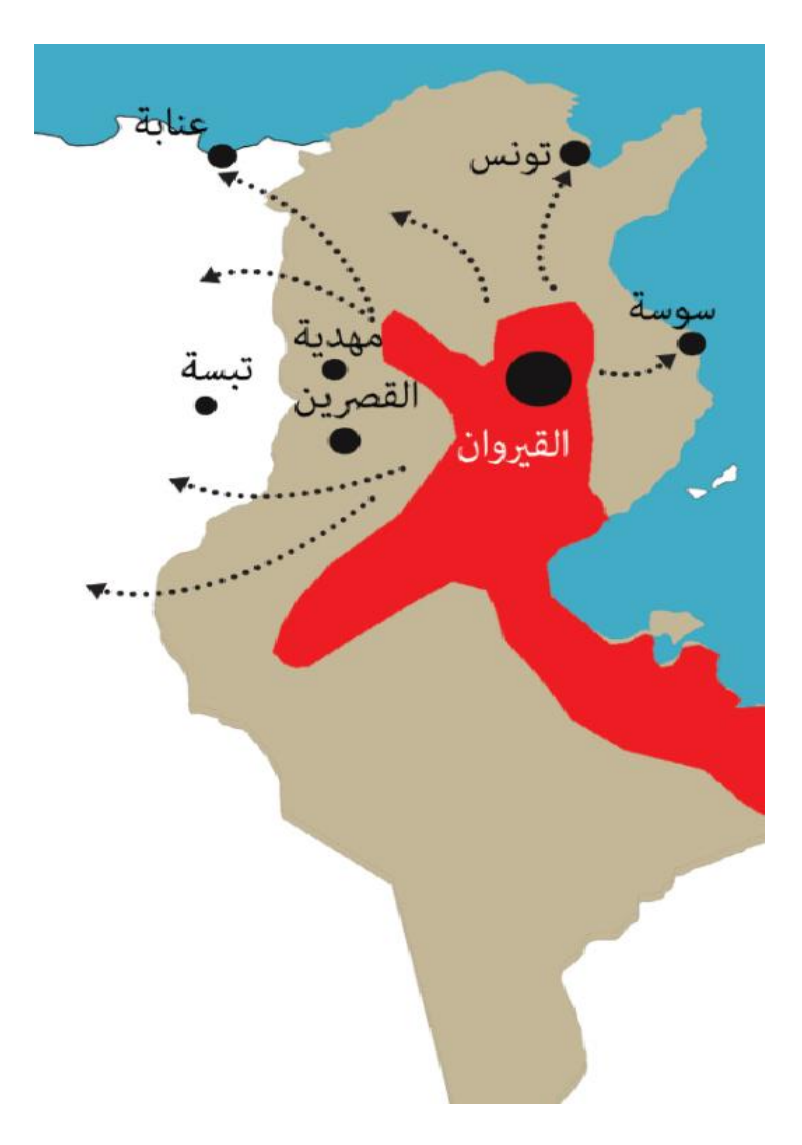
الملحق 01: خريطة من تصميمي





رسم توضيحي يبين طريق انتقال بني هلال وبني سليم من مصر إلى بلاد إفريقية

الملحق02: رسم توضيحي من تصميمي يبيّن طرق انتشار القبائل العربيّة بعد سيطرتها على القيروان



الملحق03: جدول يبين أعداد بعض القبائل العربية المستقرة ببلاد المغرب الأوسط التي أحصاها مارمول وحسن الوزان.

القبيلة / العدد	الفرسان	الرجالة
عقبة(مليانة)	1000فارس	10000رجالة
هبرة(بين وهران ومستغانم)	100فارس	2000راجل
مسلم(مسيلة)	يأخذون الأتاوة من مسيلة	
رياح(جنوب قسنطينة)	5000فارس	
سويد(في الشرق)	3000فارس	15000راجل
الثعالبة(سهل الجزائر)	3000فارس	40000راجل
الهدج(الصحراء المحاذية لتلمسان)	5000فارس	

صبيح(تخوم تلمسان)	3000فارس	20000راجل
عروة(ضواحي مستغانم)	2000فارس	15000راجل
بنو عامر(صحراء تلمسان)	6000فارس	أكثر من 50000راجل
بنو عبيد الله المعقليين(في صحراء أنقاد وجنوب تلمسان)	أكثر من 4000فارس	أكثر من 30000راجل

قمت بتصميم هذا الجدول بالإعتماد على:

حسن الوزان, المصدر نفسه, 1 /43-49؛ مارمول, المصدر السّابق, 102/1-109.

الملحق 04:نص يبيّن تعامل ملوك تلمسان مع أعراب أنقاد قصد تأمين قوافل التّجارة

ويفعل نفس الشيء لدى الوصول إلى آخر، فيتم المرور بدون خطر. وقد اعتاد ملوك تلمسان، للحفاظ على أمن المسالك، أن يستأجروا بعض الأعراب بحيث يمكن المرور مدة الصيف كله بأمان. لكنهم يضطرون في فصل الشتاء، إلى سوق قطعانهم إلى نوميديا والتقاط التمر في الصحراء، فيبقى الآخرون الذين يعيشون في المفازة يتنقلون في كل مكان كما يشاؤون، بحيث يكون من الخطر اجتياز هذه

المصدر: مارمول, المصدر السابق, ج2ص292.

الملحق 05: نصّ يبيّن تأديّة أمراء وركلة الخراج للأعراب

لوركْلة أمير يشرّفونه كالملك، يعيل نحو ألف فارس من حرسه، ويجبى إليه من إمارته مائة وخمسون ألف مثقال، ويؤدّي إلى جيرانه الأعراب خراجاً مرتفعاً(46).

المصدر: الحسن الوزان, المصدر السابق, ج2ص137.

الملحق 06: نص يوضّح قيام السلطان أبو عنان المريني بهدم قصر زراية نكاية في الأعراب

وكانت زراية قد اكتسبت رفعة ، وأزرت بقصور تلك البلاد متعة . ولم تزل منسوبة للعرب مميلة لركائبهم ميل الطرب . مقبلة إليهم باللبيب الرخي ، مغرة لهم كنعف اللوىٰ للتعلبي .

فعزم مولانا أيّده اللّه أن يوجّه إليها من تقاوس من يهدمها ، ويشخص طائفة من الجيوش المنصورة تدمدمها . ووقع الازماع على ذلك استتباعاً لزوال

النميري, المصدر السابق, ص468.

الملحق 07: نص يصوّر لنا مدى سلطة شيوخ العرب

وحاشيتهم ، واستبدوا برياسة البدو . ثم لما نصب بنوحصين بن زيان ابن عم السلطان أبي حمو للملك كما نذكره ورشحوه للمنازعة سنة سبع وستين وسبعمائة هبت من يومئذ ريح العرب وجاش مرجلهم على زناتة ووطئوا من تلول بلادهم بالمغرب الأوسط فأعجزوا عن حمايته ، وولجوا من فروجها ما قصروا عن سده . ودبوا فيها دبيب الظلال في الفيوء ، فتملكت زغبة سائر البلاد بالأقطاع من السلطان طوعاً وكرهاً رعياً لخدمته ، وترغيباً فيها وعدة وتمكيناً لقوته حتى أفرجت لهم زناتة عن كثيرها ، ولجؤا إلى سيف البحر .

وحصل كل منهم في الفلول على ما يلي موطنه من بلاد القفر . فاستولى بنو يزيد على بلاد حمزة وبني حسن كما كانوا من قبل ، ومنعوا المغارم ، واستولى بنو حسين على ضواحي المدينة أقطاعاً والعطاف على نواحي مليانة ، والديالم على وزينة ، وسويد على بلاد بني توجين كلها ما عدا جبل ونشريس لتوعره بقيت فيه لمة من توجين رياستهم لأولاد عمر بن عثمان من الحشم بني تيغرين كما نذكره ، وبني عامر على تاسالة وميلانة إلى صيرور[1] إلى كيدزة الجبل المشرف على وهران .

عبد الرحمن بن خلدون, المصدر السابق, ج6ص65.

الملحق08: ابن مرزوق يذكر أبا يعقوب ونزمار بن عريف ضمن جلساء السلطان أبي الحسن المريني

والشيخ الفاضل الأصيل الماجد الذي خلف والده أحيا طريقته أبو يعقوب ونزمار بن عريف المتقدم الذكر . كان اذا قدم يخلي له والده العشيات ، فيقوم مقامه ويجري حسن الوساطة وجميل الطريقة على ما عهد من أبيه بل زاد سراوة ومكارم وله في الخدم المرضية الأعمال التي لا تدانى والفعلات التي قصر عنها كثير من فضلاء الأوائل (أجزاه الله على أفضل معتاده وبلغه من رضى الله ورضى خليفته غاية مراده بمن الله وفضله) .

المصدر: ابن مرزوق, المسند الصحيح الحسن, ص371.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

1- المخطوطات

محمّد بن محمّد الصبّاغ, بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار, مخطوط رقم1708, الجزائر: المكتبة الوطنيّة.

2- المصادر

ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس,ط1, تونس:مطبعة الدّولة التّونسيّة, 1286.

ابن أبي زرع علي الفاسي (ت741هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس, الرباط: صور للطباعة والوراقة, 1972.

ابن الأثير عز الدين بن محمد (ت630هـ): الكامل في التّاريخ, ابن الأثير, تحقيق: عمر عبد السّلام تدمري, ط1, بيروت: دار الكتاب العربي, 1417هـ/1997م, ج: 2-7 - 4.

ابن الأحمر, أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي (807هـ/1405م):تاريخ الدّولة الزيانيّة بتلمسان, تحقيق: هاني سلامة, ط1, بور سعيد:مكتبة الثّقافة الدّينيّة للنّشر والتّوزيع, 2001.

ابن بسام علي الشنتريني (ت542هـ): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, تحقيق: إحسان عبّاس, ط1, ليبيا-تونس: الدار العربية للكتاب, 1979م, ج:8.

ابن بطوطة محمد بن عبد الله الطنجي (ت 779هـ): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"رحلة ابن بطوطة", الرباط: أكاديميّة المملكة المغربيّة, 1418هـ, ج:1.

ابن تغري يوسف(ت874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة, ط1, مصر: دار الكتاب, ج:4.

ابن حزم أبو محمد علي بن سعيد (ت456هـ): جمهرة أنساب العرب, تحقيق: مجموعة من العلماء, ط1, بيروت: دار الكتب العلميّة, 1403هـ- 1983م.

ابن حماد أبي عبد الله محمد بن علي (ت658هـ):أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم, تحقيق: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس, القاهرة: دار الصّحوة.

ابن حوقل محمد (ت بعد367هـ): صورة الأرض, بيروت: دار صادر, 1938م, 1.

ابن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمّد الشيباني (ت241هـ): مسند الإمام أحمد بن حنبل, تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون, ط1, مؤسسة الرسالة, 1421 هـ - 2001 م, 14.

ابن الخطيب محمد بن عبد الله (ت776هـ): تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمّد ابراهيم الكتاني, الدار البيضاء: دار الكتاب, 1964.

ابن خلدون أبو زكرياء يحي بن محمد الحضرمي الإشبيلي (ت870هـ/1378م):بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد, تحقيق: عبد الحميد حاجيات, الجزائر: المكتبة الوطنيّة, 1980م.

ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي(ت808هـ/1406م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر, تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار, ط2, بيروت:دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع, 2001م, ج 6: 1-2-7-4.

ابن خلكان أبو العباس أحمد بن محمد (ت681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان, تحقيق: إحسان عباس, بيروت: دار صادر, 1900م, ج:3.

ابن رشيد أبو عبد الله محمد بن عمر السبتي (ت 721-1321م): ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين وطيبة, تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة, تونس: الدار التونسية للنشر, 1982هـ.

ابن سعيد المغربي, 685هـ: بسط الأرض في الطول والعرض, تحقيق: خوان قرنيط خينيس, تطوان: معهد مولاي الحسن, 1958م.

ابن الشمّاع أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت بعد894هـ): الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدّولة الحفصيّة, تحقيق:الطّاهر بن محمّد المعموري, تونس:الدّار العربيّة للكتاب, 1984.

ابن صاحب الصلاة عبد الملك (ت 594هـ): المن بالإمامة, تحقيق: عبد الهادي تازي, ط3, بيروت: دار الغرب الاسلامي, 1987م.

ابن صعد محمد بن سعيد الأندلسي التلمساني(ت901هـ/1495م): روضة النّسرين في التّعريف بالأشياخ الأربعة المتأخّرين, تحقيق: يحيى بوعزيز, ط1, الجزائر:منشورات ANEP.

ابن عابد يوسف الفاسي المغربي (ت1048هـ): رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب إلى حضرموت, تحقيق: ابراهيم السامرائي وعبد الله محمّد الحبشي, ط1, بيروت: دار الغرب الاسلامي, 1993م.

ابن عذارى المرّاكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب, تحقيق: ج.س.كولان وليفي بروفنسال, بيروت:دار الثّقافة, 1983م, 1.

ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله (ت543هـ): مختصر ترتيب الرحلة للترغيب في الملّة, نشر وتحقيق: سعيد أعراب, ط1, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1987م.

ابن القطّان أبو محمد حسن بن علي المراكشي (منتصف القرن 7هـ): نظم الجمان لترتيب ما سلف من الزمان, تحقيق: محمود علي مكي, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1990م.

ابن قنفذ أحمد بن الحسن القسنطيني(ت810هـ/1408م) :

- الفارسية في مبادئ الدّولة الحفصيّة, تحقيق:محمّد الشّاذلي النّيفر وعبد المجيد التّركي, تونس:الدّار التونسيّة للنّشر, 1968.
- أنس الفقير وعزّ الحقير, نشره محمّد الفاسي وأدولف فور, الرّباط:منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي, 1965م.

ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل (ت774هـ): البداية والنهاية, تحقيق: علي شيري, ط1, مصر: دار إحياء الثرات العربي, 1408هـ-1988م, 11.

ابن مريم محمد بن محمد المليتي التلمساني(ق11هـ/17م): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان, الجزائر: المطبعة الوطنية للفنون المطبعية, 2009م.

ابن مرزوق أبو عبد الله محمد التلمساني الخطيب(ت781هـ/1379م): المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن, دراسة وتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا, الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع,1981م.

ابن منظور محمد بن مكرم الإفريقي (ت711هـ/1311م): تحقيق: اليازجي وآخرون, ط3, بيروت: دار صادر, 1414هـ, ج7-ج11.مج: 4-24

أبو حمو موسى الثاني (723هـ-791هـ/1321-1389م): واسطة السلوك في سياسة الملوك, تحقيق: محمود بوترعة, الجزائر: دار الشيماء للنشر والتوزيع, 2012م.

أبو زيد عبد الرحمن الجامعي: فتح مدينة وهران, ضمن "تاريخ تحرير وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي, من خلال مخطوطتين, تحقيق: مختار حساني, جامعة الجزائر, 2003م, ج :1 .

أبو المكارم عبد الباسط بن خليل: رحلة عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس (866-871هـ/1462-1467م), تحقيق: عمر عبد السّلام تدمري, مجلّة التّاريخ العربي, عدد17, شتاء2011.

الأزهري محمّد بن أحمد (370هـ): تهذيب اللغة, تحقيق: محمّد عوض مرعب, ط1, بيروت: دار إحياء التراث العربي, 2001م,

الإدريسي أبو عبد الله محمّد بن محمّد (ت 560هـ/1164م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق, تحقيق: مجموعة محققين, بور سعيد:مكتبة الثّقافة الدينيّة(د.ت), 2 -1.

الاصطخري ابراهيم بن محمد (**ت 346هـ**): المسالك والممالك, ط1, القاهرة: الهيئة العامّة لقصور القاهرة.
البادیسي عبد الحق بن إسماعيل (**بعد 722هـ**): المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التّعريف بصلحاء الريف, تحقيق: سعيد أعراب, ط2, الرباط: المطبعة الملكية, 1993م.
البخاري محمّد بن إسماعيل (**ت256هـ**): صحيح البخاري, تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر, ط1, دار طوق النجاة, 1422هـ, ج: 4- 7.
البغوي أبو محمد الحسي بن مسعود (**ت 516هـ**): شرح السنة, تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير شاويش, ط2, دمشق-بيروت: المكتب الإسلامي, 1983, ج 13.
البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي (**ت487هـ/1094م**): المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب, تحقيق: حما الله ولد سالم, ط1, بيروت: دار الكتب, العلمية, 2013م.
البرزلي أبو القاسم بن أحمد (**ت841هـ/1437م**): نوازل البرزلي"جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام", تحقيق: محمّد الحبيب هيلة, ط1, بيروت:دار الغرب الاسلامي, 2002م, ج:6.
البلوي أبو البقاء خالد بن عيسى (**بعد 767هـ**): التاج المفرق في تحلية علماء المشرق, تحقيق: الحسن السائح, المغرب –الإمارات: اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي, ج:1.
التسولي علي بن عبد السلام (**ت 1258**): أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد, تحقيق: عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح, ط1, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1996م.
التنسي محمّد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني (**ت899هـ/1493م**): تاريخ بني زيان ملوك تلمسان" نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان", تحقيق: محمود بوعياد, الجزائر: المؤسسة الوطنيّة للكتاب والمكتبة الوطنيّة الجزائريّة ,1985م.

التّمبكتي أحمد بابا السّوداني(ت 1036هـ/1626م): نيل الإبتهاج بتطريز الدّيباج, تحقيق بإشراف عبد الحميد عبد الله الهرامة,ط1, طرابلس:منشورات كليّة الدّعوة الإسلاميّة, 1989م.

التيجاني عبد الله بن محمّد: رحلة التيجاني, تقديم: حسن حسني عبد الوهاب, ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب, 1981م.

الجاحظ عمرو بن بحر (ت255هـ): الحيوان, بيروات: دار الكتب العلمية, ط2, 1424هـ, ج: 1.

حمدان خوجة 1842م: المرآة, ترجمة وتحقيق: محمّد العربي الزبيري, الجزائر:منشورات ANEP, 2005.

الحميري محمّد بن عبد المنعم (900هـ): الرّوض المعطار في خبر الأقطار, تحقيق: إحسان عبّاس, ط2, لبنان: مكتبة لبنان, 1984.

الداعي إدريس عماد الدّين (ت872هـ/1488م): تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب- القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار-, تحقيق: محمّد اليعلاوي, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1985م.

الدرعي أبو عبد الله محّد بن ناصر (ت 1085هـ):الأجوبة النّاصريّة في بعض مسائل البادية, تحقيق: أبو الفضل الدمياطي أحمد بن علي, الدّار البيضاء: دار ابن حزم, ط1, 1433-2012م.

الراشدي أحمد بن محمّد بن سحنون: الثغر الجمان في ابتسام الثغر الوهراني, تحقيق: المهدي بوعبدلي, قسنطينة: منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية, سنة 1973م.

الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهانى (ت502هـ), المفردات في غريب القرآن, تحقيق: صفوان عدنان الداوديدار القلم،ط1, دمشق-بيروت : الدار الشامية, 1412 هـ.

الزهري محمّد بن أبي بكر: كتاب الجغرافيا, تحقيق: محمّد حاج صادق, بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية.

الزّركشي, محمد بن إبراهيم (ق9هـ/15م): تاريخ الدّولتين الموحديّة والحفصيّة, تحقيق: محمّد ماضور, ط2, تونس:المكتبة العتيقة, 1966م.

الزرهوني: ملعبة الكفيف الزرهوني, تحقيق: محمّد بن شريفة, الرباط: المطبعة الملكية, 1957.

زروق أحمد بن أحمد البرنسي الفاسي (ت899هـ/1494م): كنّاشة زرّوق " فوائد من كنّاش العارف بالله الشّيخ أحمد زرّوق ", تحقيق: محمّد إدريس طيّب, ط1, بيروت:دار الكتب العلميّة, 2011م,.

زيد بن عبد الله الهاشمي (المتوفى: بعد 400هـ): الأمثال, ط1, دمشق: دار سعد الدين, 1423 هـ.

السكتاتي أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن (ت1062هـ): أجوبة البادية, تحقيق: يوسف أمال, بيروت: دار الكتب العلمية, ط1, 2015.

الشّقراني أحمد بن عبد الرّحمن الرّاشدي(ق13هـ/19م):, القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط, تحقيق وتقديم: ناصر الدّين سعيدوني, ط1, بيروت:دار الغرب الإسلامي,1991م.

الطبري محمد بن جرير (ت310هـ): تاريخ الرّسل والملوك, الطبري, ط2, بيروت: دار التراث, 1387هـ, 9-10.

العبدري محمّد بن محمّد (ت بعد 700هـ), رحلة العبدري, تحقيق: علي إبراهيم كردي, ط2, دمشق: دار سعد الدّين , 2005م.

العدواني محمّد بن محمّد: تاريخ العدواني, تحقيق: أبو القاسم سعد الله, ط1, بيروت:دار الغرب الإسلامي, 1996 م.

العزفي أبو العباس (ت557–633هـ): دعامة اليقين في زعامة المتقين"مناقب الشيخ أبي يعزى", تحقيق: أحمد التوفيق, الرباط: مكتبة خدمة الكتاب, 1989م.

العمري أحمد بن يحيى (ت794هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار, تحقيق: ابراهيم صالح, ط1, أبو ظبي: المجمع الثقافي, 1423هـ, ج: 4.

الفارابي أبو نصر إسماعيل, الصحاح تاج اللغة, تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار, ط4, بيروت: دار العلم للملايين, 1407هـ-1987م, ج:1-2-3.

الفاسي علي بن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدّولة المرينيّة, الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.

القرطبي أبو عبد الله محمد (**671هـ**): الجامع لأحكام القرآن, تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش, ط2, القاهرة: دار الكتب المصرية, 1384هـ-1964م, ج16.

القلصادي أبو الحسن علي القرشي البسطي(**ت891هـ/1486م**): رحلة القلصادي, تحقيق : أبو الأجفان, تونس: الشركة التونسية للتوزيع, 1978م.

مارمول كربخال (**ق10هـ/16م**): إفريقيا, ترجمة محمّد حجي وآخرون , منشورات الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر المغرب, الرّباط: مكتبة المعارف, 1984م, ج:2- 3

المازوني يحيى بن موسى: الدّرر المكنونة في نوازل مازونة, دراسة وتحقيق : قندوز ماحي, الجزائر: منشورات وزاربة الشؤون الدينيّة, ج:2.

مجهول: زهرة البستان في دولة بني زيان, ط1, الجزائر:عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع, 2011.

مجهول: تغريبة بني هلال الكبرى الشاميّة الأصليّة ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة وما جرى لهم من الحوادث والأهوال, نشر: حسين عاصي, بيروت: مكتبة الأندلس ومطبعتها.

مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار, ق6 بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986م.

مجموعة من كتاب الدولة الموحدية: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتّاب الدّولة المؤمنيّة, نشر وتحقيق: لافي بوفنسال, الرباط: المطلعة الاقتصادية, 1941.

المرّاكشي: **محي الدين عبد الواحد بن علي** (**ت647هـ**), المعجب في تلخيص أخبار المغرب, تحقيق محمّد سعيد العريان, الجمهوريّة العربيّة المتّحدة: المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة.

المزاري الأغا بن عودة: طلوع سعد السّعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا, تحقيق :يحي بوعزيز, ط1, بيروت:دار الغرب الإسلامي, 1990, ج 1.

المسعودي الباجي أبو عبد الله, الخلاصة النقيّة في أمراء إفريقية, ط2, تونس, 1323 هـ.
مسلم بن الحجّاج (**ت261هـ**), صحيح مسلم, تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي, بيروت:دار إحياء التّراث, 1874/3, باب : الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن, رقم1: 1850.
المشرفي عبد القادر: بهجة النّاظر في أخبار الدّاخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر, تحقيق: محمّد بن عبد الكريم.
المقري أبو العباس أحمد القرشي التلمساني(**ت1041هـ/1631م**):نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب, تحقيق إحسان عبّاس, بيروت:دار صادر,1408 - 1988م, 4.
المقريزي تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر البعلبكي (**ت845هـ/1442م**):
- إغاثة الأمّة بكشف الغمّة, تحقيق: كرم حلمي فرحات, ط1, مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية, 1427هـ-2007م.
- إتعاض الحنفاء بأخبار الأئمّة الفاطميين الخلفاء, تحقيق: جمال الدين الشيّال ج1 ومحمّد حلمي محمّد أحمد ج: 2 - 3, ط1, القاهرة: لجنة إحياء الثراث الإسلامي, ج:2.

النّاصري, أبو راس المعسكري(**ت1238هـ/1823م**):
- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار, دراسة وتحقيق: محمّد بوركبة, رسالة دكتوراه, وهران: كليّة العلوم الإنسانيّة والحضارة الإسلاميّة, 2007-2008م, 1.
- الحلل السندسيّة في شأن وهران والجزيرة الأندلسيّة, تحقيق سليمة بنعمر, ط1, ليبيا:دار صنين للطّباعة والنّشر, 1370هـ-2002م.

الناصري أبو العبّاس أحمد بن خالد (**ت1315هـ**): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى, تحقيق وتعليق: أحمد النّاصري وجعفر النّاصري, الدّار البيضاء: دار الكتاب, 1954م, ج 4 .
النميري ابن الحاج (**بعد 774هـ**): فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب, تحقيق: محمّد بن شقرون, ط1, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1990م.

النّويري أحمد بن عبد الوهاب بن محمد(**ت733هـ/1333م**): نهاية الأرب في فنون الأدب, ط1, القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية,ج:2. 24
الواقدي محمد بن عمر (**المتوفى: 207هـ**): المغازي, تحقيق: مارسدن جونس, ط3, بيروت: دار الأعلمي, 1989/1409, ج:3.
الوزان الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي(**توفي بعد 957هـ/1559م**): وصف إفريقيا, ترجمة محمّد حجي ومحمّد الأخضر, ط2, منشورات الجمعيّة المغربييّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر , بيروت: دار الغرب الاسلامي, 1983م, ج:2.
الونشريسي أحمد بن يحيى التلمساني(**ت914هـ/1508م**): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب, طبع بإشراف محمّد حجي, بيروت:دار الغرب الإسلامي, 1981م, 7
يحيى بن موسى المازوني(**ت883هـ/1479م**): الدّرر المكنونة في نوازل مازونة, تحقيق: حساني مختار, جامعة الجزائر:مخبر المخطوطات, 2004, ج: 1-3.
اليعقوبي أحمد بن اسحاق (**بعد 292هـ**): البلدان, ط1, بيروت: دار الكتب العلميّة, 1422هـ.

3- المراجع العربية

إبرهيم حركات: المغرب عبر التاريخ, الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة, 2000م, 2.

إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين" المجتمع-الذهنيّات – الأولياء," ط1, بيروت:دار الطّليعة للطّباعة والنّشر, 1993.

إبراهيم محمّد الساسي العوامر: الصّروف في تاريخ الصّحراء وسوف, تعليق: الجيلاني بن ابراهيم العوامر, الجزائر: منشورات ثالة, 2007.

أحمد بك: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب, ليبيا: مكتبة الفرجاني

أحمد توفيق المدني:

- هذه هي الجزائر, القاهرة: مكتبة النهضة المصرية, 2001.
- جغرافية القطر الجزائري, الجزائر: المطبعة العربية, 1948.
- كتاب الجزائر, الجزائر: المطبعة العربية, ص202.
- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792 م, الجزائر: الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع.

أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان, تونس:الدّار العربيّة للكتاب, 1999, 1.

أحمد شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي, شوقي ضيف, ط1, القاهرة: دار المعارف, 1995م.

ألفرد بل: الفرق الإسلاميّة في الشّمال الإفريقي من الفتح العربي حتّى اليوم, ترجمة: عبد الرّحمن بدوي. ط3, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1987.

بلهاشمي بن بكارة: مجموع النّسب والحسب والفضائل والتّاريخ والأدب, تلمسان:مطبعة ابن خلدون,1961م, صص347-348.

بنسالم وآخرون: الأنثروبولوجية والتاريخ حالة المغرب العربي, ترجمة عبد الأحمد السبتي وعبد اللطيف الفلق, ط2, الدار البيضاء: توبقال, 2007م.

بوبة مجاني: دراسات إسماعيليّة, قسنطينة: مطبوعات جامعة منتوري, 2002-2003م.

بوزياني الدراجي:

- نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية, الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية, 1993م.
- بوزياني الدراجي, ملامح تاريخية للمجتمعات المغاربية, الجزائر: دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع, 2010م.

جان مينو: مدخل إلى علم التربية, ترجمة: جورج يونس, ط3, بيروت: منشورات عويدات, 1982.

جرمون عياش: دراسات في تاريخ المغرب, ط1, الرباط: الشركة المغربية للناشرين المتحدين, 1986.

جمال الدّين الشيّال: مجموعة الوثائق الفاطميّة –وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة, ط1, القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية, 2001م.

جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام, ط4, بيروت: دار السّاقي, 1422-2001, ج:1.

جون.ب.وولف:الجزائر وأوربا 1500-1830م, ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله, ط1 , الجزائر: عالم المعرفة, 2009م.

خير الدّين الزّركلي: الأعلام, بيروت:دار العلم للملايين, ط15, ماي 2002, ج: 8 .

روبار برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي, ترجمة: حمّادي السّاحلي, ط1, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1988م, ج: 1-2.

راضي دغفوس: دراسات عن بني هلال والهجرة الهلاليّة, منوبة: مركز النشر الجامعي, 2015.

رحال بوبريك وعبد الله هرهار: الديناميات الاجتماعيّة وأفق البحث بالصّحراء, الرّباط: مركز الدّراسات الصّحراوية, 2016.

رشيد بورويبة: الدّولة الحمادية تاريخها وحضارتها, الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية, 1977م.

رشيد بورويبة وآخرون: الجزائر في التّاريخ– العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية الحكم العثماني-, الجزائر:المؤسّسة الوطنيّة للكتاب,1984م.

روزلين ليلى قريش: استراتيجية القتال في سيرة بني هلال, -نصوص مختارة مع شرح دراسة وتعليق, الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائر, 2009م.

سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي, الاسكندرية: دار المعارف, 1990, ج:3

سوانيك: الدّيوان المعرب في أقوال عرب افريقية والمغرب, librairie Orientale Et Américaine: Paris , 1902.

شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشّمالية, تعريب: محمّد مزّالي والبشير بن سلامة, ط2, تونس: الدّار التّونسيّة للنّشر, 1983م.

صالح بن قربة: المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد, أطروحة دكتوراه, جامعة الجزائر, السنة الجامعية: 1982-1983م

الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7 الهجريين /12-13 الميلاديين, عين مليلة: دار الهدى, الجزائر, 2004م.

عبد الأحد السبتي –عبد الرحيم بنحادة: من إيناون إلى استانبول, الرباط: المطبعة الأمنية, ط1, 2012م.

عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري, القاهرة: شركة سوزار, 2002.

عبد الحميد بوسماحة: رحلة بني هلال وخصائصها التاريخيّة والاجتماعيّة, الجزائر: دار السيل للنشر والتوزيع, 2008م, 1.

عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الزياني "حياته وآثاره", الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, 1974م.

عبد الحميد خالدي:

التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية ومليانة, الجزائر: دار هومة, 2003.

الوجود هلالي السليمي في الجزائر, الجزائر: دار هومة, 2012.

عبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي, موقع Kotobarabia.com . www.

عبد الرحيم بن سلامة: المملكة المغربية (تعريف بالمدن والقرى والقبائل والأسير والجهات), الرباط: منشورات دار الإيمان, 2011م.

عبد العزيز الدوري: أوراق في التاريخ والحضارة-أوراق في التاريخ العربي الاسلامي, مركز دراسات الوحدة العربية, ط2, بيروت: دار الغرب الاسلامي, 2009.

عبد العزيز فيلالي: مدينة قسنطينة في العصر الوسيط, دراسة سياسيّة عمرانيّة ثقافيّة, قسنطينة:طبع دار البعث.

عبد الله الغذامي: القبيلة والقبائليّة أو الهويّات ما بعد الحداثة, الدّار البيضاء: المركز الثّقافي العربي, ط1, 2009.

عبد القادر فكاير: الغزو الإسباني للسّواحل الجزائريّة وآثاره(910-1206هـ/1505-1792م), الجزائر:دار هومة, 2012م.

عبد الكريم غلاب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي, دار الغرب الإسلامي, 1996, ط1, بيروت, 1.

عبد المنعم القاسمي: أعلام التصوّف في الجزائر, ط1, الميسلة- الجزائر-:دار الخليل القاسمي,1427 هـ.

عبد الوهاب منصور: قبائل المغرب, الرباط: المطبعة الملكيّة, 1968م, ج: 1.

عزّ الدين عمر أحمد موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي, ط1, بيروت: دار الشروق, 1983م.

علاوة عمارة: (الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الاسلامي), مطبوع ضمن: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي, الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية, 2008.

علي أومليل: الخطاب التاريخي"دراسة لمنهجية ابن خلدون", ط4, الدار اليضاء: المركز الثقافي العربي, 2005م.

علي خنوف: تاريخ منطقة جيجل قديما وحديثا, ط1, الجزائر: منشورات الأنيس, 2007م.

علي سعد الله: نظرية الدولة في الفكر الخلدوني, ط1, عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع, 2003.

عمر بنميرة: النوازل والمجتمع-مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط-, الرباط: المطبعة الأمينية, ط1, 2012.

عمر سعيدان: علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرّابع عشر, ط1, سوسة: منشورات سعيدان, 2002م.

غابرييل كامب: البربر ذاكرة وهوية, ترجمة: عبد الرحيم حزل, الدار البييضاء: أفريقيا الشرق, 2014م.

كمال السيّد أبو مصطفى: جوانب من الحياة الإجتماعية والاقتصاديّة والدينيّة والعلميّة في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرّب للونشريسي, الاسكندريّة: مركز الاسكندريّة للكتاب, 1992م.

لوسيت فالنسي: المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830م, ترجمة: إلياس مرقص, ط3, بيروت: دار الحقيقة للطباعة والنشر, 1998م.

مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث, الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب, 1406هـ-1986م, ج 2.

مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين, الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية, 1982.

محمّد أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السّلف, دراسة وتحقيق خير الدّين شترة, ط1, الجزائر:دار كردادة للنّشر والتّوزيع,ط1, 2012, ج: 2.

محمد بن حسن: القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط, ط1, تونس: دار الرياح الأربع للنشر, 1986م.

محمّد رضا مروة: الصعاليك في العصر الجاهلي-أخبارهم وأشعارهم,ط1, بيروت:دار الكتب العلمية, 1990م.

محمد زروق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17هـ, ط3, الدار البيضاء: أفريقيا الشرق, 1998م

محمّد حسن: المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي, ط1 ,تونس:جامعة تونس, 1999, ج:1.

محمّد سهيل طقّوش: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام, ط2, بيروت: دار النفائس, 2007.

محمّد الطمّار: المغرب الأوسط في ظل صنهاجة, الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة, 2010.

محمّد فاروق النبهان: الفكر الخلدوني من خلال المقدمة, ط1, بيروت: مؤسسة الرسالة, 1998م.

محمّد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبيّة والدّولة, ط6, بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية, 1994م.

محمّد العروسي المطوي:

- الحروب الصّليبيّة في المشرق والمغرب, ط2, لبنان:دار الغرب الإسلامي, م1982.
- محمّد العروسي المطوي, السّلطنة الحفصيّة تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1986م.

محمّد المنوني: من حديث الركب المغربي, تطوان: مطبعة المخزن, 1953م.

محمّد نجيب بوطالب: سوسيولوجية القبيلة في المغرب العربي, ط1, بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية, 2002م.

محمّد الهادي الشّريف: ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس, تعريب:محمّد الشاوش- محمّد عجينة, ط3, تونس:دار سرّاس للنّشر, 1993م.

محمود بو عياد: جوانب من الحياة في المغرب الأوسط, في القرن التّاسع الهجري(9هـ/15م), الجزائر:الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع, 1982م.

محمود عبد الرحمن الريطي: دور القبائل العربية في صعيد مصر منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية, ط1, القاهرة: مكتبة مدبولي.

محمود شكري الألوسي: تاريخ نجد, تحقيق: محمد بهجة الأثري, ط3, 1415هـ.

مختار حساني تاريخ الدّولة الزيانيّة: منشورات الحضارة, الجزائر:بئر توتة, 2009م, ج: 1- 2.

مختار حساني وآخرون: التّاريخ العسكري للجزائر من الفتح الإسلامي إلى القرن 16, الجزائر:منشورات المركز الوطني للدّراسات والبحث في الحركة الوطنيّة وثورة أوّل نوفمبر 1954, طبعة خاصّة بوزارة المجاهدين ,2007.

المختار الهرّاس:

- القبيلة والسّلطة, تطوّر البنيات الاجتماعيّة في شمال المغرب, مطبعة الرّسالة, الرّباط.
- القبيلة والدّورة: قراءة في التحليل الخلدوني للمجتمع القروي المغاربي, ضمن الفكر الاجتماعي الخلدوني, ط1, بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية, 2004.

موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري, الجزائر: الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع, 1979م.

ميشال فوكو: المعرفة والسلطة, ترجمة: عبد العزيز العيادي, ط1, بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع, 1994.

الهادي روجي إدريس: الدّولة الصنهاجية –تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م, ترجمة: حمّادي الساحلي, ط1, بيروت: دار الغرب الإسلامي, 1992م, 1.

هاشم العلوي القاسمي: مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي, المغرب: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية, 1415هـ-1995م, 2.

وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر, تعريب عبد القادر زباديّة, ط1, الجزائر:المكتبة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع, 1980.

4- المراجع باللغة الأجنبية

– Mercier ,Histoire de l'Afrique septentrionale(berèrie)depuis les temps les plus reculés jusqu'a la conquête Française ,paris: Ernest Leroux èditeur, 1868,T2.

– Augustin Bernard, l'algerie, félise alcon, paris,1929 .

-Bernar fredon, Histoire de l'algerie, colonisation, geographie, administration, alger, adolphe; 1906.

-Emile filix gqutier, L'islamation du Maghreb du nord-les siecles obscurs du Maghreb, 1942, paris, payot .

-Ernest Leroux , le kalaa des beni –hammad:une capitale berbére de l'afrique du nord au XI siecle, paris, ernestr leroux, 1909.

-Rouger Le Tourneau , north africa in historical Perspective » Dans current Problems In North Africa, Princeton University Conference, 1959.

- Ruff Paul, La Domination Espagnole A Oran Sous Le Gouvernement Du Compte d'alcaudete(1543-1558) , Leroux, Paris, 1900.

-George Marcais :

- la berbérie Musulmane et l'orient au moyen àge, paris, aulier, 1928.
- les arabes en berberie du XI au XIV , constantine, braham, 1913.
- Jacques Berque Jacques Berque, L'Intérieur Du Maghreb–XV-XIX siécle, paris: Gallimard, 1978
- jacques Thiry, l'égypte et le déclin de l'afrique du nord XI-XII siecle ; egypte and syria in the fatimid and ayyubid and mamlouk earas, leuven, Vitgeveriji peetens, 1998 .

- J.-J.-L. Bargès, Complément de l'histoire des Beni-Zeiyan, rois deTlemcen : ouvrage du cheikh Mohammed Abd'al-Djalil al-Tenessy, paris: Ernest leroux , Libraire-éditeur, 1887 .

5- الرسائل والأطروحات

بوداود عبيد, ظاهرة التصوّف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السّابع والتّاسع الهجريين, 13-15م, ماجستير,جامعة وهران:كليّة العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية, السّنة الجامعيّة, 1999-2000م.

بوخالفة عزي, تغريبة بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الهلالية الجزائرية, دكتوراه دولة, جماعة الجزائر: كلية الآداب واللغات, قسم اللغة العربية وآدابها, 2002-2003.

دغموش كاميلية, قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني والسّلطة العثمانية (1509-1792م), جامعة وهران: قسم التاريخ وعلم الآثار, 2013-2014م.

حيزية حيتامة, حيزية حيتامة, رثاء القيروان بين ابن رشيق وابن شرف-دراسة موازنة, ماستر, جامعة بسكرة: كلية الآداب واللغات, 2014-2015م.

شرقي نوارة, الحياة الاجتماعية في الغرب الاسلامي في عهد الموحدين, رسالة ماجستير, جامعة الجزائر: قسم التّاريخ, 2007-2008.

فريدة بورنان, دور القبائل العربية في الجيش الموحدي بالأندلس(555هـ/1160م-580هـ/1184م), رسالة ماجستير, جامعة الجزائر: قسم التاريخ.

قموح فريدة, الدرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي زكريا يحيى بن موسى بن عيسى المازوني (ت883هـ/1478م)-دراسة وتحقيق لمسائل الجهاد والأيمان والنذور, ماجستير, جامعة منتوري قسنطينة: تخصص في التاريخ الوسيط, 2010-2011م.

كريم بوترعة, المغرب الأوسط الاسلامي في الكتابات التاريخية الفرنسية 1830-1930, ماجستير, 2009-2010, قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر, قسم التاريخ.

عبد الحيمد بوسماحة, المسير في تغريبة بني هلال بين الواقع والخيال, أطروحة دكتوراه, جامعة الجزائر: كلية الآداب واللغات, 2004-2005م.

لطرش حنان, السّلطة والمجتمع في الجزائر أواخر العهد العثماني, رسالة ماجستير, قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر, 2005-2006.

محمّد الطاهر بن دومة , أخبار وأيام وادي ريغ, تحقيق: محمّد الحاكم بن عون, رسالة ماجستير, جامعة مكنتوري قسنطينة, قسم التاريخ واللآثار, 2010-2011هـ.

مزدور سمية, المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط, 588-927هـ/1192-1520م , ماجستير, جامعة منتوري, قسنطينة, 2008-2009 م.

نادية بن أحمد, تنظيم السّلطة السياسية في الجزائر منذ 1989, رسالة ماجستير, تلمسان: جامعة أبو بكر بلقايد, قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية, السنة :2012-2013.

6- المقالات

عبدالقادر بوباية: الشّيخ محمّد بن عمر الهواري من خلال كتاب روضة النّسرين لابن صعد التّلمساني, جامعة وهران: مجلّة الحضارة الإسلامية, عدد14, شعبان ,2010/1431م.

محمّد بن معمّر: صورة المغرب الأوسط من خلال رحلة ابن خلدون, مجلة الحضارة الإسلامية, جامعة وهران: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتّوزيع, ع:15, شعبان 2011م.

المهدي بوعبدلي: أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التّركي من خلال مخطوط الثّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني, الأصالة, عدد 8, سنة 2, ماي-جوان, 1972.

علاوة عمارة: الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب, مجلة الآداب والعلوم الانسانية, عدد10, جانفي 2009.

الطّاهر بونابي: ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفيّة بالمغرب الأوسط خلال القرن 8هـ/14م , قسنطينة: مجلّة الآداب والعلوم الانسانيّة, جامعة الأمير عبد القادر, عدد12, 2011.

الطّاهر قدوري: الطرق التجارية الصحراويةوامتداداتها في البحر المتوسط-في العصر الوسيط- , جامعة غرداية: مجلة الواحات للبحوث والدراسات, عدد 15, 2011 م.

خالد بلعربي:

- تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط, جامعة غرداية: مجلّة الواحات للبحوث والدراسات, العدد 15, السنة 2011.
- الصّراع العسكري الزياني المريني- أسبابه ونتائجه- مجلّة الحضارة الإسلامية, جامعة وهران:دار الغرب للنّشر والتّوزيع,ع14, شعبان ,2010/1431,.

مولاي بلحميسي: نهاية دولة بني زيان, الأصالة, عدد26, السنة الرّابعة, 1975, جويلية – أوت, عدد خاص عن تاريخ تلمسان وحاضرتها.

بلهواري فاطمة: الجناية في مجتمع الغرب الاسلامي من خلال كتب النوازل, مجلة الحضارة الاسلامية, عدد15, صص151-231.

محمّد الصالح رمضان: من فصيح العربية في العامية الجزائرية, مجلة الأصالة, عدد 23, صص114-119.

– C.Fèraud:Conquète de Bougie par les Espagnols, R.A , N°12 , 1868 ,OPU , Alger ,1986.

– FLOREAN PHARAON : Notice sur Les tribus de la subdivision de médéa, R.A, V2 ; 1857, PP:47-54. P47

– Mercier: Les Arabes D'afrique Jugés Par Les Auteurs Musulmans, R.A , V17, 1873.

فهرس الموضوعات